

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

مدينة مالقة

منذ عصر الطوائف حتى سقوطها

(دراسة سياسية اقتصادية)

٤٢٢ / ٨٩٢هـ

إعداد

خالد بن عبدالله الشريف

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

١٦

رسائل جامعية

ردمك: ٩-٨٦-٨٩٠-٩٩٦٠-٩٧٨

مدينة مالقة

منذ عصر الطوائف حتى سقوطها

(دراسة سياسية اقتصادية)

٤٢٢ / ٨٩٢هـ

إعداد

خالد بن عبد الله الشريف

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

ح) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، خالد بن عبدالله

مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها/ خالد بن عبدالله الشريف.- الرياض، ١٤٢٩هـ

٥٠٥ ص؛ ١٧ × ٢٤سم

ردمك: ٩-٨٦-٨٩٠-٩٩٦٠-٩٧٨

١- مالقا (الأندلس) - عصر ملوك الطوائف

٢- الحضارة الإسلامية - الأندلس أ. العنوان

ديوي: ٩٥٢,٠٧١٢ ١٤٢٩/١٦٩

الإيداع: ١٤٢٩/١٦٩

ردمك: ٩-٨٦-٨٩٠-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

أصل هذا الكتاب رسالة مقدَّمة إلى جامعة أم القرى لنيل درجة الماجستير

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

ص . ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أقدم بحثي المتواضع هدية لكل طالب علم يهمه تاريخ أمته المسلمة وحضارتها...

كما أهديه لوالديّ أحسن الله إليهما

وزوجتي التي صبرت من أجل ذلك كثيراً...

وقفة

يقول ربي الرحيم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

أسأل الله الكريم، رب العرش العظيم، أن يتغمد والدي بواسع رحمته في قبره تحت التراب ويسْكنه فسيح جناته مع الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً ...

وأن يكتب عملي هذا عملاً صالحاً مقبولاً في ميزان حسناته يجده في صحيفته يوم يُخْرج له كتابه فيلقاه منشوراً...

الرموز والمختصرات

ط	طبعة
ق	قسم
جـ	جزء
مج	مجلد
هـ	هجري
م	ميلادي
ص	صفحة
س. ف	سفر
ع	عصر
دَ	دقيقة
د	درجة
س	سنة
عَ	عدد

المحتويات

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً. اللهم صلِّ وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد..

فإن الكتابة في تاريخ المدن الإسلامية من المناهج التاريخية التي لقيت عناية الكثير من الباحثين والدارسين، وليست لوناً جديداً في الكتابة التاريخية، بل سلك هذا المنهج قدماء المؤرخين المسلمين، فصنفوا في ذلك الكثير؛ أمثال ما أُلِّف عن مكة المكرمة ككتابي (الأزرقي) و(الفاكهي)، وما أُلِّف عن غرناطة بيد ابن الخطيب؛ مثل: (الإحاطة في أخبار غرناطة) وغيرها من المدن الإسلامية كبغداد ودمشق والمدينة النبوية. وقد كان للباحثين المحدَثين نشاط علمي في هذا الجانب، فكتبوا عن كثير من مدن المشرق والمغرب الإسلامي، مما يدلّل على أهمية دراسة تاريخ المدن دراسة متخصصة مستقلة.

ولميولي ورغبتي بالتخصص في تاريخ بلاد الأندلس، الذي قادني نحوه بالتشجيع اللازم منذ مرحلة البكالوريوس أستاذي الدكتور سعد بن عبدالله البشري، عنّ لي أن أتناول بالبحث والدراسة مدينة مهمة من مدن الأندلس، نالت اهتمام المؤرخين والجغرافيين والرحالة وغيرهم، فكتبوا عنها. وهذه المدينة هي مدينة (مالقة) الواقعة على شاطئ الجنوب الشرقي من بلاد الأندلس، ذلك الموقع المهم الذي أكسبها أهمية سياسية وحضارية دفعت بالباحث لمحاولة الكشف عن تاريخها وحضارتها الإسلامية؛ إذ كانت قبل الإسلام من أهم مدن الشعوب اليونانية والفينيقية والرومية وغيرهم.

وفي العصر الإسلامي كان لمالقة أثر تاريخي وحضاري كبير في زمن الدول الإسلامية التي حكمت بلاد الأندلس، ذلك الأثر الذي امتد على العالم القديم، على الرغم من تفاوت قدر المساهمة في صنع الأحداث بين مدة وأخرى، فقد كانت مالقة ذات أثر ثانوي في أيام دولة بني أمية. وبعد انفراط عقد دولتهم في القرن الخامس الهجري، وقيام دويلات ملوك الطوائف، تربعت على عرش الملك عندما اتخذها بنو حمود العلويون عاصمة لهم، وورثها من بعدهم بنو زيري حكام غرناطة. وبنهاية حكم الطوائف أضحت مالقة أولى المدن التي خضعت لحكم المرابطين، وظلت على ذلك حتى دخلت في طاعة الموحدين إلى ما بعد أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجري، حيث انتزعها منهم ابن هود الجذامي، وكانت مدة حكمه قصيرة، سرعان ما جنحت فيها مالقة لحكام بني نصر، الذين اتخذوها عاصمة ثانية لهم بعد غرناطة لمدة تزيد على قرنين ونصف من الزمان.

وإلى جانب هذا التاريخ السياسي العظيم، فإن مدينة مالقة ضربت بسهم وافر في ميدان الحضارة الإسلامية، امتد تأثيره على شتى حقول النشاط الإنساني الذي لا تزال بعض آثاره ماثلة للعيان، كما كانت بالأمس البعيد شاهدة على أمجاد المدينة وحضارتها.

ولهذا قام بعض الباحثين المحدَثين بدراسة أجزاء من تاريخ مالقة الإسلامية وحضارتها، منهم كمال السيد في كتابه (مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية)، ورجب محمد عبدالحليم (دولة بني حمود في مالقة). وكلتا الدراستين اقتصرت على قرن واحد. أما دراسة الباحث جيلين روبلس (مالقة الإسلامية)، فقد عالجت البحث بمنظور غير إسلامي، استمدت معاييرها من التجربة الغربيةالجامدة.

ومن هنا - لمست بعد القراءة الواسعة - حاجة مالقة للبحث والدراسة، خاصة، وأن كثيراً من الباحثين المتخصصين في تاريخ الأندلس تجاهلوا

تاريخها وحضارتها فقررت في بادئ الأمر - بعد استشارة أستاذي المشرف - أن يكون عنوان بحثي «مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها دراسة سياسية حضارية»، ولكن تجلى لي - بعد جمع المادة العلمية التي استهلكت من وقتي الكثير - غزارة المعلومات واتساع الموضوع، فغيرت عنوان بحثي بعد موافقة الأستاذ المشرف وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية وأصبح العنوان «مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها ٤٢٢هـ - ٨٩٢هـ دراسة سياسية اقتصادية».

والحقيقة أن الباحث طوال حقبة البحث لم يسلم من بعض الصعوبات التي واجهته؛ ومنها:

(١) تناثر المعلومات في بطون المصادر والمراجع والمقالات... إلخ.

(٢) عدم توفر بعض الكتب المتعلقة بالبحث، مما دفعنا للسفر من أجلها.

(٣) عدم إلمام الباحث باللغة الأسبانية، دفعه إلى البحث عن ترجمة ما يحتاج إليه، وتمكن من ذلك رغم قلة وجود المترجمين المتخصصين.

(٤) سكوت المصادر والمراجع عن بعض تاريخ مالقة وحضارتها، وأيضاً الشك وتضارب الأنباء حول بعض الأحداث والمظاهر والحالات تطلّب من الباحث - تلمساً للحقيقة وإزالة للغموض - التفسير والتحليل والنقد والفحص العميق والربط اللغوي اللازم، لكي يخرج البحث في صورة سليمة متكاملة.

وتضمنت خطة البحث بابين رئيسين، قدّم لها الباحث بمقدمة شاملة مختصرة:

الباب الأول (التاريخ السياسي): وتكون من فصلين سبقهما تمهيد احتوى على دراسة:

أ - الموقع الجغرافي، وما يتصل به من نشأة المدينة وسبب تسميتها وحدودها وتضاريسها ومناخها ومساحتها.

ب - مالقة منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر الخلافة الأموية (٩٢ - ٤٢٢هـ) وتناول هذا الجزء فتح مالقة والآراء حوله، وتوطئة سريعة لها في عهد الولاة والأمراء من بني أمية وأثرها في فتنة ابن حفصون، وسقوط الخلافة الأموية في القرن الخامس الهجري.

الفصل الأول: (مالقة منذ عصر الطوائف حتى نهاية دولة الموحدين فيها) (٤٢٢-٦٢٦هـ).

١- مالقة في عصر الطوائف (٤٢٢-٤٨٣هـ):

تحدث هذا المبحث عن مالقة تحت حكم بني حمود وصراعهم حول العرش، وصراعهم ضد العباديين العرب في أشبيلية حتى قضى على دولتهم، وضم عاصمتهم (مالقة) في عام (٤٤٩هـ) حاكم غرناطة باديس بن حبوس الذي أعقبه على حكمها ابنه بلقين في المرة الأولى، وحفيده تميم في المرة الثانية.

٢- مالقة في عصر المرابطين (٤٨٣-٥٤١هـ):

في هذا المبحث تحدثت عن الفتن والثورات التي تعرضت لها مالقة تحت حكم ولاة المرابطين كالحملة النصرانية البشعة التي قادها ملك أرغون وانعكست آثارها إيجاباً على المدينة، وفتنة ابن حسون الذي انتزع مالقة من المرابطين في أواخر أيامهم وظل يحكمها عدة سنوات.

٣- مالقة في عصر الموحدين (٥٤١-٦٢٦هـ):

تناول البحث في هذا العصر مدينة مالقة تحت حكم عدد من ولاة سلالة الموحدين - أولهم عثمان بن عبدالمؤمن الموحدي وآخرهم إدريس بن يعقوب المأمون - الذين اهتموا بمالقة، فصعدت في عصرهم أرقى درجات السلم الحضاري، كما خضعت مالقة بعد نهاية حكمهم لحكم ابن هود القصير.

الفصل الثاني: (مالقة في عصر بني الأحمر) (٦٣٥-٨٩٢هـ). ويشتمل على ما يلي:

١- قيام دولة بني الأحمر:

تطرق البحث في هذا القسم إلى كيفية قيام هذه الدولة على يد مؤسسها محمد بن يوسف النصري، والحروب والفتن التي تعرض لها مع خصومه، وبالذات ابن هود، ومشاركة أصهاره الإشقيليين معه في ذلك، حتى استوى له الملك في المنطقة الواقعة خلف نهر الوادي الكبير جنوباً. كما تناول الباحث في هذا القسم أصل أسرة بني نصر، وجغرافية غرناطة وتاريخها، وخضوعها هي ومالقة والمرية لمؤسس تلك الأسرة.

٢- مالقة في ظل بني الأحمر:

تناول هذا المبحث رؤساء أسرة بني إشقيلولة حكام مالقة، وحقيقة الصراع بينهم وبين أقربائهم النصريين، ونتائج ذلك الصراع، وذكرٌ لسلاطين بني نصر الذين تولوا مدينة مالقة، وما حصل في أيامهم؛ ومنهم السلطان أبو سعيد فرج وابنه إسماعيل، وأثر هذه المدينة الحضاري والجهادي في بناء الدولة ومحاربة أعداء المسلمين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

٣- أثر مالقة في التصدي للحملات الأسبانية حتى سقوطها (٨٩٢هـ):

تحدثنا في هذا المجال عن قصة سقوط مالقة، وسيرتها الحربية في السنوات الأخيرة من الحكم الإسلامي، بدءاً بأسباب غزو النصارى لها، ومعركة الشرقية ونتائجها، ومروراً باحتلال النصارى لمنطقة غرب مالقة وشرقها، ثم انتقلنا للحديث عن حصار النصارى لهذه المدينة والمقاومة الإسلامية ضدهم حتى السقوط النهائي الكبير ونتائج ذلك السقوط.

الباب الثاني (التاريخ الاقتصادي): وشمل ثلاثة فصول:

الفصل الأول (الزراعة):

أفردت في هذا الفصل الحديث عن أهمية الزراعة وفلاحة مالقة وغراستها، ومقومات زراعتها، والعوامل المؤثرة فيها، ونظام الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى أهم محاصيلها والثروة الحيوانية والغابية والرعوية فيها.

الفصل الثاني (الصناعة):

شمل هذا الفصل تعريفاً للصناعة وأهميتها، ثم انتقل للحديث عن مقوماتها في مالقة والعوامل المؤثرة فيها، إلى جانب الصناعات القائمة على الإنتاج الزراعي والحيواني، وهي صناعة المنسوجات والورق والبُسط والحُصر والطيب والجلود، والصناعات الخشبية، وصناعة الأطعمة والأشربة والعقاقير والأدوية، كما تطرق هذا الفصل إلى الثروة المعدنية في مالقة والصناعات القائمة عليها، كصناعة الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والكحل وغيرها والأحجار الكريمة ومواد البناء وصناعة الفخار والخزف، وأخيراً التنظيمات الصناعية في مالقة.

الفصل الثالث (التجارة):

تناول البحث في هذا الفصل عرضاً لتجارة مالقة في عصور الدول المختلفة ومقوماتها، وعوامل ازدهارها وضعفها، فضلاً عن الأسواق والفنادق والأسعار ومستوى المعيشة في مالقة، كما خُصص جزء من هذا الفصل للحديث عن الصادرات والواردات، وطرق المواصلات التجارية، والعلاقات التجارية الخارجية بين مالقة وبلدان البحر المتوسط، والنظام المالي والنقدي، وأهم النظم المتعلقة بالتجارة في هذه المدينة.

الخاتمة:

أما خاتمة الرسالة، فقد ضمت أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي، وكشفت عن أهمية مالقة السياسية والاقتصادية في عصرها الإسلامي. وإتماماً للفائدة فقد ذيَّلت الرسالة بملاحق اشتملت على بعض الخرائط والصور والأشكال التي توضح وتدعم بعض ما ذكرناه في المتن.

ولا يسعني قبل اطراح القلم إلا أن أتوجه بعظيم الشكر وجزيل الامتنان لأستاذي الفاضل سعادة الأستاذ الدكتور سعد بن عبدالله البشري، الذي أولاني طوال مراحل البحث عطفه وتشجيعه ورعايته، وحسن إشرافه الدقيق،

وإرشاده لي بالآراء العلمية القيمة، والملحوظات الهادفة، وشرحه للنصوص الغامضة، وإمدادي بكتبه الخاصة؛ مما كان له عظيم الأثر في تذليل الصعوبات التي واجهتني، وتقويم معوج بحثي وإثرائه، فلن أنسى له ذلك، وسوف أظل أذكره بالخير ما دمت حياً.

والحقيقة: إن ما جاء في هذا البحث من تقصير، فإليَّ يُنسب، وما جاء فيه من فضل فلله أولاً وآخراً.

كما يسعدني أن أتقدم بالشكر والتقدير لجامعة أم القرى، التي منحتني فرصة استكمال دراستي الجامعية، ولأساتذتي الكرام في قسم التاريخ الإسلامي والدراسات العليا التاريخية والحضارية، ورئيسها سعادة الأستاذ الدكتور عبدالله بن سعيد الغامدي، والشكر موصول لكل من ساعدني من قريب أو بعيد في إنجاز هذا البحث.

وفي الختام، اللهَ أسأل أن ينفعنا بما علمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، هو ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الطالب

خالد بن عبدالله الشريف

عرض لأهم المصادر والمراجع

ما كان لهذا البحث أن يستوي على صورته ويأخذ بُعده العلمي - وإن افتقر إلى الكمال - لولا توفيق الله، ثم عودتنا إلى مظانه الحقيقية ومنابعه الأصلية من المصادر والمراجع والمقالات والدراسات المتخصصة، التي سنسرد أهمها في عرض سريع.

١- (مفاخرات مالقة وسلا) لابن الخطيب: هي، رسائل قارن فيها ابن الخطيب بين مدينة (مالقة) الأندلسية ومدينة (سلا) المغربية. وتُعد من أغنى الرسائل التي كشفت عن حضارة مالقة الإسلامية، ولم يأت أحد بمثلها - حسب علمي - على مر التاريخ. وقد استشهدنا بها كثيراً في فصول الباب الثاني من البحث، غير أن ابن الخطيب أكثر من عبارات السجع والتعظيم والتعميم، فياليته ابتعد عن ذلك وقدّم لنا مادة غزيرة عن جغرافية مالقة وتاريخها الحضاري بأسلوب واضح مباشر. بيد أنه لم يُلم بكل ما يتصل بها؛ فهو لم يذكر مثلاً طرق المواصلات في داخل مالقة وخارجها.

٢- (الإحاطة في أخبار غرناطة) لابن الخطيب: أُلِّف هذا الكتاب في القرن الثامن الهجري في عدة أسفار. ويعدّ أشهر كتب ابن الخطيب وأضخمها وأقيمها، فهو موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بغرناطة الأندلس. وفيه ذكر المؤلف بعض أخبار مالقة وتراجم رجالها، ولكن يلحظ عليه الاختلاف مع نفسه ومع غيره من المؤرخين عند إيراده لأعوام بعض الحوادث المتعلقة بمالقة. ومع ذلك، فقد ارتكزنا عليه في البحث بشكل كبير.

٣- (في آداب الحسبة) لمحمد السقطي المالقي : رغم اختلاف الباحثين في المدة الزمنية التي عاش فيها المؤلف: هل هي في أواخر عصر المرابطين أو أواخر عصر الموحدين، إلا أن كتابه يعد من أهم المصادر في الحضارة

الإسلامية، وتحديداً في الاقتصاد، ولذلك فقد استفدنا منه كثيراً في فصل التجارة والصناعة.

٤- (أعلام مالقة) لابن عسكر وابن خميس المالقيين: عاش المؤلفان في القرن السابع الهجري، ويعدّ كتابهما أول مصادر الترجمة البلدانية في مالقة، الذي أصبح في متناول القراء، وقد اعتمد عليه الباحث في مواضع عديدة من فصول الرسالة، واستطاع أن يتوصل من خلاله إلى نتائج علمية فريدة.

٥- (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لابن عذاري: عاش المؤلف في أواخر عصر الموحدين. وجاء كتابه في أربعة أجزاء، تمثل أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، ولهذا أخذنا منه كل ما يتعلق بموضوع البحث.

٦- (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) لابن البيطار المالقي: جاء هذا الكتاب مرتباً على حروف المعجم في أربعة أجزاء، جمع فيها المؤلف أقوال المتقدمين والمتأخرين في التعريف بأعيان النبات والحيوان والأحجار التي تدخل في الأدوية المفردة، إضافة إلى ما أضافه من معلومات توصّل إليها من خلال تجاربه ومشاهداته، ومن أجل التعريف ببعض الأعشاب والحيوانات والأزهار وصناعة الأدوية والعقاقير في مالقة، فقد اتكأنا عليه في التاريخ الاقتصادي.

٧- مذكرات الأمير عبدالله المسماة بكتاب (التبيان): تعدّ هذه المذكرات الدليل المرشد لتاريخ ملوك الطوائف الغامض في القرن الخامس الهجري، وخصوصاً لأسرة المؤلف وتاريخ دولتها في غرناطة، وكل ما له صلة بذلك التاريخ. ويالـلأسف، فإن الأمير المؤلف في ذلك القرن تجاهل تاريخ دولة بني حمود، التي انتزعوا منها الحكم في مالقة، وهم أقرب الدول بعضها إلى بعض جغرافياً وتاريخياً، ولذلك اقتصرت الفائدة من هذا الكتاب على

تاريخ مالقة أيام خضوعها للمؤلف وحكم جده باديس الصنهاجي.

٨- (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للشيخ أحمد المقَّري: رغم أن مؤلف هذا الكتاب عاش بعد سقوط الحكم الإسلامي في بلاد الأندلس، إلا أن كتابه هذا يأتي من بين أعظم الكتب التي جمعت بين دفتيها أخبار تلك البلاد وحضارتها، وبالتالي من الصعب جداً على الباحث في تاريخ الأندلس تجاهل هذا الكتاب الذي اعتمدنا عليه في أكثر فصول البحث، وخصوصاً في زمن السقوط النهائي لمالقة.

أما المراجع التي قام عليها البحث، فيأتي في مقدمتها:

١- كتاب (مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف) دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، وكتاب (تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين) لمؤلفهما كمال السيد أبو مصطفى. ويمثل هذان المرجعان - رغم بُعد دراسة الأول عن موضوع بحثنا - أهم المراجع التي استترنا بها ونهلنا منها في دراسة تاريخ مالقة واقتصادها؛ إذ وجدنا فيها بعض المعلومات القيمة المستمدة من دراسات وكتب أجنبية لا توجد في غيرها، وإن كان بعضها مكرراً عند كمال السيد في كتابيه. وإلى جانب هذا، فإنه لم يلتزم في كتابه الأول بالمدة الزمنية المحددة للدراسة، بل ظل يورد المعلومات عن حضارة مالقة في عصورها المختلفة، مما خدمنا في الرسالة، ولله الحمد.

٢- (غرناطة في ظل بني الأحمر) ليوسف فرحات، (ومظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر) لأحمد الطوخي: استندنا إلى هذين الكتابين في التاريخ الاقتصادي من بحثنا أكثر منه في التاريخ السياسي؛ لرجوع المؤلفيْن إلى العديد من المصادر والمراجع الأجنبية التي أوردت معلومات ثمينة نادرة عن الحضارة والسياسة في عصر بني الأحمر، وإن كنت لا أتفق معهما في كل شيء يوردانه عن الحوادث في تاريخ مالقة السياسي.

٣- (المدن الأسبانية الإسلامية) لمؤلفه ليوبولد توريس بالباس: برز هذا الكتاب في دراسة مظاهر المدينة الإسلامية في أسبانيا، وهو من الكتب الأجنبية الضخمة التي تُرجمت من الأسبانية إلى العربية، فرجعنا إليه وأخذنا منه ما نحتاجه في حضارة مالقة الإسلامية.

٤- تاريخ (مالقة الإسلامية) لجيلين روبلس المالقي: جاء هذا الكتاب في جزأين، تناول فيهما المؤلف تاريخ مدينته مالقة وحضارتها منذ ما قبل الإسلام حتى العصور الحديثة في دراسة شاملة لم يسبقه إليها أحد.

ولكون الكتاب مكتوباً باللغة الأسبانية، فقد ترجم لنا الجانب الاقتصادي منه الدكتور شعبان مرسي - حفظه الله - وأخذنا من ذلك معلومات قيمة. أما الجانب السياسي، فقد أعرضنا عن ترجمته لحقد المؤلف على المسلمين ونظرته المتعصبة نحو تاريخهم.

الباب الأول
التاريخ السياسي

تمهيد:

١- الموقع الجغرافي.

حظيت مدينة مالقة[١] بموقع جغرافي مهم، روعيت فيه اشتراطات اختيار المكان المنيع النافع[٢]؛ إذ تقع على أرض منبسطة في أقصى جنوب شرق الأندلس على شاطئ البحر الأبيض المتوسط[٣].

(١) مالقة (بالأسبانية Malaga) : وهي اليوم مدينة أسبانية حديثة عاصمة للولاية المسماة باسمها (ملقا). وتختلف عن مدينة ملقا الآسيوية عاصمة الولاية المسماة باسمها، وإن اتفقتا في التسمية والدور التجاري. فبينما تقع الأولى في أقصى جنوب غرب أوروبا، تقع الثانية في أقصى جنوب شرق آسيا، وتعرف اليوم بشبه جزيرة الملايو في دولة ماليزيا. وربما جاءت تسميتها من مالقة الإسلامية المذكورة أعلاه؛ لأن نشأتها كانت في أوائل القرن التاسع الهجري (٨٠٣هـ). انظر محمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، ط الثانية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م مكتبة الخانجي. مصر، (ص٢٤٢)، وحسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤ أجزاء، ط (١٤)، ١٤١٦هـ، دار الجيل. بيروت، جـ٢، (ص٢٥٧).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)، ٧ مجلدات، ط الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، دار الكتب العلمية. بيروت، مج١، (ص٣٧١، ٣٧٢).

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تصحيح محمد بن تاويت، مكتبة الخانجي. القاهرة، (ص٥٦)، وابن الخراط: اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق إيميليو وخاثينتو، ١٩٩٠م، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية. مدريد، (ص١٦٠)، والحموي: معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، ط١، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية. بيروت، جـ٥، (ص٥٢)، والمراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران، ط الأولى، ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية. بيروت، (ص٨، ٩، ٢٦٨، ٢٦٩)، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج١، (ص٧٠)، والحميري: صفة جزيرة الأندلس (الروض المعطار)،=

ويتفق عدد من المؤرخين والجغرافيين على وقوع مالقة في الإقليم الرابع من أقاليم معمور الأرض[1].

وتقع فلكياً في نقطة التقاء خط الطول (٣٠ دَ و ١٠ د) بخط العرض (٥٤ دَ و٣٨ د)[2]. وهذا الموقع أعطى مالقة أهمية تاريخية وحضارية عظيمة بين مدن الأندلس.

وتأسيس هذه المدينة قديم يعود إلى ما قبل الإسلام؛ إذ أسسها الفينيقيون القادمون من مدينة صور[3] ويقال إنها من بناء الروم [4].

= تحقيق ليفي بروفنسال، ط الثانية، ١٤٠٨هـ، دار الجيل، بيروت، (ص١)، وطافور: رحلة طافور، ترجمة حسن حبشي، ١٩٦٨م، دار المعارف، مصر، (ص٦). انظر (الملحق ص٤٢٧).

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدان، ط الأولى، ١٤٠٩هـ، عالم الكتب، بيروت، مج٢، (ص٥٣٧)، وابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، ٤ مجلدات، ط الأولى، ١٣٩٥هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة، مج١، (ص٩٤)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج١، (ص٧٠)، الحميري: الروض المعطار (ص ١).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية، جـ٥، (ص٢١٩)، عرض الدرجة بين خطي الطول أو العرض = ٧٥ ميل (والميل ٢كم = ١٥٠ كم = ٦٠ دقيقة) وعرض الدقيقة = ٢٥و١ ميل = ٥و٢ كم. وعلى هذا، فإن قياس المسافة من جزر الخالدات (الأزورس) التي يبدأ منها خط الطول إلى مالقة ١٥٧٥ كم. أما قياس المسافة عن خط الاستواء التي يبدأ منها خط العرض إلى مالقة ٥٨٣٥ كم. انظر ابن سعيد: الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط الأولى ١٩٧٠م، المكتب التجاري، بيروت، (ص٧٩، ٩٠)، وحسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ط (٢)، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، مكتبة مدبولي، (ص٥٠٤). وموقع مالقة الفلكي اليوم يقارب لموقعها في العصور الوسطى؛ فخط العرض (٣٧د) والطول (- ٤ د) إذ أصبح خط الطول الأساسي يقع في شرق مالقة وليس في غربها كما كان في العصور الوسطى. انظر: الإنترنت www.Heavens-above.com

(٣) صور: مدينة حسنة حصينة قديمة على شاطئ البحر المتوسط من جهة بلاد الشام. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ١، (ص٣٦٥).

(٤) الزياني: الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، ١٣٨٧هـ، (ص٨٧).

ويغلب على الظن أن بناءهم تم في القرن (١٢) قبل الميلاد[١]. وفي عهد المسلمين عُمِّرتْ، فأصبحت من المدن الكبيرة العامرة[٢].

واختلف أهل العلم في نطق كلمة (مالقة) على رأيين:

١- (مَالِقة) بفتح الميم وكسر اللام والقاف، وهو لفظ غير صحيح[٣].

٢- (مَالَقة) بفتح الميم واللام والقاف، وهو الصحيح[٤].

وتكتب أحياناً (ملقة)[٥]. وأرجح الآراء في توضيح معنى هذه الكلمة العربية الأصل أن الفينيقيين أعطوها اسم (Malaha) – أي المالحة – لأنها كانت مركزاً لتمليح السمك ومستودعاً لحفظه[٦].

(١) الأصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر، ١٣٨١هـ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (ص٣٥)، ابن الخراط: اختصار اقتباس الأنوار، (ص١٦٠)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨). عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ١٩٨٥م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (ص١٢٧). كمال السيد أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، ١٩٨٣م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، (ص٥).

(٢) الأصطخري: المصدر نفسه، (ص ٣٥).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة. بيروت، مج٣، (ص١٤٤).

(٤) ابن خلكان: المصدر نفسه، مج٣، (ص١٤٤)، والبغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي البجاوي، ١٩٩٥م، دار إحياء الكتاب العربي، جـ٣، (ص١٢٢١). الحموي: معجم البلدان، مج ٥، (ص٥٢).

(٥) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٥٦).

(٦) ابن الشباط: وصف الأندلس، تحقيق العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مج١٤، ١٩٦٧م، مدريد، (ص١٣٦)، والعبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية. بيروت، (ص٢٤)، والفاسي: الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البينة، ١٩٦٢م، (ص٣٠)، هناك آراء مختلفة في اشتقاق كلمة مالقة العربية؛ ومن ذلك: أنها مشتقة من الفعل العبري (Malac)، ويعني التملك. ويرجح البعض أنها مشتقة من الكلمة الفينيقية (Malaca) أو (Malake) نسبة إلى آلهة فينيقية كانت تعبد فيها. ويذكر البعض أن كلمة مالقة مشتقة من الكلمة اليونانية=

وتخلط المصادر بين مدينة مالقة وكورة رية(1)، فيقول بعضها: إن رية هي مالقة تارة(2)، وإن مالقة قاعدة رية وبالعكس تارة أخرى(3). ويقول البعض: إن مالقة مدينة من أعمال رية(4). والراجح هو أن لفظ رية أطلق على كورة كانت عاصمتها أرجدونة أو أرشدونة(5) ومالقة مدينة صغيرة من أعمالها التابعة لعاصمتها(6). ولكن عندما عمّ أرشدونة الخراب بسبب الفتن والثورات التي

= (Malacos) وتعني الرقة التي تذكرنا برقة مناخها. انظر عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، (ص١٢٧)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، الهامش، (ص٥)-F. Guillen Ro-bles : Malaga Musulmana, tomo2, 1880, Oliver Navarro, Malaga, Tomo2, P. 438, 460. وهناك من يقول إن كلمة مالقة أعجمية الأصل. انظر الحموي: معجم البلدان، مج٥، (ص٥٢).

(١) ريَّه (Reyyo): كورة من كور الأندلس المجندة تقع في قبلي قرطبة شرق الجزيرة الخضراء، وعند النصارى معنى رية سلطانة، وهي سلطانة البلاد. انظر الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق روحية السويفي، ط (١)، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية. بيروت، (ص٢٥٠)، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، مجلدان، ط (٣)، ١٩٥٥م، دار المعارف. القاهرة، جـ١، (ص٤٢٣).

(٢) ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق عبد الرحمن حجي، ١٩٦٥م، دار الثقافة. بيروت، (ص٤١، ٤٢)، وابن حزم وابن سعيد والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، تقديم صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، (ص٥٧)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص١٥٩).

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٧٠).

(٤) ابن الخراط: اختصار اقتباس الأنوار، (ص١٦٠)، والبغدادي: مراصد الاطلاع، (ص١٢٢١)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق مريم قاسم، ط (١)، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية. بيروت، (ص١٠٩).

(٥) أرجدونة أو أرشدونة (Archidona): هي عاصمة كورة رية، ومنزل الولاة والعمال. انظر ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق ومراجعة عبدالله الطباع وعمر الطباع، ط (١)، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، مكتبة المعارف. بيروت، (ص٢١٩).

(٦) البغدادي: المصدر نفسه، (ص١٢٢١)، والنباهي: المصدر نفسه، (ص١١٠)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٢).

وقعت في عصر بني أمية، وأدت إلى رحيل أهلها واضمحلال شأنها، أخذت مدينة مالقة في النمو والعمران، وقصدتها أفلاك التجار بكثرة، فأصبحت في القرن الرابع الهجري حاضرة كورة رية، وأرشدونة وغيرها كالبادية لها[1]، ومع الزمن طغى اسمها على اسم رية، فأصبحت تُعرف بكورة مالقة[2].

وكانت هذه الكورة (مالقة) رقعة جغرافية شاسعة الأقطار كثيرة الديار[3] تنحصر بين الجزيرة الخضراء[4] والمرية[5] وبين مملكتي غرناطة[6] وإشبيلية[7] ويتبعها من المدن والقرى والحصون الكثير[8] منها مالقة الواقعة على الضلع الأول الممتد من جزيرة طريف إلى شمال شرق

(١) الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (ص٢٤٤)، والأصطخري: المسالك والممالك، (ص٣٥)، وابن حيان: المقتبس، نشر بدور شالميتا بالتعاون مع المحقق. ف. كورنيطي وم. صبح الأعشى وغيرهما، ١٩٧٩م، المعهد الأسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، جـ٥، (ص٦٥، ٨٦)، والحموي: معجم البلدان، جـ٥، (ص٥٢)، وابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس، نشر لطفي عبد البديع، مجلة المخطوطات العربية، ١٣٧٥هـ، مج١، جـ٢، (ص٩٤).

(٢) ابن سعيد: المغرب، جـ١، ص ٤٢٣، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٧).

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥).

(٤) الجزيرة الخضراء (Algericas): تسمى جزيرة أم حكيم، وتقع في شرق كورة شدونة، وفيها مدينة الجزيرة الخضراء. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص٧٣، ٧٥).

(٥) المرية (Almeria): مدينة بجنوب شرق الأندلس تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط بناها الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي في عام (٣٤٤هـ). انظر الحميري: المصدر نفسه، ص١٨٣.

(٦) غرناطة: هي مدينة من أقدم مدن كورة البيرة وأعظمها، ويشقها نهر الفُلُوم، انظر ابن غالب: فرحة الأنفس، (ص٢٨٣).

(٧) إشبيلية (Sevilla) تقع في شرق كورة لبلة وغرب قرطبة. وكانت عاصمة من عواصم الروم. انظر ابن غالب: المصدر نفسه، (ص٢٩٢).

(٨) الحموي: معجم البلدان، جـ٣، (ص١٣١).

الأندلس حداً من حدودها[١]، وبلش[٢] وقمارش[٣] ومريلة[٤] وببشتر[٥] وصالحة[٦] وبزليانة[٧] ونارجة[٨] وقرطمة[٩] وذكوان[١٠] وأنتقيرة[١١] ولماية[١٢]

---

(١) شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، (٣) أجزاء، دار مكتبة الحياة. بيروت. جـ١، (ص٥٥، ٥٦).

(٢) بلش (Velez Malaga): مدينة تابعة لمالقة، وليس في قواعد أعمالها مثلها في الحضارة، انظر ابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٤٢).

(٣) قمارش (Comares): أحد حصون مالقة القوية الذي يمتاز بكثرة المياه والفواكه. انظر الضبي: بغية الملتمس، (ص٣٢)، ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، دراسة محمد كمال، ١٣٩٧هـ، المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، (ص٥٤).

(٤) مريلة (Marbella): مدينة صغيرة مسوَّرة قديمة البناء، تقع بالقرب من ميناء سهيل. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص١٨٠).

(٥) ببشتر (Bobastro): أحد حصون رية القوية وفي أعلاه تكثر الفواكه. انظر ابن غالب: فرحة الأنفس، (ص٢٩٥).

(٦) صالحة (Zalea): إحدى القرى التابعة لمالقة. انظر ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٦٥).

(٧) بزليانة: قرية قريبة من مالقة على شاطئ البحر المتوسط. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص ٤٤).

(٨) نارجة: قرية كبيرة تضاهي المدن من أعمال مالقة. انظر المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨ مجلدات، تحقيق إحسان عباس، ط (٢) ١٩٩٧م، دار صادر. بيروت، مج١، (ص١٧٨).

(٩) قرطمة (Cartama): مدينة تابعة لمالقة. خربت في القرن السادس الهجري وأصبحت بادية. انظر ابن غالب: فرحة الأنفس، (ص٢٩٥).

(١٠) ذكوان (Coin): حصن من حصون مالقة أقامه الخليفة عبدالرحمن الناصر في عام (٣٠٨هـ) لمواجهة ابن حفصون. انظر ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، ٤ أجزاء، ط (٣) ١٩٨٣م، الدار العربية، جـ٢، (ص٦٧٢).

(١١) أنتقيرة (Antequera): مدينة تابعة لمالقة، تكثر فيها الزراعة والمياه الطبيعية. انظر ابن الخطيب: المصدر السابق، (ص٦٦).

(١٢) لماية: إقليم من أقاليم رية، ولها واد يسمى وادي لماية، وجبل يتصل بفحص قرطبة. انظر الحميري: المصدر السابق، (ص١٧٠).

وقامرة[(١)] وسهيل[(٢)] وأرشدونة وغيرها.

وخلال تعاقب الدول الإسلامية على حكم بلاد الأندلس كانت مساحة رية تزيد وتنقص تبعاً لسياسة كل دولة؛ ففي أيام دولة بني أمية «حد عمالتها في القديم من جهة الشرق الحمة... ومن ناحية الغرب حصن الورد المعروف بـ (منت ميور) القريب من مربلة، ومن جهة الجوف (الشمال) وادي شنيل حيث حصن بني بشير والرينسول، ثم الأرض المعروفة بالخنوس إلى قرية جليانة القريبة من استجة إلى حوز مورور»[(٣)].

وفي صدر القرن الخامس الهجري كانت مساحة الكورة حوالي ثلاثين فرسخاً[(٤)] في مثلها[(٥)]، وفي أيام دولة بني حمود اتسعت المملكة، وأصبحت تضم العديد من المدن المجاورة؛ كالمرية والجزيرة الخضراء وقرمونه[(٦)] وشريش[(٧)] وسبتة[(٨)]

---

(١) قامرة (Camara): هي مخازن المحصولات الزراعية أو التربة الخصبة المنتجة. انظر ابن الخطيب: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمدعنان. مجلدان، ط١، ١٤٠٠هـ، مكتبة الخانجي القاهرة، مج٢ (ص٣٥٧).

(٢) سهيل (Fuenjerola): أحد حصون مالقة المنيعة، ويرى منه نجم سهيل الجنوبي في السماء. انظر ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١، ٥٢).

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص ٩).

(٤) الفرسخ: لغة: السعة، ويعادل ٣ أميال (٢٥ غلوة). انظر نسيبة الحريري ووالدها محمد: المقاييس والمقادير عند العرب، دار الفضيلة. القاهرة، (ص٥٣).

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، جزآن، ط١، ١٩٨١م، المؤسسة العربية. بيروت، جـ٢، (ص٢٠٨)، قيل: إن المسافة تعادل ٣ أيام في مثلها.
انظر ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٤٤).

(٦) قرمونة (Caramona): مدينة كبيرة قديمة البناء تقع في سفح جبل شرق إشبيلية. انظر ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، (ص٢٣٢).

(٧) شريش: مدينة متوسطة حصينة من كورة شذونة. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص ٥٧٢).

(٨) سبتة (Ceuta): مدينة تقع على مضيق جبل طارق وتقابل الجزيرة الخضراء في الأندلس، انظر الإدريسي: المصدر نفسه، جـ٢، (ص٥٢٧).

وطنجة[١] في بلاد المغرب[٢].

ويبدو أنها على عصر المرابطين صغرت المساحة عنها في أيام بني حمود، ثم توسعت على عهد الموحدين، وأصبحت مالقة مملكة مستقلة تضم غرناطة أحياناً[٣].

وفي عصر بني الأحمر شكلت كورة مالقة ولاية من أكبر الولايات الغرناطية التي تبعها أعمال ضخام وأقطار واسعة[٤].

أما المدينة نفسها(مالقة) فقبل نهاية القرن الخامس الهجري بلغت مساحتها الداخلية (٣٧ هكتاراً)[٥] وهو قول مبالغ فيه لأحد الباحثين[٦]. ثم اتسعت في النصف الأول من القرن اللاحق، وشملت مباني الريضين الخارجيين، واحتفظت بتلك المساحة، وزادت عليها في القرن السابع الهجري حتى سقطت في عام (٨٩٢هـ/١٤٨٧م)[٧].

وفي أواخر العصور الوسطى أجمع عدد من الرحالة الأجانب على أن المدن الإسلامية التي شاهدوها فاقت مساحتها وكثرة سكانها أضعاف ما هو

---

(١) طنجة (Tanger) : مدينة حسنة قديمة على سفح جبل تطل على البحر المتوسط. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٢٩).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٤٤، ١٩٢).

(٣) المراكشي: المعجب، (ص٩).

(٤) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٦٥). انظر الملحق (ص٤٢٨).

(٥) هكتار: وحدة مساحة في النظام المتري المعاصر، وتعادل عشرة آلاف متر مربع، انظر الحريري: المقاييس والمقادير عند العرب، (ص٧٨).

(٦) ليوبولد وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، ترجمة اليودورودي لابنيا، مراجعة نادية محمد وعبد الله العمير، ط١، ١٤٢٣هـ، مركز الملك فيصل للبحوث. الرياض، (ص١٦٤).

(٧) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٨)، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، ط (١)، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، دار حسان، دمشق، (ص٩٣، ٩٤). ليوبولد وتوريس بالباس: المرجع نفسه، ص١٦٤.

معروف عن أي مدينة أوروبية معاصرة[١].

وتميزت مدينة مالقة بالتنوع في تضاريسها كما يلي:

١- السهل الساحلي: وهو سهل متفاوت الاتساع، شديد الانخفاض، يشرف على خليج مالقة، ويمتد بطولها على البحر المتوسط، ويعد اليوم جزءاً من ساحل شرق أسبانيا المسمى بساحل الشمس[٢].

٢- وادي المدينة (Guadamedina) يُعرف بوادي مالقة، وهو أكبر الأودية فيها وأخصبها، وينبع من المرتفعات الشمالية المجاورة، ثم يخترق مالقة بشكل متعرج من ناحية الغرب، ويصب في البحر المتوسط، وكان لا يجري ماؤه سوى في فصلي الشتاء والربيع[٣]. ومع ذلك فقد كان له أثر كبير في سقيا المزارع ونشر الخضرة والبهجة على شاطئيه، وعمقه في الزمن الحديث أقل من الزمن القديم[٤]. وبجوار هذا كان في مالقة بعض الأودية الصغيرة مثل وادي إكتابة والعقاب وشنيانة[٥].

٣- المرتفعات (جبال مالقة): تحف المدينة من الشمال والشرق، وهي نهاية سلسلة جبال شلير[٦] التي تشرف على البحر المتوسط من غير فاصل، وتتصل

---

(١) سعيد عبد الفتاح: الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مج (١١)، عَ (١)، ١٩٨٠م، (ص٨٨).

(٢) طافور: الرحلة، (ص٦)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ١٤٠٣هـ، دار مكتبة الحياة، بيروت، (ص٢١٦)، وحسين مؤنس: رحلة الأندلس، ط (٣)، ١٤٠٨هـ، الدار السعودية، (ص٢١٨). انظر الملحق (ص٤٢٧).

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥)، والمقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، جـ١، (ص١٢٨)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦).

(٤) G. Robles: Malaga Musulmana, Tomo2, P. 464. انظر الملحق (ص٤٢٩).

(٥) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، تحقيق عبد الله الترغي، ط (١)، ١٤٢٠هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ص١٢٥، ٣٣٣)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٢٧٣).

(٦) جبل شلير (SierraNevada): هو جبل من أشهر جبال الأندلس الباردة التي تطل على البحر المتوسط. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص١١٢).

بجبال العنب (جبال السكب) المختلطة بتلك الجبال[١]. ويعد جبل فارة[٢] أشهر جبال مالقة.

٤- الهضاب: تعددت الهضاب في مالقة؛ كهضبة العقاب المشرفة على وادي المدينة، والهضبة المسماة بهضبة مالقة، وكانت تكثر فيها المياه ويخرج لها الأهالي بغرض الفسحة والسياحة[٣].

مناخ مالقة:

خضعت مالقة لمناخ البحر المتوسط لوقوعها عليه، كما خضعت له نواحي بلاد الأندلس[٤]، وفي ذلك يقول البكري: «والأندلس شامية في طيبها وهوائها»[٥] وإن كان يغلب على بعض نواحيها طابع البرد[٦]، وفي هذا المناخ تتغلب الحرارة والجفاف على فصل الصيف والبرودة والأمطار على فصل الشتاء، مع تساقط الثلوج أحياناً على مالقة[٧]، ذلك أنه يسود حوض البحر

---

(١) البكري: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، مجلدان، ط (١)، ١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية. بيروت، جـ٢، (ص٣٨٤)، والزهري: الجغرافيا، تحقيق محمد حاج، مكتبة الثقافة. القاهرة، (ص٩٣).

(٢) جبل فاره (Gibral - Faro): يقع في شرق مالقة على مقربة من البحر، وعليه حصن منيع انشئ لحماية مالقة من جهة البر والبحر. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٧٠)، وطافور: الرحلة، (ص٦)، وفون شاك: الفن العربي في أسبانيا وصقلية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف. مصر، (ص٨٥). انظر الملحق رقم (ص٤٣٩).

(٣) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ مجلدات، ١٣٩٩هـ، دار العربية. بيروت، مج٢، (ص٨٥٨)، وكمال السيد : مالقة الإسلامية، (ص٤٢).

(٤) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٢٦).

(٥) البكري: المسالك والممالك، مج٢، (ص٣٨٣).

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط. بيروت، (ص٢٣٦)، والمراكشي: المعجب، (ص٨).

(٧) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف ٦، (ص٩٠)، وابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، (ص٨٧٤) وما بعدها، والمقري: المصدر السابق، مج١، (ص١٣٧، ١٤٠)، والصريحي: ديوان ابن زمرك الغرناطي، تحقيق محمد توفيق، ط (١)، ١٩٩٧م، دار الغرب الإسلامي. بيروت، (٤٩٨).

المتوسط في الشتاء ضغط هوائي مرتفع، فتهب رياح غربية رطبة قوية قادمة من المحيط الأطلسي تضرب جهات الأندلس بما فيها مالقة - لوقوعها في منطقة غرب الأندلس من حيث التقسيم المناخي - فتؤدي إلى سقوط الأمطار بغزارة، وفي فصل الصيف يخف الضغط على هذا البحر، فتهب من جهة القبلة رياح شرقية جافة حارة(١).

والمعروف أن المناخ يتأثر بالطبيعة ويؤثر فيها؛ فالإقليم المطل على البحر يكون هواؤه رطباً، وإذا كانت تربته رملية - كإقليم مالقة - فإن هواءه يكون جافاً في الصيف وقابليته للبرودة والسخانة سريعة(٢).

وكان مناخ مالقة المعتدل(٣) ينفي الكسل والتبلد عن النفس البشرية، ويبعث فيها النشاط والحيوية(٤)، ودلالة على هذا يقول الشاعر:

من فضلها المعلوم أن هواءها
يداوى به الكسلان والمتبلد(٥)

ويقول آخر:

---

(١) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٣١، ١٣٢)، مج٤، (ص١٦١)، والحميري: الروض المعطار، (ص٢، ١١٢)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١١٢)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٧٠، ٧١)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ط(١)، ١٤٠٣هـ، دار الشروق. بيروت، (ص٥٣، ٥٤).

(٢) ابن الخطيب: الوصول لحفظ الصحة في الفصول، نشر محمد الخطابي، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، ع٢، ١٤٠٥هـ، (ص١٣٩)، ابن خلدون: المصدر نفسه، مج١، (ص٨٨) وما بعدها.

(٣) المراكشي: المعجب، (ص٨). و G. Robles:Malaga Musulmana, Tomo2, p.463

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٨٨، ٩١، ٩٢)، المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٤٠)، ابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، ط الأولى، ١٩٨٥م، دار الغرب الإسلامي. بيروت. (ص١٣٩).

(٥) القيسي: ديوان عبد الكريم القيسي، تحقيق جمعة شيخ ومحمد الهادي، ١٩٨٨م، المؤسسة الوطنية. تونس، (ص٣٨٨).

المـــــاء والمرعى وجـــو أفـــيح
تندى بنفحته الصبا والشمأل[1]

ولذلك كانت مالقة مقصد الكثير من السياح والزوار في عصرها الإسلامي ووقتنا الحاضر[2] - أمثال العالم ابن سعيد وغيره - للاستمتاع بجوها وقضاء أجمل الأوقات فيها[3].

٢- مالقة منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر الخلافة الأموية:

تمخض عن الحملة العسكرية التي قادها موسى نصير[4] وقبله طارق بن زياد[5] في نهاية القرن الهجري الأول فتح بلاد الأندلس (٩٢-٩٥هـ)[6]، ودخول المسلمين لأول مرة قارة أوربا فاتحين. ونالت مدن تلك البلاد شرف الفتح الإسلامي العظيم في هذا القرن، وكانت مدينة مالقة من أولى المدن التي حازت على هذا الشرف، غير أن آراء المؤرخين اختلفت في طريقة فتحها وفاتحها وسنة الفتح على النحو الآتي:

١- يشير بعض المؤرخين إلى أن طارق بن زياد عندما فرّق جيوشه من إستجه[7]

(١) الصريحي: ديوان ابن زمرك، (ص١٠١).

(٢) حسين مؤنس: رحلة الأندلس، (ص٢١٨).

(٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٣)، والقيسي: ديوان عبد الكريم القيسي (٣٨٦).

(٤) موسى بن نصير : ولد في سنة (١٩هـ)، ويعود في نسبه إلى لخم، وقيل: بكر بن وائل. تولى ولاية إفريقية، ودخل الأندلس في عام (٩٣هـ) وعاد منها في عام (٩٥هـ). انظر ابن عذاري : البيان المغرب، جـ٢، (ص١٩، ٢٢).

(٥) طارق بن زياد: مولى موسى بن نصير وواليه على طنجة وما حولها. اختلف في نسبه؛ فقيل: إنه بربري، وقيل: إنه فارسي، دخل الأندلس بأمر موسى في عام (٩٢هـ)، ونزل بالجبل الذي يسمى باسمه اليوم. انظر ابن عذاري: المصدر نفسه، جـ٢، ص٥، ٦.

(٦) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٢٥.

(٧) إستجه (Ecija): تقع بين القبلة والغرب من قرطبة، وهي مدينة قديمة. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٤.

أثناء سيره إلى طليطلة، أرسل جيشاً إلى مالقة يقوده قائد بمرافقة دليل من رجال يليان[١]، فتم لهذا الجيش فتح مالقة وما حولها دون مقاومة في أواخر عام (٩٢هـ/٧١١م)، على الأغلب بعد أن فر سكانها إلى جبالها الحصينة، ثم سار الجيش منها قاصداً إلبيرة[٢] لإخضاعها. ويذكر حسين مؤنس: أن هذا الفتح غير صحيح؛ لأن المسلمين لم يفتحوا هذه النواحي إلا في ولاية عبدالعزيز بن موسى، ولا يستبعد أن يكون طارق قد بعث سرايا صغيرة لمجرد الاستطلاع[٣].

٢- يشير ابن الخطيب إلى أن فتح مدينة مالقة كان بعد فتح إلبيرة في عام (٩٣ هـ/٧١١-٧١٢م)[٤]. ويرجّح غيره عام (٩٤هـ /٧١٢-٧١٣م)[٥] عندما وجه موسى بن نصير ابنه عبدالأعلى[٦] بجيش لفتحها أيام دخوله معه في حملته إلى الأندلس، فحاصر الجيش مالقة «وكان بها ملك قليل التحفظ، كان يخرج إلى جنة له بجانب المدينة، طلباً للراحة من غمة الحصار بدون أن يقيم عيناً أو طليعة، فعرف بذلك عبدالأعلى، فكمن له في جنب جنته، فخرج ليلاً،

---

(١) يليان: كان حاكم الجزيرة الخضراء أثناء فتح المسلمين للمغرب، وكان له دور في مساعدة موسى بن نصير في فتح الأندلس. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص٤، ٥.

(٢) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري. القاهرة، ص٢٠، ٢١.

إلبيرة (Elvira): تقع بين القبلة وشرق قرطبة، نزلها جند دمشق، وأسسها الإمام عبدالرحمن بن معاوية، وكانت من كور الأندلس، جليلة القدر. انظر الحميري: الروض المعطار، ص٢٩، ٣٠، وانظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٦٣، وابن عذاري: المصدر السابق، جـ٢، ص١١.

(٣) انظر: فجر الأندلس: الدار السعودية، ص٧٧.

(٤) انظر الإحاطة، مج١، ص١٠١، مج٣، ص٥٢٩، وعبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ١٩٩٧م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، ص٨٢.

(٥) الزياني: الترجمانه الكبرى، ص٧٨.

(٦) عبدالأعلى بن موسى بن نصير كان أميراً، على سنن أبيه في الفضل والدين. انظر ابن الخطيب: المصدر السابق، مج٣، ص٥٢٩.

فظفروا به فأمسكوه، وأخذ المسلمون المدينة عنوة، وملؤوا أيديهم منها غنيمة»(١). وهذا الرأي يرفضه بعض الباحثين؛ بحجة أن عبدالعزيز بن موسى هو الذي سار بنفسه إلى تلك المنطقة وافتتحها. وقد حفظ لنا نص معاهدته مع ملك تدمير(٢).

٣- يشير المؤرخ ابن القوطية، وغيره إلى أنَّ فتح مالقة كان في عهد الوالي عبدالعزيز بن موسى، عقب رحيل أبيه (٩٥-٩٧هـ)، عندما أسلمها حاكمها إلى المسلمين دون عناء كبير أثناء استكمال فتح جنوب شرق الأندلس، الذي أفلت من موجات الفتح الإسلامي(٣) ولعل فتح مالقة كان من أيسر الفتوح الإسلامية وأسهلها، فقد فتحت مرتين:

الفتح الأول: على عهد فتوح طارق بن زياد، وكان فتحاً هامشياً قصيراً، ما لبث فيه أهل المدينة أن استعادوا مدينتهم من الجيش الذي بقي لحفظها، وتحصنوا فيها، وقاوموا المسلمين كبعض مدن الأندلس(٤).

والفتح الآخر: كان فتحاً حقيقياً أكد الفتح الأول، والراجح أنه كان في عام (٩٤-٩٥هـ/ ٧١٣م)(٥) عندما أرسل موسى بن نصير ابنه عبدالعزيز لاستكمال فتح شرق الأندلس(٦).

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٦٢، والمقري: نفح الطيب، مج١، ص٢٧٥.

(٢) عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الهامش، ص١١٠. تدمير (Theodemir): كورة في شرق الأندلس، سمِّيت باسم ملكها تدمير. انظر الحميري: الروض المعطار، ص٦٢.

(٣) انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٢٥، ٢٦، وحسين مؤنس: فجر الأندلس، ص١١٢، وعبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١١٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص١٤، ١٥، والمقري: نفح الطيب، مج١، ص٢٦٣، وعبدالعزيز سالم: المرجع نفسه، ص١١٠.

(٥) عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص١٢٨، وعبدالرحمن حجي: التاريخ الأندلسي، ص٧٩.

(٦) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٢٦، وعبدالرحمن حجي: المرجع نفسه، ص٨٢. انظر الملحق (ص٤٣٠).

والحقيقة بعد أن دخلت مالقة في حوزة الإسلام ظلت طائعةً لولاة الأندلس، حتى إنه عندما تولى أبو الخطار الكلبي[1] ولاية الأندلس في عام (١٢٥هـ/٧٤٢م)[2] ونار الفتنة مازالت مشتعلةً بين عرب الشام وعرب الحجاز، استطاع - بفضل الله ثم بفضل سياسته وحنكته - أن يخمد تلك النار، وأن يفض النزاع القائم بأن وزع جنود الشام على نواحي الأندلس، في منازل أشبه بمنازلهم في بلادهم؛ حيث أسكن أهل الأردن مالقة وسماها الأردن[3]، بشرط أن يأخذوا ثلث الخراج الذي يؤديه أهل الذمة، مقابل تقديم عدد معين من الجند للسلطة الحاكمة، مما أدى إلى نمو مدينة مالقة وغيرها من مدن الأندلس[4]. كما أن في سياسة ابن الخطار هذه تسخيراً لموارد الدولة في خدمة أغراضه السياسية.

غير أن أحوال المسلمين اضطربت، كما في المشرق الإسلامي، وعادت الفتنة سيرتها الأولى، فاجتمع أهل الأندلس في عام (١٢٩هـ/٧٤٦م) على ولاية يوسف بن عبدالرحمن الفهري[5] فأعطى كورة رية طعمةً ليحيى بن حريث الأردني[6]

---

(١) حسام بن ضرار: تولى ولاية الأندلس لجمع أهلها على الطاعة. انظر الحميدي: جذوة المقتبس، ص٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، (ص٣٣).

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٤٤، وابن حيان: المقتبس، تحقيق عبدالرحمن حجي، ص٦٠، ٢٠١، وابن عذاري المصدر السابق، جـ٢، ص٣٣، والضبي: بغية الملتمس، ص٢٥٠، وابن الخراط: اختصار اقتباس الأنوار ص١٤٤.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص١٠٢ وما بعدها، وليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة. لبنان، ص٤٦، وحسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، جزآن ط (١) ٢٠٠٠م، منشأة دار المعارف، ص٥١.

(٥) الأمير يوسف بن عبدالرحمن الفهري من قريش، ظل والياً على الأندلس حتى عام ١٣٨هـ انظر الحميدي: جذوة المقتبس، ص٩.

(٦) يحيى بن حريث: كان أحد الطامعين في إمارة الأندلس. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص٣٥، ٣٦.

الذي دعا لنفسه بالولاية ونازعه عليها ثوابة بن عمرو(١)، لكن يوسف غدر بابن حريث، وعزله عن الكورة، فغضب ابن حريث، وكاتب أبا الخطار الكلبي، فاجتمعا على محاربة يوسف والصميل بن حاتم(٢) رغم أن كلاً منهما كان يطمع في الإمارة(٣). وبهذا اشتعلت نار الحرب بين العصبيتين اليمنية والمضرية: حيث التقى الفريقان - يمن الأندلس ضد مضريها - بالقرب من شقندة(٤) على الشاطئ الأيسر لنهر الوادي الكبير تجاه قرطبة(٥)، ودارت بينهم رحى معركة ضروس، جاءت نهايتها بهزيمة اليمنية، وقتل أبو الخطار وابن حريث بعد وقوعهما في الأسر، واستقرار الأمر للصميل ويوسف الفهري(٦).

ثم لم تمض سنوات معدودات حتى قدم إلى الأندلس عبدالرحمن بن معاوية الأموي(٧) ونزل في ثغر المنكب(٨) غرة شهر ربيع الأول في عام (١٣٨هـ/ ٧٥٥م)، ثم سار إلى كورة إلبيرة، وسكن منزل أبي عثمان شيخ الموالي بقرية طرش(٩)، وهناك جاءه جدار بن عمرو المذحجي رئيس العرب بكورة رية مع جموع الأموية(١٠).

---

(١) ثوابة الجذامي: من أهل فلسطين، توفي في عام (١٢٨هـ). انظر ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص٣٠.

(٢) الصميل بن حاتم: من أهل الكوفة. كان يمتاز بالنجدة والشجاعة والسخاء. انظر ابن عذاري: المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٤.

(٣) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص٥٨، ٥٩، وابن عذاري المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٦.

(٤) شقندة: قرية بعدوة نهر قرطبة قبالة قصرها. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٠٤.

(٥) المقري: نفح الطيب، مج٣، ص٢٢٢، ٢٢٣، وابن عذاري: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٥، ٣٦.

(٦) ابن عذاري: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٦.

(٧) عبدالرحمن بن معاوية الأموي: يكنى أبا المطرف، ولد بدير حسينة من دمشق سنة (١١٣هـ)، وتوفي عام (١٧٢هـ)، ودفن بقصر قرطبة، وقد بلغ (٥٩) سنة، وقيل (٦٠) سنة. دخل الأندلس وهو ابن (٢٥) سنة، أو نحوها، وبويع له بقرطبة يوم الأضحى من سنة (١٣٨هـ). انظر ابن عذاري: المصدر نفسه، جـ٢، ص٤٧، ٤٨.

(٨) المنكب: ميناء يقع على ساحل البحر المتوسط. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٨٦.

(٩) طرش: إحدى قرى كورة إلبيرة. انظر ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٨٦.

(١٠) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص٧٢، وابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٨٦.

وقيل: بل لَـمَّا علم جدار بقدومه قال لأصحابه: توافوني به مصلى أرجدونة يوم الفطر، وترون ما يكون مني إن شاء الله، فلما قدم عبدالرحمن إلى رية في (٦٠٠ فارس) قام جدار إلى الخطيب، وقال له: «اخلع يوسف بن عبدالرحمن واخطب لعبد الرحمن بن هشام، فهو أميرنا ابن أميرنا» ثم قال: يا أهل رية، ما تقولون؟ فقالوا: «نقول ما تقول»[١] فخُطب لعبدالرحمن، وبايعه الأهالي والجند بعد انقضاء الصلاة في (أول شهر شوال عام ١٣٨هـ/ ٨ مارس ٧٥٦م)[٢]. وكان على رأسهم عاملها عيسى بن مساور[٣]، وقيل: إبراهيم بن شجرة[٤]، ثم سار عبدالرحمن من أرجدونة إلى مالقة، فاستقبله أهلها بالبشر والترحاب، وكان قد بايعه جندها على يد يوسف بن بخت الفارسي، ودخل في جيشه منهم (١٤٠٠) فارس، كانوا له أفضل مؤازر في تأسيس الإمارة الأموية بقرطبة.

وعندما علم والي الأندلس يوسف الفهري بخبر عبدالرحمن الأموي حاول ملاطفته ومصانعته بالوعود والعروض، إلا أن محاولاته أخفقت. وسار عبدالرحمن في (٣٠٠٠) فارس قاصداً قرطبة، فخرج له يوسف بجيشه، والتقى الجمعان في (المصارة) ودار القتال بينهم في يوم الجمعة (١٠) ذي الحجة من عام (١٣٨هـ/ أوائل عام ٧٥٦م)[٥]، وانتهى القتال بهزيمة الفهري وقيام عهد جديد في تاريخ الأندلس على يد عبدالرحمن، عُرف بعهد الإمارة الأموية.

وبهذا يكون لمدينة مالقة أثر يذكر وفضل يشكر عند عبدالرحمن الأول

---

(١) ابن القوطيه: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٨٧.

(٢) ابن القوطية: المصدر نفسه، ص٨٧، والمقري: نفح الطيب، جـ٣، ص٥٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٣٨٥هـ، دار صادر. بيروت، جـ٥، ص٤٩٤، والمقري: المصدر نفسه، مج١، ص٣٢٨.

(٤) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق أحمد كمال، مراجعة محمد مصطفى، ٣٠جزءاً، ١٩٨٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ٢٣، ص٣٣٧.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص٤٥ وما بعدها.

خاصة والأمويين عامة، لا سيما وأنها كانت من أسرع المدن دخولاً في طاعتهم وتأييداً لدعوتهم، مما أفاض عليها الكثير من الخير والرعاية والاهتمام في أكثر عهد الإمارة.

غير أنه لتوقف المصادر عن ذكر مالقة، وانقطاع أخبارها لمدة تزيد على قرن كامل، فإنها لم تبرز بشكل واضح على مسرح الأحداث سوى في القرن الثالث الهجري، عندما بدأت الأخطار الخارجية والداخلية تهدد كيان الإمارة الأموية؛ فمن الخارج: خطر النورمانديين[1] الذين أخذوا يغزون بلاد الأندلس ويجوبون سواحلها، ففي عام (٢٤٧هـ/٨٦١م) وصل النورمان إلى ساحل رية، فقام واليها عبدالسلام بن ثعلبة بسد المراسي ومواجهة العدو، فلم يجدوا مدخلاً يولون إليه، فجرت بينه وبينهم حروب انتصر فيها عليهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وفرَّ الباقون منهزمين إلى ساحل تدمير[2]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

وكان الأمير عبدالرحمن الأوسط[4] ممن تصدوا لهذا الخطر، حيث أنشأ أسطولين قويين؛ أحدهما: في المحيط الأطلسي، وجعل مركزه أشبونة[5]،

---

(١) النورمانديون أو الأردمانيون: يقصد بهم النورمان (Normans) وقد أطلق عليهم اسم المجوس؛ لأنهم كانوا يشعلون النار في كل موضع يمرون به. وعرفوا في المصادر الأوروبية باسم الفايكنج – أي سكان الخلجان – وأصل هذا الشعب جرماني، وكان ينقسم (ثلاث) مجموعات. السويديون والنرويجيون والدنماركيون، والمجموعة الأخيرة هي التي هاجمت سواحل الأندلس والمغرب في عصر الدولة الأموية. انظر حسين مؤنس: غارات النورمانديين على الأندلس، المجلة التاريخية المصرية، ١٩٤٩م عَ (١)، مج٢، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، ص٢٤، ٢٦.

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٦٨.

(٣) سورة الأنعام، آية رقم (٤٥).

(٤) عبدالرحمن بن الحكم بن هشام (٢٠٦ – ٢٣٨هـ) يكنى أبا المطرف. دامت خلافته (٣١) سنة و(٣) أشهر و(٦) أيام، توفي وعمره (٦٢) سنة. وكان أديباً شاعراً، لم يلق المسلمون معه بؤساً. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، ص٨٠، ٨١، ٩١.

(٥) أشبونة: مدينة قديمة في غرب كورة باجة على سيف البحر، وهي حسنة ذات سور وقصبة منيعة. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٦.

والثاني: في البحر الأبيض المتوسط، وجعل مركزه مالقة[1].

أما من الداخل، فقد كان أعظم خطر واجهته الإمارة الأموية هو ثورة ابن حفصون[2] بمركزه (ببشتر) من كورة رية في عام (٢٦٧هـ/٨٨٩م)[3]، وقد اجتمع حوله أهل الشر والزيغ من العجم[4] والمولدين[5] الذين عاث معهم في الأرض والخلق فساداً بغير حق، ما لم يفعله ثائر بالأندلس منذ دانت

---

(١) حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، جـ١، ص٧٨.

(٢) ابن حفصون: هو عمر بن حفص بن عمر بن جعفر الإسلامي. أصله من رندة، سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصراني. استوطن كورة رية، ونشأ بها سيئ السيرة، وثار بحصن ببشتر منها، ودامت ثورته وأبناؤه نحو نصف قرن. وترجع أسباب ثورته إلى ما يلي:

أ- معاقبة (دونكير) عامل رية له في جناية ارتكبها، فضربه بالسياط، ففر إلى العدوة حيث التقى هناك في تاهرت بشخص دعاه بالرجوع إلى بلاده، وقال له: ارجع إلى بلدك، فأنت صاحب بني أمية، وستملك ملكاً عظيماً، فقام على فوره ورجع إلى الأندلس، فداخل الرجال وقامت ثورته.

ب- تشدد عامل رية يحيى بن عبدالله وعنفه في جباية الأموال المتأخرة من أهل رية وإرهاقهم بها.

جـ- أن أهل النواحي الجبلية - كرية ورندة - لم يظفروا قط بالعناية الكاملة من جانب الحكومة المركزية.

انظر: ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص ٣٢٥)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٣٩)، وابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، (ص١٢٥).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، (ص١٠٤، ١٠٦)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٧، (ص٣٦١).

(٤) العجم: هم الروم والفرس والبربر وجميع الناس سوى العرب. انظر الأهواني: (ألفاظ مغربية) من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة (جـ٢)، مجلة معهد المخطوطات العربية مج (٣)، جـ١، ١٩٥٧م، ص٢٩٧.

(٥) المولدون: جمع (مولد) وهم الجيل الجديد من الأبناء الذين آباؤهم من الأسبان المسلمين، ونشؤوا على دين آبائهم، وهذا على خلاف ما ذكره بعض الباحثين من أنهم أبناء المسلمين العرب والبربر الذين تزوجوا بنساء أهل البلاد (أسبانيا) بعد الفتح الإسلامي.

انظر عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٢٨.

للمسلمين[١]، وطالت فتنة هذا الثائر وامتد سلطانه حتى شمل كورة رية بما فيها مالقة، التي شاركت الثورة بالمال والرجال والسلاح، مما جعلها تتعرض أكثر من مرة لأعمال الحصار والقمع على يد جيوش الدولة الأموية، كما اتصل ملك هذا الثائر بالقواعد والأمصار، وتغلب على أكثر مدن ما بين الوسط والغرب حتى بات يهدد العاصمة قرطبة[٢] فضلاً عما قام به من الدعوة في أعمال (رية) لصاحب بصرة المغرب[٣] (إبراهيم بن القاسم) وصاحب أفريقية (عبيد الله الشيعي)[٤] مما أدى إلى تفاقم الحال وسوء المال، فهب أمراء بني أمية في وجه عدوهم اللدود ابن حفصون، ولم يقفوا موقف المتخاذل الضعيف، وإنما كانوا له بالمرصاد منذ البداية، فلو عاش الأمير المنذر بن محمد[٥] عاماً واحداً زائداً لم يبق برية متمرد[٦].

كما أن حملات الأمير عبدالله بن محمد[٧] تتابعت على أراضي ابن حفصون - الصوائف والشواتي - طوال فترة حكمه لا سيما بعدما أعلن ابن

---

(١) ابن حيان: المقتبس من أبناء أهل الأندلس، ص١٣٨، ١٣٩.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، ص٣٩، ٤٠.

(٣) البصرة: مدينة عامرة جميلة تقع في شمال المغرب. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، ص٥٣١.

(٤) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص٨٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (تاريخ أسبانيا الإسلامية) تحقيق ليفي بروفنسال، ط ٢، ١٩٦٥م، دار المكشوف. بيروت، ص٣٢.

(٥) المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ) تولى بعد أبيه، يكنى أبا الحكم. كان مولده في عام (٢٢٩هـ) مات وهو محاصر لقلعة ببشتر في عام (٢٧٥هـ). انظر الحميدي: جذوة المقتبس، (ص١١، ١٢).

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ (٢)، (ص١٢٠).

(٧) عبدالله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ): ولد في عام (٢٣٠هـ)، يكنى أبا محمد، كان وادعاً امتلأت في أيامه الأندلس بالفتن، ولم يزل كذلك طوال ولايته حتى وفاته في عام (٣٠٠هـ). انظر الحميدي: المصدر السابق، (ص١٢).

حفصون نصرانيته في عام (٢٨٦هـ /٨٩٩م)[١].

ولما تولى عبدالرحمن بن محمد[٢] في عام (٣٠٠هـ/ ٩١٢م) مقاليد الحكم الأموي أرسل في شهر رمضان من العام نفسه قائده سعيد بن عبدالوارث كي يضبط مدينة مالقة ويحميها من مضايقة ابن حفصون لأهلها ومهاجمة أراضيها، وعندما لم يكتف ابن حفصون بما قام به واستمر في عدوانه، سار الأمير عبدالرحمن بنفسه إلى مالقة، واستولى عليها، وقاتل أهل ما حولها من الحصون، ودمّر الغلات بعدما أخرج الخيل منها[٣].

كما استدعى الأمير عبدالرحمن - لحماية السواحل الأندلسية وقطع الإمدادات المغربية عن ابن حفصون - جملة من المراكب البحرية من مالقة وإشبيلية وغيرها، وأقامها بباب الجزيرة بعد أن شحنها بصنوف الأسلحة والعدد والآلات والركاب، من عرفاء البحر وسواسه وأمرهم بالتجول في سواحل البلاد من حد الجزيرة إلى تدمير، إضافة إلى أن الجيوش الأموية لم تتوانَ عن مهاجمة أملاك ابن حفصون بعد وفاته في ليلة الاثنين (١٤) من شعبان عام (٣٠٥هـ/ ٩١٨م)، بل تتبعت أبناءه جعفراً ثم سليمان ثم حفصاً حتى إن الأمير الناصر لدين الله خرج بنفسه في عام (٣١٥هـ/٩٢٧م) إلى مدينة مالقة، ونظر في حصونها، وولى عليها عبدالملك بن العاصي لمناورة أهل تلك الحصون.

ثم في عام (٣١٦هـ /٩٢٨م) هدم مدينة ببشتر بعد أن قضى على ثورة ابن حفصون[٤] التي استمرت حوالي نصف قرن من الزمان، استنزفت فيها جهود

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، (ص١٢٩).

(٢) عبدالرحمن بن محمد (٣٠٠-٣٥٠هـ) تولى الحكم وله (٢٢) سنة، وكان شهماً صارماً يكنى أبا المطرف، وتلقب بالناصر لدين الله، وتسمى بأمير المؤمنين عندما ضعفت الخلافة بالمشرق، ولم يبلغ أحد من بني أمية في الولاية مدته. انظر الحميدي: جذوة المقتبس، (ص١٣).

(٣) ابن حيان: المقتبس، جـ٥، ص٦٥، ٨٦، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ ٢، (ص١٧٣).

(٤) ابن حيان: المصدر السابق، جـ٥، ص٨٧، ١٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، وابن عذاري: المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٤.

بني أمية المادية والمعنوية، وبهذا تنتهي إحدى أكبر الثورات الداخلية في بلاد الأندلس المسلمة.

ومنذ ذلك الحين برزت مدينة مالقة بوصفها ذراعاً أيمن متقدماً في جسم الدولة الأموية، وباتت إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان التي جمعت بين مرافق البر والبحر، يقصدها التجار والمراكب من كل مكان(١).

وقد استمرت في هذا التألق حتى نهاية القرن الرابع الهجري - خلافاً لما ذكره أحد الباحثين(٢) - إذ كانت في عهد المستنصر بالله من أهم كور الأندلس التي وجه اهتمامه بها براً وبحراً(٣).

ومع بزوغ فجر القرن الخامس الهجري حدثت الفتنة الأندلسية العظمى بين الحكام الأمويين على السلطة، فاستقر الأمر لسليمان بن الحكم(٤)، ودخلت مالقة في طاعته، وسار البربر إليها، وعاثوا في نواحيها وقتلوا من أهلها(٥). ثم في عام (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) دخلها علي بن حمود العلوي(٦) قادماً من ولايته سبتة استجابة لطلب حبوس الصنهاجي(٧)

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٥٢، وشكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ١، ص١٩٣، Robes:Malaga Musulmana Tomo2. G، 462. p.

(٢) عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص١٢٨.

(٣) ابن حيان: المقتبس، تحقيق عبدالرحمن حجي، ص٧٨.

(٤) سليمان بن الحكم: هو ابن لسليمان بن عبدالرحمن الناصر، كنيته أبو أيوب، ولقبه المستعين بالله، تولى الخلافة مرتين. ولد يوم مولد هشام بن الحكم، وتوفي وعمره (٥٢) سنة. انظر ابن عذاري: المصدر السابق، جـ٣، ص٩١، ٩٢.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، ص١٠٢.

(٦) علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي العلوي. أول ملوك بني هاشم بالأندلس. لقبه (الناصر لدين الله) وكنيته أبو الحسن. انظر ابن عذاري: المصدر السابق، جـ٣، ص١١٩، ١٢٠.

(٧) حبوس بن ماكسن الصنهاجي، تولى إمارة غرناطة بعد زاوي بن زيري. انظر الأمير عبدالله: التبيان (مذكرات الأمير عبدالله)، تحقيق ليفي بروفنسال، ١٩٥٥م، دار المعارف. مصر، ص٢٥، ٢٦.

وخيران العامري[1] عندما أرسل إليهما كتاباً نسبه إلى هشام بن الحكم[2] نصه: «أنقذني من أسر البربر والمستعين، وأنت ولي عهدي»[3]. وقيل: بل إن علي بن حمود عندما كان يتولى سبتة وطنجة، راسل البربر، وحدث له طمع في حكم الأندلس، وكتب لهم بأن هشاماً أثناء محاصرته بقرطبة[4] راسله سرًّا، وكتب إليه يوليه عهده موصياً له بالخلافة من بعده، مستكتماً السر فيه إلى أوانه وبلوغ زمانه[5] «فاستجابوا له وبايعوه، فزحف من سبتة إلى مالقة، فأطاع له قائدها عامر بن فتوح الفائقي، وأدخله مالقة، فتملكها علي بن حمود، وأخرج عنها عامر بن فتوح»[6]. ويقال: إنه استولى عليها علي ابن حمود بالقوة عندما سار بجيشه إليها، وقتل قائدها، وأظهر أنه ما وصل إلا لنصرة هشام بن الحكم، فتوافد عليه أنصاره ومؤيدوه كخيران الصقلبي وحبوس الصنهاجي مع أقاربهم وأفراد قبيلتهم وغيرهم، وحارب بهم

---

(١) خيران العامري الصقلبي: كان جندياً في جيش أبي عامر ثم أول من استقل بمدينة المرية في عصر الطوائف، حتى كانت وفاته عام (٤١٩هـ). انظر ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، ص١٦٦.

(٢) هشام بن الحكم المستنصر: تلقب بالمؤيد بالله. قيل عنه: إنه فرَّ مأذوناً له أيام سليمان المستعين بالله، وقيل: إن محمد بن سليمان اغتاله خنقاً في (٥) ذي القعدة سنة (٤٠٣هـ). ويقال: إن علي بن حمود عندما دخل قصر قرطبة ومعه خيران طمع خيران في أن يجد هشاماً حياً فلم يجده، وذكر أنه قُتل وعرض عليه قبره، فأمر علي بنبشه، فأخرج الشخص وشهد أنه هشام وسليمان يتبرأ من دمه. انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٢٠، وابن بسام: الذخيرة، مجـ١، ص٤١.

(٣) ابن عذاري: المصدر السابق، ص١١٦.

(٤) قرطبة: مدينة كبيرة تقع على نهر الوادي الكبير في الأندلس، وهي عاصمة بني أمية. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٥٣، ١٥٤.

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم، حـ٢، ص١٩٨، وابن عذاري: المصدر السابق، ص١١٤.

(٦) ابن حزم: المصدر نفسه، جـ٢، ص١٩٨، والضبي: بغية الملتمس، ص٢٦.

سليمان بن الحكم[1]، ويقال: بل إن علي بن حمود اجتمع في المرية مع خيران الصقلبي وغيره من الفتيان، ثم ساروا إلى قرطبة «فخرج إليهم سليمان واقتتلوا، فانهزم سليمان وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه»[2]، ودخل علي قرطبة، فقتلهم جميعاً في يوم الأحد ٩ محرم عام (٤٠٧هـ/ ١٠١٦م)، وانتهت الخلافة الأموية لمدة محدودة، وقامت خلافة بني حمود وتسمى علي بن حمود بالخلافة، وتلقب بالناصر، وسار البربر في رعيته سيرة سيئة غليظة، فانتهى أجله على يد ثلاثة من صقالبته بحمام قصره في عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م)، فولي مكانه أخوه القاسم بن حمود، وتلقّب بالمأمون، وسار في الناس سيرة حسنة، فلم يغير مذهباً ولا عادة[3] حتى تغلب عليه رؤساء البربر والفتيان العامرية، فضعف أمره[4] فطالبه بالحكم ابن أخيه يحيى بن علي، وسار إلى مالقة من مركزه سبتة التي أرسل إليها أخوه إدريس حاكم مالقة[5] وثار بها على عمه في شهر ربيع الأول من عام (٤١٢هـ/١٠٢١م) وجمع الجيش وسار إلى قرطبة[6]، وقد شكاه عمه إلى رؤساء البربر، فلم يجيبوه، فهرب عن قرطبة إلى إشبيلية من غير قتال في ربيع الأول عام (٤١٢هـ/ ١٠٢١م)، فدخل يحيى قرطبة، وبويع له بها يوم الاثنين مستهل جمادى الأولى عام (٤١٢هـ/ ١٠٢١م)، وأعلن خلافته، وتلقّب بالمعتلي بالله

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، ص١١٦، ١٢٠. يقال إنه محمد بن سليمان.
انظر ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص١٩٨.
(٢) ابن بسام: الذخيرة، مج (١)، ق (١)، ص٤١.
(٣) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص١٩٨ وما بعدها، والضبي: بغية الملتمس، ص٢٧، والمراكشي: المعجب، ص٣٧.
(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٣٠ .
(٥) ابن عذاري: المصدر السابق، جـ٣، ص١٣١.
(٦) ابن حزم: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٠٠، والضبي: المصدر السابق، ص٢٧.

وكنيته أبو زكريا. وكان قد اجتمع على بيعته البربر والأندلسيون[١].

ولما قوي أمر عمه الخليفة القاسم بإشبيلية استمال البربر، وزحف بهم إلى قرطبة، فدخلها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة (٤١٣هـ/ ١٠٢٣م)، وفر ابن أخيه إلى مالقة التي استولى منها على الجزيرة الخضراء، ودعي له بأمير المؤمنين، كما استولى أخوه إدريس على طنجة، أما عمهم القاسم، فقد بقي بقرطبة متسمياً بأمير المؤمنين مدة (٧) أشهر وأياماً إلى أن خلعه أهل قرطبة في يوم الثلاثاء لتسع بقين من جمادى الآخرة من عام (٤١٤هـ/١٠٢٣م)[٢]، فسار إلى إشبيلية وكان بها ابناه محمد والحسن، ولما علم أهل إشبيلية بأمره طردوا ابنيه، وضبطوا البلد، فانصرف القاسم مستقراً بمدينة شريش، فحاصره يحيى مع جموع البربر، وقبض عليه وسجنه بمالقة حتى مقتله في عام (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م)[٣].

ثم عادت الخلافة بقرطبة مرة ثانية للأمويين، فتولى منهم في رمضان عام (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) عبدالرحمن بن هشام الأموي، المكنى بأبي المطرف، المتلقب بالمستظهر بالله. ولم يطل أمره؛ إذ قتل في ٢٧ من ذي القعدة من السنة نفسها، بسبب قيام ثورة عليه، فخلفه في الحكم محمد بن عبدالرحمن المستكفي بالله، وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير[٤]. وظل حتى خلعه أهل قرطبة، وعاد الأمر إلى الحموديين، حيث سعى قوم من المفسدين في رد دعوة يحيى بن علي الحمودي إلى قرطبة، فتم لهم ذلك[٥]، فدخلها يحيى يوم الخميس ١٦ رمضان عام (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) وقيل إنه تأخر

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص١٣١، ١٣٢.

(٢) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج ٢، ص٢٠٠، وابن عذاري: المصدر نفسه، جـ٣، ص١٣١ وما بعدها.

(٣) ابن عذاري: المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٥، والضبي: بغية الملتمس، ص١٨٢.

(٤) المراكشي: المعجب، ص٤١، ٤٢.

(٥) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠١.

في دخولها برغبته، واستخلف عليها عبدالرحمن بن عطاف اليفرني[١]، ثم خرج عنها إلى مالقة في نهاية السنة المذكورة، وانقطعت دعوته بقرطبة التي بقي بها وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن موسى[٢]. واستقر يحيى بمالقة دار ملكه، وصارت شريش والمرية وسبتة وطنجة والجزيرة الخضراء في طاعته، ويدعو له أصحابها بالخلافة[٣]، كما ظل يغادي قرطبة ويراوحها بالجنود حتى اتفقت على طاعته جماعة البربر، فسلّموا له الحصون والقلاع والمدن، ثم انتهى أجله بقرمونة، كما سنوضح ذلك في الفصل الأول. بينما عادت قرطبة للمرة الأخيرة في طاعة الأمويين، الذين تناوبوا على عرش خلافتها مع الحموديين، فكان آخر ملوكهم بالأندلس هشام بن محمد المعتد بالله، الذي بايعه أهل قرطبة في حصن ألبونت من جهة بلنسية[٤] في شهر ربيع الأول عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)، وظل يتنقل في الثغور حتى دخل قرطبة في ٨ ذي الحجة عام (٤٢٠هـ/ ١٠٣٠م)، ولم يقم بها طويلاً؛ إذ خلعته طائفة من الجند في شهر ذي الحجة عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م)، وأُبطل رسم الخلافة الأموية، واستولى على تدبير ملك قرطبة جهور ابن محمد بن جهور[٥] فانقطعت الدولة الأموية من الأرض، وانتشر سلك الخلافة بالمغرب، وقامت الطوائف بعد انقراض الخلائف[٦].

---

(١) عبدالرحمن بن عطاف: أحد رجال البربر من يفرن الصنهاجية. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص١٨٤.

(٢) أحمد بن موسى: أحد وزراء دولة بني حمود. يعرف بابن بقنة. انظر ابن عذاري: البيان المغرب ج٣، (ص١٤٤، ٢٨٩).

(٣) ابن عذاري: المصدر نفسه، ج٣، (ص١٤٣، ١٤٤)، وابن حزم: رسائل ابن حزم، ح٢، (ص٢٠٠، ٢٠١).

(٤) بلنسية: مدينة سهلية في شرق الأندلس وقاعدة من قواعدها. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص٤٧).

(٥) المراكشي: المعجب، ص٤٤. جهور بن محمد: كان من وزراء الدولة العامرية، قديم الرياسة، موصوفاً بالدهاء والعقل، ضبط مدينة قرطبة وحماها حتى مات في صفر (٤٣٥هـ). انظر ابن حزم: المصدر السابق، جـ١، (ص٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤).

(٦) المقري: نفح الطيب، ج١، (ص٤٣٨).

الفصل الأول

مالقة منذ عصر الطوائف

حتى نهاية دولة الموحدين فيها ٤٢٢-٦٢٦هـ

١- مالقة في عصر الطوائف (٤٢٢ - ٤٨٣هـ).

أ- مالقة في عصر بني حمود (٤٢٢ - ٤٤٨ - ٤٤٩هـ).

قامت في أوائل القرن الخامس الهجري دولة بني حمود بمالقة - على يد مؤسسها علي بن حمود العلوي - بمساعدة الصقالبة[١] والبربر المغاربة.

وحاول حكام هذه الدولة - من أجل قيام خلافه علوية سنية تحكم الأندلس - القضاء على دولة بني أمية التي كانت تحكم من قرطبة العاصمة حكماً صورياً منذ فترة من الزمن، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، وإن كانوا أقاموا خلافة في قرطبة لفترة محدودة متقطعة.

وفي ظل غياب المسؤولية واستمرار الفتنة سقطت الخلافة الأموية في شهر ذي الحجة عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م)[٢] وقام في تاريخ الأندلس الإسلامي ما يعرف بعصر ملوك الطوائف[٣] الذين اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن

(١) الصقالبة: هم الشعوب التي كانت تسكن بلغاريا العظمى، وعندما سبيت وبيعت تلك الشعوب على المسلمين في أسبانيا أطلقوا عليهم هذا الاسم الذي توسع، فأصبح يطلق على الأرقاء من كل أمة مسيحية. انظر ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي. القاهرة، (ص١٠٦)، والمقري: نفح الطيب. مج ١، ص١٤٥، والعبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٩٧، ١٩٨.

(٢) الحميدي جذوة المقتبس، (ص٢٦)، وابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص١٥٣، ١٨٥.

(٣) رؤساء من العرب والبربر والموالي ثار كل منهم في طائفة بناحية من نواحي الأندلس، وتلقبوا بألقاب الخلفاء. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص١٨١، ١٨٢.

الكبار، وانتحلو الألقاب على اختلاف أجناسهم وأشكالهم وألوانهم، ذاهبين من الانشقاق والافتراق إلى ما لم يذهب إليه كثير من أهل الأمصار، كما كان بينهم «من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يكن بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات»[1] وكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3].

وأصدق تعبير يقال عن هؤلاء الملوك قول الشاعر ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[4]

وخرج من بين هؤلاء الحكام في الأندلس بنو حمود في مالقة. وكان يتولى منصب الخلافة منهم في تلك الفترة أمير المؤمنين يحيى بن علي الحمودي، وكان قد نافسه على هذا المنصب بقرطبة أيام بني أمية عمه القاسم بن حمود، ولكنه تغلّب على عمه، فقويت دولته فخافه، ونافسه ملوك الطوائف، وعلى رأسهم أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي ملك إشبيلية[5]، الذي - رغم أن يحيى الحمودي عينه على الإمارة بإشبيلية سابقاً[6] - إلا أنه كان يرغب في إسقاط خلافة بني حمود، وقيام خلافة

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٤٤، ٢٤٢.

(٢) سورة الأنفال، آية رقم (٤٦).

(٣) سورة المؤمنون، آية رقم (٥٣).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٤٢.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٣، ص١٣٥.

(٦) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٧٩)، وابن عذاري: المصدر نفسه، ج٣، ص٣١٥.

أندلسية شرعية تجمع كلمة المسلمين، وتؤلف قلوبهم تحت مظلة دولته الطامعة في حكم الأندلس الجنوبي[1]، لا سيما بعدما انتهت دولة بني أمية، والفتنة بين الزعماء مازالت تجري على قدم وساق.

لذا نجده - لكي يدفع خطر يحيى الحمودي في عام (٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م)[2] - يخرج هشام بن الحكم المزيف، ويدعو الناس إلى الدخول في طاعته ومبايعته، فأجابه بعض زعماء الأندلس كعبدالعزيز بن أبي عامر[3] صاحب بلنسية وأعمالها، والموفق[4] صاحب دانية[5] والجزائر الشرقية[6] وصاحب طرطوشة[7]، والوزير أبي الحزم ابن جهور صاحب قرطبة، وأقروا خلافته[8]. وقيل: بل بسبب هذه المبايعة خاطب يحيى الحمودي في عام (٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) باديس بن حبوس الصنهاجي، ومحمد بن عبدالله البرزالي[9] في مهاجمة

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج ٢، ص٢٠٥.

(٢) يقال إنه في عام ٤٢٧هـ وهو تاريخ غير دقيق؛ لأن يحيى قتل في أول شهر من هذا العام. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٨، ٣١٥.

(٣) عبدالعزيز بن عبدالرحمن، لقّب بالمنصور، من الموالي العامريين، ظل يحكم بلنسية حتى وفاته عام ٤٥٢هـ.

انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣ ص١٦٤، ١٦٥.

(٤) مجاهد العامري من كبار بني عامر كان من أهل العلم والمعرفة والشجاعة والسياسة.

انظر ابن عذاري: المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٥.

(٥) دانية: مدينة في شرق الأندلس على شاطئ البحر المتوسط.

انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٧٦.

(٦) ميورقة ومنورقة ويابسة. انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص١٥٥.

(٧) طرطوشة: مدينة الثغر الأعلى على ساحل البحر المتوسط.

انظر المراكشي: المعجب، ص٢٦٦.

(٨) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص١٩٠.

(٩) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٥٨، ٣٦١. ومحمد بن عبدالله البرزالي أبو عبدالله، بويع بقرمونة عام ٤٠٤هـ، وكان رجلاً شجاعاً. توفي عام ٤٣٤هـ.

انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٣١١.

إشبيلية. ولما اعتذرا إليه أقدم يحيى بنفسه على مهاجمتها، وضيق الحصار عليها[١] من قرمونة التي استولى عليها من صاحبها البرزالي الذي فر إلى إشبيلية[٢] محتمياً بابن عباد.

والحقيقة أن شخصية هشام المؤيد هذا اختلف فيها اختلافاً كبيراً[٣]. والصواب: أنه خلف الحصري الشبيه بهشام[٤]، إذ كان يقول وقد أحضره ابن عباد إلى إشبيلية من قلعة رباح[٥] بعد أن كان مختفياً بمالقة ثم المرية: «لست بالذي تعنون ولا بالذي تطلبون»[٦] هذا فضلاً عن أن هشاماً أمير المؤمنين قتل في عهد الخليفة المستعين بالله[٧]، وقد أقدم علي بن حمود على قتل أسرة المستعين بسبب هذا الجرم، وظل يقول: «هذا جزاء من قتل هشام المؤيد»[٨].

ويؤكد ذلك أن هشاماً مات وعمره (٤٦) سنة وأيام أو شهور[٩]، وحين تولى الحكم في عام (٣٦٦هـ/ ٩٧٧م) كان عمره (١٠) سنوات وأشهراً[١٠]، وبهذا تكون وفاته في عام (٤٠٢هـ/١٠١١م) أو نحوها[١١]. ويذكر ابن الخطيب غير ذلك، ويقول: إنّ سنه يوم الخلع ٤٨ سنه و٤ أشهر، ووفاته خنقاً على يد

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٥٨، ٣٦١.

(٢) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، ص٣٦١.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٩٠.

(٤) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص٣٥٩.

(٥) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص١٩٠. قلعة رباح: مدينة حسنة تأسست أيام بني أمية، وهي من أعمال ولاية جيان. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٦٣.

(٦) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص١٩٠، ٢٠٠.

(٧) الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٧.

(٨) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص١١٧.

(٩) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٦٠.

(١٠) الحميدي: المصدر السابق، ص١٧.

(١١) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص٣٦٠.

محمد بن سليمان المستعين بالله كانت في خمس من ذي القعدة سنة (٤٠٣هـ/ ١٠١٣م). ورغم ذلك، فقد ظلت دعوة خلف الحصري قائمة على منابر الأندلس في أوقات مختلفة وتتصارع الجيوش في أمره حتى حدود عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)(١). والحقيقة أن ابن عباد عندما رأى طمع يحيى بن حمود في أخذ إشبيلية، سارع في إرسال جيش إلى قرمونة تحت قيادة ابنه إسماعيل(٢) برفقة محمد البرزالي.

وحالما وصل الجيش خرج إليه يحيى وهو سكران إلى خارج قرمونة بقربها في نحو (٣٠٠ فارس)، ووقع بين الطائفتين صراع غير متكافئ، كمن العباديون فيه ليحيى، فانتهى بمقتله في يوم الأحد السابع من شهر محرم عام (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م)، وأرسل رأسه إلى ابن عباد بإشبيلية، فعم الفرح أرجاء المدينة ودفنه على أيام المرابطين(٣) وقد كان يحيى هذا «أشجع بني حمود وأكرمهم»(٤). وأهم ما ترتب على مقتله:

١- ازدياد تدخل البربر والصقالبة في شؤون حكم الدولة الحمودية(٥).

٢- ضياع بعض الأراضي الحمودية، وأولها (قرمونة)، بتغلب محمد البرزالي عليها بأمر ابن عباد، وقيل: خرج إليها بنفسه، وملكها من مؤيدي يحيى بن علي حينما دخلها حيلة من بعض الأماكن، واستولى عليها(٦)، كما

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص١٢٠، ١٤٣).

(٢) إسماعيل بن محمد بن إسماعيل: كان قائد الجيوش في عهد أبيه حتى وفاته عام (٤٣١هـ). انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٩٩.

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص٢٠١، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٤، والمراكشي: المعجب، ص٤٠، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، ص١٨٨، ١٨٩، ١٩٩، ٢٠٦، ٢٠٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٣٧.

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٦١.

(٥) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٤.

(٦) ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٣، ص١٨٩، ١٩٩، وابن الخطيب: المصدر السابق، ص١٣٧، ١٤٠.

انفصلت عن الدولة الحمودية بلاد الجزيرة الخضراء تحت قيادة محمد والحسن ابني القاسم بن حمود؛ فما إن وصل خبر مقتل يحيى إلى أبي الحجاج المغربي الموكّل بابني القاسم إلا وجمع من كان في الجزيرة من المغاربة والسودان قائلاً لهم: هذان سيداكم. فسارع الجميع إلى الطاعة لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثاراً لهم، فتولى محمد حكم الجزيرة، بينما اعتزل أخوه الحسن الحياة السياسية بعد مدة(١).

ومن هذا نستدل - على الأرجح - بأنه لو كان القاسم بن حمود حيّاً لكان أجدر بتولي حكم الجزيرة من أبنائه، لا سيما أنهم كانوا سوياً في السجن بمالقة، غير أنه قتل خنقاً في اليوم الخامس من شهر شعبان عام (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) على عهد إدريس بن علي الحمودي، وقيل على عهد يحيى نفسه(٢) عندما نمى إليه رغبة السجين في الثورة(٣)، وهذا ينفي مقتله في عام (٤٣١هـ/ ١٠٣٩م) إلا أن يكون القاسم بن حمود سجيناً بمفرده في مالقة عند يحيى ثم أخيه إدريس، بينما كان أبناؤه بالجزيرة(٤).

٣ - كان من أهم نتائج مقتل يحيى بن علي تولي أخيه إدريس الحكم بمالقة عندما استدعاه من مقاطعته المغربية (سبتة وطنجة) أحمد بن أبي موسى ونجا الخادم الصقلبي، وهما مدبّرا دولة الحموديين، فجاء إلى مالقة وبويع بالخلافة في أواخر عام (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) وتلقّب بالمتأيد بالله، بشرط أن يجعل حسن ابن يحيى والياً مكانه على سبتة(٥)، وكان ممن بايعه على هذا المنصب زهير

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٥، ٢٠٦، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٠، والمراكشي: المعجب، ص٤٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٢٤، ١٢٥، ١٤٤، ١٩٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٣٢.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٤٨٨.

(٤) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٠، ٢٠٥.

(٥) ابن حزم: المصدر نفسه، حـ٢، (ص٢٠٤)، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٩، والمراكشي: المعجب، ص٤٦.

العامري[1] صاحب المرية، وحبوس الصنهاجي صاحب غرناطة وغيرهما[2].

ولمَّا طمع محمد بن عباد في التغلب على جنوب وجنوب شرق الأندلس، لا سيما بعد مقتل خصمه يحيى وخروج البرزالي عن طاعته، أرسل ابنه إسماعيل على رأس حملة حاصر فيها قرمونة واستولى على إستجة، وأشونة[3]، وقد كانتا لمحمد البرزالي الذي استصرخ بحبوس الصنهاجي صاحب غرناطة فأتاه وبإدريس الحمودي الذي أمده بجيش يقوده وزيره أحمد بن بقنة، ولمَّا اجتمعوا مع البرزالي خافوا لقاء العباديين، فانصرف كل واحد منهم إلى دولته، وعندما وصل خبر انصرافهم لإسماعيل أسرع في اللحاق بصاحب غرناطة الذي أرسل لابن بقنة يسترجعه فرجع إليه، وما إن تراءت الفئتان حتى نكص العباديون على أعقابهم، وكان إسماعيل قائدهم أول قتيل منهم فحمل الظافرون رأسه إلى الخليفة إدريس في شهر محرم من عام (٤٣١هـ/١٠٣٩م)[4] ثم في يوم الاثنين (١٦ محرم) من العام نفسه توفي الخليفة إدريس بعد انتقاله من العاصمة مالقة إلى حصن ببشتر مريضاً، وتم دفنه بسبتة. وكانت مدة حكمه أكثر من أربع سنين سار فيها مع الرعية سيرة حسنة[5] ثم

---

(١) زهير العامري: تولى حكم المرية بعد حكم صاحبه خيران في عام (٤١٩هـ). انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٦٦.

(٢) البكري: المسالك والممالك، ج٢، ص٣١٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٤٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص١٨٥.

(٣) أشونة Osuna: حصن من كورة إستجة بالأندلس في شرق إشبيلية، كانت عاصمة كورة صغيرة تحاذي إقليم رية. انظر الحميري: الروض المعطار، ص٢٣، والفاسي: الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البينة، ص٢١.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٩٩، وابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٥، والمراكشي: المعجب، ص٤٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص١٨٥.

(٥) ابن عذاري المصدر نفسه، ج٣، ص٢٨٩، وابن حزم: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٥، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٩، ٣٠.

بايع وزيره ابن بقنة ابنه يحيى بالخلافة في نفس يوم وفاته، وتكنى بأبي زكريا، واتخذ لنفسه لقب القائم بأمر الله، ودام ملكه سنتين، واعترفت به مناطق الدولة الحمودية سوى المنطقة التابعة لهم في الجناح المغربي؛ إذ ثار فيها حسن بن يحيى حاكمها - وولي العهد الشرعي - وتحرك برفقة أخيه إدريس والقائد نجا الصقلبي في أسطول بحري صوب مالقة بعد أن بايعته المقاطعة المغربية بالخلافة لضبط الأمور، وعزل يحيى عن السلطة(١).

وهناك رأي مغاير جاء فيه: أن يحيى بن إدريس المعروف بـ (حيون) لم يتول الخلافة الحمودية، وإنما رغب ابن بقنة في مبايعته بالخلافة، لكنه خاف وتراجع وهرب لحصن قمارش، لما علم بوصول الأسطول المغربي إلى ميناء مالقة(٢). وانتهى الأمر في عام (٤٣١هـ/ ١٠٤٠م) بعد حصار شديد باستسلام يحيى بن إدريس وتولي حسن بن يحيى الملقب بالمستنصر بالله الخلافة، وبايعه بربر مالقة وغرناطة وجملة من بلاد الأندلس(٣)، وسار الحسن المستنصر بالله في رعيته سيرة العدل حتى انقضى أجله في عام (٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م) عندما سمته زوجته ثأراً لأخيها (يحيى) الذي أقدم حسن على قتله بسبتة - لمَّا خشي بقاءه - مثلما قتل ابن بقنة بعد أن أعطاه الأمان(٤).

أما القائد نجا، فقد رجع إلى الضفة المغربية بعد أن ترك في مالقة مع

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، ص٢٠٦، والمراكشي: المعجب، ص٤٨، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، ص٢١٦، ٢٨٩.

(٢) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٦، والحميدي: المصدر السابق، ص٣٠، والمراكشي: المصدر السابق، ص٤٧، ٤٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٨٩، ٢٩٠، وابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٦، والبكري: المسالك والممالك، ج٢، ص٣١٧.

(٤) ابن حزم: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٦، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٣١، وابن عذاري: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٠.

المستنصر بالله وزيراً تاجراً يعرف بعبد الله السطيعي أو السطيفي، الذي سيطر على الأمور بسرعة، فاعتقل إدريس بن يحيى أخا الخليفة، وأرسل بالخبر إلى نجا الصقلبي[(١)] وقيل: إن إدريس كان معتقلاً منذ خلافة أخيه[(٢)]. وكان للحسن بن يحيى ولد صغير بسبتة عند أبي الفوز نجا فاغتاله. وقيل: إنه بايعه[(٣)] ثم اجتاز البحر إلى مالقة، وخلّف وراءه من يثق به من الصقالبة، وهو عازم في هذه المرة على تولي السلطة بنفسه وإعلان الدولة الصقلبية والقضاء على دولة بني حمود[(٤)].

وحالما وصل اجتمع البربر وبايعوه في الظاهر، فتغلب على مالقة وأعمالها، واستبد بالسلطة، وسار إلى الجزيرة الخضراء، لاستئصال محمد بن القاسم الحمودي، فحاربها أياماً، وعندما شعر بتخاذل البربر من جيشه فك الحصار عن الجزيرة وعاد إلى مالقة، وبينما هو في الطريق اغتاله بعض منهم في عام (٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م)[(٥)].

ثم تقدم فارسان منهم يركضان حتى وردا مالقة، ودخلا وهما يقولان: البشرى البشرى. ولمّا وصلا إلى السطيفي وضعا سيوفهما عليه فقتلاه[(٦)]، وقيل: بل إن العامة ثارت عليه فقُتل[(٧)].

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٦، والمراكشي: المعجب، ص٤٨، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٤٥.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢١٦.

(٣) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٦، ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢١٦.

(٤) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٦، الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٣١).

(٥) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٦، والحميدي: المصدر السابق، ص٣١، وابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢١٦، ٢١٧، ٢٩١.

(٦) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٧، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٣١، ٣٢، والمراكشي: المعجب، ص٤٩.

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٩١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص١٨٥، ١٨٦.

وفي قول آخر: إن نجا الصقلبي عندما عبر البحر سار أولاً إلى الجزيرة الخضراء لإخراج ابني القاسم بن حمود، فخرجت له أمهما (سبيعة)، وقالت له: يا أبا الفوز «أتقطع مواليك وتكشفهم عن البلاد؟ ما هذا بحسن». فاستحيى منها وانصرف إلى مالقة.

وبينما هو في الطريق قتله بربر برغواطة أخوال حسن بن يحيى[1] وعاد الأمر للحموديين، وبايع البربر ورؤساؤهم بمالقة إدريس بن يحيى يوم الخميس السادس من جمادى الآخرة عام (٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م)، بعد أن أخرجوه من سجنه ولقبوه العالي بالله، وخطبوا باسمه، فأطاعته غرناطة وقرمونة وما بينهما[2].

وكان العالي بالله الحمودي حاكماً متناقض الشخصية، فكما كان صاحب ملك عظيم ومجلس شعري كريم، رفيع الذكر رحيم القلب أديب اللقاء، كان ضعيفاً، لا يصاحب ولا يقرّب إلا كل ساقط دنيء، ولا يتردد في إعطاء ما يمتلكه من حصون بلاده لجيرانه من البربر كصنهاجه[3]، مما أغضب جنده سودان قصبة مالقة عليه، فراسلوا ابن عمه محمد بن إدريس بعد أن ثار صاحب حصن (إيُرش)[4] على العالي بالله، وأخرج محمداً المذكور من سجنه، وامتنع السودان بالقصبة، فاجتمع أهل مالقة يطلبون من إدريس مهاجمة القصبة، فلم يأذن لهم، وقال: (الزموا منازلكم ودعوني) فسلم الحكم لابن عمه - بعد حروب عنيفة كما يذكر ابن عذاري - في رجب عام (٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م)[5] وذلك عندما أقفل أهل

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢١٦، ٢١٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٤١.

(٢) البكري: المسالك والممالك، ج٢، ص٣١٧، ابن عذاري: المصدر نفسه، ج٣، ص٢١٧، ٢٩١، وابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، ص٨٦١، ٨٦٢، والمراكشي: المصدر السابق، ص٤٩.

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٧، والحميدي: المصدر السابق، ص٣٢، والمقري: نفح الطيب، ج١، ص٤٠٨.

(٤) أيَرش: وردت بالفتح عند الحميدي. انظر جذوة المقتبس، ص٣٢.

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٧، وابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٩١، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٢.

مالقة باب المدينة في وجهه أثناء خروجه في إحدى المرات للصيد، فسار مضطراً إلى حصن ببشتر أو قمارش مع عبيده وجنده، ثم هاجم مالقة وحاصرها من هناك مع باديس بن حبوس[1]، الذي بدأ تدخله في شؤون الدولة الحمودية يظهر جلياً منذ هذه اللحظة، ولكنهما لم يفوزا بطائل، ورجع إدريس إلى الحصن ومنه خرج بأهله وعياله، وجاز البحر إلى طنجة وسبتة لاجئاً عند رزق الله وسكوت البرغواطيين[2] اللذين كان قد عينهما في أول ولايته[3].

هذا في الوقت الذي قد بويع فيه محمد بن إدريس بالخلافة وتلقَّب بالمهدي، وجعل ولاية عهده لأخيه السامي، ولكن عندما استراب في تصرفاته وولائه له نفاه إلى المغرب، فأقام بين قبيلة غمارة البربرية الموالية للحموديين واختفى ذكره[4].

وكان محمد المهدي رجلاً شديد الجرأة شجاعاً، ساعدته أمه في حروبه، فاستطاع أن يضبط البلاد ويحسن تدبيرها مدة حياته بمالقة[5]، فقد أطاعته غرناطة وجيان[6] وأعمالهما[7]، ولمَّا رأى البربر - وهم عماد دولته - سوء

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢١٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص١٨٦.

(٢) سكوت أو سقوت أو سواجات البرغواطي من قبيلة برغواطة البربرية. انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٣١.

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٧، وابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢١٧، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٣، والمراكشي: المعجب، ص٥٠.

(٤) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٧، ٢٠٨، والحميدي: المصدر السابق، ص٣٣، والمراكشي: المصدر نفسه، ص٥١.

(٥) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٧، ٢٠٨، وابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢١٧، ٢٩٢، والمراكشي: المصدر السابق، ص٥٠.

(٦) جيان Jaen مدينة تقع على سفح جبل عال في بلاد الأندلس، ويتبعها أقاليم عدة وكانت تسمى عندالرومان Auringis.

انظرالحميري: الروض المعطار، ص٧٠، ٧١، الفاسي: الأعلام الجغرافية، ص٢٦.

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص١٨٦.

سلوكه ومعاملته لهم استكرهوه، وراسلوا ابن عمه إدريس بن يحيى بمداخلة صاحب الحصن الذي قام بالثورة[1]، غير أن المهدي كان قوي العزيمة، فثبت لهذه الثورة وقاومها، حتى اضطر البربر إلى التخلي عن مساعدة إدريس العالي بالله، وإرساله إلى عبيد أبيه البرغواطيين من الضفة المغربية، اللذيْن أظهرا له التعظيم والإجلال، وخاطباه بالخلافة اسمياً، غير أنهما خافا من وجوده على سلطانهما، فأرسلاه إلى الأندلس وخطبا لإدريس بالخلافة[2]، فسار إدريس إلى رندة[3] وأقام ينتظر الفرج عند صاحبها أبي نور بن قرة اليفرني[4] الذي دعا له بالخلافة[5]، كما أن زعماء البربر قد نكثوا بيعة محمد المهدي وبايعوا محمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء وما إليها بالخلافة، وخطبوا له بجميع بلادهم ولقبوه بالمهدي - وأصبح هناك خليفتان حموديان لقبهما المهدي - وصار الأمر في غاية الفضيحة، أربعة خلفاء في مسافة ثلاثة أيام على رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها كلهم مُتسمّون بأمير المؤمنين؛ وهم: خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام المؤيد، ومحمد بن القاسم بالجزيرة، ومحمد بن إدريس بمالقة، وإدريس بن يحيى بسبتة[6]، وكان زعماء البربر باديس بن حبوس صاحب غرناطة، وإسحق بن

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٧، والمراكشي: المعجب، ص٥٠.

(٢) ابن حزم: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٧، ٢٠٨، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٣، والمراكشي: المصدر نفسه، ص٥٠.

(٣) رندة (Ronda) : مدينة قديمة تقع في شرق مالقة على نهر ينسب إليها في ولاية تاكرنا. انظر الحميدي: المصدر نفسه، ص٧٩.

(٤) أبو نور هلال بن دوناس اليفرني حاكم (تاكرنا) وأعمالها. توفي في عام (٤٤٩هـ). انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٣١٢.

(٥) ابن عذاري: المصدر نفسه، ج٣، ص٢١٧، والمراكشي: المصدر السابق، ص٥١.

(٦) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٨، وابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٤٤، والحميدي: المصدر السابق، ص٢٣، والمراكشي: المصدر السابق، ص٥١.

محمد صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح صاحب مورور[1]، وعبدون بن خزرون صاحب أركش[2]، ولحق بهم فتح الله بن يحيى من أمراء ولبة الغرب[3] وابن الأفطس صاحب بطليوس[4]، قد ساروا سوياً لمهاجمة المعتضد بن عباد[5] بإشبيلية، فحاصروا بلاده أياماً قاموا خلالها بعملية تخريب واسعة للبلاد، غير أنهم لم ينتصروا عليه، وعادوا من حيث أتوا في عام (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م)[6]، وبعد أيام قلائل توفي محمد بن القاسم، وخلفه على الحكم ابنه القاسم بن محمد الملقب بالمستعلي[7] وهو آخر لقب شرفي اتخذه حكام بني حمود.

أما محمد المهدي، فنتيجة لسياسته وسيرته السيئة مع الرعية انتهت حياته باغتياله عندما بعث له صاحب غرناطة باديس - الذي كان من أشد المعارضين له منذ توليه الخلافة - بكأس مسمومة مع أحد رجاله، وما إن حاول الشرب منها حتى استراب في الأمر، ثم مات من رائحته بعد أيام في

(١) مورور: هي كورة متصلة بأحواز قرمونة من جزيرة الأندلس، وتقع في شمال غرب كورة شذونة المتصلة بها. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٨٨.

(٢) أركش (Arcos): مدينة قديمة خرِّبت مراراً ثم عُمِّرت. تقع على وادي لكة بين شريش ورندة. انظر الحميري: المصدر نفسه، ص١٤، والفاسي: الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البينة، ص١٩.

(٣) ولبة: بلدة في غرب الأندلس بين إشبيلية وشلب، وربما هي لبلة. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٠٤، ٢٤٠، ٢٤١.

(٤) بطليوس (Badajos): مدينة جليلة تقع على بسيط من الأرض تتبع إقليم ماردة، وهي حديثة البناء، بناها عبدالرحمن بن مروان بإذن الأمير عبدالله، وكانت عاصمة لبني الأفطس أيام ملوك الطوائف. انظر الحميري: المصدر السابق، ص٤٦.

(٥) المعتضد بالله عباد بن إسماعيل اللخمي أبو عمرو، تولى حكم إشبيلية عام ٤٣٣ هـ. انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٠٤.

(٦) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٢٩، ٢٣٠. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٤٢.

(٧) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٨، وابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٠، والحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٤.

أواخر عام (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)[١]، وقيل (٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م) بعاصمته مالقة[٢].

وبعد وفاته بويع ابن أخيه إدريس بن يحيى بن إدريس بالخلافة في مالقة، وتلقب بالسامي[٣] بينما بويع بحصن قمارش إدريس العالي بالله الذي كان مقيماً عند بني يفرن برندة[٤]، فطالبه عوام أهل مالقة القدوم عليهم لمبايعته، فسار نحوهم ودخل مالقة، وأطلق العنان لمن كان معه لفعل ما شاء، ففر الكثير من أمامهم، واستقر الأمر للعالي بالله، وظل يحكم بها حتى وافاه الأجل في عام (٤٤٦ أو ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)[٥]، هذا في وقت قد غادرها السامي حينما علم بالأمر إلى العدوة المغربية في زي تاجر، وهناك نزل بريف غمارة وقبض عليه سواجات البرغواطي في سبتة وقتله[٦].

وبعد وفاة العالي بالله تولى السلطة في مالقة ابنه محمد - آخر خلفاء بني حمود - وتلقّب بالمستعلي، وخُطب له بمالقة والمرية ورندة[٧].

وكان أبرز ما حدث في عهده سقوط ملك بني حمود على يد باديس بن حبوس الصنهاجي حاكم غرناطة للأسباب التالية:-

١- تنازع أسرة بني حمود على السلطة، وانقسامهم على أنفسهم، وترك شؤون المملكة لمن هم دونهم من الوزراء والقواد واكتفاؤهم بلقب الخلافة[٨].

٢- خوف باديس بن حبوس من ابن عباد صاحب إشبيلية بمهاجمة مالقة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢١٨.

(٢) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص٢٠٨، والمراكشي: المعجب، ص٥١.

(٣) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢١٨، والمراكشي: المصدر نفسه، ص٥١.

(٤) ابن حزم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٨.

(٥) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٤٣٥.

(٦) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢١٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٤٢.

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص١٨٦.

(٨) الأمير عبدالله: التبيان، ص٤٣.

وانتزاعها في ظل الحروب المستمرة بينهما، خاصة وأن قوته في ازدياد[1].

٣- عدم إخلاص باديس بن حبوس لحكام مالقة في الفترة الأخيرة والدعوة لهم مثلما كان عليه في السابق[2]، وإنما اكتفى بالتبعية الاسمية، في الوقت الذي ظل يعاود مالقة بالحرب عدة سنوات منذ تولي محمد المهدي الخلافة.

٤- طمع باديس بن حبوس في ضم مالقة لدولته وشعوره بأحقية الاستيلاء عليها[3] خاصة وأنه كان أقوى زعماء البربر وأعظمهم، في الوقت الذي تولى حكم مالقة محمد بن إدريس المستعلي وهو غلام[4].

٥- الاعتماد على العنصر البربري الذي تمتع بنصيب وافر من الثروة والنفوذ والسلطة والسيطرة على الأمور في أواخر عهد الدولة الحمودية.

٦- التنافس المحموم بين عناصر المجتمع المالقي، وتحديداً بين البربر والصقالبة، الذين أصبحوا يولون الخلفاء ويعزلونهم عن منصب الحكم.

٧- تحريض بعض رجال باديس وأقربائه بالاستيلاء على مالقة؛ إذ يقول المعز ابن باديس[5]: «يخاطبني صاحب غرناطة بأخذ الكور والقرى. أما إنه لو أخذ مثل قرطبة ومالقة وما أشبههما من القواعد كنا نبايع له»[6].

وتنفيذاً لذلك أخذ باديس بن حبوس يراسل وزير ورجال المستعلي حاكمها، ويستميلهم بالمال والوعود حتى تمكن منهم، ثم أرسل جيشه بقيادة يحيى بن

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٧٣، والأمير عبدالله: التبيان، ص٤٢.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص٤٣٥.

(٣) الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٤٣.

(٤) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٦.

(٥) المعز بن باديس بن المنصور بن بلجين بن زيري بن مناد، تولى ولاية القيروان وهو طفل صغير بعد أبيه. انظر الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٢٤.

(٦) الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٤٣.

يفران التلكاني[١] فدخلها بعد معركة قوية في يوم الثلاثاء ربيع الآخر سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)[٢] وقيل في عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م)[٣] وخلع المستعلي بالله وخيّره ما بين الخروج والبقاء في مالقة، فاختار الخروج إلى المرية، واستدعاه أهل مدينة مليلة المغربية[٤] من الشاطئ الأفريقي لمبايعته، فسار إليهم وبايعوه في عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) فظل بها حتى وفاته في عام (٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)[٥].

وبهذا السقوط لم يبق للحموديين سوى مقاطعة الجزيرة الخضراء التابعة للقاسم بن محمد، فأرسل إليها ابن عباد صاحب إشبيلية جيشاً برياً وآخر بحرياً لانتزاعها بقيادة وزيره عبدالله بن سلام[٦] الذي حاصرها، فلم يستطع حاكمها المقاومة، وتنازل عن الملك بعد أن تلقى الأمان، ثم رحل إلى المرية بحراً، واستقر بها عند المعتصم بن صمادح[٧] حتى وفاته في عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)[٨].

ومما هو جدير بالذكر أنه في أواخر سنة (٤٤٩هـ/ ١٠٥٨م) خُطب لأبي نصر فتوح بن هلال اليفرني على منبر مالقة، وجاءته بيعة بلاد رية مثلما حصل لوالده قبل ذلك[٩].

---

(١) يحيى بن يفران: زعيم صنهاجة. ساءت العلاقة بينه وبين باديس فكان مقتله في المعركة التي قادها. انظر الأمير عبدالله: التبيان، ص٥٧، ٥٨.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٢١، وابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص٤٣٥.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٤٣٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص١٨٦.

(٤) مليلة: مدينة قديمة مسورة من أعمال كورة بسكرة. انظر البكري: المسالك والممالك، ج٢، ص٢٦٥.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٦٦، والمقري: المصدر السابق، ج١، ص٤٣٥.

(٦) عبدالله بن سلام: أبرز قواد ابن عباد. قتل في عام (٤٤٦هـ). انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٤٣.

(٧) المعتصم بن صمادح محمد بن معن أبو يحيى. ولد في عام (٤٢٩ هـ) وتولى الحكم في عام (٤٤٣ هـ) وتوفي في عام (٤٨٤هـ). انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص١٦٧، ١٩٢.

(٨) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٣١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٤٢.

(٩) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢١٢، ٢١٣.

وكيفما كان الأمر، فإنه بعد أن أقام بنو حمود العلويون دولة عظيمة اتخذوا مالقة عاصمة لها في جنوب الأندلس، وامتد سلطانهم حتى شمل الطرف الشمالي من المغرب الأقصى لفترة زمنية تقارب الخمسين عاماً رجعوا بعد سقوط دولتهم إلى مكانهم الأصلي يقضون بقية حياتهم، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ب - مالقة في عصر بني زيري[(١)] (٤٤٨ - ٤٤٩هـ / ٤٨٣هـ):

قام باديس الحاجب المظفر بالله بعد الاستيلاء على مالقة عاصمة الحموديين، التي لاقى منها من طول الفتن ما لم يلاق أي سلطان على مدينة، بتحصينها تحصيناً محكماً، فأنفق عليها الأموال الطائلة، وأعاد بناء قصبتها على أجمل طراز ومنعة، وأعدها عدة للمهمات، وجعل فيها جميع ما ورّث لابنه وزاد عليه خوفاً من هجمات أعدائه؛ كابن عباد الطامع فيها وغيره من أمراء الأندلس[(٢)].

كما عيّن باديس ابنه الأكبر، المحبب إليه الشفيق عليه، الذي جمع الأموال من أجله وحرص على تربيته، ونشأته بعيداً عن أعدائه ومعاقبة من يخالف أمره بلقين سيف الدولة والياً على مالقة في الفتره (٤٤٨-٤٤٩-٤٥٦هـ)[(٣)] وكان عاقلاً نبيلاً حليماً كريماً حسن الخلق، يعد الناس بالجميل ويقول لهم: «أنا أنسيكم طريقة أبي». فأجمع الناس على محبته خاصة وعامة، وبسط يده على الأموال، ورشحه والده للولاية من بعده، وأخذ له البيعة من قومه، ودعاه

(١) زيري بن مناد الصنهاجي: اتسم زيري وقومه في أفريقية بطاعة العبيديين الشيعة. وعندما انتقل الأمر إلى بني مناد بعد انتقال ملك الشيعة إلى المشرق دارت الحروب بينهم. فهاجر جماعة منهم إلى الأندلس، واستطاع أميرهم زاوي أن يبني مدينة غرناطة، ويقيم ملكه فيها. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص٤٣١، ٤٣٢، ٥١٤.

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، ص٤٣.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٢١، ١٢٢.

إلى حسن المعاملة، خاصة مع الوزير القاضي بن حسن الجذامي[1] الذي تركت له جميع الأمور في مالقة[2].

وظل بلقين يحكم حتى وافاه الأجل المحتوم مسموماً على يد وزير والده يوسف بن نغرالة اليهودي[3] في عام (٤٥٦هـ/١٠٦٤م) وكان قد دعاه إلى مجلس شراب حافل، ثم دس له السم في الكأس، فلقي حتفه بعد يومين وعمره (٢٥) عاماً[4]، وكان سبب ذلك أن وزراء الأمير بلقين وشوا إليه سطوة يوسف وتمكُّنه من السلطة، فأخذ بلقين يجاهر ببغضه ويبلغ والده عنه ويتكلم في قتله، حتى علم اليهودي بذلك، فأقدم على فعلته[5]. ويذكر النباهي أن سبب وفاة بلقين إصابته بمرض أدى لوفاته في العام نفسه[6] فقال فيه الشعراء رثاءً كثيراً منه قول الشاعر:

فقل للسان المجد أخرست مفحما
لفقد بلقين فما أنت قائل
فيا طالباً للجود لا تتعب المنى
فقد نصبت في الأرض تلك الأنامل

(١) محمد بن الحسن بن يحيى بن عبدالله الجذامي النباهي. كان حازماً عادلاً، جرت له أمور، فقتل على إثرها في عام (٤٦٣هـ). انظر النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١١٩، ١٢٠.

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٣٦)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٤٣٣، ٤٣٥)، والنباهي: المصدر السابق، ص١١٩، ١٢٠.

(٣) يوسف ابن نغرالة اليهودي: كان من أهل العلم والأدب، جميل الوجه، حاد الذهن، استطاع أن يستخرج الأموال ويهدئ الأحوال، واستعمل اليهود على الأعمال، فازدادت منزلته عند باديس. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٥.

(٤) الأمير عبدالله: التبيان، ص١٣، ٤٠.

(٥) ابن عذاري المصدر السابق: ج٣، ص٢٦٥. ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص٤٤٣، والأمير عبدالله: المصدر نفسه، ص٣٩، ٤٠.

(٦) انظر: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٢١.

عادت مدينة مالقة إلى طاعة باديس، وكان كبيراً في السن قد خلد إلى الراحات، واشتغل بالملذات، وفوض الأمر إلى الوزير اليهودي وخدام الدولة، في وقت هدأت فيه الأحوال وامتلأت بيوت الأموال وتوطدت الدولة واتسع الملك(١) حتى وصل ما بين أطراف كورتي بسطة(٢) وجيان إلى بابي مالقة وإستجة وما تحت ذلك من إقليم قرطبة(٣).

وفي تلك الفترة وفد على البلاط الغرناطي عبْد كان للمعتضد بن عباد يدعى (النابة) فاستعمله باديس الصنهاجي في بعض القيادة والخدمة، فشارك في الغارات ضد ابن عباد مع قائد مالقة (مقاتل بن يحيى)(٤) الذي كان ينوه بجهوده، حتى أشركه السلطان معه في القيادة على المدينة، وكان السلطان إذا قدم مالقة نزل عنده في داره، فيستغل العبد الفرصة ويقوم بتجريح الوزير اليهودي وذمّه، فيقول: «قد أكل مالك، وتملك بأعظم من مالك، وبنى خيراً من قصرك، فالله الله في إزاحته والتحبب إلى المسلمين بفقده»(٥) وكان هذا لا يزيده عند السلطان إلا رفعة ومكانة حتى عينه وزيراً له بعد مقتل اليهودي

(١) الأمير عبدالله: التبيان، ص٤٦، ٤٢، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٢٢. هنا إشارة إلى تولي اليهودي منصب (وزارة التفويض) ليقوم بمباشرة الحكم والنيابة عن باديس في تدبير الأمور. وهذه خيانة لله ورسوله والمؤمنين؛ إذ من غير المعقول ألاَّ يوجد مسلم واحد أمين كفء في دولة مسلمة قادر على إدارة الوزارة، حتى يولي باديس منصبها لكافر لا تجوز ولايته إطلاقاً. إنه لشيء عجاب! انظر ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق إبراهيم رمضان، ط (١) ١٩٩٢م، دار الفكر اللبناني. بيروت. ص١٨، ١٩.

(٢) بسطة (Baza): بلدة صغيرة تقع بين غرناطة ومرسية. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٦٨.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٣٠.

(٤) ربما يكون ابن يحيى بن يفران التلكاني المذكور في ص٦٣-٦٤ لأن والده هو قائد حملة باديس التي انتزع فيها مالقة، فربما كان مع والده ثم بقي في مالقة بعد ذلك.

(٥) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٤٦، ٤٧).

على يد أهل غرناطة في العاشر من صفر عام (٤٥٩ هـ/١٠٦٦م)[١]، فاستولى الناية على مقاليد الأمور، وأصبح وحده المسؤول الأوحد في الدولة، غير أن دوام الحال من المحال؛ إذ ما لبث أن لقي نفس مصير سابقه على يد (واصل)[٢] حاكم وادي آش عندما خشي منه كبار الوزراء والرجال الخروج على الدولة[٣].

وفي ظل الصراع العسكري بين باديس الصنهاجي صاحب غرناطة وبين المعتضد بالله صاحب إشبيلية جهز الأخير جيشاً بقيادة عباد بن عباد في عام (٤٥٩هـ/١٠٦٧م) وحاصر مالقة من البر والبحر عدة أيام، فلم يتمكن منها[٤] ثم ما لبث أن انتزعها في العام نفسه، حينما أرسل إليه أهلها سراً، يطلبون منه أخذها لراحتهم له ولرغبتهم في حكمه على الرغم من شدته وغلظته ولسآمتهم حكم البربر في الوقت نفسه، لا سيما أن باديس التهى بشهواته وعكف على ملذاته. وقيل: إنه كان متسامحاً مع أهل مالقة، محسناً إليهم[٥]، أصلح كثيراً من أحوالهم[٦]، فاستجاب لهم المعتضد، وأرسل إليهم حملة بقيادة ابنه محمد المعتمد على الله يشاركه أخوه جابر، واستطاعت هذه الحملة أن تستولي على المدينة وتسيطر على الأمور فيها - وأنْ يخطب لابن عباد بها - سوى قصبتها المنيعة التي اعتصمت بها الحامية من البربر والسودان والمغاربة

(١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٥٤)، وابن عذاري: البيان المغرب، (ج٣، ص٢٦٦).

(٢) واصل: أصله من الروم، وهو صاحب الناية الذي رفع قدره وأحسن إليه. انظر الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٦٤.

(٣) الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٥٤، ٦٢، ٦٤.

(٤) الحميري: الروض المعطار، ص١٧٨، وابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٧٣.

(٥) الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٥٨، وابن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تقديم محمد العناني، المكتبة العتيقة، تونس، ص٢٠، وابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٧٣.

(٦) الأمير عبدالله: التبيان، ص٥٨.

وقائدهم الشيخ (مخلوف بن ملّول)، فإن العباديين لم يستطيعوا اقتحامها، واكتفوا بحصارها[1]، وبينما هم كذلك أشار بعض البربر على المعتمد أن ينفّس عن المحاصرين، وألا يظل يغاديهم ويراوحهم بجيشه، فأطاعهم وغَفل وطلب الراحة، فأرسلت الحامية إلى السلطان باديس تستنجده وتخبره بالأمر، فسارع وأرسل إليهم جيشاً دخل مالقة عنوة، فتفاجأ العباديون أمامه ومزقهم الجيش شر ممزق «فكان لا يرى منهم إلا قتيلاً أو أسيراً أو طالباً الفرار ما وجد إليه سبيلا»[2]. واستولى الغرناطيون على ما وجدوه من الذخائر والأموال والأسلحة، وهرب المعتمد على الله إلى رندة كسيراً حزيناً يراسل والده الغاضب عليه بالشعر طالباً منه العفو والصفح، فسامحه وتجاوز عنه، وكان من شعره لوالده:

مولاي أشكو إليك داء
أصبح قلبي به جريحا
سخطك قد زادني سقما
فابعث إليّ الرضا مسيحا[3]

فكتب له والده يطمئنه، وقيل: بل كانت لولده المعتمد:

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
فإن يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مَرَدَّ لما يأتي به القدر[4]

(١) الأمير عبدالله: التبيان، ص٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٧٣.
(٢) الأمير عبدالله: المصدر نفسه، ص٥٧، ٥٨، وابن عذاري: المصدر نفسه، ج٣، ص٢٧٣.
(٣) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص٢٠، ٢١.
(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية. القاهرة، ج٢، ص٥٦،=

ولما خرجت مالقة من يد العباديين - الذين يمثلون العرب - إلى غير رجعة، عادت مرة أخرى إلى حكم البربر، الذين عفا سلطانهم باديس عن أهلها وزاد في مراتبهم، فاستقرت الأحوال وعادت الأمور إلى طبيعتها[1]. وظل باديس أقوى ملوك البربر وأعظمهم شأناً يحكم بعد ذلك لعدة سنوات حتى وافاه الأجل في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م)[2]، بعد أن أقام مملكة تعد من أكبر ممالك الطوائف رقعة.

وبعد وفاته انشطرت المملكة البربرية بين حفيديه شطرين، فحكم غرناطة وأعمالها أبو محمد المظفر بالله عبدالله بن بلقين، وكان هو الأصغر سناً، بينما حكم مالقة أبو معد المعز تميم بن بلقين[3] وكان قد عهد له بها جده بعد وفاة والده حاكمها[4]، وجعله تحت وصاية شيخ من صنهاجة حتى كبر وبلغ، فاستقل بمالقة واستبد وتسمى بالمنتصر بالله[5]، غير أن الأمير عبدالله يقول: «إنّ جده كان قد عهد له هو بحكمها لكن تميماً ثار عليه فيها وقاطعه»[6]، وكيفما كان فإن تميماً عاش طوال فترة حكمه عيشة الأغنياء في خير وصحة وأمن وعافية ونعمة طائلة، حيث ترك له جده من الأموال الكثير، فلم يصرفها، حتى

= وابن خاقان: قلائد العقيان، ص٢١، وابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٧٥.

(١) الأمير عبدالله: التبيان، ص٥٨، ٥٩.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص٤٤٢.

(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج ٣، ص٣٧٩، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص١٢٩، ومحمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ع٤)، ط ٤، ١٤١٧هـ/ ١٩٧٩م، مكتبة الخانجي. مصر، ع٢، ص١٤٢.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص١٩٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٣٤، وابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٦٦.

(٥) ابن الخطيب: المصدر نفسه، ص٢٣٦.

(٦) انظر: التبيان، ص١٠٧. يبدو أن هذا القول غير صائب؛ إذ كيف يعهد باديس لحفيده عبدالله بحكم مالقة وهو أصغر سناً من تميم الموصي عليه.

إن قتال الأعداء والجزية التي يدفعها أمراء الطوائف لزعيم قشتالة (ألفونسو السادس)[1] كان المتكفل بها أخوه الأمير عبدالله[2]. ومن صفاته أنه: «كان شهماً، شديد الجرأة، بعيد الاعتدال، سيئ الملكة في الرعية، وهو الذي صنع ثريا الفضة بمسجدها»[3]، أي مالقة، وقد بقيت فيه حتى عصر ابن الخطيب.

وعندما ازدادت دولة أخيه ظهوراً، وتصالح مع من حوله من أمراء الأندلس قام بشن الغارات على أراضي أخيه الغرناطية، فغزا المنكب و(شاط وخويلة)[4] وما حولها، فسار أهل تلك الجهات إلى أخيه عبدالله يشتكون إليه، فقرر عبدالله تأديب أخيه تميم وإيقافه عند حده لكي لا يتمادى في الشر، فانتهز فرصة انشغال عدوه اللدود المعتمد ابن عباد بمهاجمة زعيم قشتالة لإشبيلية، فسير حملة تحت قيادته صوب مالقة استطاعت أن تنزع عشرين حصناً من حصونها سلماً وبعضها حرباً كحصن صالحة وحصن صخرة دومس[5]، وكان فيها جُل جنود مالقة وحصن منتماس وحصن ريينه وجطرون، وهما قاعدتا مالقة وغيرها من الحصون التي هدُم بعض منها[6].

وباقتراب الحملة من مالقة خاف الأمير تميم على نفسه، وتفاجأ بالأمر، لا سيما وأن معظم رعاياه قد ثاروا ضده، وفي لحظة ترك فيها أكثر الجند الأمير عبدالله في موكب قليل بموضع، وساروا إلى موضع قتال آخر على

---

(١) ألفونسو بن فرديناند بن غرسية بن شانجة، تولى رئاسة قشتالة وليون وجليقية (٤٦٥-٥٠٢هـ). وكان أعظم ملوك النصارى في فترة عصر الطوائف، وقد استولى على طليطلة. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٣٢، مج٤، ص٥٠.

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، ص٩٤.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٣٦.

(٤) لم نجد لهما تعريفاً في مصادرنا.

(٥) صخرة دومس: تقع في وسط إقليم مالقة ولا معنى لمالقة بدونها. ربما لمناعتها وكثرة جنودها. انظر الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٩١.

(٦) الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٩٠، ٩١، ٩٢.

مرأى منه، انتهز أهل مالقة اللحظة وخرجوا من جهة باب فنتنالة[1] وهجموا على الجند وتشابك الفريقان، فانهزم الجند وأسر بعض منهم، فسارع الأمير عبدالله، واستجمع رجاله وهجم على عسكر مالقة فهزمهم، وحاصر مالقة وضيق عليها الحصار، فأرسل إليه أخوه تميم يستعطفه ويطلب منه العفو وفك الحصار، فتركه الأمير عبدالله وعاد إلى غرناطة بعد أن أدَّبه وعلّمه وأعطاه قرى يتوسع فيها؛ منها قامرة بلد الزرع، كما بقيت بيده الحصون الغربية كقرطمة وقمارش، ولم يعطه الأمير ما استولى عليه من الحصون سوى (رييته وجطرون) وكانت رعيتهما من النصارى[2].

وكانت الأسباب التي دفعت الأمير عبدالله لترك أخيه[3] هي:

١ - العفو عند المقدرة وصلة الرحم؛ إذ ما زالت أمهما على قيد الحياة، وكانت قد تدخلت في الأمر.

٢ - خوف الأمير عبدالله أن يعطي أخوه تميمٌ مالقةَ لخصمه ابن عباد، فتكون أعظم مصيبة وأشنع عار على دولتهم.

٣ - خوف الأمير عبدالله من سكان ولاية أخيه تميم في أن يسلّموا مالقة لغيره في حالة إذا أعطى حصونهم لأخيه، الذي كان ينقمون عليه سوء الطريقة معهم، خاصة أنه عاهدهم على ذلك بالأيمان المغلظة.

٤ - زيادة خطر تميم واستفحال نفوذه إذا أعاد له الأمير عبدالله المعاقل التي أخذها منه مرة أخرى.

وكان من أهم نتائج هذه الحملة التأديبية توقف الأمير تميم عما كان يرتكبه من القتل والظلم، وسار في رعيته السيرة الحسنة، وإن كانت نفسه لا تزال

---

(١) باب فنتنالة: فتح هذا الباب في السور الشمالي لمدينة مالقة، وهو من الأبواب الرئيسة، ويعرف بباب الخوخة. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٧٨.

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، ص٩٢، ٩٣.

(٣) الأمير عبدالله: المصدر نفسه، ص٩٣، ٩٤.

حاقدة على أخيه الذي كان يقول عنه: «حتى إنه لا يردني من عنده رسول من أهل بلده أو جنده إلا ويوصي أن نشد بيدي عليه. ويقول لي: بتأديبك له فلحنا وكفّ عنا، وإنه متى يأمن منك أمراً طغى علينا وشقينا به»(١).

وأثناء هذه الحرب قامت ثورة على الأمير عبدالله في أرجدونة وأنتقيرة من الأراضي المالقية يقودها صاحبها (كبّاب بن تميت). وقد اجتمع حوله كثير من أهل الشر والفساد، فأخذ يقطع الطريق ويستولي على أموال الناس بغير حق، كما أصبح يفسد العلاقة والاتفاق المعقود بين الأمير عبدالله الصنهاجي وبين المعتمد بن عباد اللخمي، فحذره الأمير وطلب منه النزول عن معقليه، غير أنه لم يسمع، ولم يطع، بل تفاقم شره واستفحل نفوذه وتجهّز للحرب، فسار إليه الأمير عبدالله بجيشه وضيّق عليه، فشعر كبّاب بضعف موقفه، فطلب من الأمير مسامحته والتجاوز عنه، فعفا عنه وأمّنه وعزله(٢).

وبعد عدة سنوات تكالبت الجيوش النصرانية تحت قيادة ألفونسو السادس على المسلمين (ملوك الطوائف) في الأندلس، الذين كانوا في غاية الضعف والانحلال، فأرسل هؤلاء إلى المغرب الإسلامي يستنجدون بزعيم دولة المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين(٣). وكان والي مالقة تميم بن بلقين الصنهاجي أول من سعى للاستنجاد به من أجل الانتقام من أخيه بسبب الخلاف بينهما على تركة جدهما، لكن الأمير لم يجبه، وأدرك مدى ما عليه هؤلاء الأمراء من التفرق وسهولة القضاء عليهم(٤): «ولكن فكرة الاستنصار بالمرابطين لمقاتلة النصارى كانت أعم وأخطر»(٥).

---

(١) الأمير عبدالله: التبيان، ص٩٤، ٩٥.

(٢) الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص٩٥، ٩٦، ٩٨، ٩٩.

(٣) المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، ط الأولى، ١٩٩٧م، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة، ص٢٩، ٣٠.

(٤) الأمير عبدالله: المصدر السابق، ص١٠٢.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٣٦.

وبعد توارد رسل ملوك الطوائف ووفودهم - وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية - على المرابطين بشأن الجهاد ضد الأعداء النصارى، استجاب لهم يوسف بن تاشفين، وخرج إلى الأندلس بجيشه خفافاً وثقالاً، في وقت قد سقطت فيه مدينة طليطلة - مركز الدائرة الإسلامية في الأندلس- عام (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) على يد ألفونسو السادس[١] وهناك دعا الأمير يوسف حكام الطوائف إلى الجهاد والمشاركة في حملته، فسارع الأمير تميم بن بلقين في (٢٠٠) من رجاله وأخوه الأمير عبدالله في (٣٠٠) من رجاله، ولبوا الدعوة وانضموا إلى المرابطين بقيادة زعيمهم الأمير يوسف بن تاشفين في ظاهر إشبيلية، وساروا سوياً مع جيوش ملوك الطوائف نحو بطليوس، وهناك في سهل الزلاقة حدثت بينهم وبين النصارى بقيادة ألفونسو السادس في عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) رحى معركة ضروس جعل الله فيها كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته العليا، وهي أول معركة يخوضها المرابطون في الأندلس[٢].

وبعد نهاية هذه المعركة اجتمع يوسف بملوك الطوائف، ودعاهم إلى الاتفاق والتعاون وجمع الكلمة، فأجابوه بالسمع والطاعة، وكلمه منهم والي مالقة المنتصر بالله تميم بما حصل من أخذ أخيه لبعض أراضيه وعدم رضاه وضيق حاله، فرد أخوه قائلاً: «إن أمير المسلمين لم تكن غايته إلا ما هو بسبيله من الجهاد»[٣]، وأنه لا يرضى هدم ما قسّمه آباؤنا غير إن كانت في نفسه الرغبة في التقسيم من جديد، فأمره نافذ ومسموع، فما كان من الأمير

---

(١) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة. ط الأولى، ١٩٧٩م. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء، ص٣٧، ٣٨.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص١٠١ - ١٠٠، وابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٣٠، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٥٢، ومحمد عنان: دولة الإسلام، (ع٢)، ص٣٢١.

(٣) الأمير عبدالله: التبيان، ص١٠٦، ١٠٧.

سوى أمْرهم بالانصراف بعد معرفته ما هم عليه من الاختلاف[1] الذي كان سبباً في القضاء عليهما وضم أراضيهما، قبل حكام الطوائف الآخرين[2].

وبعد رجوع أمير المسلمين يوسف إلى بلاده جاءته مرة أخرى شكوى مسلمي الأندلس من هجمات أعدائهم النصارى، فعبر المرابطون للمرة الثانية في عام (٤٨١ هـ/ ١٠٨٨م)، ونزلوا الجزيرة الخضراء، ودعا أميرهم يوسف حكام الطوائف إلى الجهاد والدفاع عن حصن (لييط)[3] ثم اتجه إلى مالقة واستحث حاكمها تميماً، فسار معه في قواته، ثم تلاحق به الحكام من كل ناحية حتى وصلوا إلى الحصن وحاصروه، غير أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليه[4]، وبينما هم هناك في شرق الأندلس تشاكى حكام الطوائف إلى يوسف بن تاشفين بعضهم من بعض، وفي مقدمته والي مالقة تميم، الذي اشتكى إلى الأمير تعدي أخيه عبدالله على أراضي مملكته مثلما حصل في المرة الأولى، فلم يحفل الأمير بكلامه، بل أرسل إلى أخيه رسولاً يوثق العلاقة معه ويبين له أهمية غرناطة إذا دعت الظروف حاجة المرابطين في الاجتياز عليها للجهاد ضد الأعداء[5].

وبعد هذه الحملة الإسلامية المشتركة تغيرت نفس الأمير يوسف على ملوك الطوائف، فأعرض عنهم، وقرّر عزلهم عن ولاياتهم[6]، وكان أول ما ابتدأ

(١) الأمير عبدالله: التبيان، ص١٠٧.

(٢) سعد زغلول: عملية الإنقاذ المرابطي في الأندلس، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ تقديم الدكتور عبدالمحسن التركي والدكتور فتحي أبو عيانة، ١٤١٤هـ، دار المعارف الجامعية، ص٢٤٢.

(٣) حصن لييط: حصن حصين على رأس جبل شاهق بالقرب من لورقة. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٤١.

(٤) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠.

(٥) الأمير عبدالله: التبيان، ص١٣٣.

(٦) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٧١، ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص١٤٢، والمراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص٣٥.

بأبناء عمومته من البربر في غرناطة ومالقة[1]، ويقال: إن العباديين أصحاب إشبيلية غدروا به وأغروه بذلك، كي يشغلوه عن مكافحة النصارى المتفقين معهم على تركهم عمالاً تحت حكمهم[2].

ففي عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) عبر أمير المسلمين بجيشه إلى الأندلس للمرة الثالثة، فاستنزل والي مالقة، ثم سار إلى غرناطة وتسلّمها من واليها في منتصف رجب من العام المذكور[3]. وتذكر بعض المصادر أن أمير المسلمين يوسف كان أول ما عزل الأمير عبدالله والي غرناطة، وأرسله إلى بلاد العدوة، فسكن مدينة أغمات[4] حتى وفاته[5]، ثم بعث سرية من جنده تحت قيادة القائد سير بن أبي بكر بن تاشفين اللمتوني إلى مالقة، فاستولى عليها وقبض على واليها[6] وكان قد قذف أمير المرابطين وشتمه، فحمل مكبلاً بالحديد إلى بلاد السوس من العدوة المغربية جزاء ذلك، وظل هناك حتى عفا عنه السلطان يوسف، فسكن مراكش ومات بها في عام (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)[7].

والحقيقة أن الأمير يوسف لم يكن يرغب في عزل تميم بادئ الأمر، بل

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٤٣.

(٢) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، نشر العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مج١٣، ١٩٦٥-١٩٦٦م، مدريد، ص١٠٤.

(٣) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٧١، وابن عذاري: المصدر السابق، ج٤، ص١٤٣، وابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، ص٣٩٣.

(٤) أغمات: هي مدينتان سهليتان؛ إحداهما تسمى أغمات إيلان، والأخرى تسمى أغمات وريكة. انظر البكري: المسالك والممالك، ج٢، ص٣٣٨.

(٥) الأمير عبد الله: التبيان، ص١٧١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٣٥، ٢٣٦ الإحاطة، مج ٣، ص٣٨١

(٦) جان وجيروم طاروا: أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين، ترجمة أحمد بلا فريج ومحمد الفاسي، ١٩٤٩م، المطبعة الوطنية، ص٦٤.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٣٦.

كان يشد على يديه ويقرّه على حكمه، ويعده بأن يعيد له أملاكه التي أخذها أخوه[1] لأنه كان من أوائل الذين دخلوا في طاعته حيث يقول الأمير عبدالله في كتابه على لسان الأمير يوسف: «أنت أظهرت لي الطاعة وأجملت المعاشرة، وإنك أول من ضرب الدراهم المرابطية، والآن تستحمد عاقبة رأيك، ونجعل لك بتلك المزية على أقرانك»[2]، ولكن في الحقيقة كانت هناك بعض الأسباب التي أدت إلى إسقاط ملوك الطوائف عن عروشهم، وفي مقدمتهم الأمير تميم؛ منها:

١- تآمر ملوك الطوائف ومحالفتهم للعدو النصراني ضد إخوانهم المرابطين[3] وهو أمر خطير، قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[4]. ويذكر ابن خلدون أن من ضمن هؤلاء الملوك المتحالفين مع النصارى الأمير تميم حاكم مالقة[5].

٢- ما أصدره فقهاء وقضاة الأندلس والمشرق من فتاوى صريحة تنص على خلع ملوك الطوائف من دويلاتهم، ومن بينهم الأمير تميم - وفق ما طلبه أمير المرابطين - وجاء في فتاويهم أن هؤلاء الملوك عصاة فسّاق أفسدوا الأمة والنظام، فلا تحل طاعتهم ولا تجوز إمامتهم، وتشهد عليهم بذلك أفعالهم، وبالتالي خلعهم واجبٌ على أمير المرابطين[6].

---

(١) الأمير عبدالله: التبيان، ص١٦٢.

(٢) انظر: التبيان، ص١٦٢.

(٣) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ١٩٥٤م، مطبعة دار الكتب، الدار البيضاء ج٢، ص٥٥، والمراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص٣٥، وابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، ص٢٨٠.

(٤) سورة المائدة، آية رقم (٥١).

(٥) انظر: تاريخ ابن خلدون، مج٦، ص٢٢٢، ٢٢٣، ٢٤٩.

(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص٢٢١، وابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص١٠٦.

٣- شكوى أهل مالقة وفقهائها - وعلى رأسهم قاضيها أبو المطرف الشعبي[١] - من ظلم الأمير تميم ومعاملته القاسية وخروجه عن أحكام الدين وفرضه المغارم بغير وجه حق[٢].

٤- طمع الأمير يوسف في السيطرة على مالقة وما حولها لتقوية سبل الجهاد ضد النصارى الأعداء، ويؤيد ذلك عدم مبالاته بشكوى الأمير تميم من أخيه رغم تكرارها، دلالة على أن الأمير يوسف كان ينتظر الوقت المناسب فقط.

٥- تصوير (قرور) أحد رجال الأمير يوسف له بأن بقية أموال دولة الأمير عبدالله قد أودعها عند أخيه تميم، هذا مع ما كان يضمره (قرور) من الحقد والشر على الأخوين[٣].

٦- ترغيب (قرور) للأمير يوسف في القبض على والي مالقة، وتخويفه من مطالبة تميم الثأر لأخيه والثورة عليه، فيفسد ما قد تم إصلاحه[٤].

وقد جاء في تنحية الأمير تميم (٤٦٥- ٤٨٣هـ) عن ملكه قصيدة شعرية للشاعر أبي الحسن علي الحصري الكفيف[٥] نستنتج منها سوء العلاقة بين تميم وفقهاء مالقة بسبب ظلمه وجوره، نذكر منها المثال هذه الأبيات:

بتميم حين حان به الحين

وانقادت جوامحه

---

(١) أبو المطرف عبدالرحمن بن قاسم الشعبي المالقي، فقيه مالقة. ولد عام ٤٠٢هـ، وتوفي عام ٤٩٧هـ. انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٦٣.

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، ص٩٣، ١٦٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٣٦.

(٣) الأمير عبدالله: المصدر نفسه، ص١٦٢.

(٤) الأمير عبدالله: المصدر نفسه، ص١٦٢.

(٥) علي بن عبدالغني يعرف بالحصري، من أهل سبتة، قدم على مالقة فاستقر بها، وكان من جلة الأدباء وفحول الشعراء الذين يجالسون الملوك والأمراء.
انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٩٩.

ضعفت منه القوى فغدت
من قواريـر قوارحه
وانجلت عن حسن مالقة
بفقيهيها قبائحه
وصفا البحران من كدر
فارتوى بالماء مائحه[1]

وبعد القضاء على حاكمي مالقة وغرناطة استكمل الأمير يوسف مشروعه في عزل حكام الطوائف الآخرين، حتى قضى عليهم جميعاً سوى ابن هود[2]. وبهذا غابت شمس عصر الطوائف (٤٢٢ - ٤٨٣هـ) الذي كان عصر الفوضى والانحلال السياسي، على يد المرابطين الذين قيضهم الله تعالى للجهاد والدفاع عن الإسلام والمسلمين في الأندلس حتى سقوط دولتهم[3] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[4].

٢- مالقة في عصر المرابطين (٤٨٣-٥٤١هـ):

قامت دولة المرابطين على يد مؤسسها يوسف بن تاشفين في جنوب بلاد المغرب الأقصى (موريتانيا) ثم امتدت في أواخر القرن الخامس الهجري إلى بلاد الأندلس - استجابة لداعي الجهاد - فأصبحت دولة عظيمة مترامية الأطراف مرهوبة الجانب، حتى سقطت في بداية العقد الخامس من القرن السادس الهجري، وقد تعاقب على حكم هذه الدولة رجال كانوا من خيرة البربر

(١) ابن بسام: الذخيرة، مج١، ق٤، ص٢٨١.
(٢) أحمد المستعين بن المؤتمن بن أحمد بن سليمان بن هود الجذامي (٤٧٨ - ٥٠٣هـ). مات شهيداً أمام الروم في يوم الاثنين أول رجب من عام (٥٠٣هـ)، وكان يحكم ولاية سرقسطة. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٥٣، ٥٥.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص١٤٤.
(٤) سورة محمد، آية رقم (٣٨).

المسلمين، الذين حملوا راية الجهاد الإسلامي، ودافعوا عن بلادهم أعظم دفاع، في وقت كانت تعاني فيها الأمة الإسلامية أيّما معاناة؛ سواء في المغرب الإسلامي أو في مشرقه، إذ كادت أن تذهب بلاد الأندلس على طبق من ذهب للنصارى الأسبان في عهد حكام الطوائف الذين تجردوا من المسؤولية الملقاة على عواتقهم تجاه دينهم ورعاياهم ووطنهم الحبيب، لولا أنْ قيَّض الله لتلك البلاد المرابطين، الذين قضوا على هؤلاء الحكام ووقفوا في وجه النصارى المعتدين، فكان لهم الفضل في امتداد عمر الإسلام عدة قرون أخر في الأندلس(١).

ولما أصبحت الأندلس ولاية مرابطية مقسمة الأجزاء، فإن ولاتها المرابطين اهتموا بمدنها، وساهموا في بنائها في مختلف المجالات السياسية والحضارية حتى غدت أعظم بلاد أوروبا تطوراً ورقيّاً في وقت كانت فيه بقية بلدان أوروبا تعيش في ظلام حالك وجهل دامس(٢).

وجاء من بين هذه المدن الأندلسية مدينة مالقة التي كانت من أسرع المدن دخولاً في طاعة المرابطين، وقد خضعت لعدد من ولاتهم الذين حققوا لها الكثير من الأمن والاستقرار والازدهار ما لم تشهده في السابق، حتى أصبحت بحق أعظم مدن كورة رية(٣). غير أنها لم تخلُ من بعض الثورات والاعتداءات التي أثرت فيها؛ ففي أول عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قامت ثورة في

(١) المراكشي: المعجب، ص٦٦، ٩٥، ٩٦، ١١٤، ١١٥، وابن عذاري: البيان المغرب، مج٤، (ص٧، ١٢، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٧٩)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٤٥) وما بعدها، وحسن محمود: قيام دولة المرابطين، ١٩٥٦م، دار الفكر العربي. القاهرة، (ص٣٩، ١٤٠، ١٦٨، ٢٥٩، ٢٦٠) وما بعدها.

(٢) ابن عذاري: المصدر نفسه، مج ٤، (ص٤٤، ٤٨، ٤٩، ٧٣) وما بعدها، وحسن محمود: المرجع نفسه، ص٤٢٤ وما بعدها.

(٣) الرشاطي: الأندلس في اقتباس الأنوار، تحقيق إيميلو وخاثينتو، ١٩٩٠م، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية. مدريد، (ص٥٦)، وابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٢٥)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٨)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، ص١٢٩، ١٣١.

حصن (منت ميور) أحد حصون مالقة، ذلك أن رجلاً يدعى محمد بن خلف كان مسجوناً بمالقة، فاستطاع هو وبعض رجاله مع آخرين أن يهربوا من السجن إلى الحصن المذكور ليلاً، وأن يقبضوا على قائده ويخرجوه منه ويولوا عليهم عبدالجبار بن المعتمد بن عباد اللخمي الذي قدم عليهم في تلك اللحظة، وتحصنوا في الحصن سوياً. وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم مركب عسكري كبير يعُرف بمركب ابن الزرقاء، فغاروا عليه وهزموه بمرسى الشجرة[1] القريب من الحصن، واستولوا على ما يحتويه من طبول وعدة وطعام وغير ذلك، فعظم ذكرهم وذاع صيتهم، وطاعت لهم الحصون المجاورة كحصن عرجان[2] وقلعة خولان[3]، فوصلت أم عبدالجبار إليه، وخطَب له بعض أهل الجزيرة الخضراء، وخاطبه أهل أركش، فدخلها في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) فاتسعت ثورته، وانزعج المرابطون له، فأرسلوا قائدهم سير بن أبي بكر، فنزل بجيشه على أركش وضُرب عبدالجبار بسهم فمات، وانتهت الثورة[4].

وعلى الصعيد الخارجي كَسَر المرابطون في عهد يوسف بن تاشفين موجة الزحف الصليبي العاتية على أرض الأندلس، ثم جاء أعقابه من بعده، فحملوا رسالة الجهاد ضد الصليبيين، وبدّدوا أحلام الطامعين في تلك الأرض إلى حين، غير أنه في الحقيقة كان للنصارى الأسبان مواقف واعتداءات ضد المسلمين نجحوا فيها؛ وكان من بينها ما قام به ألفونسو الأول ملك أرغون[5]

---

(١) مرسى الشجرة: أحد الموانئ الواقعة في جنوب الأندلس على مقربة من جبل طارق.
انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، ص٥٤٠.

(٢) حصن عرجان: لم نجد له تعريفاً.

(٣) قلعة خولان: قلعة منيعة في كورة شدونة، لها كروم وبساتين ونهر صغير. انظر ابن سعيد: المغرب جـ١، ص٣١٠.

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٦٣)، وابن سعيد: المصدر نفسه، جـ ١، (ص٣١٥)، والمقري: نفح الطيب، مج ٤، ص٣١٧.

(٥) أرغون (Aragon): مملكة تقع في شمال شرق الأندلس، وتضم العديد من المدن البعيدة=

الملقب بالمحارب في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين[1]. إذ سار في أواخر شعبان من عام (٥١٩هـ/ سبتمبر ١١٢٥م) على رأس حملة صليبية، اخترق فيها أراضي المسلمين من شمال شرق الأندلس حتى جنوبه الشرقي دون أن يجد مقاومة تذكر.

وكان ذلك استجابة لطلب النصارى المعاهدين[2] في غرناطة الذين كانوا يدلونه على مسالك الطرق وعورات البلاد وخيراتها، فكان أول تحركه من سرقسطة[3] إلى بلنسية[4] ثم إلى مرسية[5] ثم سار إلى غيرها من مدن المسلمين وقراها دون أن يتصدى له أحد، حتى وصل في نهاية المطاف إلى قرية بلش من إقليم مالقة، وهناك صنع له جفناً صغيراً اصطاد به سمكاً وأكل منه «وكأنه نذر كان عليه وفّى به، أو حديثاً أراد أن يُخلّد عنه»[6] وهو في كل

= عن ساحل البحر المتوسط أهمها سرقسطة. انظر المراكشي: المعجب، (ص٢٦٦).

(١) علي بن يوسف: كنيته أبو الحسن، تولى الحكم بعد أبيه، فاضطلع بالأمور أحسن اضطلاع، وكان كثير الصدقة، مكرماً للعلماء، جاز إلى الأندلس في مدة حكمه أربع مرات، وفي عهده ظهر محمد بن عبدالله المهدي، ثم مات بمراكش في عام ٥٣٧ هـ، انظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية، (ص٨٤، ٨٥، ١٢٠).

(٢) المعاهدون: هم جماعة النصارى الذين كانوا يعيشون ضروب الرعاية والتسامح، ويؤدون شعائرهم دون ضيق أو ضغط تحت ظل الحكومة الإسلامية. انظر ابن عذارى: البيان المغرب، مج ٤، (ص٧٢، ٧٣).

(٣) سرقسطة (Saragosse): تقع في شمال شرق الأندلس، وتسمى المدينة البيضاء، وهي من كبار قواعد الأندلس. انظر الحميري: الروض المعطار، ص٩٦.

(٤) بلنسية (Velencia): مدينة سهلية تقع في شرق الأندلس. انظر الحميري: المصدر نفسه، (ص٤٧).

(٥) مرسية (Murcia): مدينة بالأندلس تقع على نهر كبير. وهي قاعدة تدمير، بناها الأمير المسلم عبدالرحمن بن الحكم. انظر الحميري: المصدر نفسه، (ص١٨١، ١٨٢).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص١١٢، ومؤلف مجهول: المصدر السابق، (ص١٩١) وما بعدها.

مرة يعيث في الأرض فساداً، وَٱللَّهُ لا يُحِبُّ ٱلمُفْسِدِينَ. ثم عاد إلى بلاده.

وقد أحدث هذا الاعتداء النصراني ضجة كبرى بين مسلمي الأندلس، فسار على إثره الفقيه ابن رشد(١) إلى البلاط المرابطي في المغرب الإسلامي يُبين للأمير علي بن يوسف أحوال الأندلس ومدى ما أحدثه هذا الاعتداء من إهلاك لأرواح المسلمين وممتلكاتهم، وأنّ هذا العمل لا ينذر إلا بسوء الخاتمة وقرب النهاية، فأصدر الأمير قراراً في ضوء فتوى ابن رشد بإجلاء الخائنين من النصارى المعاهدين عن بلاد الأندلس، فأخرجوا أذلة صاغرين إلى مناطق العدوة المغربية(٢). ويغلب على الظن أنه كان من ضمنهم نصارى من مدينة مالقة(٣).

إضافة إلى ما سبق، فإن عهد الأمير علي بن يوسف شهد موقفاً آخر يُطلعنا على بعض جوانب صورة النظام الحاكم والإدارة في عهد المرابطين، وكأنه أشبه ببيان رسمي تعلنه الدولة على الشعب الأندلسي أجمع.

و قد تمثّل هذا الموقف في وفود جمع غفير من سكان مالقة وأحوازها على أمير المرابطين بمراكش(٤) شاكين سوء الحال وما وقع عليهم من الظلم والاعتداء، وعندما سمع الأمير منهم خاف أن يكون فيهم مبطل وكاذب، فقرّر ألاّ تقبل شكاية أي أحد منهم إلا إذا جاء ببيان من قاضي بلده يدل على صحة ظُلامته.

---

(١) ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد، ولد بقرطبة سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م). درس في الأندلس على جملة من علمائها، ثم تولى قضاء الجماعة في قرطبة التي توفي بها في عام (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م).

انظر الضبي: بغية الملتمس، (ص٤٣)، وابن عذاري: البيان المغرب، مج ٤، ص٦٤، ٧٤.

(٢) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٩٧، وابن عذاري: المصدر نفسه، مج ٤، ص٧٣.

(٣) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، ص٢٩٤.

(٤) مراكش أو مرّوكش (Marruecos): تم بناء هذه المدينة على يد أبي بكر بن عمر اللمتوني عند سفح جبال أطلس عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) عاصمةً للمرابطين، وهي آخر مدن بلاد المغرب الكبيرة. انظر الأمير عبدالله: التبيان، ص١٦١، وابن عذاري: المصدر السابق، مج٤، ص٢٠، والمراكشي: المعجب، ص٢٥٨.

كما أرسل الأمير في شهر ذي الحجة من عام (٥٢٣هـ/ ٢٨ ديسمبر ١١٢٩م) رسالة إلى قاضي مالقة عبدالله الوحيدي[١]، تبيَّنَ من خلالها علاقة سلطة القضاء بسائر السلطات، ومدى اتساع هذه السلطة، حتى أصبحت فوق السلطة التنفيذية، كما أشارت الرسالة إلى جوانب أخرى تتعلق بالقضاء، إلا أن أهم ما تضمنته الإشارة إلى وظيفة الحاكم التي يرجع وجودها إلى أواخر عهد الخلافة الأموية وهي وظيفة قضائية خالصة كان يطلق على متوليها لقب صاحب الأحكام[٢] وإليك الآن نصوصاً مما جاء في الرسالة:

«وقد تجمعت الآن بهذه الحضرة عصائب الشاكين، وكثرت أرقاع المتظلمين، وكان من أمورهم بيّن ومشكل، وفيهم محق ومبطل...، ولما كان هذا وجب أن نلتمس لأمورهم وجهاً يتوصل به إلى معرفة الصحيح من السقيم والمعوج من القويم، فوكلنا ذلك إلى قضاة البلدان...، لأن موضوع القضاء إنما هو لرفع المشكلات وتمييز الحقائق من المتشابهات...، وقد قلدناك تقليداً تاماً أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة في اللطيف والجليل، وسمناك القيام بالخفيف منها والثقيل...»[٣]. وفي آخر الرسالة: «هذه الوصايا الجامعة والحجة البالغة... أعزك الله، ليقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد، فإن فيه زجراً للمعتدين وأخذاً فوق أيدي المفسدين»[٤].

ولمّا اضطربت أحوال المرابطين في أواخر أيامهم، إبان عهد تاشفين بن

(١) عبدالله الوحيدي: أبو محمد عبدالله بن أحمد بن عمر القيسي المالقي. ولد في سنة (٤٥٦ هـ)، تولى القضاء بمالقة، وتوفي في مسجد حكمة ٢٦ محرم عام (٥٤٢ هـ)، انظر التباهي: تاريخ قضاة الاندلس، (ص١٣٦، ١٣٧).

(٢) مؤلف مجهول: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين. نشر حسين مؤنس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مج (٧ و٨)، ١٩٥٩م- ١٩٦٠ م، مدريد، ص١٤٠، ١٤١.

(٣) مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص١٧١، ١٧٢.

(٤) مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص١٧٤.

علي[١] ثار عليهم قضاة المدن في الأندلس رغبة في الاحتفاظ بمراكزهم واسترداد سلطانهم الذي انهار في ظل دول الطوائف[٢]، ويأتي في مقدمة هؤلاء القضاة أبو الحكم بن حسون الحسين بن الحسين بن عبدالله الكلبي قاضي مدينة مالقة، الذي ينتمي إلى بيت من أعرق البيوت علماً ونسباً، «نشأ على مهيع سلفه من الوجاهة والنباهة وعلو المكانة وشرف الذات»[٣] ثم ولي قضاء مالقة في عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) عندما عمي قاضيها أبو محمد الوحيدي. وفي يوم السبت ١٣ رمضان سنة ٥٣٩هـ/ ٩ مارس ١١٤٥م[٤] خطب لنفسه وثار بمدينته، وحاصر المرابطين مع واليهم المنصور بن محمد بن الهادي في قصبتها مدة سبعة شهور أو أقل[٥] وشدد الحصار حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فسلموا القصبة صلحاً في ربيع الثاني من عام (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) ودخلها أبو الحكم بن حسون في شعبان من العام نفسه[٦]، واستقر بها، واتخذها مقراً لحكمه وتلقّب بالأمير وجمع في يده إلى جانب سلطة القضاء سلطة الإمارة، وعيّن أخاه أبا الحسن[٧] على القيادة العامة للجيش،

---

(١) تاشفين بن علي (٥٣٧هـ - ٥٣٩ هـ): تولى الحكم بعد أبيه علي بن يوسف، ويكنى أبا محمد. وكان بطلاً شجاعاً حسن الركبة والهيئة، ولاه أبوه الأندلس، فكانت له بها غزوات كثيرة، توفي في رمضان سنة ٥٣٩هـ. انظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٢١، ١٣٤.

(٢) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٣١٨.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٤) الضبي: بغية الملتمس، ص٣٦، والحميري: الروض المعطار، ص١٧٨، ١٧٩.

(٥) الضبي: المصدر نفسه، ص٣٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام (ص٢٥٥)، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عنان، ط الثانية، نشر مؤسسة الخانجي. القاهرة، (ص٢١٠).

(٦) الضبي: المصدر السابق، ص٣٦، ويوسف أشباخ: المرجع نفسه، (ص٢١٠).

(٧) أبو الحسن علي بن الحسين بن عبدالله الكلبي، قتل في الجامع بمالقة، وأخذ رأسه وحمل، وذلك في عام ٥٤٨ هـ. انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٠١).

كما ولاّه قَرْطَمَة(١) وما يتبعها، غير أن المرابطين جيرانه بحصن أنتقيرة وغيره من الحصون لم يتركوه يهنأ بحكمه، إذ بدؤوا بمهاجمته وشن الغارات المتتالية عليه حتى ألجؤوه إلى التماس عون ملك قشتاله(٢) مقابل أن يدفع المال أجوراً لجيوشه. وقد ترتّب على هذا الشرط أنْ فرض أبو الحكم بن حسون المغارم والمطالب المختلفة على أهل مالقة حتى أرهقهم وأثقل عليهم، فنقموا عليه وكرهوه، واتفق فريق منهم مع قائد الحرس ببابه، ويدعى اللوشي، وتواعدوا معه على يوم معلوم للإطاحة بابن حسّون والقضاء عليه، فنجحت المؤامرة، واستطاع أصحابها - بمعاونة اللوشي - من اختراق الأبواب وتملّك القصبة فامتنع ابن حسون داخل القصر ودافع عن نفسه بقدر الاستطاعة، وحينما علم بمقتل أخيه على يد أهل المدينة، ورأى صعوبة الاستمرار في المقاومة دخل إلى داره كي يقتل أهله وبناته غيرة عليهن، فاعتصمن منه في الغرف والبيوت الداخلية، واشتد الأمر فأحرق كتبه وذخائره، ثم أقدم على الانتحار بشرب السم فلم يقتله، فطعن

(١) قَرْطَمَة: بفتح القاف وسكون الراء وفتح الطاء والميم: مدينة بالأندلس من أعمال رية. انظر معجم البلدان.

(٢) قشتاله (Castile): هي إحدى أوسع ممالك النصرانية الواقعة خلف جبال الشارات، وتعرف بالثغر الأوسط بين مملكة البرتغال في الغرب ومملكة نبرة في الشرق، وفيها من المدن المهمة طليطلة. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٦٦، والحميري: الروض المعطار، ص١٦١. وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص٢١٤.

ويلحظ أن كثيراً من الزعماء والثوار المسلمين في بلاد الأندلس كانوا يلتمسون مساعدة أهل الكتاب ضد إخوانهم المسلمين، وهذا في دين الإسلام لا يجوز ومخالفة للشرع. ويدخل ذلك في باب حكم المرتد إذا كان المسلم ينصر الكافر على إخوانه المسلمين، أما إذا كان المسلم يستعين بالكافر ليدفع شر كافر آخر أو مسلم معتد، أو يخشى عداوته، فهذا لا بأس به وجائز شرعاً؛ لأن الدفاع عن الإسلام والمسلمين أمر لازم بل محتم. انظر المهدي الوزاني: الجامع المغرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب، ٨ أجزاء، ١٤١٨هـ، مطبعة فضالة. المغرب، جـ ٣، ص٢٢، وابن باز مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، جمع محمد الشويعر، جـ١٨، ط (١)، ١٤٢١هـ رئاسة إدارة البحوث العلمية، الرياض، ص١٨٣، ١٨٩، ١٩٠، ٣٠٦.

نفسه برمح نفذ إلى ظهره، ودخل أعداؤه القصر فوجدوه يسبح في دمه، ومات بعد يومين في يوم السبت الحادي عشر من ربيع الأول عام (٥٤٧هـ/ يونيو ١١٥٢م) وصُلبت جثته، وحمل رأسه إلى مراكش، كما قبض على أهله وبيعت بناته واشترى بعضهن بعض أكابر دولة الموحدين(١)، والراجح أن مقتله كان في ربيع الأول عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)(٢)، لتوافقه مع منطق الأحداث ودلالتها. وسيتضح ذلك أثناء حديثنا عن استيلاء الموحدين على مالقة.

وبهذا تنتهي ثورة القاضي المالقي بعد حكم دام حوالي ثماني سنوات، ومما هو جدير بالذكر أنه خلال فتنة ابن حسون وفد عليه بعض الثائرين ممن لم ينجحوا في ثوراتهم طالبين منه العون والحماية؛ كحاكم رندة أخيل بن إدريس(٣) وقاضي قرطبة ابن حمدين(٤) الذي لجأ إليه بسبب المواصلة القديمة بين أجداده وبين بني الحسن من أهل مالقة(٥) فكان له ابن حسون خير حليف

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٥٤، ٢٥٥، والحميري: الروض المعطار، ص١٧٩، ومعلوم أنه لا يجوز للمسلم أن يسبي نساء أخيه المسلم ويبيعهن في السوق بوصفهن إماءً، أما قتل الإنسان نفسه فهو حرام كما جاء في كتاب الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. انظر سورة النساء، آية رقم (٢٩ - ٣٠) فكيف وقد تقلد منصب القضاء ويحكم بما أنزل الله أمثال ابن حسون، إنه لجرم عظيم، نسأل الله حسن العاقبة.

(٢) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٦)، ص٢٣٨.

(٣) أخيل بن إدريس الرندي: أحد الكتاب والشعراء كتب في فتوته للمرابطين، ثم انتقل إلى مالقة، وأخيراً سكن مراكش. انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة بتاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبدالهادي التازي، ط (٣)، ١٩٨٧ م، دار الغرب الإسلامي. بيروت، ص١٥٧، ١٥٨.

(٤) ابن حمدين: أحمد بن محمد، وقيل: حمد بن محمد بن علي بن عبدالعزيز بن حمدين التغلبي، ولي قضاء الجماعة بقرطبة، وكان ذا دراية وعناية بالعلم. انظر ابن الزبير: صلة الصلة، تحقيق عبدالسلام الهراس وسعيد أعراب، ١٤١٦هـ، وزارة الأوقاف. المغرب، ق٥، ص٣٢٣.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣٦.

ومعين؛ إذ حاول قاضي قرطبة بعد أن جمع ما استطاع جمعه من رجال ابن حسون بمالقة أن يسترد سلطانه، ويخضع قرطبة لطاعته، فسار إليها، إلا أنه نكس على رأسه وعاد أدراجه من غير نتيجة، ثم بقي بمالقة يساعد ابن حسون على مخالفة الموحدين حتى وافاه الأجل المحتوم في عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)[١] وقيل: (١٩ رجب عام ٥٤٦هـ/ نوفمبر ١١٥١م)، ولمَّا استولى الموحدون على مالقة بعد ذلك، نبشوا قبره، واستخرجوا جثمانه وصلبوه وهو بحاله لم يتغير[٢] مما يدل على بغضهم له ورفضهم لمبادئ (ثورته).

٣- مالقة في عصر الموحدين (٥٤٨ - ٦٢٦هـ):

قامت دولة الموحدين على يد مؤسسها عبدالمؤمن بن علي الكومي[٣] في مراكش عام (٥٤١هـ/ ١١٤٧م)، عقب مصرع آخر حكام الدولة المرابطية أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين[٤]. وبعد حروب مستمرة دخلت كثير من الأراضي المغربية والأندلسية التي كانت تحت سيطرة المرابطين والنصارى المعتدين في طاعتها بما فيها مدينة مالقة الأندلسية التي تأخرت في الدخول - بخلاف دخولها في طاعة المرابطين - رغم أنه كان لدى أهلها وجندها رغبة شديدة في الانضمام للموحدين، نتيجة ما تعرضوا له من الظلم والاضطهاد أيام فتنة واليها ابن حسون[٥].

---

(١) ابن الزبير، صلة الصلة، ق ٥، ص٣٢٣.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٥٤.

(٣) عبدالمؤمن بن علي بن علوي الكومي، ولد بتاجرة من أعمال تلمسان في آخر عام ٤٨٧هـ. وكانت وفاته عام ٥٥٨ هـ، وكان رجلاً أبيض اللون، معتدل القامة، مؤثراً لأهل العلم، محباً لهم. انظر المراكشي: المعجب، ص١٢٩، ١٤٢.

(٤) إبراهيم بن تاشفين (٥٣٩ - ٥٤١ هـ) ولاّه أبوه عهده قبل وفاته بشهر، وبويع له في مراكش. وهو آخر المرابطين من الحكام.
انظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٣٩، ١٣٥.

(٥) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٩١.

والحقيقة أن للموحدين - أيضاً- رغبة شديدة في السيطرة على المدينة وإدخالها تحت حكمهم؛ إذ أرسل أمير المؤمنين الموحدي جيشاً بقيادة عمر بن يحيى الهنتاني[١] لإخضاعها، لكن واليها ابن حسون تصدى لهم، فحاصرها الجيش أياماً ثم تركها[٢]، ولعل هذا ما دفع الخليفة عبدالمؤمن الموحدي إلى قطع العلاقات التجارية معها، وفرض حصار اقتصادي عليها، وذلك حينما أرسل رسالة إلى الطلبة - وهم الهيئة الإدارية بمدينة سبتة - يأمرهم فيها بمنع التجار من التعامل مع سكان أهل مالقة، مشدداً العقوبة على كل من يخالف أمره[٣].

وبمقتل القاضي ابن حسون تهيأت الأمور للموحدين في الاستيلاء على مالقة.

ويذكر محمد عنان أنه في أواخر سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٣م) تقدمت القوات الموحدية من أنتقيرة وأرض الفرنتيرة[٤] صوب مالقة، واستولت عليها مع بقية أراضي كورتها في أوائل عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)[٥].

والأرجح لدينا أن مالقة سلَّمت نفسها للموحدين طواعية من غير قتال، بعد أيام من مقتل القاضي ابن حسون - وليس بعد أكثر من عام - وذلك حينما بعث أهلها وجندها كتاباً إلى القائد الموحدي عمر الهنتاني وهو في

---

(١) الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني. ويعرف بعمر ينات. كان من جلة الموحدين وأكابرهم، كان اسمه فصْلة، فسمّاه ابن تومرت بعمر. توفي بمرض الطاعون في عام ٥٧١هـ.
انظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٥٨، والمراكشي: المعجب، ص١٣٧، ١٤٩.

(٢) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص٣٢٣.

(٣) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في عصر المرابطين والموحدين، ط (١)، ١٩٨٠م، مكتبة الخانجي. القاهرة، ص٢٨٦.

(٤) الفرنتيرة: هي السهل الواقع في غرب الجزيرة الخضراء.
انظر محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٩٩).

(٥) محمد عنان: المرجع نفسه، ع (٣)، ص٣٢٠، ٣٣٦.

معسكره (بفج قامرة)[1] يطلبون منه القدوم عليهم، فشكرهم القائد وكتب لهم كتاباً في (١٧ ربيع الأول عام ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م)، يذكر فيه ما بذلوه من تضحيات وخير في سبيل الله، ثم قدم عليهم بعد كتابه تلبية لرغبتهم، ودخل مالقة بكل سهولة، وأقام بها بعض الوقت، ثم انتقل عنها لمواصلة فتوحه[2] وبهذا تدخل مالقة في طاعة الموحدين بعدما عاشت مدة قاسية أيام حكم ابن حسون.

ولأهمية موقع مالقة الجغرافي وأثرها في النشاط الاقتصادي، فقد حظيت باهتمام ولاتها وعناية أمراء الموحدين طوال فترة حكمهم، هذا في الوقت الذي كانت فيه الحروب في الأندلس بين المسلمين وأعدائهم النصارى في سجال[3]، ففي عهد عبدالمؤمن الموحدي - مؤسس الدولة - عندما قام بتوزيع إدارة ولايات بلاده على أبنائه الأمراء في عام (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)[4]، جاءت ولاية مالقة - ولم تكن في عهد المرابطين ولاية[5] - مع ولاية سبتة والجزيرة الخضراء تحت حكم ابنه أبي سعيد عثمان[6]، وقد كان رجلاً نبيهاً

(١) فج قامرة: ربما المقصود به فحص قامرة، بلد الزرع والحرث التابع لمالقة.
انظر الأمير عبدالله: التبيان، ص٩٤، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج ٢، ص٢٥٦.

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٢٣، ٣٢٤، والمراكشي: المعجب، ص١٤٩.
انظر الملحق، (ص٤٣٢).

(٣) المراكشي: المصدر نفسه، ص١٧٦، ١٨٠، ٢٠٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١١، ص٢١١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص٢٨٠. يقال إن توزيع الولايات كان في عام (٥٤٨هـ / ١١٥٣م).
انظر ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد الكتاني وغيره، ط (١)، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص٤٩، ٥٠، ويقال إن توزيع الولايات كان في عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م)، انظر محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٣٣٩.

(٥) عز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ط (١)، ١٤١١هـ/ ١٩٩١ م، دار الغرب الإسلامي. بيروت، ص١٧٥.

(٦) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في أخبار البشر)، تحقيق أحمد رفعت، ط (١)، ١٣٨٩هـ، دار المعرفة. بيروت، جـ٢، ص٨٨.

حازماً محباً للآداب، «اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك بعده»[1]، ويبدو أن أبا جعفر بن ملحان كان أحد المشرفين على الأموال في عهده بمالقة[2].

أما غرناطة فقد أرسل واليها ميمون بن بدر اللمتوني إلى أمير المؤمنين عبدالمؤمن الموحدي يطلب منه الصلح والعفو وتسليم غرناطة عندما رأى ضعف موقفه وتفوق الموحدين، فأجابه الخليفة على طلبه وأمر عبدالله بن سليمان قائد الأسطول البحري بسبتة وابنه أبا سعيد عثمان والي مالقة بالسير إلى غرناطة، فسارا إليها، وعبرا البحر إلى الجزيرة الخضراء، ومنها إلى مالقة، واتخذها عثمان مقراً لنفسه، ثم واصلا السير حتى وصلا غرناطة، فقابلهما ميمون بن بدر مع المرابطين بكل ترحاب واهتمام وسلمهما غرناطة في عام (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)، ثم خرج جميع المرابطين إلى بلاد المغرب مروراً بمالقة مؤمَّنين في أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

وبعد وصولهم مراكش أنزلهم الخليفة منازلَ حسنة، وأغدق عليهم الأموال والخيرات[3]، وبهذا انقرضت دولة المرابطين من الأندلس بصورة فعلية، ولم يبق لهم سوى جزيرة ميورقة[4]، ثم كتب أمير المؤمنين الموحدي إلى ابنه عثمان بإضافة غرناطة إلى إدارة ولايته، فجاز عثمان البحر إليها واستقر بها[5]،

(١) المراكشي: المعجب، ص١٥٧.

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٢٣.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٥٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١١، ص٢٢٣، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٦، ص٢٨٠.

(٤) ميورقة (Mallorca): جزيرة في غرب البحر المتوسط يقابلها على الشاطئ الأفريقي مدينة بجاية. وفتحها المسلمون في عام ٢٩٠هـ.
انظر الحميري: الروض المعطار، ص١٨٨.

(٥) ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص٥٥.

ومنها استولى على مدينة المرية من يد النصارى في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)[١].

وفي عام (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) أمر أمير المؤمنين عبدالمؤمن ابنه أبا سعيد عثمان ببناء مدينة في جبل طارق[٢]، فتم بناؤها، وقدم الخليفة عليها في أواخر السنة، وكان في استقباله أبناؤه مع ولاة الأندلس وأعيانها وقادتها وعلمائها، بما فيهم أهل مالقة، وفي مقدمتهم الخطيب أبو محمد المالقي[٣] الذي أكد باسم أهل مالقة وجوب البيعة وربط الشرع لعهودها ورسومها في خطبته أمام الخليفة كغيره من العلماء[٤].

ثم أعاد أمير المؤمنين تجديد ولاية ابنه عثمان على غرناطة، ورجع إلى المغرب في أول سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م)[٥]، وعلى إثره غادر كل من حضر إلى بلده، فغادر السيد عثمان إلى غرناطة ولم يطل بها؛ إذ سافر إلى المغرب لزيارة أبيه، فاستغل ابن همشك[٦] غيابه، واستولى على غرناطة بمساعدة يهودها

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص٥٦، وابن سعيد: المغرب، مج ٢، ص١٩٨، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٣٤٧.

(٢) جبل طارق (Gibraltar): يُعرف بجبل الفتح، وعنده يلتقي بحر الروم وبحر الظلمات بجزيرة الأندلس. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٦٥.

(٣) أبو محمد المالقي: هو عبدالله بن عبدالرحمن كان من شيوخ وقضاة الخليفة عبدالمؤمن ومن المقربين إليه في مجلسه. وبعد وفاة الخليفة استمر على ما كان عليه في عهد أبي يعقوب يوسف ابن الخليفة إلى أن عزله، ثم توفي في عام ٥٧٤هـ.

انظر المراكشي: المصدر نفسه، ص١٤٢، ١٧٤، وابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٤٤٩.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٨٤ وما بعدها.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص١١١، والمراكشي: المعجب، ص١٥٧، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٣٨٦.

(٦) ابن همشك: رومي الأصل قشتالي أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن همشك. وهمشك (تعني مقطوع الأذن) وكان جباراً قاسياً ثار على الموحدين، وتوفي بمكناسة عام ٥٧٢هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٣.

في عام (٥٥٧هـ/ ١١٦١م)(١). وبمجرد علّم السيد عثمان بالخبر وهو في المغرب عبر البحر ومن معه من سلا(٢) على وجه السرعة لعلّهم يدخلون قصبةَ غرناطة فيفر ابن همشك بدخولهم، وساروا في طريقهم حتى وصلوا مالقة، ومنها طلب عثمان بن عبدالمؤمن من والي إشبيلية الشيخ أبي محمد عبدالله بن أبي حفص(٣) أن يواتيه بجيشه في أقرب وقت ممكن، فسار الشيخ ومن معه والتقوا بعثمان قائدهم، وزحفوا سوياً إلى غرناطة، فخرج إليهم ابن همشك وتلاقت الفئتان في ملحمة عنيفة (بمرج الرقاد)(٤) انتهت بهزيمة الموحدين ومقتل عدد كبير منهم، على رأسهم والي إشبيلية الشيخ عبدالله، بينما فر القائد عثمان في عدد قليل من أصحابه إلى مالقة وعاد ابن همشك إلى غرناطة(٥).

وعندما وصل خبر الهزيمة إلى المؤسس عبدالمؤمن الموحدي جهز جيشاً

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص١٢٤ وما بعدها، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٦، ص٢٨١، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٧٤، ٧٥. انظر هامش (٥)، ص٧١.

(٢) سلا (Sale) : مدينة ساحلية في شمال المغرب على المحيط الأطلسي يجري فيها نهر وادي الرمان، انظر المراكشي: المعجب، ص٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) عبدالله بن عمر بن عبدالمؤمن: عيّنه عبدالمؤمن والياً على إشبيلية في عام ٥٥٠هـ، واستمر مجاهداً مخلصاً في ولايته حتى عام (٥٥١هـ)، ثم تولى خلفاً له أبو يعقوب يوسف، وقد مات أبو محمد شهيداً في عام ٥٥٧هـ بمعركة مرج الرقاد. انظر ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص٥٣، ٦٥، ٧٥.

(٤) مرج الرقاد: موضع في خارج غرناطة في فحصها يبعد عنها عدة أميال. انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص١٢٨، ١٢٩، وابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص٣٠١.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، وابن عذاري: البيان المغرب، ص٧٥، وابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص٣٠٠، ٣٠١.

كبيراً جعل قيادته لابنه أبي يعقوب يوسف[1] ومعه الشيخ يوسف بن سليمان قائد الموحدين، فتحرك الجيش من رباط الفتح[2] بسلا مسرعين الخطا، فجازوا البحر ونزلوا في الجزيرة الخضراء، ثم تحركوا منها سالكين الطريق المؤدي إلى مالقة على شاطئ البحر المتوسط حتى وصلوها، واجتمعوا بالسيد عثمان وجيشه، وتحركوا سوياً صوب غرناطة على مهل، بعد أن تزودوا بكل ما يحتاجونه في السفر والقتال «من الدقيق والعلوفات، وإدرار النعم عليهم بالبركات، ومعونتهم على غزوهم بأكمل الخيرات»[3]، وحالما وصلوا غرناطة هجموا على ابن همشك ومن معه من النصارى، فهزموهم ومزقوهم شر ممزق، فكتب الله النصر للموحدين ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4] وكان ذلك في يوم الجمعة ٢٨ رجب من عام (٥٥٧هـ/ ١١٦١م) وعُرفت هذه الموقعة بموقعة «السبيكة»[5].

وبعد هذه الموقعة لم تدم حياة عبدالمؤمن طويلاً؛ إذ توفي في عام (٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) وبويع بالخلافة ابنه أبو يعقوب يوسف، ولم يكن في ملوك الموحدين ملك بالحقيقة مثله[6]، وكان قد تخلّف عن بيعته أخوه والي مالقة

(١) يوسف بن عبدالمؤمن الكومي. تلقّب بأمير المؤمنين، تولى الخلافة عقب أبيه، واستمر فيها ٢٢ سنة و١٠ أشهر و١٢ يوماً، ولد بتينمال عام (٥٣٣هـ)، وتوفي عام ٥٨٠هـ. انظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٥٧، ١٥٨.

(٢) رباط الفتح: مدينة ساحلية بالمغرب. بدأ بناءها الأمير يوسف بن عبدالمؤمن، وأكمله ابنه يعقوب. ويقال: إنهم بنوها تنفيذاً لأمر ابن تومرت. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٥٨.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص١٣٠، ١٣١، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٧٥، ٧٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٦١.

(٤) سورة الأنفال، آية رقم (١٠).

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص١٣٤، ١٣، وابن عذاري: البيان المغرب. قسم الموحدين، ص٧٦، ٧٧، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٣٨٩، ٣٩٠.

(٦) المراكشي: المعجب، ص١٦٦، ١٧٢، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٥٧.

السيد عثمان، وهذا ما جعل أخاهما أبا حفص عمر[1] يلتقي به من أجل إقناعه، وعندما تحقق المطلوب قَدِمِ الأخوان على أخيهما أبي يعقوب يوسف، وأعلن السيد عثمان البيعة والطاعة، وكان ذلك في أول رجب عام (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)[2] وقيل: إنّ قدومه كان من تلقاء نفسه في عام (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)[3] وظل بعد ذلك متعاوناً مخلصاً مجاهداً حتى مماته بالطاعون في عام (٥٧١هـ/ ١١٧٦م)[4].

وبعد وفاته من العام نفسه، وقيل: في عام (٥٧٤هـ/ ١١٧٨م) أصبحت مالقة ولاية مستقلة[5]؛ ذلك أن أمير المؤمنين أبا يعقوب عقد لابني أخيه على ولاية غرناطة ومالقة كلٍّ على حدة، فجاءت مالقة تحت حكم أبي محمد عبدالله الموحدي[6]، وتم لها هذا الاستقلال لأول مرة في عهد الدولة الموحدية. ولعل هذا القول يؤيده ويرجحه: أن المصادر والمراجع لم تذكر ولاية مالقة في المدة ما بين (٥٦٠هـ/ ١١٦٥ م-٥٧١هـ/ ١١٧٦م) بشيء من التفصيل، سوى أنها في عام (٥٦٣هـ/ ١١٦٨م) بادرت بإرسال بيعتها إلى العاصمة

---

(١) أبو حفص عمر بن عبدالمؤمن: كان وزيراً لوالده ثم لأخيه أبي يعقوب، وقد كان نبيهاً من ذوي الرأي والغناء، تأخر عن الخلافة وبايع لأخيه أبي يعقوب.
انظر المراكشي: المعجب، ص١٦٦، ١٧٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص١٧٠، ١٧١، ١٨٧، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، (ص٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧).

(٣) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص١٤.

(٤) ابن عذاري: المصدر السابق، ص١٣٦، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٥٨.

(٥) ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص١٣٩، والمراكشي: المصدر السابق، ص٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج (٦)، ص٣٢٢.

(٦) أبو محمد عبدالله بن أبي الحسن علي، وقيل: ابن أبي حفص عمر بن عبدالمؤمن الكومي.
انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ص١٣٩، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق١، ص٢٠١، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج٦، ص٣٢٣، والناصري: الاستقصا، جـ٢، ص١٥١، ومحمد عنان: المرجع السابق، ع (٣)، ص٩٩.

مراكش كغيرها من مدن الأندلس، لتجديد البيعة للحاكم أبي يعقوب يوسف، وتسميته بأمير المؤمنين(١). وعليه فإن مالقة كانت تتبع إدارة أبي عبدالله محمد بن إبراهيم(٢) والوالي عثمان أثناء تعاقبهما على حكم ولاية غرناطة(٣) والله أعلم.

ومما سبق يدفعنا إلى تضعيف قول القائل إن مالقة كانت ولاية مستقلة قائمة بذاتها منذ بداية عهد الأمير أبي يعقوب(٤). وفي عام (٥٧٧ - ٥٧٨هـ/ ١١٨١ - ١١٨٢م)(٥) إبان حكم الأمير أبي يعقوب شهدت بلاد الأندلس حرباً صليبية شعواء قادها زعيم النصارى ألفونسو الثامن(٦)، بقصد احتلالها، فسار بجيشه الضخم نحو قرطبة، ومن هناك شنّت قواته غارات على جهة مالقة وغرناطة وغيرها من المدن، فأحدثوا فيها أعمال التخريب والسطو والتدمير، فتصدى لهم الموحدون، غير أنهم ألحقوا بهم أضراراً بالغة وخسائر مادية فادحة، وغنموا منهم مقادير هائلة من الغنائم(٧).

ومما هو جدير بالذكر أن المصادر التاريخية أمدتنا بأسماء عدد من ولاة

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٢٥٩، وابن عذاري: البيان المغرب، ص٩٨.

(٢) كان محمد بن إبراهيم من رفاق ابن صاحب الصلاة الذين كان لهم تأثير على حياته، تولى إشبيلية وغيرها. وهو من أبناء الجماعة النبهاء والفرسان الأقوياء. انظر ابن صاحب الصلاة: المصدر نفسه، ص٢١٧، ٢٢٠.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المصدر نفسه، ص٢٢٠، ٢٢١، وابن سعيد: المغرب، حـ٢، ص٤٤٢.

(٤) عز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص١٧٥.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، حـ٦، ص٣٢٤، والناصري: الاستقصا، حـ٢، ص١٥٣.

(٦) ألفونسو الثامن: تسميه الرواية الإسلامية أدفونش الصغير، وهو ابن لشانجة. حكم (٥٣) سنة. وفي عهده كانت موقعة الأرك والعقاب، انظر ابن الخطيب: أعمال الأعمال، ص٣٣١.

(٧) ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص١٤٥، ١٤٦، وابن خلدون: المصدر السابق، حـ٦، ص٣٢٤، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص١٠٢، ١٠٣.

مالقة ومشرفيها في عصر الموحدين سوف نذكرهم دون تحديد فترات حكمهم إلا ما وضّحته المصادر إلى جانب ولاتها الذين ذكرناهم سابقاً؛ ففي عام (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) تولى الخلافة أبو يوسف يعقوب المنصور[١]، وأسند ولاية مالقة في العام نفسه إلى أبي عبدالله محمد بن يحيى بن تلكعت المسوفي[٢]، ووصى عليه ذريته، وقيل: كان ذلك في أواسط عام (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، وذلك بسبب صبر أخته وشكرها حينما أقدم الحاكم على قتل ابنها والي مرسية أبي حفص عمر الملقّب بالرشيد أخي الخليفة من جهة أبيه[٣]، وقد استمر محمد المسوفي على ولاية مالقة التي طور عمرانها، واهتم باقتصادها حتى جاء عهد الناصر أبي عبدالله محمد بن المنصور[٤] (٥٩٥هـ/ ١١٩٩م)، فتنقَّل في منصب الولاية بالمدن الأندلسية والمغربية كثيراً؛ ففي عام (٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م) تولى ولاية إشبيلية، ولم يطل بها؛ إذ عاد إلى مالقة في أواخر عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م)، ومنها انتقل إلى ولايات عدة، وكان رجلاً شهماً مقداماً على الأمور عالي الهمة، حتى قتل بمالقة في عام (٦٠٨ - ٦٠٩هـ/ ١٢١٢ - ١٢١٣م)[٥].

ومما يذكر أثناء ولايته أنّ علياً الجزيري[٦] قام بثورة في مراكش، فطرده

(١) يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن الكومي (٥٨٠هـ - ٥٩٥هـ)، بويع له بولاية العهد أيام أبيه، وتولى الوزارة، فاطلع على أحوال العمال والولاة، وغيرهم. وكانت بينه وبين صلاح الدين الأيوبي رسائل بشأن الجهاد ضد الصليبيين، توفي وله من العمر ٤٨ سنة.
انظر المراكشي: المعجب، ص١٨٥، ١٨٦. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص٢٦٩.

(٢) ابن عسكّر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١١٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ص٢٠٠، ٢٣٣، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ص١٦٨.

(٤) محمد بن يعقوب المنصور الموحدي. تلقب بالناصر لدين الله. ولد في آخر سنة ٥٧٦هـ، وبويع بالخلافة في سنة ٥٨٦هـ. وكانت وفاته عام ٦١٠هـ.
انظر المراكشي: المصدر السابق، ص٢١٩.

(٥) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص١١٧.

(٦) علي الجزيري: ظهر في عهد الأمير المنصور، وتظاهر بطلب العلم، وبعد اتساع ثورته=

أمير المؤمنين منها، فسار يتجول في الأقطار حتى وصل مالقة، فالتف حوله كثير من عامة الناس وأوباشهم، فأمر بالقبض عليهم وامتلأت السجون منهم، ثم نقلوا إلى إشبيلية في أمور يطول شرحها، فانتهت هذه الثورة بعد قيامها في عام (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م)(١).

وعقب ولاية محمد المسوفي حكم مالقة أبو محمد عبدالعزيز بن يوسف ابن عبدالمؤمن الموحدي(٢) في شهور عام (٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م) وظل عليها حتى عزله عنها الناصر الموحدي في شهور عام (٦٠٣هـ١٢٠٦/م)(٣)، وقيل: إن عبدالعزيز تولى مالقة في عهد أبيه(٤)، وقيل: إنه لم يتول لا في عهد أبيه ولا في عهد أخيه المنصور، وقد كان عبدالعزيز جليل القدر، شديد البصيرة، قوي العزيمة، من جِلَّة الموحدين وشعرائهم الأفاضل، وظل يتنقل في الولايات حتى كانت إشبيلية آخر ولاية يتولاها في الأندلس(٥)، وحينما قدم القائد أبو عامر محمد بن علي بن الحسين بن عبدالله بن حسون الكلبي على مالقة في عام (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) أشرف على الأموال العامة طوال مدة ولاية عبدالعزيز بن يوسف، ثم في عام (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م) أضيفت له ولاية المدينة حينما قصد الخليفة الناصر في عاصمته المغربية(٦) على الأرجح، واستمرت ولايته عليها

= أذيع عنه أقوال وروايات خرافية، فقيل: إنه ساحر يتصوّر في صورة الحيوانات، وصدّقه كثير من الناس، فجاءت نهايته بصلبه في إشبيلية. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٠٧، ٢٠٨.

(١) ابن عذاري: المصدر السابق، ص٢٠٧، ٢٠٨، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٥٥.

(٢) عبدالعزيز بن يوسف الموحدي يكنى أبا محمد وهو أصغر أولاد أبي يعقوب. وكان رجلاً صالحاً دمث الخلق، وأمه هي مريم الصنهاجية. وصفته أبيض تعلوه صفرة، جميل الوجه، معتدل القامة. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٣٦، ٢٣٧.

(٣) المراكشي: المصدر نفسه، ص٢٣٦.

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٦٢.

(٥) المراكشي: المصدر السابق، ص٢٣٦.

(٦) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص١٥٠.

حوالي عشرين سنة؛ إذ يقول ابن عسكر: «ولي مالقة نحواً من عشرين سنة سيفاً ونائباً»[١]، ويقول ابن الزبير: «أبو عامر محمد بن على بن الحسين بن عبيد الله بن حسون: تولى مالقة في أيام أبي عبدالله الناصر، واستمرت ولايته عليها نحو عشرين سنة، وقد كان وليها إشرافاً وسيفاً»[٢]. وبهذا فقد اجتمعت له ولاية المدينة من النواحي المالية والأمنية والإدارية في الداخل والخارج، وهي لم تكن لأحد من قبله.

وكان رحمه الله جليل القدر، كثير العطاء والنبل، محسناً إلى الفقراء، وسار في أهلها سيرة حسنة، ورأوا معه المسرات والأفراح ما لم يروه مع أحد قبله ولا بعده من الولاة، وهو بهذا يكون على عكس سليل هذه الأسرة الحسين ابن علي بن حسون الكلبي والي مالقة، الذي تعرَّض في عهده أهلُها لأبشع صور الظلم والاضطهاد بعد ثورته في أواخر حكم المرابطين؛ فقد محا أبو عامر محمد مثالب سلفه، وأنسى أهل مالقة في مدة ولايته ما تعرض له أجدادهم حتى وفاته في عام (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)[٣].

وممن تولوا مالقة في عصر الموحدين أيضاً واليها المعروف بالمنتظر[٤]، ويذكر أحد المحققين أنه الشاعر الأديب سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن الموحدي[٥] - أحد أفراد الأسرة الحاكمة - الذين تولوا ولاية (المغرب الأوسط)[٦]؛

---

(١) انظر: أعلام مالقة، ص١٤٩.

(٢) انظر: صلة الصلة، ق ٣، ص١٣٣، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٤)، ص٢١٤.

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١٤٩، ١٥٠.

(٤) ابن الأبار: تحفة القادم، تعليق إحسان عباس، ط الأولى ١٤٠٦هـ، دار الغرب الإسلامي. بيروت. ص١٣٥.

(٥) ابن الأبار: المصدر نفسه، الهامش، ص١٣٥.

(٦) ابن سعيد: المغرب، جـ (١)، ص٤٢٧. يقصد بالمغرب الأوسط تلمسان. انظر البكري: المسالك، جـ٢، ص٢٥٩.

وذلك على أساس أن محمد بن عبد ربه(١) كاتب الأديب سليمان كتب لوالي مالقة أيام سكناه بها(٢).

ولا ننسى الوالي أبا زيد أخا المنصور؛ فقد تولى مالقة في زمن قوة الموحدين وازدهار دولتهم مكافأة لدوره الكبير في بيعة أخيه بالحكم(٣)، ولعل ذلك كان في عام (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) عندما ولّى المنصور الموحدي إخوته على الولايات في الأندلس(٤).

وآخر ما نذكره عن ولاة مالقة في عهد أمير المؤمنين الناصر واليها علي بن يحيى الحشمي، وكان صاحب شجاعة وإقدام وفضل على من قصده(٥)، وقد تكون ولايته استمرت حتى أيام المستنصر يوسف بن محمد(٦) المتولي بعد أبيه الناصر.

وتشير المصادر أنّ من ولاة مالقة في القرن السابع الهجري أبا موسى بن يعقوب المنصور، وربما ولاه أمير المؤمنين على مالقة في عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) أثناء تقسيمه ولايات المغرب والأندلس على أعمامه من بني عبدالمؤمن(٧).

وفي عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) تولى حكم الموحدين بعد وفاة المستنصر الأمير عبدالواحد بن يوسف الموحدي(٨) فأرسل له أهل مالقة بيعتهم مع

---

(١) محمد بن عبد ربه الشاعر. أصله من الجزيرة الخضراء، وله معرفة بعلم المنطق والفلسفة، وله رحله إلى مصر. انظر المراكشي: المعجب، ص٢١١، ٢١٣.

(٢) ابن الأبار: تحفة القادم، ص١٣٥، والمراكشي: المصدر نفسه، ص٢١١.

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١١٩، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص١٣٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص١٧٢.

(٥) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٠٥.

(٦) الخليفة يوسف بن محمد (٦١٠ - ٦٢٠هـ) ولد في شوال سنة ٥٩٤هـ. ويعد عهده بداية ضعف دولة الموحدين، وكان صافي السمرة، مستدير الوجه، توفي في أواخر عام ٦٢٠هـ. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٣١.

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٨.

(٨) الخليفة عبدالواحد أبو مالك (٦٢٠-٦٢١هـ) بويع بمدينة مراكش. وكانت مدة خلافته=

الوزير أبي بكر يحيى بن الحسن القيسي[1] الذي ازدادت مكانته وارتفعت درجته أكثر من ذي قبل[2].

وظل أبو موسى في عهده على ولاية مالقة حتى بايع أخاه أبا محمد عبدالله العادل والي مرسية[3] سراً بالحكم أيام ثورته على الحاكم عبدالواحد الموحدي وتوليه مقاليد الحكم بعد خلعه[4]، ويذكر عز الدين موسى أن والي مالقة في عهد الأمير عبدالواحد هو أبو الحسن بن المنصور[5].

وبعد تولي أبي محمد عبدالله العادل منصب الحكم الموحدي أسند ولاية مالقة إلى إدريس بن يعقوب المنصور الموحدي أعظم ولاتها أيام الموحدين رغم قصر مدة ولايته، وكان مولده بها في عام (٥٨١هـ/ ١١٨٥م)[6] وهو من أفضل ما أنجبته من الولاة على طول تاريخها. ويذكر ابن الخطيب أنه دخل مالقة في ١١ محرم وهو شاب حدث من قبل أخيه الناصر[7].

= ثمانية أشهر وأياماً، توفي بعد خلعه في ٢٥ شعبان عام ٦٢١هـ، انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ص٢٦٩، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٦٢.

(١) يحيى القيسي: هو الفقيه مشهور الحسب، جليل المقدار، قديم الرياسة. فاق أهل زمانه سياسة ونباهة، وكان من أحسن الناس خلقاً، معظماً عند الملوك والسادات، مات بمربلة في (١٨ رجب عام ٦٢١هـ)، ودفن بمالقة. انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص٣٦٨.

(٣) أبو محمد عبدالله العادل بن يعقوب المنصور (٦٢١هـ-٦٢٤هـ) كانت خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وتسعة أيام، ووفاته في عام ٦٢٤هـ بمراكش، وتولى بعده أخوه المأمون. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٣٨، ومؤلف مجهول: المصدر السابق، ص١٦٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ص٢٦٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص٢٩٧، والناصري: الاستقصا، حـ٢، ص٢٣٠.

(٥) انظر: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص٣٢٦.

(٦) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٣٨٥.

(٧) انظر: الإحاطة مج (١)، ص٤٠٩، ٤١٠، وعز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص٣٢٤.

وعن صفاته قال: إنه كان شجاعاً جريئاً بعيد الهمة نافذ العزيمة، كاتباً أديباً ذكياً نبيلاً فطناً، وكان من نباهة القدر وجلالة النفس وأبهة الملك ما يعجز عنه الكثير من الملوك[1]؛ ففي عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) قام ببناء قصر السيد المعروف باسمه على ضفة نهر وادي مالقة[2]، وهذا العمل ليس بغريب عليه إذا علمنا ولعه بالتشييد وحب العمران.

وكانت فكرته وتخطيطه وبناؤه من رأيه وتحت إشرافه[3] ولم يقم العمال فيه سوى بالبناء فقط، وجاء هذا العمل دليلاً على مدى التطور العمراني في مالقة، وغرّة في جبين عهد الدولة الموحدية.

وظل المأمون على ولاية مالقة حتى انتقل منها إلى ولاية إشبيلية مضافاً لها قرطبة بأمر العادل بالله[4]، وفي حقبة ولايته كان المسؤول عن الأعمال المالية في مالقة عامله عليها أبو علي بن يبقي[5]، وعندما ثار صاحب جيّان أبو محمد عبدالله بن عبدالله محمد الموحدي المعروف بالبياسي الملتقب بالظافر، على العادل الموحدي، في عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٤م)، طمعاً في الحكم بمدينة بياسة[6] - وكان قد ولاّه على قرطبة - أرسل إليه العادل إدريس الموحدي واليه على إشبيلية في جيش من الموحدين، وحاصره في مدينته حتى أقلع عنها من غير جدوى سوى أنّ البياسي أعطاه ابناً صغيراً له ليكون رهينة عنده بطاعته[7]، ثم أرسل

---

(١) ابن الخطيب: الإطاحة، مج ١، ص٤١٠.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج١، ص٤١١، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٦٤.

(٣) مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص١٦٤.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٧.

(٥) أبو علي بن يبقى، كان صاحب المأمون والي مالقة، ثم تغير عليه لأشياء في نفسه، فلما خطب لنفسه بالخلافة في إشبيلية أحضره وضرب عنقه. انظر ابن سعيد: المغرب ج١، ص٤٢٩.

(٦) بياسة: مدينة جنوب الأندلس تقع على ربوة مرتفعة وتطل على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة. انظر الحميري: الروض المعطار، ص٥٧.

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦، ص٢٩٨، والحميري: المصدر نفسه، ص٥٧، ٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٧٠.

العادل الموحدي جيشاً آخر، غير أنه لم يفلح كسابقه، هذا في الوقت الذي اتسعت فيه ثورة البياسي، فاستولى على مناطق عديدة، كقرطبة ومالقة وكثير من الأراضي التابعة لهما.

وجاءته بيعة أهل مالقة مع وفد منهم في عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٤م)، وهو مستقر في قرطبة[١]، وكاد هذا الثائر أن ينتزع الحكم من الأمير العادل، غير أن العمر لم يطل به؛ إذ قتل في عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)[٢].

وفي يوم الخميس ٢ شوال من عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) تولى إدريس المأمون المُلك في الأندلس بعدما ثار على أخيه العادل في إشبيلية، وتلقب بالمأمون[٣]. وعندما أراد بيعة أهل المغرب أرسل لهم سفيره العالم المُقرّب منه أحمد بن عتيق الأموي المالقي السرقسطي الأصل، فتحدث مع شيوخ قبائلهم وولاتهم، فوافقوه وكتبوا البيعة له، فأحضرها للمأمون، فازدادت مكانته أكثر من ذي قبل، ورفعه المأمون فوق أكابر وزرائه[٤]، غير أنّ أهل المغرب نكثوا البيعة، ودخلوا في طاعة يحيى بن محمد بن يعقوب الموحدي[٥] مما أدى إلى قدوم الأمير عليهم في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) وبصحبته سفيره أحمد بن عتيق الأموي (ابن فنترال)، الذي استأذنه في العودة إلى الأندلس بعدما رأى

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٥٨، ٦١، وابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، ص٤٥٨.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٧٣، والحميري: المصدر السابق، ص٥٨.

(٣) ابن عذاري: المصدر السابق، (ص٢٧٣، ٢٧٤)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦، (ص٢٩٩).

(٤) المراكشي: الذيل والتكملة: س. ق (١)، ق (١)، ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٥) أبو زكريا يحيى بن محمد الناصر الموحدي تلقّب بالمعتصم، كانت مدة حكمه تسع سنوات وتسعة أيام (٦٢٤ - ٦٣٣هـ) لم تستقر له الأمور فيها حتى وفاته. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين ص٢٧٤، وعبدالواحد المراكشي: المعجب، ص٢٣٩. مر وسيمر معنا في عدة مواضع من البحث نكث الرعية أو أحد أفرادها بيعة إمامهم والثورة عليه ومبايعة غيره، وهذا أمر محرم ومعصية وكبيرة من الكبائر، ما لم يكن هناك عذر شرعي؛ لأن حكم البيعة واجب أمرنا الله بالالتزام به والوفاء بعهده، فقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾. سورة الإسراء، آية رقم (٣٤).

اضطراب الأحوال، فسار إلى مالقة، ووجد أهلها قد خرجوا عن طاعة المأمون وخلعوا دعوة الموحدين بالكلية من غير عودة.

وظن أهل مالقة أن قدوم السفير المالقي كان من أجل الدعوة للحاكم المأمون فأحاطوا به، واستحضره الوالي فثبتت براءته ورغب العوام في قتله، فخاف الوالي من الثورة على نفسه، فأخرجه لهم، فقتلوه في ضحوة يوم الاثنين ٢٤ ربيع الآخر سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م)[١].

أما المأمون الموحدي، فقد صرف عزمه على محو آثار دولة الموحدين، فأصدر أمره من مراكش بإلغاء اسم المهدي[٢] من جميع الرسوم كالخطبة والمآذن والسكة، مما كان يعمل به في سائر دولتهم[٣]، ثم كانت وفاته فجأة على مقربة من مراكش في آخر يوم من شهر ذي الحجة عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م)[٤] بعد حكم دام خمس سنوات وعدة أشهر، كانت فيه الحروب والثورات والأخطار هي الأغلب والأكثر، لاسيما خطر النصارى الأسبان الذين أخذوا يحتلون بلاد المسلمين في الأندلس مدينة تلو مدينة ومعقلاً خلف معقل[٥].

هذا في الوقت الذي قد ثار في عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) بمدينة مرسية أبو عبدالله محمد بن يوسف بن هود الجذامي أمير المسلمين سليل أسرة بني هود

---

(١) المراكشي: المعجب، س. ف (١)، ق (١)، ص٢٨٣، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٧٤، ٢٨٤.

(٢) محمد بن عبدالله بن تومرت المتسمي بالمهدي. ولد بقرية إيجلي من بلاد السوس. رحل في طلب العلم إلى بلدان عديدة، قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عام ٥١٥هـ، ويعد الزعيم الديني لدولة الموحدين، وكان من أهم مؤلفاته كتاب (أعز ما يطلب). مات بتينمّل في شهور عام ٥٢٤هـ. انظر عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص١٢٦ وما بعدها.

(٣) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٦٤، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص٤١١، ٤١٢، وابن عذاري: المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٤) عبدالواحد المراكشي: المصدر السابق، ص٢٣٩، وابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص٢٩٨، ومؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص١٦٦.

(٥) عبدالواحد المراكشي: المعجب، ص٢٣٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٢.

حكّام سرقسطة أيام الطوائف، وفي بداية ثورته خطب للخليفة العباسي في المشرق الإسلامي أبي جعفر المستنصر بالله[1]، ليستظل بخلافته الشرعية، فراسله الخليفة وسماه مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين المتوكل على الله[2]. وهذا يوحي برغبة بني العباس وهم في آخر عهدهم - بمد نفوذهم من جديد على الأندلس وإعادة ما سُلب من خلافتهم على يد كائن من كان. ثم في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، بعدما أعلن ابن هود إمارته على مدينة مرسية، دخلت كثير من مدن بلاد الأندلس - كالمرية وغرناطة وغيرها - في طاعته، وخرجت عن طاعة الموحدين[3].

ثم في يوم الاثنين ٢٩ شعبان من عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) تبعتها مدينة مالقة وبايعت ابن هود ودخلت في طاعته[4]، والراجح أن دخولها كان في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)؛ لأن سفير المأمون الموحدي ابن فنترال المالقي حينما عاد إلى مالقة في أوائل عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) ألفاها قد خلعت حكم الموحدين ودخلت في دولة ابن هود[5]. وفي (٤ رمضان) من العام المذكور أقيمت أول جمعة لدعوته ودعوة الخلافة العباسية، ثم قدم ابن هود إلى مالقة، وظل يخرج عنها ويرجع إليها إلى أن استقر بها في النهاية بوصفها عاصمة لدولته[6] على ما يبدو.

---

(١) أبو جعفر المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) تحالف مع ابن هود، وبعث إليه الهدايا والمراسيم. كان من أواخر حكام الدولة العباسية. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ص٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) ابن عذاري: المصدر نفسه، ص٢٧٦، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٢٠١، ٢٠٣، ج٦، ص٣٠٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٧٧، ٢٧٨، الإحاطة، مج٢، ص١٢٨.

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١٧٤، وعبدالواحد المراكشي: المعجب، ص٢٣٩، وابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص٢٨٨.

(٤) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٥) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق (١)، ص٢٨٣.

(٦) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص١٧٤، ١٧٥، وكمال السيد: بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، ١٩٩٣م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، ص١٨٠.

وقد استطاع ابن هود أثناء حكمه أن يصول ويجول مع خصومه المحليين ومع النصارى الضالين، الذين حاربهم وملأ قلوبهم بالرعب حتى شهدوا له بالشجاعة وقوة البأس[(١)]، هذا في الوقت الذي بايعته أجزاء كبيرة من بلاد الأندلس، فاتسعت دولته حتى وصلت إلى شمال المغرب الإسلامي. ولو حالفه النجاح والتوفيق، لكان له شأن آخر في قيادة الأندلس على الأرجح[(٢)].

ولاتصاف ابن هود بصفات قيادية عظيمة - كالشجاعة وحب الزعامة والوفاء والحياء والكرم، مما يذكّرنا بتاريخ أسرته - فإنه من جهة أخرى قد اتصف بصفات كانت سبباً مباشراً في سقوط دولته وتفوُّق ولاة مدنه عليه، الذين اختارهم للولاية بنفسه[(٣)]؛ ومن ذلك أنه كان «سليم الصدر، قليل المبالاة بالأمور محدوداً، لم يُنصر به جيش، ولا وفق له رأي؛ لغلبة الخفة عليه، واستعجاله الحركات، ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال واستعداد»[(٤)]. أضف على ذلك أنّ ابن هود كان رجلاً جاهلاً من عامة الناس، مثل رجال ثورته الذين كانوا يقطعون الطريق على المسافرين[(٥)].

ففي مالقة استعلى عليه واليها عبدالله بن علي بن زنون[(٦)]، وكان قد نشأ بها وتربّى ودرس العلم، ثم تركه فأقبل على الدنيا وزينتها، فلم تزل الأيام

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١٧٥، والمراكشي: المعجب، ص٢٣٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص٢٠٢.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه، ص٢٨٠، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٩٥، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج٤، ص٢٠٢، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٤١٤.

(٣) ابن عذاري: المصدر نفسه، ص٣٤٢، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص١٢٩.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٧٨، الإحاطة، مج٢، ص١٢٩.

(٥) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، جـ٢، ص٢٥١، وابن الخطيب: الإحاطة مج٢، ص١٢٩.

(٦) زنون: هو جد بني ذي النون البربر، وقد تصحف اسمه مع الزمن، فصار «ذو النون». انظر ابن عذاري المصدر السابق، ج٣، ص٢٧٦.

ترفعه درجة بعد أخرى حتى بلغت به المكانة والرفعة والوجاهة أقصى مبلغ[1]. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾،[2] وكان أول ظهوره في دولة ابن هود الجذامي، وذلك بسبب اتهامه هو وجماعة معه للقاضي ابن الحسن[3] بالثورة على ابن هود حينما كان يتولى قضاء مالقة مستقلاً برئاستها ومتابعة أمورها، فاعتُقل في عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) وهو بريءٌ مما نُسب إليه، ثم بقي ابن زنون مع أنصاره يطاردون ويعتقلون بني الحسن - جماعة القاضي المعتقل - إلى أن أفنوهم واحداً تلو الآخر ما بين النفي والقتل والسجن الطويل. وكان أقارب القاضي على سعة من الحال وكثرة الأموال ما ليس لأحد في زمانهم[4]، ويظهر أنّ ابن هود لم يحرك ساكناً لقلة مبالاته وانشغاله بالحروب مع أعدائه، فصفا الجو في مالقة لابن زنون، ولم يبق أحد ينافسه ويضايقه، وأحكم المدينة في قبضته، وأخذ يأمر وينهى بما شاء، فلم يكن ينفذ أمر من الأمور إلا بمشورته، وما على مَنْ دونه مِنَ الرعية سوى السمع والطاعة، فكانت تعليماته وتوجيهاته تطبّق في سائر أنحاء ولايته. وهذا إن دلّ، فإنما يدل على شدة ابن زنون وبطشه وتفرُّده بالحكم دون سواه[5].

ولما استتب له الأمر قام بجهود كبيرة في ميدان العمران لحماية المدينة وأهلها من خطر الأعداء، فبنى المدينة وطوّرها، وأصلح ما أُتلف فيها، حتى

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٤٧.

(٢) سورة هود، آية رقم (١٥).

(٣) أبو عبدالله محمد بن الحسن بن محمد الجذامي النباهي، كان من علية الفقهاء ونبهائهم، ذكياً فطناً بليغاً شاعراً. تولى قضاء مالقة، وتوفي عام ٦٣١هـ.
انظر النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٤٦.

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٤٧ النباهي: المصدر نفسه، ص١٤٧.

(٥) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، ص٢٤٧.

جعلها على أجمل طراز وأقوى مَنَعَة[1]. وعلاوة على هذا كان ابن زنون يفد إليه الشعراء من كل حدب وصوب لينشدوا الشعر، فيحسن إليهم ويكرمهم، لاسيما أنه كان من الأغنياء، كثير العطاء.

وبقي أيام ولايته، على ذلك في رغد من العيش والأمان لسنوات عدة حتى زال ملكه - بعد وفاة ابن هود- وأصبح أثراً بعد عين في أول دولة بني الأحمر[2]، وهذا ما سنوضحه في الفصل القادم. وصدق الله عز وجل في كتابه: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[3].

أما وفاة ابن هود، فقد كانت في ليلة الخميس ٢٥ جمادي الأولى من عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) - وذلك بعد وصوله إلى المرية قادماً من مالقة - في دار واليها ابن الرميمي[4] القائم بدعوته؛ إذ في الثلث الثاني من تلك الليلة سُمع الصياح في تلك الدار، فجيء إليها، فوُجد ابن هود ميتاً، فيقال: إنه خنق، ويقال: إنه مات موتته، ودفن بمرسية، ووصل الخبر إلى مالقة بموته صبيحة يوم السبت[5].

والراجح أن ميتته لم تكن طبيعية، إنما كانت بتدبير والي المرية على يد بعض رجاله[6]. وعلى هذا كانت مدة دولة ابن هود حوالي عشر سنوات حظيت فيها مدينة مالقة بالتطور والاستقرار والإصلاح مثلما شهدته في أيام الموحدين الذين عاشت في كنفهم حوالي ثمانين سنة.

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٤٧.

(٢) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، ص٢٤٨.

(٣) سورة آل عمران، آية رقم (١٤٠).

(٤) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالملك الأموي الرميمي، وزير ابن هود وواليه على المرية، وكان يدعوه بذي الوزارتين، وظل عليها حتى توفي بتونس عند أميرها أبي زكريا بعد خروجه منها. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٣، مج ٦، ص٣٤٨.

(٥) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١٧٥، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص١٣٢، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج٤، ص٢٠٣.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب: قسم الموحدين، ص٣٤١، ٣٤٢، وابن سعيد: المغرب، حـ٢، ص١٩٩، ٢٥٢، وابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٢، ص١٣٢.

الفصل الثاني
(مالقة في عصر بني الأحمر ٦٣٥ - ٨٩٢هـ)

١- قيام دولة بني الأحمر:

اتخذ بنو الأحمر من مدينة غرناطة حاضرةً لدولتهم، وتسميتها بغرناطة أو إغرناطة تسمية غير عربية، وهي مدينة حصينة من ولاية إلبيرة تقع على الضفة الشمالية لنهر شنيل المتفرع من نهر الوادي الكبير(١)، ويخترقها من الوسط نهر حدرة الملتقي في خارجها بنهر شنيل الواقع في الجنوب، وفي جنوبها الغربي يمتد الفحص الشهير كثير الجداول والأنهار وافر الخصوبة والخضرة، ومن جنوبها الشرقي تطل عليها جبال شلير (سيرنيفادا) العالية ذات الثلوج الدائمة(٢).

ولا ننسى في وصف طبيعة هذه المدينة وذكر محاسنها ما سطّرته أقلام المؤرخين والجغرافيين عنها؛ إذ يقول ابن الخطيب: «وتركب ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث الكروم البديعة طوقاً مرقوماً يتصل بما وراءها من الجبال، فتعم الربى والوهاد، وتشمل الغور والنجد»(٣)، وفي موضع آخر يقول عنها: «حاضرة الصُّقع، وأم المصر، وبيضة ذلك الحق، لحصانة وضعها، وطيب

(١) يقال: إن أصل تسمية غرناطة روماني (Granata): وقيل: إنه قوطي. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص٩١، ٩٩، شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص١٢، محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤) ص٢٣.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج١، ص٩١، ٩٦، ٩٨، ٩٩، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب، ١٣٤٧هـ، المطبعة السلفية. القاهرة، ص١٢، ١٣، والحميري: الروض المعطار، ص٢٣، ٢٤. انظر الملحق (ص٤٣٤).

(٣) انظر: الإحاطة، مج١، ص١٢٠.

هوائها، ودرور مائها، ووفور مدتها، فأمن فيها الخائف، ونظم النشر، ورسخت الأقدام، وتأثَّل المصر، وهلمَّ جرا. فهي بالأندلس قطب بلاد الأندلس، ودار الملك، وقرى الإمارة»[١].

ويقول الرحالة الجغرافي ابن بطوطة عنها: «غرناطة، قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شنيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة والبساتين الجليلة، والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة. ومن عجيب مواضعها (عين الدمع) وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثيل له بسواها» [٢].

أما تاريخ هذه المدينة؛ ففي أواخر القرن الهجري الأول، فتح المسلمون مدينة غرناطة أثناء سيرهم لاستكمال فتح بلاد الأندلس، فسكن ولايتها أهل دمشق، عندما نزل أهل الشام تلك البلاد، فشابهت أحوالها أحوال بلادهم، فسميت بشام الأندلس[٣].

وفي أيام بني أمية استمرت غرناطة قاعدة متواضعة حتى انتهت دولتهم، وفي مطلع القرن الخامس الهجرى عندما خربت قاعدة إلبيرة جرّاء الفتنة البربرية أصبحت غرناطة عاصمة الولاية المسماة باسمها تحت مُلك الصنهاجيين البربر الذين حكموها طوال أيام الطوائف[٤]، وفي عهد المرابطين والموحدين تناوب على حكم غرناطة أمراؤهم وساداتهم، حتى استولى عليها

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص٩٣.

(٢) انظر: رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تحقيق محمد العريان، راجعه مصطفى القصاص، ط (٢)، ١٤١٢هـ، دار إحياء العلوم. بيروت، ص٦٨٣.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، ص٩١، ١٠١، ١٠٣، اللمحة البدرية، ص١٢، ١٦، والمقري: نفح الطيب، مج١، ص١٤٨.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص١٤٠، اللمحة البدرية، ص٢٠، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٢٧، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع(٤)، ص٢٧.

ابن هود الثائر على الموحدين في شرق الأندلس، واستمرت تحت طاعته حتى انتزعها منه مؤسس الدولة النصرية الغالب بأمر الله أمير المسلمين الشيخ أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري(١)، وعُرفت أسرته في التاريخ ببني نصر نسبة إلى نصر بن قيس من سلالة الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج رضوان الله عليه، مما أضفى لهم عراقة في المجد وأصالة في النسب.

كما عُرفت ببني الأحمر(٢) نسبة إلى أحد أجدادهم، وربما هو والد مؤسس الدولة؛ إذ كان محمد بن يوسف يدعى بابن الأحمر، وقد أشار البعض إلى أنّ ذلك ربما يعود لنضارة وجهه واحمرار شعره(٣).

وقد كان مولده في عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م) بحصن أرجونة(٤)، وكان آباؤه في الأصل سادة ذلك الحصن وقادته، فنشأ فيه نشأة دينية في «ظل نعمة وعلاج فلاحة بين يدي نجدة وشهرة»(٥)، جندياً شجاعاً كريماً متواضعاً زاهداً، وافر الجرأة والحزم، واسع الطموح، تفيض نفسه بشريان الرياسة وحب التملك والسيطرة، لاسيما وأن بلاد الأندلس قبل منتصف القرن السابع الهجري، كانت مسرحاً للفتن والحروب الأهلية الطاحنة، وفريسة سهلة مزّقتها يد النصارى

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٠، ٢٠٤، وابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٢٠، ٢١).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص١٤١، ١٤٢، مج٢، ص٩٢، اللمحة البدرية، ص٢١، ٢٢.

(٣) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص٥٢، والعبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧٠م، مج١٥، مدريد، ص١٣٦.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص٩٣، ٩٩، ١٠٠، اللمحة البدرية، ص٣٦.

أرجونة: مدينة من حصون قرطبة. ينتسب إليه بنو نصر وأصلهم منه، انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٩٣)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، (ص٢٠٤)، والحميري: الروض المعطار (ص١٢).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص٩٣.

الذين أخذوا يلتهمون أراضيها شرقاً وغرباً في ظل احتلالهم الكبير[١].

وفي خضم هذه الأحداث المضطرية برز على الساحة ابن الأحمر ثائراً على ابن هود[٢] وهو مؤمن بقاعدة: «لا ملك إلا بالرجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بالعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل والسياسة»[٣]، فانطلق يبني أركان دولته بمعاونة أنصاره وأصهاره وأقربائه النصريين[٤]. ففي عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م) بايعه أهل حصن أرجونة بالإمارة، وقدّموه على أنفسهم[٥]، ودعا للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية[٦]، وهو قول ضعيف[٧]: «والضابط فيما يقال عن شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الأجواد تهافتوا في نصرته، ونصّبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة آل الأمر إلى ما يؤول إليه، وبعد أن يكون الملك في مملكة قد

---

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٩٤، والمقري: نفح الطيب، مج١، ص٢١٦، ٤٤٦، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص٣٧، ٣٨.

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٢١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٠، مج٦، ص٣٤٨، والمقري: المصدر نفسه، مج١، ص٤٤٧.

(٣) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٧٥.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، مج١، ص١٧٥، مج٤، ص٢٠٤، والمقري: المصدر السابق، مج١، ص٤٤٧.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٩٦، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٢، ٢٠٤، والمقري: نفح الطيب، مج١، ص٢١٦، ٤٤٧.

(٦) أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبدالواحد بن عمر بن يحيى الهنتاني، تولى ولاية بلاد أفريقية في عام ٦٢٧هـ، وكان ملكاً مطاعاً وبطلاً شجاعاً، مشاركاً في العلم، فذّاً في البلاغة، كثير الأدب واللغة، توفي في عام (٦٤٦هـ).
انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ص٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٢.

(٧) سبب التضعيف هو تناقض واختلاف تاريخ ابن خلدون عند ذكره لهذه المعلومة، وفيه مخالفة لما ذكره ابن الخطيب وابن عذاري.
انظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج٤، ص٢٠٢، ٢٠٤.

توورثت وتدوولت، ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو، وظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة، قدّموه ملكاً في حصن من الحصون، ورفضوا عيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك بكرسي الملك، ولم يزالوا في جهاد وإتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطَلِبَته»(1).

ثم أخذ ابن الأحمر يوسع نفوذه في المنطقة الوسطى، فأطاعته جيّان ووادي آش(2) وغيرهما، كما وسّع نفوذه في منطقة حوض الوادي الكبير، فأطاعته شريش وقرمونة، كما أطاعته قرطبة وإشبيلية لفترة محدودة(3)، ثم اتجه ببصره نحو منطقة الجنوب لكي يكون قريباً من إسعاف المغربيين ونجدتهم بعيداً عن متناول يد النصارى الأعداء في الشمال(4).

ولما كانت تلك المناطق قد سبق دخولها في طاعة ابن هود، فإن ابن الأحمر قد اصطدم به وتحارب معه، وظل التدافع بينهما مستمراً(5) حتى كانت وفاة ابن هود. هذا في الوقت الذي سلك فيه ابن الأحمر مسلكه في الدعوة للخليفة العباسي المستنصر في المشرق، وذلك ليعطي حكمه طابعاً شرعياً، ويكسب رضا شعبه الذين تعلقوا بدعوة ذلك الخليفة(6).

وبعدما استراح ابن الأحمر من منافسه ابن هود اصطدم بولاته في كلٍّ من مالقة وغرناطة والمرية، لكنه استطاع أن يتغلب عليهم، وبايعته مدنهم على

---

(1) المقري: نفح الطيب، مج1، ص215، 216.

(2)وادي آش: مدينة كبيرة قريبة من غرناطة تقع على ضفة نهر شنيل، وتسمى اليوم (Guadix) انظر الحميري: الروض المعطار، ص192.

(3) ابن الخطيب: الإحاطة، مج2، ص94، اللمحة البدرية، ص31، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج4، ص202، 204، مج6، ص348، والمقري: المصدر السابق، مج1، ص216.

(4) محمد عنان: دولة الإسلام، ع(4)، ص37.

(5) ابن الخطيب: الإحاطة، مج2، ص130، 131، أعمال الأعلام، ص279، 280، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج4، ص200، 202، مج6، ص348.

(6) ابن الخطيب: الإحاطة، مج2، ص95، اللمحة البدرية، ص31.

اختلاف في المصادر[١]. وما نرجحه أنّ مالقة كانت أول تلك المدن دخولاً[٢]؛ ذلك أن واليها عبدالله بن زنون، عندما استأثر بالملك لنفسه، وفضّل البقاء على دعوة الهوديين، وأضر بأهل مالقة أشد الضرر، وألحق بهم الكثير من الأذى والظلم، وسامهم سوء العذاب، ثاروا عليه وتخلوا عنه في أوائل شهر رمضان، وأعلنوا ولاءهم لابن الأحمر، ورغبتهم في حكمه، بحكم مجاورتهم له ودوره ومكانته، فأرسل إليهم أخاه الرئيس إسماعيل[٣].

وبعد قدوم ابن الأحمر على غرناطة جاءته بيعة أهل مالقة بشكل رسمي مع وفد من كبارهم، وكان نص البيعة من إنشاء القاضي ابن عسكر[٤]، فعينه ابن الأحمر على قضاء مالقة في يوم (٢٨) من شهر رمضان عام (٦٣٥هـ / ١٢٣٨م)[٥]، وفي هذا دلالة واضحة على أنّ مالقة دخلت في حكم ابن الأحمر في هذا العام، وليس في عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م)[٦]؛ لأن وفاة القاضي كاتب البيعة كانت في ظهر يوم الأربعاء (٤) جمادى الأولى من عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م)[٧].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٤٣، ٣٤٩، وابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ١٩٧٢، دار المنصور. الرباط، ص٥٤، والمقري: نفح الطيب، مج١، ص٤٤٨.

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٢٤، وابن الأحمر: المصدر نفسه، ص٥٤.

(٣) إسماعيل بن يوسف بن محمد أخو محمد بن يوسف المؤسس، سنتحدث عنه في الصفحات القادمة. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، ص٢٤١، أعمال الأعلام، ص٢٨٧.

(٤) محمد بن علي بن خضر الغساني اشتهر بابن عسكر، ويكنى أبا عبدالله. نشأ بمالقة، ثم أصبح من أكبر قضاتها في أيام ابن هود، ثم محمد بن الأحمر، فكان معظماً عند الملوك، له تصانيف عديدة توفي في عام ٦٣٦هـ. انظر ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص١٧٥.

(٥) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، ص١٧٥، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص١٧٣.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٤٩، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٤٣٠.

(٧) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١٩٢، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٦)، ص٤٥١، وابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق ونشر عزت العطار، ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م، جـ٢. ص٦٤٢، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص١٧٥.

أما ابن زنون، فلمّا رأى دخول أهل مالقة والبلدان المجاورة في طاعة ابن الأحمر، وعدم جدوى بقائة مع الهوديين، وقدوم الرئيس أبي الوليد إسماعيل ابن الأحمر عليه، فإنه قرر التظاهر بمبايعة ابن الأحمر تجنباً للصدام معه، فجمع الناس ليلاً في منزله ليشهدوا على البيعة، وكثّف الحراسات الأمنية تحسباً لأي طارئ، فقُرئت البيعة في ليلة الأربعاء العاشر من رمضان عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٩م)، ثم أعيدت قراءتها في اليوم التالي بالمسجد الجامع يوم وصول الرئيس أبي الوليد إسماعيل ابن الأحمر، فخرج ابن زنون لاستقباله، لكنه خاف على نفسه فرجع، واعتصم بمالقة، فاشتد الأمر عليه، فتمكن ابن الأحمر مع أتباعه من الدخول، فهرب ابن زنون مع بعض رجاله غير أنه لم ينجُ، إذ قُبض عليه وسُجن بقصبة مالقة، ثم أُرسل إلى غرناطة وضرب فيها، ثم أعيد إلى مالقة ليستخرج مالاً اتهم فيه، فلم يخرجه، فعوقب بالضرب حتى أقدم على طعن نفسه بآلة حادة، وقيل: إنه لم ينتحر، بل قتلوه بأنفسهم[١].

أما غرناطة، فقد ثار أشرافها على واليهم عتبة بن يحيى المغيلي خصم ابن الأحمر، فقتلوه في قصره، بسبب ظلمه وجوره، وفسخوا - بقيادة ابن أبي خالد الغرناطي[٢]- طاعة ابن هود، ونادوا بدعوة ابن الأحمر، وكتبوا له البيعة في العشر الأواخر من رمضان عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)، فقدم عليهم من جيّان، ودخل غرناطة عند مغيب الشمس من يوم وصوله في ثياب خشنة مقطعة، فصلى المغرب في جامع القصبة، ثم خرج منه، ودخل قصر باديس في خاصته[٣].

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٤٨.

(٢) ينتسب إلى أسرة معروفة في غرناطة كان هو جدّهم. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٣٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٤٢، ٣٤٣، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص٩٨، ٩٩، اللمحة البدرية، ص٣٥.

ومنذ تلك الساعة اتخذ ابن الأحمر غرناطة عاصمة لملكه، فغدت في أيامه من أشهر مدن الأندلس عمارة وسعادة وسعة وتجارة وبسطة في العلم والجسم[1].

وحينما سمع ابن الأحمر بمقتل خصمه ابن هود واستيلاء ابن الرميمي على المرية، سار في قواته من عاصمته غرناطة نحوها، وحاصرها حصاراً شديداً انتهى بالصلح، فخرج ابن الرميمي بأهله وأمواله بحراً إلى تونس[2]، ودخل ابن الأحمر المرية في أواخر عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)[3]. وبهذا يكون ابن الأحمر قد أسس دولته بسرعة مذهلة في سنوات قليلة على رقعة جغرافية متواضعة لا تتجاوز مساحتها (١٠) مراحل في الركن الجنوبي الشرقي من الأندلس[4]، حيث تطل في الشرق على البحر المتوسط، وتنتهي في الغرب عند مصب نهر الوادي الكبير، وتمتد شمالاً حتى ولاية جيان، وجنوباً حتى منطقة مضيق جبل طارق[5].

يقول المقري: «واعلم أن جزيرة الأندلس مشتملة على موسطة وشرق وغرب؛ فالموسطة فيها من القواعد المصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة» مدن عديدة، وذكر منها غرناطة ومالقة والمرية[6].

---

(١) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٧٥.

(٢) تونس: مدينة بناها عقبة بن نافع الفهري على ساحل البحر المتوسط. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٥١، ٢٥٢.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٤٣، وابن سعيد: المغرب، جـ٢، ص١٩٩، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص٤١٩.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٥، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص٢٣، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ط (١)، ١٤١٣هـ، دار الجيل. بيروت، ص٩.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٥، والوادي آشي: ثبت أبي جعفر الوادي آشي، تحقيق عبدالله العمراني، ط الأولى، ١٤٠٣هـ، دار الغرب الإسلامي. لبنان، ص٣٠، ومحمد عنان: المرجع نفسه، ع (٤)، ص٥٥، ويوسف فرحات: المرجع نفسه، ص٩، ٢٠.

(٦) انظر: نفح الطيب، مج١، ص١٦٥.

وحول تقسيم هذه المملكة إدارياً، فإنها كانت تنقسم ثلاث ولايات كبرى رئيسة(1) هي: ولاية غرناطة، وفيها العاصمة وولاية المرية، وهي على ساحل البحر المتوسط(2) ثم ولاية مالقة، ويتبعها في الجنوب مدينة طريف(3) والجزيرة الخضراء وجبل طارق(4).

توارثت أسرة ابن الأحمر حكم هذه المملكة - آخر ممالك الإسلام في الأندلس - لمدة تزيد على ٢٥٠ سنة، استطاعوا خلالها أن يقيموا حضارة إسلامية عظيمة ما تزال آثارها باقية إلى اليوم(5)، كما استطاع أكثرهم الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ومجاهدة النصارى أعداء الدين حتى سقطت مملكتهم في أواخر القرن التاسع الهجري(6). وصدق المولى في كتابه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾(7).

وفي هذه الحقبة اختلف دور مدينة مالقة عن بقية العصور السابقة، فقد اتخذها حكام بني نصر العاصمة الثانية لهم بعد غرناطة(8)، فكان لها تأثير سياسي خطير كان له أكبر الأثر في تكوين المملكة وصمودها، كما كان لها

---

(١) الوادي آشي: ثبت أبي جعفر الوادي آشي، ص٣٠.

(٢) المقري: نفح الطيب، مج١، ص١٦٢.

(٣) طريف: مدينة تقع على ساحل المحيط الأطلسي قبالة قصر مصمودة في المغرب. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٦٥.

(٤) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص٥٥، وكمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، ط (١)، ١٩٦٩م، لجنة البيان العربي، ص١٧.

(٥) محمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، ص١٦٠ وما بعدها.

(٦) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص١٢٥)، ومحمد عنان: المرجع السابق، ع (٤)، (ص٢١، ٢٥، ٢٦٣).

(٧) سورة الأنعام، آية رقم (١٣٣).

(٨) العبادي وعبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ١٩٦٩م، دار النهضة العربية. بيروت، ص٣٤١.

تأثير حضاري بارز في شتى حقول النشاط الإنساني الذي أدى إلى زيادة الإنتاج المعرفي والاقتصادي لمملكتهم[1].

وقبل أن نتقصّى تاريخ هذه المدينة في ظل بني الأحمر، نستكمل ما كنّا بدأناه عن ابن الأحمر مؤسس مملكتهم وما وقع لمالقة في عهده من الأحداث:

سارع محمد بن الأحمر منذ توليه حكم غرناطة في عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) إلى قطع دعوته بالخلافة العباسية - بسبب ضعفها وبعدها - والدعوة للخليفة الرشيد الموحدي[2] في المغرب وتوثيق العلاقة معه، وإرسال البيعة له في عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) بعدما أخذها من أهل غرناطة ومالقة وجيّان وسائر البلاد التي كانت تحت طاعته، فتقبلها الرشيد بالقبول الحسن، وأرسل خطابات الشكر والرضا على ما قام به[3]، فاستمر ابن الأحمر على طاعته حتى وفاته، ثم حوّل الدعوة إلى ملك أفريقيا (تونس) أبي زكريا الحفصي، الذي بدأت دولته تقوى مع الأيام، وبعث بيعته مع وفد من مشايخ مملكته كان على رأسهم أبو بكر ابن عياش[4] شيخ مالقة، فاستقبلهم الحفصي ورحب بهم، ثم بعث الأموال ليستعين بها ابن الأحمر في الجهاد ضد أعدائه الكفار، وظل ابن الأحمر يخطب له عدة سنوات حتى أطلق نفسه من عقال الطاعة واستقل بملكه[5].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، ص٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ريحانة الكتاب، مج٢، ص٣٥٥ وما بعدها.

(٢) أبو محمد عبدالواحد بن إدريس المأمون (٦٣٠ -٦٤٠هـ)، صفته أزهر اللون أشقر كث اللحية حسن القد، استمرت دولته عشر سنوات وأربعة أشهر. انظر ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٩٩.

(٣) ابن عذاري: المصدر نفسه، ص٣٤٧، ٣٥٦.

(٤) أبو بكر بن عياش بن خلف المقّري، كان من علماء مالقة في القراءات، فأخذ الكثير من الطلبة العلم عنه. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص١٩٥.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٦، ص٣٤٨، وابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين ص٣٥٧، ٣٥٨، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص٩٥.

ورغم تعرض ابن الأحمر لكثير من الحروب والفتن في بداية أمره، فإنه استطاع بما امتاز به من صفات قيادية عظيمة - كالدهاء وحسن السياسة والتخطيط - أن يجاري الأقوياء ويصانع الأعداء - حتى أنشأ مملكته، وأرسى دعائمها[1] وصدق الشاعر في قوله:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

وعلى الرغم مما سبق، فإن ابن الأحمر لم يسلم من ثورات قوية وفتن مزعجة أدت إلى تضعضع ملكه وتصدّع مملكته، استمرت حتى ما بعد انقضاء عهده؛ كثورة بني إشقيلولة[2] في مدينة مالقة وغيرها من المدن الغرناطية[3].

٢- مالقة في ظل بني الأحمر:

عند قيام مملكة غرناطة تولى السلطان أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر ولاية مالقة - أول حكامها من بني نصر - حينما بعثه إليها أخوه المؤسس، فوصلها في (١١ رمضان من عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)[4] وبها اتسع نفوذه وذاع صيته، وعُرف بلقب الرئيس[5] - اللقب الذي توارثه حكام مالقة من بعده - وعاشت مالقة في عهده حياة آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص٩٥، ٩٤، ٩٣، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٥، مج٦، ص٣٤٨، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص٣٩ وما بعدها.

(٢) بنو إشقيلولة: أسرة تجيبية عربية الأصل، وقيل: إنهم من أهل حصن أرجونة المولدين. انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧، ومحمد عنان: المرجع نفسه، ص٤٠.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢، ٣٨٣، وابن خلدون: المصدر السابق، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، مج٧، ص٢٥٤، ٢٦١.

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٤٨، وابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٢٣، الإحاطة، مج٤، ص٢٤٠، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، ص٤٣٠.

(٥) المقري: نفح الطيب، مج١، ص٤٤٧، وعبدالقادر زمامة: أبو الوليد بن الأحمر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، دار المغرب، ص٢١.

مكان، فلم يُسمع بها أية حركة تمرد أو ثورة ثائر، بل شاركت ابن الأحمر بكل هدوء واستقرار في توطيد ملكه وتطوُّر بلاده، إلى أن وافت رئيسها المنية بها في أوائل عام (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)[١]، بعد حكم دام حوالي عشرين عاماً.

وكان للسلطان إسماعيل ابنٌ اسمه (فرج) مازال صغير السن ليس في مقدوره تحمل أعباء ولاية أبيه، فعقد السلطان محمد بن الأحمر على ولاية مالقة لصهره (زوج ابنته) الرئيس أبي محمد عبدالله بن أبي الحسن علي الإشقيلولي[٢]. وكان والده أبو الحسن علي زعيم أسرة بني أشقيولة قد انحاز منذ الساعة الأولى لمحمد بن الأحمر يحارب معه ويقف إلى جانبه، فهو الذي تولى كِبْرَ الثورة على ابن هود، وعاونه على مقاومة خصومه الآخرين[٣] فكافأه ابن الأحمر بأن أصهر لأسرته، «وأشركهم في أمره، ووسمهم من مياسم التعظيم، وأشعرهم من شعار التَّجِلَّة بما لم يختص به أحداً من سواهم»[٤]، فتوثقت أواصر الزعيمين بالمصاهرة، فتزوج أبو الحسن أخت ابن الأحمر[٥] فاشتد به أزره، وأشركه معه في ملكه، واتفقا منذ البداية على قسمة ما يتحصّل لهما من الملك، فلما استقر ابن الأحمر بغرناطة قال لصهره: (أنا أمِّيٌّ لا أكتب، وعزك عزي، وملكك ملكي)، وأسكنه معه في دار الحكم، وولاه على قيادة الجيش الغرناطي، فظل عليها يحارب النصارى حتى وفاته[٦].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢، مج٤، ص٢٤٢، أعمال الأعلام، ص٢٨٧.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢، مج٤، ص٢٤٢، أعمال الأعلام، ص٢٨٧، وعبدالقادر زمامة: المرجع السابق، ص٢١، ٢٢.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٥٤، ٢٦١، ومحمد عنان: المرجع السابق، ع (٤)، ص٤٠.

(٤) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٧٨.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٦١.

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧.

وكان قد أنجب أبو الحسن علي ولدين: الأول: ويدعى إبراهيم، عقد له ولابنيه عبدالله وعلي على ولاية وادي آش وقمارش. والثاني: يدعى عبدالله - وهو الأصغر سناً - عقد له على ولاية مالقة وغربيتها[1]، وكان قد زوجهما السلطان ابنتيه: مؤمنة وشمس، فأنجبا البنين والبنات، وأصبحت أحوالهم مستقرة وأمورهم جارية تحت عناية جدّهم ونفقته[2].

والحقيقة أن أسرة بني إشقيلولة من الأسر الأندلسية النابهة القوية، التي امتلكت طموحات واسعة وشهامة وافرة وكان لها أطماع خفية نحو الزعامة ورئاسة الممالك والدول؛ فهم من رؤساء الأندلس المشاركين لأسرة بني الأحمر في ملكهم، المؤملين في مدافعة العدو عن بلادهم[3]. غير أنه عندما اتقدت نار الفتنة بين الأسرتين في أواخر عهد المؤسس محمد بن الأحمر، وتطورت إلى تنافس مسلح وقتال مشؤوم[4]، انقسمت مملكة بني نصر على نفسها، فوقع الشقاق والنفاق، وتقطعت الأرحام بعد الصلة والمحبة والمناصرة، وكادت أن تسقط تلك المملكة في أول حياتها، وينتهي الإسلام من الأندلس مبكراً، لاسيما وأن كلا الأسرتين استعانتا بالنصارى الواحدة ضد الأخرى كلما سنحت الفرصة، مما أدى في النهاية إلى خروج كثير من المدن والحصون الإسلامية من حوزة الإسلام إلى يد النصارى[5] الذين تربصوا بالمسلمين الدوائر، هذا في الوقت الذي لحقت بمملكة غرناطة الكثير من الخسائر المادية والبشرية الفادحة.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: مج ٧، ص٢٥٤، ٢٦١.

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص٢٨٧.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٦١، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٧٦، ٣٨٢، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٧٨.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧، الإحاطة، مج١، ص٥٦٤، مج٣، ص٣٨٢.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٧٨.

ولَمَّا كان لأسرة بنى إشقيلولة أثر خطير في تحريك السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بني نصر، معرّضين أنفسهم ومدنهم - كمالقة - للحروب والخراب والزوال[١]، فإن تلك السياسة أدت إلى تدخل بني مرين[٢] حكام المغرب المجاهدين في الشؤون الداخلية لمملكة بني نصر، وذهاب مالقة لهم بعد أن كانت في يد حكام الأندلس مدة نصف قرن تقريباً، وهذا أيضاً أدى إلى الحروب وتفتيت عرى التعاون والتواثق بين سلاطين المغرب والأندلس[٣]، وانشغالهم عن النصارى الإسبان أعدائهم الحقيقيين الذين ما فتؤوا يساعدونهم على محاربة بعضهم بعضاً[٤]، فبرزت أهمية مدينة مالقة من تلك الفتنة، وشلت حركة الجهاد. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وما سبق يجعلنا - في الحقيقة - لا نطوي الصفحة المشرقة التي سجلتها هذه الأسرة منذ ظهورهم على مسرح السياسة والقيادة في الأندلس حتى انتقالهم بعد أكثر من نصف قرن إلى المغرب الإسلامي[٥]، فقد قامت أسرة بني إشقيلولة بدور تاريخي وحضاري بارز في تثبيت مملكة بني نصر وازدهارها والدفاع عنها ومحاربة أعدائها[٦].

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) بنو مرين يرجعون في قبيلة زناتة البربرية، وأصلهم من أحواز تلمسان، أقاموا دولتهم على أنقاض دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ، وكان مؤسس دولتهم هو أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق. انظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٨٥ وما بعدها، والمراكشي: المعجب، ص٢٤١.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٢٧٦، ٢٧٧، ٣٧٧، أعمال الأعلام، ص٢٨٧، ٢٨٩.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص١١٩، ٢٦٦، ٢٧١.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٩٠، ٢٩١، الإحاطة، مج١، ص٥٦٥، مج٣، ص٣٧٧، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج٤، ص٢٠٦.

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٥٩، ٢٦١، ٢٨١.

ويؤكد ذلك الشاعر بقوله:

وأندلس بالحـــزم من أمـــرائهـــا
غـدا ناكـصـاً عنهـا كـفـور وملحـد

وهـم حـفـظوا الإسـلام فـيـهـا وإنـه
لفي عـــداه كـــاد يطويه مـلحـــد

وفــعــل ابن شـــقــيلولة في دعـائه
أبا يوسف بالحق والصدق يشهد(١)

فكان أول من حكم مدينة مالقة من هذه الأسرة - بعد وفاة رئيسها أبي الوليد إسماعيل - في عام (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) الرئيس أبو محمد عبدالله بن علي الإشقيلولي. وقد اتصف بالشجاعة والحزم والعزيمة والصبر، ونال لدى السلطان المؤسس الحظ العظيم والاحترام الكبير؛ فقرّبه منه، وخصّه دون سواه، وزوّجه إحدى بناته، فأنجب من الأولاد علياً ومحمداً ويوسف وفَرَجاً(٢)، وظل أبو محمد يحكم مدينة مالقة لمدة طويلة تحسّنت فيها أحواله، واستقامت أموره تحت طاعة ابن الأحمر(٣) حتى تبدلت الأحوال فيما بعد كما سنوضح.

وباقتراب انتهاء عقد السلم بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة(٤) في عهده أرسل ابن الأحمر إلى بني مرين، يطلب منهم الغوث والنجدة والمشاركة في

(١) القيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، ص٣٨٨، ٣٨٥، وابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، ص١٢٢.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢، أعمال الأعلام، ص٢٨٧.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧.

(٤) تم في عام ٦٤٣ إبرام الصلح بين سلطان غرناطة ومملكة قشتالة. وخلاصته أن يتوقف القتال بين الطرفين مدة عشرين سنة، وأن يعاون ابن الأحمر ملك قشتالة في حروبه ضد الأعداء. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٥، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٢١.

الجهاد فلبّوا نداءه، وعقد مؤسس دولتهم أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق[1] لابني أخيه إدريس على فرقة من بني مرين بلغ عددهم حوالي (٣٠٠٠)[2] مقاتل، فعبروا البحر ونزلوا في الجزيرة الخضراء، ثم اتجهوا إلى مدينة مالقة، واتخذوها قاعدة عسكرية، فقضوا فيها ما تبقى من عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)، ثم ساروا في العام التالي إلى لقاء العدو النصراني في مدينة شريش وانتصروا عليه[3]، ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[4].

وقد كان عبور المغاربة للجهاد بارقة أمل وبشارة خير عند مسلمي الأندلس في إحياء هذه العادة الحميدة، التي كان لبني مرين الفضل في تجديدها بعد أن اندثرت منذ أمد بعيد.

وإلى جانب الحروب والقتال على المستوى الخارجي تفجر الخلاف من داخل مملكة غرناطة لأول مرة بين أسرة بني إشقيلولة حكام مالقة ووادي آش وبين أسرة بني نصر المالكة في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م)[5] وذلك للأسباب التالية:

١- رغبة ابن الأحمر المؤسس في إعادة ولاية مالقة إلى وريثها الشرعي ابن أخيه فرج بن إسماعيل بعد أن زوّجه حفيدته بنت ولي عهده محمد[6]،

(١) أمير المؤمنين القائم بأمر الله يعقوب بن عبدالحق. يكنى أبا يوسف، بويع في سنة٦٥٦هـ، وتوفي بالجزيرة الخضراء يوم الثلاثاء ٢٢ محرم عام ٦٨٥هـ، ومولده في عام ٦٠٩هـ. انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية واللمحة المرينية، تحقيق عدنان آل طعمة، ١٩٩٢م، دار سعد الدين، دمشق، ص٣٦.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٤٣٢، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٥.

(٣) ابن عذاري: المصدر نفسه، قسم الموحدين، ص٤٣٢.

(٤) سورة آل عمران، آية رقم (١٧٤).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢.

(٦) السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر، تولى الملك عقب أبيه المؤسس في عام ٦٧١هـ، وظل عليه حتى وفاته في عام ٧٠١هـ. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٣٧، ٤٥.

وقد، كبُر وصار قادراً على تحمّل أعباء الولاية[(١)].

٢- أنّ بني إشقيلولة أبطرتهم النعمة، وغرَّتهم الحياة الدنيا، فسموا إلى مشاركة بني الأحمر في حكم غرناطة، واتجهوا نحو ذلك بأطماع خفية[(٢)].

٣- أن السلطان محمداً الفقيه كبُر سنه، وولاّه والده ولاية العهد، فنافس أسرة بني إشقيلولة، وهدّدهم في مقاطعاتهم لعدم رغبته في حكمهم[(٣)].

٤- أنّ قيادة الجيوش الغرناطية كانت لأسرة بني إشقيلولة، فنقلها ابن الأحمر بعد وفاة زعيمهم أبي الحسن علي وجعلها في بني مرين[(٤)].

٥- أنّ ابن الأحمر أنكر وعْده لبني إشقيلولة في مقاسمة الملك، وانفرد بالحكم دونهم، وأنزلهم إلى مراتب الوزراء بعدما أقام ملكه، واستوى على كرسيه[(٥)].

ونتيجة لما سبق ثار بنو إشقيلولة في ولاياتهم؛ ففي مالقة ثار أبو محمد الإشقيلولي، وتحصّن ودعا لنفسه، واستعان بالنصارى أعداء الإسلام على أبناء ملته وقرابته، فأمده ملكهم ألفونسو العاشر[(٦)] بفرقة من ألف فارس قشتالي يقودها نُيوجونْزالَيِّز، فأحكم الإشقيلولي قبضته على المدينة، واستقلَّ بها، ثم قام بتصفية الكثير من كبار الشخصيات، واستولى على أموالهم لكثرة التّهم حولهم والشكاوى منهم[(٧)]. ورداً على ذلك قدِم ولي العهد محمد ابن المؤسس

---

(١) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٥١)، وعبدالقادر زمامة: أبو الوليد بن الأحمر، (ص٢٢).

(٢) محمد عنان: المرجع نفسه، ص٩٩، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٧٨.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢، أعمال الأعلام، ص٢٨٧.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٦.

(٥) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، ص٢٦١.

(٦) ألفونسو العاشر: هو ألفونسو العالم، أو الحكيم ابن فرناندو ابن ألفونسو. حكم (٣٢ سنه) على أيام مؤسس مملكة ابن الأحمر وولده السلطان الفقيه. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٣٥.

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢، أعمال الأعلام، ص٢٨٧.

بجيشه، تعاونه فرقة من النصارى في عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م)، وحاصر مالقة ثلاثة شهور(١)، استطاع خلالها أن يتغلب على جيش النصارى، وأن يخرّب الكثير من الممتلكات خارج المدينة حتى تسمَّى عند أهل مالقة (بعلم الأمير)، غير أنه لم يستطع اقتحامها، وعاد بخفي حنين(٢)، ثم ظلت الحالة بينهما ما بين سلم وحرب حتى عام (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)؛ إذ قدم ابن الأحمر المؤسس بنفسه، وحاصر مالقة، فاستعصت عليه لحصانتها وحزّم أميرها الذي علِم بقدومه، فتجهز له واستعد(٣).

وفي وسط تلك المعمعة يذكر ابن الخطيب نادرة لطيفة تدل على أروع صور الترابط والمحبة والقرابة، فيقول: «وفي بعض الأيام ركب السلطان - المؤسس - في ثلاثة من مماليكه متخفياً كاتماً غرضه، وقعد بباب المدينة، فلما بصر به الرجال القائمون به هالهم الأمر وأدهشتهم الهيبة، فأخرجوا له موقرين لجلاله، آنسين لقلة أتباعه، فدخل وقصد القصبة، وقد نذر به الرئيس أبو محمد، فبادر إليه راجلاً متبذلاً مهرولاً حافياً، ولما دنا منه ترامى على رجليه يقبلهما إظهاراً لحق أبوته وتعظيماً لقدره، ودخل معه إلى بنته وحفدته، فترامى الجميع على أطرافه يلثمونها، ويتعلقون بأذياله وأدرانه، وهو يبكي إظهاراً للشفقة والمودة، وتكلم الجميل، وأقام معهم بياض يومه، ثم انصرف إلى محلته، واتبعه الرئيس، فأمره بالاستمساك بقصبته وملازمة محل إمرته. وما لبث أن شرع في الارتحال عن ألطاف ومهادات وتقدير جرايات وإحكام هدية وتقرير إمارة، إلى أن توفي السلطان رحمه الله»(٤).

---

(١) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٢٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص٥١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٢، ومحمد عنان: المرجع السابق، ع (٤)، ص٥١.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٣، ومحمد عنان: المرجع السابق، ص٥١.

(٤) انظر: الإحاطة، مج٣، ص٣٨٣.

ومن هذه الحرب أدرك ابن الأحمر قوة أسرة بني إشقيلولة، فأقرّهم على إماراتهم فتوارثوا على حكمها. غير أنّ الذي فاز بنصيب الأسد منها هم النصارى الذين حذّرنا الله عز وجل من موالاتهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(١).

وفي تلك الفترة الحرجة تزامن مع الحرب على بني إشقيلولة في مالقة فتنة وليّهم الشيخ إبراهيم الفازاري الذي ادعى النبوة والرسالة، وأظهر البدعة، فكان لفتنته آثار سيئة على المجتمع المالقي بصفة خاصة والمجتمع الغرناطي بصفة عامة؛ إذا انقسم الناس حوله طائفتين: طائفة تؤيده وتناصره، وأخرى تعاديه وتحاربه، فاضطرب الأمن، وكثرت الشائعات، وقُتل الكثير من أهل مالقة وفرُّوا إلى مدن الأندلس والمغرب، وذاع أمره، فعلم به ولي العهد ابن الأحمر الفقيه، فدبّر لقبضه وتمكن من ذلك وأمر بقتله، فقُتل وصُلب بغرناطة مع جملة من أصحابه في عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)(٢).

وما إنْ هدأ لهيب الفتن في مالقة، وتنفست الصعداء قليلاً حتى توفي مؤسس دولة بني الأحمر رحمه الله في عام (٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)(٣)، فتولّى الحكم ابنه أمير المسلمين محمد (٦٧١ - ٧٠١هـ/ ١٢٧٣ - ١٣٠١م) الشهير بالفقيه، وذلك لكثرة علمه وقراءته القرآن(٤).

تسلّم الملك ورياح فتن النصارى أعداء الملة وقرابته من بني إشقيلولة في مالقة وغيرها مازالت تهبُّ على دولته، فوقف لها ابن الأحمر رابط الجأش ثابت المركز، بفضل ما اتصف به من ضروب الدهاء والاحتيال، وما تمتع به

(١) سورة المائدة، آية رقم (٥١).

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٣٦، ١٦٤، والأزدي: تحفة المغترب ببلاد المغرب، نشر فرناندو دي لاجرانخا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، ١٩٧٢م، مدريد، مج١٧، ص٨١.

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٣٦.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، ص٢٠٦.

من الصبر والحزم والخبرة وحسن السياسة والرويّة، وكثرة المال وسعة البال، متشبّهاً بوالده المؤسس في مجاراة الأقوياء ومداراة الأعداء[1] ليشتري سلامة ملكه ومملكته.

وكان أول ما فعله - عندما اتسعت دائرة الخلاف بينه وبين بني إشقيلولة الذين طالبوا بخلعه عن حكم المملكة ومنازعته فيه أكثر من ذي قبل[2]، واتصلوا بحلفائهم النصارى وبثوا دعاتهم في أنحاء المملكة، مطالبين بالثورة للإطاحة به؛ مما أدى إلى كثرة الثوار في المدن الغرناطية[3] في وقت كان فيه المسلمون في أمس الحاجة إلى الوحدة والتعاون للوقوف في وجه أعدائهم -أنْ تفرّغ لهم السلطان الفقيه، وطلب من الملك القشتالي عدم مساندتهم مقابل تنازلات على الحدود[4]، ولكنهما لم يتفقا، فاتجه ابن الأحمر بنظره صوب دولة بني مرين الفتيَّة يطلب منهم العبور إلى الأندلس من أجل الجهاد المقدّس ضد النصارى الذين استعان بهم بنو إشقيلولة ضده[5].

ولكثرة استغاثة الأندلسيين لأهل المغرب تجهّز السلطان المريني يعقوب ابن عبدالحق للجهاد، وتحرك جرّياً على سنة أسلافه المرابطين والموحدين[6]، وعند اقترابه من الأندلس شعر بذلك الرئيس المالقي أبو محمد عبدالله فأرسل ابنه أبا سعيد فرجاً على رئاسة وفد من أهل مالقة، فلقيه بمدينة طنجة في أواخر عام (٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م) وقدّم له فروض الطاعة والولاء والتبعية، وطلب منه العون والنصرة على غرار أقربائه بني الأحمر

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٣٨، أعمال الأعلام، ص٢٨٨.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٦١.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٨.

(٤) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٢٦.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٢٠٦.

(٦) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص٩٩.

ضد عدوهم اللدود الذي تفاقم خطره[1]، وهذا يذكّرنا بما فعله تميم أمير مالقة عندما استصرخ المرابطين ضد أعدائه.

والواقع أن رسائل الأندلسين لحكّام المغرب لا تخلو من الأشعار الحماسية التي تحثهم على الجهاد في سبيل الله ونصرة إخوانهم في الأندلس، وفي ذلك يقول أحد الشعراء مادحاً أهل مالقة وحكّامها الإشقيلوليين:

وفِعْل ابن شقيلوله في دعائه
أبا يوسف بالحق والصدق يشهد
دعاه لنصر الدين فيها مبادراً
فلبّاه منه ناصر ومؤيد[2]

وما يهمنا هو أنّ السلطان عبر إلى الأندلس في شهر صفر عام (٦٧٤هـ/١٢٧٥م)[3] ونزل في طريف، فسار إلى لقائه السلطان ابن الأحمر الفقيه وابنا إشقيلولة الأخوان: رئيس مالقة أبو محمد عبدالله، ورئيس قمارش - التابعة لها - أبو إسحاق إبراهيم اللذان دخلا في حمايته، وجعلا جيوشهما تحت تصرفه منذ تلك اللحظة[4]، فعقد السلطان يعقوب مجلساً عسكرياً في الجزيرة الخضراء حضرته الأطراف المتنازعه للتفاوض حول الجهاد[5] وإصلاح ذات البين امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٥٥، ٢٦١، ومحمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق على الزاوي ومحمود محفوظ، دار الغرب الإسلامي. بيروت، مج ١، ص٥٢٣، ومحمد عنان: المرجع نفسه، ع (٤)، ص٩٨.

(٢) القيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٣٨٩)، وابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، ص١٢٢.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٤، ص٢٥٦، مج٧، ص٢٥٤، ٢٥٥، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٧٦

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٨، الإحاطة، مج١، ص٥٦٤.

(٥) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٥٥.

بَيْنَهُمَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[2] فانفض المجلس بالنتائج التالية:

١- تحالف السلطان المريني مع بني إشقيلولة وتعاونهم على البر والتقوى، وهي أهم نتيجة في الاجتماع.

٢- اختلاف السلطان المريني مع سلطان الأندلس حول تحديد موقفه من الجهاد ضد النصارى[3].

٣- فشل السلطان المريني في تحقيق الصلح بين الأقارب المتخاصمين[4].

فرجع ابنا إشقيلولة إلى مالقة وقمارش، بينما انصرف ابن الأحمر إلى غرناطة[5] حذراً غاضباً على السلطان المريني بسبب تدخله في شؤون مملكته بصورة مريبة[6] ووقوفه مع بني إشقيلولة أعدائه الذين فضّلهم عليه[7].

ويذكر البعض أنّ السلطان المريني في المجلس أصلح بين الأقارب المتخاصمين، وتعاهدوا معه سوياً على الدفاع والجهاد في سبيل الله ضد العدو المشترك[8]، وهو رأي مستبعد لعدم مساعدة ابن الأحمر لهم، وصرف نظره اتجاه النصارى. وهذا ما ستوضحه المصادر[9] في سير الحوادث لاحقاً.

وعقب المجلس تحرك السلطان المريني لتحرير الأراضي الإسلامية،

---

(١) سورة الحجرات، آية رقم (٩).

(٢) سورة الأنفال، آية رقم (١).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٨.

(٤) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٤٤.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٨، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٥٥.

(٦) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص٩٩.

(٧) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٢٧).

(٨) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٧٩.

(٩) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٥٦، ومحمود مقديش: نزهة الأنظار، مج١، ص٥٢٣.

تشاركه بعض قوات بني إشقيلولة المتحالفة[١] معه لأول مرة في عهد السلطان الفقيه، وعلى رأسهم أبو سعيد فرج ابن الرئيس المالقي، فاستطاع المسلمون في شهر ربيع الآخر عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) أن يحرزوا انتصاراً باهراً على العدو النصراني في خارج استجة، وقتل قائدهم ذنونة، ثم عادوا فرحين بما آتاهم الله، فعبر السلطان المريني البحر إلى بلاد المغرب[٢]، وكان في الحقيقة نصراً لم يتحقق للمسلمين مثله طوال القرن السابع الهجري.

وفي أوائل عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) عبر السلطان المريني عبوره الثاني إلى الأندلس[٣] فالتقى به ابنا إشقيلولة الأخوان واستقبلاه في أرض الجزيرة، وكلاهما مستعد للجهاد. فساروا سوياً نحو العدو، وقاتلوه في إشبيلية وشريش وغيرها، فألحقوا به هزائم كبيرة، وغنموا منه غنائم كثيرة ثم عادوا. وفي الطريق مرِض الرئيس المالقي مرضه الأخير، فتوفي على إثرِه في غرة جمادى الأولى من عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)[٤] فكانت مدة حكمه أكثر من عشرين عاماً، وهي من أطول فترات الولاة على مالقة.

ولكون بني إشقيلولة قد فرضوا أنفسهم على أقاليمهم - بحكم قوّتهم ونفوذهم - فقد تسلم إمارة مالقة بعد وفاة الرئيس الإشقيلولي أكبر أبنائه أبو عبدالله محمد، فسلم مدينة مالقة والغربية للسلطان المريني، واستدعاه إلى القدوم عليها عندما لحق به في الجزيرة الخضراء عقب عودته من الغزو في العشر الأواخر من رمضان عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م)[٥] وخرج هو وعائلته إلى

---

(١) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص١٠٠.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦١، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، ص٣٥٩.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٥٩، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص١٧٦.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٥٩، ٢٦١.

(٥) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٦١، ٢٦٥، ٢٨١، ومحمود مقديش: نزهة الأنظار، مج١، ص٥٢٣.

سُكنى حصن قرطمة التابع لمالقة(١).

وكان من أسباب هذا التصرف - الذي كان له ردود فعل عنيفة ونتائج وخيمة على المسلمين في العدوتين - أنّ السلطان ابن الأحمر الفقيه قتَل أبا سعيد فرجاً أخا الأمير محمد ابن الرئيس عبدالله الإشقيلولي أثناء الحروب بينهم بمالقة في النصف الثاني عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م) عقب عودته من المشاركة في حملة الجهاد الأولى، وهذا ما أدى إلى قيام الرئيس محمد بهذا التصرف نكاية وحقداً على خاله الذي غضِبت عليه أخته أم القتيل طوال العمر(٢)، ومكافأة بسيطة من بني إشقيلولة للسلطان المريني كي يتخذ مالقة قاعدة ينطلق منها للقتال معهم ضد الأعداء، مثلما تنازل له أقاربهم من بني الأحمر عن بعض القواعد في جنوب الأندلس للانطلاق في رحاب الجهاد(٣).

فعقد السلطان المريني لابنه أبي زيان منديل(٤) على مالقة، فسار إليها على رأس جيش. هذا في الوقت الذي كان ابن إشقيلولة قد أمر ابن عمه محمداً الأزرق بن يوسف بن الزرقاء أثناء خروجه من مالقة بأن يقوم بإخلاء بيوت السلطان في القصبة من كل ما فيها، وإعدادها وتهيئتها للسلطان المغربي، فتم ذلك في ثلاث ليال، فوصلها أبو زيان منديل وعسكَرَ في خارجها، ثم بعث محمد بن عمران بن عيلة مع جماعة القواد من بني مرين إلى القصبة فدخلوها، وأصبحت مالقة في يده(٥)، ولم يكن يخطر ببال

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٨.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه، ص٢٨٨، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٦١، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٢٧.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٥٤.

(٤) الأمير منديل بن يعقوب بن عبدالحق: كان قائداً فاضلاً عاقلاً جواداً، شارك مع والده في الجهاد ضد الأعداء ببلاد الأندلس. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، ص٢٧٦، وابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٦١، ٢٦٢.

(٥) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٦١، ٢٦٢.

السلطان ابن الأحمر أنّ تذهب مالقة - وهي إحدى أكبر ولايات مملكته - إلى بني مرين حكام المغرب بهذه السرعة والسهولة؛ لأنه ظن أنّ ابن أخته رئيسها الجديد مناصر له[1] وليس كأبيه، هذا في الوقت الذي اعتقد فيه أن تنازله عن بعض القواعد والثغور للمغاربة في جنوب الأندلس كافية لأداء واجبهم الديني مع إخوانهم الأندلسيين.

والحقيقة أن السلطان الفقيه منذ وفاة والد الرئيس الإشقيلولي (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) - بل من قبل - كان يطمع في الاستيلاء على مالقة[2] التي انفصلت عن حكمه وحكم والده منذ عدة سنوات، لاسيما وأنها تشكّل منفذاً بحرياً مهماً لمملكته. ومن تلافي وقوع الحرب قرَّر أن يحل الإشكال مع بني مرين بالرضا والتفاهم، فأرسل - على وجه السرعة - وزيره أبا سلطان عزيزاً الداني[3]، فوصل إلى مالقة وقصد معسكر الأمير أبي زيان في ساحتها وتكلّم معه على أن يترك المدينة لسلطان غرناطة، غير أن الأمير أبا زيان أعرض عنه وصد ودخل المدينة في أواخر شهر رمضان عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م) ورجع الوزير إلى سلطانه في غرناطة دون فائدة[4].

وبعد أن استكمل السلطان المريني بقية صوم شهر رمضان تحرك من الجزيرة الخضراء صوب مالقة فوصلها في اليوم السادس من شوال من العام نفسه،

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٦٢.

(٢) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، ص٢٦٢.

(٣) الشيخ الوزير أبو سلطان عزيز بن علي بن عبدالمنعم الداني. استمر على خطة الوزارة، فتولاها أيام السلطان ابن الأحمر الفقيه، وفي أيام ولده محمد، ثم تولاها بعده الكاتب أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن اللخمي. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٠، الإحاطة، مج١، ص٥٤٨.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٦٢، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص٥٦٥، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، ص١٠٢.

فخرج أهلها إلى لقائه، فاستقبلوه أحسن استقبال، وأقاموا له في ذلك اليوم احتفالاً كبيراً شهد ألوان الفرح والابتهاج بقدومه ودخولهم في طاعته، فأعجبت السلطان مدينتهم، وشاركهم أعيادهم، ثم مكث بينهم حتى نهاية السنة[١].

ويُذكر أن قدوم السلطان المريني كان في عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م) وهو قول لا يتفق مع الأحداث في المصادر ومن ضمنها ابن الخطيب نفسه[٢] إذ لم يأت سلطان المغرب مالقة إلا بعد عبوره الثاني إلى الأندلس في الوقت الذي لم يعطه أبو عبدالله محمد الإشقيلولي مالقة الأبعد وفاة والده وتسلّمه الحكم في أوائل عام (٦٧٦هـ/١٢٧٨م) كما ذكرنا، وخلال مكوث سلطان المغرب في مالقة عقد عليها وعلى الغربية وسائر الثغور والأعمال الأمير عمر بن يحيى ابن محلى البطوي[٣] فاستقر في قصبتها، وترك لديه الجيوش المغربية تحت قيادة زيّان بن أبي عياد بن عبدالحق أحد قرابته وكبار دولته، ثم استوصاه بمحمد ابن إشقيلولة خيراً، وغادر المدينة مع نفس طريق قدومه إلى عاصمته المغربية في أوائل عام (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)[٤]، وكان تحوّل مالقة إلى حكام المغرب هي الشرارة الأولى التي أشعلت نار الحرب بين سلطان غرناطة وسلطان فاس[٥] ربح فيها أعداؤهم النصارى أيّما ربح، ولولا فضل الله ورحمته لحل بابن نصر ما حلّ بابن عباد على يد يوسف بن تاشفين. وعندما لم يستطع ابن الأحمر

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٨، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٦٢.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٨، الإحاطة، مج١، ص٥٦٥.

(٣) أبو علي عمر بن يحيى بن محلى البطوي بَطويّه كان يمتّ لسلطان بني مرين بالقرابة، وهو رجل ذو جرأة وحزم، ولاه السلطان المريني مالقة، فحدثت له مواقف مع السلطان ابن الأحمر، انتهت بمقتله. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، ص٦١ وما بعدها، اللمحة البدرية، (ص٤٤)، وابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، (ص٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٦).

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٦٢.

(٥) فاس (Fez): مدينة من أعظم مدن المغرب، يحفها الماء والشجر من جميع الجهات، وكانت تسمى ببغداد المغرب. انظر المراكشي: المعجب، ص٢٥٧.

استعادة مالقة من المغربيين عن طريق السلم، ورأى بأم عينه اتساع نفوذ بني مرين في الأندلس، ووقوف بني إشقيلولة معهم بالدعم المادي والمعنوي ظنَّ الظنون، وتذكّر قصة المعتمد بن عباد مع المرابطين، فخاف على ملكه وممتلكاته(١)، لذا قرّر أن ينتهج سياسة عدائية تتضمن عمل خُطة محكمة مع أعداء بني مرين لأخذ قواعدهم في الأندلس بما فيها مالقة التي تعد جزءاً لا يتجزأ من مملكته، والحيلولة دون عبورهم لاستنقاذ أراضيهم(٢)، فكان أول ما عمله ابن الأحمر أن اتفق مع القشتاليين لأخذ الجزيرة الخضراء أهم المهابط العسكرية للمغاربة(٣)، كما راسل الأمير يغمراسن بن زيان(٤) صاحب (تلمسان)(٥) لفتح جبهة جديدة تشغل بني مرين، وتصرفهم عن العبور إلى الأندلس(٦) في الوقت الذي تحايل فيه ابن الأحمر على والي مالقة عمر بن محلى عن طريق أخيه طلحة(٧)، الأثير لديه، فاستطاع أنْ يُقنع أخاه بعدما

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص١١٩، ٢٦٢، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٨٤.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص١١٩، ٢٦٥، ٢٦٦.

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٤٥، أعمال الأعلام، (ص٢٨٩)، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، ص٢٦٦.

(٤) يغمراس بن زيان بن ثابت بن محمد. كان رجلاً شديد البأس، تولى حكم تلمسان بعد أخيه زكدان، فقام به أحسن قيام، وسار في الرعية سيرة حسنة. انظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٩٣.

(٥) تلمسان: قاعدة بلاد المغرب الأوسط، وأم بلاد زناتة، اختطها بنو يفرن، واسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين (تلم سين) ومعناهما تجمع من اثنين. انظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، (ص٨٨، ٩٠).

(٦) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص١٢٠، ٢٦٦، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٢٧.

(٧) طلحة بن يحيى بن محلى البطوي، كان من أقرباء السلطان المريني، عُرف بشدة البأس والشجاعة والحزم، تنقل بين المغرب والأندلس واستقر في خدمة سلطان ابن الأحمر، ثم انتهت حياته بالقتل في عام (٦٨٦هـ). انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص١٨٠، ٢٦٦.

راسله بالتنازل عن مالقة مقابل تعويضه بمال كثير وإعطائه شلوبانية[1] ولنفسه مدينة المنكّب «على أرزاق مقررة وأحوال مرثية مقدرة»[2]. فوافق عمر، ودخل في طاعة ابن الأحمر ثم سارع على رجال سلطان بني مرين وحلفائه، فتحايل عليهم، وقبض على قائد الجيش زيان بن أبي عياد، وعلى ابن إشقيلولة الرئيس أبي عبدالله محمد، فاتجه ابن الأحمر إلى مالقة بجيشه، وتسلّمها في منتصف عام (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)[3]. وقيل: في ٢٧ رمضان من العام نفسه[4]، وهو الأرجح؛ لاتفاقه مع الأحداث، فسار عمر إلى شلوبانية ومعه ذخيرته وكل ما ائتمنه عليه سلطان بني مرين من المال والعُدد الجهادية واستقر بها[5].

وبهذا عادت مالقة إلى حظيرة بني نصر بعد غياب دام ثلاث عشرة سنة قضت منها سنةً كاملة تحت حكم سلطان المغرب واثنتي عشرة سنة تحت حكم ذاتي برئاسة بني إشقيلولة. وما كان لها أن تعود لولا عزيمة السلطان الفقيه، وحسن سياسته وكثرة ماله، وإصراره منذ البداية على إخماد فتنة بني إشقيلولة، الذين افتقدوا مالقة إلى الأبد منذ تلك اللحظة.

وبعد أن انصرف ابن الأحمر عن مالقة أسند ولايتها إلى ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف النصري زوج ابنته فاطمة[6]. وهو أول

---

(١) شلوبانية (Salobrena): قرية على ساحل البحر المتوسط قريبة من المنكّب، يقابلها ميناء مليلة على ساحل البحر من الجهة الأخرى. انظر الحميري: الروض المعطار، ص١١١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، ص٦٢.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٦٢)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، (ص١١٩، ٢٦٦)، ومحمود مقديش: نزهة الأنظار، (ص٥٢٣)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٨٥).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٨.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص٦٢، وابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٦٦.

(٦) ولد في يوم الجمعة ٨ رمضان عام (٦٤٦هـ - ١٢٤٨م) انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، ص٢٤١، ٢٤٥.

ولاتها من بني نصر في عهده، وقد ولاّه عليها تحقيقاً لرغبة والده التي حال دون تحقيقها بنو إشقيلولة، وكان أبو سعيد فرج أميراً شديد الحزم، عالي الهمة، وافر العزم، شجاعاً كريماً ذكياً محنكاً جهورياً زاهداً، مرح النفس، من أغنياء الأمراء وأفاضلهم[1]، تسلَّم الملك في أواخر عام (٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م) وهو في عز الشباب، فلاقى ألوان الشدة والقسوة حتى وطّد حكمه ورتّب جيشه واستقر بملكه في تلك الحقبة التي كانت تعاني من الاضطراب وسوء الأحوال أيّما معاناة[2].

ومنذ البداية سعى الرئيس أبو سعيد لإعادة إعمار بلاده، واستصلاح ما ذاقته من ويلات الحروب والحصار في مختلف الميادين، فاشتغل بالبيع والشراء وامتلاك العقارات وتوسيع الأملاك، واستصلاح الأراضي الزراعية وحصد الثمار، والاهتمام ببناء العمران وتشييده، وصناعة السفن الحربية، فزاد الإنتاج، وتحسن مستوى المعيشة، وانتعش الاقتصاد، وكثرت الأرزاق والنعم التي ظهرت آثارها على الشعب والبلاد[3]. وبهذا تكون بلاده قد شهدت تطوراً ليس له مثيل.

كما انطلق الرئيس المالقي للجهاد في سبيل الله؛ فحمى الثغور، ودافع عن بلاده التي نفذت فيها أوامره على مختلف الأجناس، فاشتهر ذكره، وبعُد صيته، واتسع نفوذه؛ فضم إلى ولاية مالقة ولاية الجزيرة الخضراء[4] لأول مرة منذ زمن طويل. وقد طالت مدة حكم هذا الرئيس حتى بعد وفاة ابن عمه السلطان الفقيه.

أما سلطان بني مرين، فلم يقف من خطة خصومه موقف المتفرج؛ فعندما قام النصارى بمحاصرة المسلمين في الجزيرة من البر والبحر - حسب الخطة - أرسل في أوائل عام (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) أسطولاً حربياً التقى

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، ص٢٤٢.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٤، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج ٤، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٤) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٤، ص٢٤٤، ٢٤٥.

بالأسطول النصراني في مضيق جبل طارق، ودارت بينهم رحى معركة قوية، شارك فيها ابن الأحمر بأساطيله الحربية من مالقة والمنكَّب والمرية أهم موانئ مملكته؛ عوناً وممدداً لإخوانه المرينيين، وانتهت المعركة بهزيمة النصارى، واستعادة المسلمين للجزيرة الخضراء[1]. ولعلّ السبب الحقيقي في تغيّر موقف ابن الأحمر بهذه السرعة، وعدم التزامه بالعهد مع النصارى: هو دخول مالقة في طاعته كان هدفه الأساسي من الخطة[2]، إضافة إلى أنه تأثر لِمَا حلّ بإخوانه المسلمين من الضيق والكرب جرّاء الحصار، وإداركه لخطورة تحالفه مع النصارى، فندم على ما فرط، وفضّل أن يكسب أبناء ملته على أعداء الدين[3]. وفي هذا دلالة قوية على فقه ابن الأحمر للسياسة. غير أنّ سلطان بني مرين لم تعجبه مواقف ابن الأحمر المتقلّبة، فقرّر معاقبته على فعلته واسترجاع مدينة مالقة منه، فأرسل ابنه الأمير أبا زيان منديلاً على رأس حملة سارت نحو ثغر مريلة التابع لمالقة، فحاصرته من البر والبحر ورمته بالمنجنيق[4]، لكنها لم تفلح في السيطرة عليه لحصانته. ثم تقدم أهل الحصون الغربية عليه ببيعتهم فتقبّلها منهم، وكان ذلك في عام (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)[5].

وعندما تحالف النصارى مع بني إشقيلولة أصحاب وادي آش ضد ابن الأحمر بسبب نقضه للعهد معهم، وشنوا هجماتهم المتعاقبة على ممتلكاته، أدرك

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٢٨.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٦٧، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص٨٥.

(٤) المنجنيق: اسم أعجمي الأصل، وهو أشهر آلات الحصار لرمي الحجارة وكل ما يضر العدو ويجبره على الاستسلام. انظر العبادي: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، ٢٠٠٠م، منشأة دار المعارف. الإسكندرية، ص٤٧.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٦٦.

السلطان المريني خطورة الموقف على مصير المسلمين في الأندلس، وأرسل في وجوب عقد التعاون والتفاهم مع السلطان الفقيه، بشرط أنْ يتنازل له عن مالقة لتكون قاعدة عسكرية للجيوش المغربية تنطلق منها إذا توفرت بواعث الجهاد[1]، لكن ابن الأحمر على ما يبدو لم يجبه إلى طلبه لتخوّفه، فسار كل منهما إلى شأنه من غير اتفاق، ثم ازدادت العلاقة بين السلطانين سوءاً، فقرر سلطان المغرب استعادة مالقة في هذه المرة بنفسه، فتحرّك من الجزيرة الخضراء في شهر محرم عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) بجيشه، وتغلّب في أول أمره على جميع الحصون الغربية، ثم سارع نحو مالقة وهاجمها، فوقعت بينه وبين المدافعين حرب شرسه[2] «بلغت فيها حملات الجيش المريني إلى أن صادمت الأسوار رؤوس الخيل»[3]، لكنه عجز عن دخولها، فحاصرها على ألاّ يبرح المكان حتى تستسلم له.

وحينما رأى ابن الأحمر شدة الحصار خاف أنْ يدخلها المريني بالغدر مثلما دخلها ابن محلى عن طريقه. فهداه فكره للتخلص من المغربيين أن يستعين بأبي يعقوب يوسف ابن السلطان المريني[4] وولي عهده، فراسله في المغرب لحل الأزمة بالتفاهم مع والده.

فاستجاب له ولي العهد وعبر إلى الأندلس في شهر صفر، وطلب من والده ترك مالقة لابن الأحمر، فوافقه رغبة للجهاد في سبيل الله وتمت المصالحة، فعاد السلطان المريني إلى الجزيرة الخضراء بعد حصارٍ دام حوالي خمسين يوماً[5].

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٦٨، ٢٦٩، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤) ص١٠٣.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٧١.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٩.

(٤) أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبدالحق المريني، تلقب بالناصر لدين الله، بويع في غرة صفر عام ٦٨٥هـ، وقتل في ذي القعدة عام ٧٠٦هـ وهو محاصر لتلمسان، وصفته أبيض اللون، ضخم الجسم، معتدل القامة. انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، ص٣٨.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، ص٢٧١.

وبعد زوال الخطر الخارجي عن بلاد ابن الأحمر اتجه إلى معالجة أموره الداخلية، فقرر التخلص من بقية عائلة بني إشقيلولة طالما أوقعوه في كثير من المشكلات والحروب، فطلب منهم وادي آش، فرفضوا تسليمه، واستنجدوا بسلطان بني مرين، فأجابهم وعبر إلى الأندلس للمرة الرابعة في أوائل عام (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)[١] من أجل الجهاد، فحارب النصارى وهزمهم وألحق بهم الكثير من الخسائر حتى طلبوا منه الصلح، فتم بينهم[٢] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[٣]. ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء بعدما جعل قيادة جيوشه لابنه الأمير أبي زيان منديل، وأنزله في حصن ذكوان على مقربة من مالقة لحماية أراضيه مستوصية بعدم مهاجمة أراضي ابن الأحمر[٤]، لكن الأمير لم يلتزم بوصية والده، وهاجم جهات سهيل التابعة لمالقة، وضيّق عليها، فخرج له جيش ابن الأحمر بقيادة موسى بن رحو[٥] من أقرباء بني مرين المدافع عن أراضي مالقة، والتقت جيوش الأقارب المغربية، وجرت بينهم موقعة شهيرة في أواخر ذي الحجة عام (٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م) انجلت عن هزيمة جيش الأمير أبي زيان، والقبض عليه وإرسال إلى ابن الأحمر في غرناطة، وظل بها حتى أطلق سراحه فيما بعد[٦].

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٩٠)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٧٣، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٢٨).

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٧٣ وما بعدها. وأن من الأسباب المباشرة لطلب الصلح: هي عدم الرغبة في التوسع الجهادي، خصوصاً وأن الوقت غير مناسب.

(٣) سورة الأنفال، آية رقم (٦١).

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٧٨، ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٢٧٦.

(٥) موسى بن رحو بن عبدالله بن عبدالحق، أجاز إلى الأندلس عام ٦٦٩هـ. تولى إمارة الغزاة حتى وفاته، وكان له أولاد وبنات. تزوج السلطان يوسف بن يعقوب ابنته في عام ٦٨٧هـ، فهو قريب السلطان وصهره. انظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٨٠، ٤٩٩.

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٢٧٦، ٢٧٧، وابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٤٣٦، ٤٣٧.

ولما تولى السلطان أبو يعقوب حكم بلاد المغرب بعد والده انتقل إلى بلاد الأندلس، وطلب من السلطان ابن الأحمر مقابلته؛ من أجل المصالحة وتقوية العلاقات وإنهاء الخلافات ورسم حدود السيادة بينهما، فالتقى به السلطان الفقيه في خارج مربلّة التابعة لمالقة في أول ربيع من عام (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)[١] وتجدّدت وشائج المحبة والأخوة، واتفقا على أنْ يأخذ بنو إشقيلولة القصر الكبير[٢] أو قصر كتامة[٣] مقابل وادي آش، فانتقلوا مع أقربائهم وأموالهم ورجالهم في أوائل عام (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)[٤] على أنْ يترك بنو مرين الأندلس لابن الأحمر عدا منطقة الجزيرة الخضراء وطريف، ثم غادر كل منهما إلى بلده[٥].

وفي عام (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م) خاف ملك النصارى[٦] على بلاده بعدما ألحقت به الجيوش المغربية الهزائم والخسائر، فاتصل بابن الأحمر، وأبلغه أنّ هدف المرينيين هو الاستيلاء على ثغور الأندلس، وحذّره من خطورة التحالف معهم، فاقتنع ابن الأحمر خوفاً من تحريض المغاربة لبني إشقيلولة أعدائه، الذين حذّرهم من مهاجمة مملكته بعد استقرارهم في بلاد المغرب، فتفاوض الطرفان سراً، واتفقا على أنْ يهاجم النصارى مدينة طريف قاعدة جيوش

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، ص٢٧٨، اللمحة البدرية، ص٤٢.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٧٩، ٢٨١. القصر الكبير، أو قصر عبدالكريم: مدينة صغيرة على ضفاف أحد الأنهار في داخل المغرب على مقربة من البحر. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، ص٥٣٠.

(٣) قصر كتامة أو القصر الصغير: ميناء مغربي صغير يقع على مضيق جبل طارق قبالة ثغر طريف الأسباني. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، الهامش، ص٣٧٧.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٩١، وابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٨١.

(٥) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، ص٢٧٩.

(٦) شانجة ابن ألفونسو العالم: ثار على ولده، وتولى حكم بلاده السلطان ابن الأحمر. وكانت وفاته عام ٦٩٤هـ. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٤٣.

المغـاربة وبوابة الأندلس من الجنوب، في الوقت الذي يمدّهم ابن الأحـمـر بالغذاء والسـلاح والمال والرجال طوال أيام وجوده في معسكره الذي أقامه بالقرب من مالقة، فسار النصارى إلى طريف، وحاصروها حتى سقطت في أيديهم عام (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م)[1]، لكنهم لم يسلموها لابن الأحمر على حسب الاتفاق، فأدرك السلطان الفقيه خطأ سياسته مع إخوانه المرينيين، وندم على مخالفته عدو الدين، فعاد يخطب سلمهم وودّهم، وأرسل وفداً من أهل غرناطة معهم وزيره عزيز الداني، وعلى رئاستهم أبو سعيد فرج والي مالقة «لتجديد العهد وتأكيد المودة وتعزيز المعذرة عن شأن طريف»[2]، فسار الوفد إلى المغرب والتقى بالسلطان المريني، فتجدّد ميثاق المحبة والأخوة، ثم عاد إلى الأندلس خير عودة[3].

وبعبور الجيوش المغربية التي حاصرت (طريف) في أوائل عام (٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) توانى السلطان ابن الأحمر عن المساعدة والمشاركة بحجة مرضه، واكتفى بإرسال جيشه تحت قيادة ابنه، الذي تخلّف مثله عن الإعانة والنصرة، وبقي بمالقة، فانقلب المسلمون المغاربة من هذا الحصار خاسرين[4]. وربما يكون السبب في عدم مشاركة النصريين - الذين تعاملوا بحذر مع المرينيين - الحروب الشرسة التي دارت بين الجيوش الغرناطية والحاميات النصرانية في ألبيرة وجهات مرسية[5]. وربما مناورة من ابن الأحمر لاستدراج المرينيين إلى الأندلس، ثم التخلي عنهم في قتالهم ضد النصارى لكسر شوكتهم وإضعاف قوتهم.

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٩١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، ص٢٨٥.
(٢) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، ص٢٨٦.
(٣) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، ص٢٨٦.
(٤) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، ص٢٨٨.
(٥) عبده عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية ص٩٢ نقلاً عن:
78. Benovidos , memorios , p. A

وفي تلك الأيام طلب السلطان الفقيه من الوزيرين الأخوين أبي زكريا وأبي إسحاق ابني أبي القاسم ابن الحكيم[١] حكّام مدينة رندة تركها له، فامتنعا وتحصّنا بها، فأرسل إليهما السلطان جيشاً من مالقة ظل يضربها وهي صامدة لم تسقط حتى تحايل عليها، وداخل أخوهم كاتبه أبا عبدالله محمد الحكيم[٢] فسلّموا المدينة على شروط في منتصف جمادى الثانية عام (٦٩٥هـ-١٢٩٦م)، ثم كانت وفاة السلطان فجأة في السنة الأولى من القرن الثامن الهجري[٣].

ومما ينبغي ذكره - للأهمية في عهد السلطان الفقيه - ظهور ما يُعرف بمنصب «مشيخة الغزاة». وهي وظيفة عسكرية تولدت نتيجة تلاحم القوى المغربية والأندلسية المسلمة، وتعاونها لأداء واجب الجهاد ضد الأعداء، وكان مقر القيادة العامة لهذه المشيخة في العاصمة غرناطة، وتتوزع عنها في بقية المدن الأندلسية المهمة «كمالقة» فروع لتلك القيادة[٤].

وشيخ الغزاة متولي هذه الوظيفة، يتعيّن بموجب مرسوم سلطاني من بني الأحمر، ويكون من القواد المغاربة الأبطال، الذين اشتهروا بالخبرة في الفروسية، وطول التجربة في الحروب، والحزم والرأي والدهاء، وغير ذلك من الصفات، على أنْ يمتَّ بصلة القرابة لسلاطين بني مرين[٥].

---

(١) أبو زكريا يحيى وأبو إسحاق إبراهيم ابنا أبي القاسم عبدالرحمن بن إبراهيم اللخمي، وهما من بيت رياسة. أصله من إشبيلية، وانتقل إلى رندة أيام دولة بني عباد، فتوارثوا حكمها. انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٩١، والإحاطة، مج٢، ص٤٤٤.

(٢) أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن يحيى اللخمي: ولد برندة عام (٦٦٠هـ)، ونشأ بها، وتولى ديوان الإنشاء في أيام السلطان الفقيه، واستمر في عهد ابنه السلطان المخلوع، وأسندت له الوزارة، فلقب بذي الوزارتين، توفي مقتولاً في عام ٧٠٨هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، ص٤٤٤، ٤٤٥، ٤٧٤.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٩١، ٢٩٢، اللمحة البدرية، ص٤٥.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، (ص٤٤٧)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٣٨٥).

(٥) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، (ص٤٣٣) وما بعدها، والمقري: المصدر نفسه، مج٤، (ص٣٨٥). انظر الملحق (ص٤٣٥)

ولما كانت الأندلس في حاجة للمجاهدين المتطوعين من أهل المغرب، سمح سلطان بني مرين لأقربائه - خوفاً على عرشه منهم - بالعبور إلى الأندلس، فخرجت القبائل المتطوعة للجهاد، وخوفاً من بأس السلطان، والتماساً للمجد والزعامة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري[1].

يقول ابن خلدون: «وكان هؤلاء القرابة من أولاد رحو بن عبدالله، وإدريس ابن عبدالله، وإدريس بن عبدالحق، لما أوجسوا الخيفة من السلطان، واستشعروا النكير منه لحقوا بالأندلس تورية بالجهاد، وانتباذاً عن الشول فراراً عن محله، وقد كان السلطان أبو يوسف متى أحسّ بريبة منهم في ذلك إذا انتقضوا عليه، يُشخصهم إلى الأندلس»[2].

ودخلت تلك القبائل في خدمة سلطان غرناطة، فقاموا بالدفاع عن بلاده، والعمل على توطيد الأمن فيها على الوجه المطلوب[3]، مما وثّق العلاقة بين بلاط غرناطة وبلاط فاس، وخاصة في الشؤون العسكرية، إلا أن تلك العلاقة أحياناً تُصاب بالتقاطع والتدافع، فتُصبح قوات بني مرين خطراً يهدد سلامة مملكة ابن الأحمر، وحينئذ يقف شيوخ الغزاة بأمر سلطان غرناطة في وجه أقربائهم، فيقع ما لا يحمد عقباه، وهذا بدوره خدم مصالح العدو المشترك، وفوّت فرص الانتصار على المسلمين[4].

وبمرور الزمن كثر استبداد شيوخ الغزاة ومعارضتهم، واتصالهم بأعداء الإسلام، وتدخلهم في تعيين سلاطين بني الأحمر على الحكم وعزلهم، بل وقتلهم، وهي أمور سياسية ليست من شأنهم، تعرضوا بسببها للنكبات

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٣٦٦).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، (ص٤٣٦).

(٣) المقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٣٨٥).

(٤) رابح المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة، حولية الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة (١٤٠)، ١٤٢٠-١٤٢١هـ ١٩٩٩-٢٠٠٠م، مجلس النشر العلمي، الكويت (ص١٠٤، ١٠٩).

والمصائب على أيدي سلاطينهم[١].

وفي النصف الثاني من القرن الثامن الهجري - عام (٧٨٣هـ/١٣٨١م) - ألغيت هذه الوظيفة على يد السلطان محمد الخامس[٢] بعد فترة استدامت لأكثر من قرن كامل.

ومن أشهر الأسر المغربية التي تعاقبت على منصب مشيخة الغزاة أسرة بني رحو[٣]، وأسرة بني أبي العلاء إدريس من نسل عبدالله بن عبدالحق - أخي مؤسس دولة بني مرين - وكان موسى بن رحو أول من تولى هذا المنصب في عام (٦٧٣هـ/١٢٧٤م)[٤]، فأقام سوقاً نشطة للجهاد، ثم رجع إلى المغرب، فلم يطب له المقام وعاد مرة ثانية إلى الأندلس، فاستقر بها، وأصهر في بنت السلطان المريني[٥] فنصّبه ابن الأحمر شيخاً على الغزاة بمالقة - وإن كانت المصادر والمراجع لم تشر إلى ذلك صراحة - لأن القيادة العليا على الجيوش كافة في تلك الفترة كان يتولاها الشيخ علي بن أبي عياد بن عبدالحق[٦]، إضافة إلى أنّ الأمير أبا زيان منديلاً عندما قام بمهاجمة الجهات التابعة

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٦٥، ٦٦، ٣٧١، ٣٧٦)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٤٤٠) وما بعدها.

(٢) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج ٧، (ص٤٥٠). محمد بن يوسف بن إسماعيل النصري أمير المسلمين، كان حسن الصورة، معتدل الخلق، عريقاً في الخير وسلامة الصدر، تولى الملك في عام (٧٥٥هـ)، ثم عُزل عنه ثم عاد إليه، فظل حتى وفاته. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص١٠٠، ١١٧)، المصدر السابق، مج ٢، (ص١٣) وما بعدها.

(٣) تُنسب هذه الأسرة إلى: رحو بن عبدالله بن عبدالحق. انظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٤٣٥، ٤٣٦).

(٤) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج ٧، (ص٤٣٦)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٠٧).

(٥) ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٤٤٦).

(٦) الشيخ علي ابن عم موسى بن رحو: اجتاز إلى الأندلس بغرض الجهاد، وتولى مشيخة الغزاة، وكانت وفاته في عام (٦٨٧هـ). انظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، (ص٤٣٥، ٤٣٧).

لمالقة، خرج لقتاله من تلك الجهات موسى بن رحو، يقول ابن الخطيب: «وبرز إليه الجيش لنظر موسى بن رحو»(١).

ثم أعقب هذا القائد على مشيخة الغزاة بعض أفراد أسرته المستبدين، فنافسهم وزاحمهم عليها أبناء عمومتهم من أسرة أبي العلاء إدريس بن عبدالله، فظفروا بها بعد قدومهم على الأندلس في عام (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)(٢)، فعين السلطان أبو عبدالله محمد الثالث - بعد استشهاد كبيرهم عبدالله بن إدريس في عام (٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) - أخاه الشيخ عثمان بن إدريس(٣)، وكان هو أول من تولى هذا المنصب في مالقة، فبادر ورحّل أقرباءه من أسرة بني رحو إلى المغرب، فأكرمهم السلطان المريني، وقرّبهم واستعان بهم ضد خصومه(٤).

وبعد وفاة السلطان محمد الفقيه في شعبان عام (٧٠١هـ/ ١٣٠٢م)، تربع على عرش السلطنة ابنه أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع(٥).

وفي بداية عهده القصير تبادل مع السلطان أبي يعقوب يوسف الصفاء والوفاء، فتحسنت العلاقة بينهما لكنها سرعان ما ساءت(٦).

فخاف المخلوع على مملكته، وتوقع هجوم سلطان بني مرين، فلكي لا يقف في موقف الدفاع، ولحماية ثغوره القريبة من دولة بني مرين بدرع واقٍ، فإنه

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، (ص٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (٤٣٧، ٤٣٩، ٤٤٣).

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٤٣٩، ٤٤٠). عثمان بن إدريس بن عبدالله بن عبدالحق، يكنى أبا سعيد، وهو شيخ الغزاة بالأندلس، اشتهر بالدهاء والبسالة والأصالة، تنقل بين المغرب والأندلس، وتوفي بمالقة (في الثاني من) ذي الحجة عام (٧٣٠هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٧٧) وما بعدها.

(٤) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج ٧، (ص٤٤٣).

(٥) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص٤٥، ٤٧)، وابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٢٠٧).

(٦) ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٢٧٠)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع٤، (ص١١٣).

استعد للمواجهة، وتآمر مع زوج أخته الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل - والي مالقة منذ أيام أبيه - بتحريض أهل مدينة سبتة المغربية على الانقلاب تمهيداً للاستيلاء عليها[1]، خاصة أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي.

ولما كان الرئيس أبو سعيد فرج صاحب طموحات واسعة، وإمكانيات مادية وبشرية هائلة مكنته من مد نفوذه حتى الجزيرة الخضراء[2] القريبة من سبتة المغربية، ولعدم نسيانه فِعْلة مؤسس دولة بني مرين السلطان يعقوب قبل حوالي ثلاثين عاماً، باستيلائه على مدينته مالقة، فإنه لم يتردد في تنفيذ أمر السلطان كردة فعل ومسوِّغ لذلك على ما يبدو لنا، في وقت كانت فيه بلاد المغرب تموج بالفتن والاضطرابات الداخلية، فاتفق مع عبدالله بن مخلص[3] قائد القصبة على تسليم المدينة له والغدر بولاتها من بني العزفي، بينما بادر بنفسه إلى إعداد الأساطيل في مالقة وتجهيزها بكل ما تحتاجه من الجنود والأقوات وغير ذلك.

وبعد أن انتهى من ذلك حث الناس على الخروج دون أن يبين لهم وجهة سيره، فخرج معه شيخ الغزاة على مالقة الأمير عثمان بن إدريس المريني؛ ليفرّق له بين بني مرين ويدافع عنه في سبتة، فتحركت الحملة البحرية من مالقة في خمس وعشرين سفينة، وسارت نحو سبتة، ودخلتها في مساء يوم الأربعاء (٢٧) شوال عام (٧٠٥هـ/ ١٣٠٦م) على حين غرة من أهلها، وتملّك الرئيس المالقي القصبة من قائدها، ثم وزّع جيوشه داخل المدينة، وقبض على أميرها أبي طالب عبدالله بن أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد العزفي[4] مع بقية عائلته

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٧٠).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٢٤٣).

(٣) عبدالله بن مخلص: كان من القواد الكبار في إمارة بني العزفي، ووقعت منه الخيانة باتفاق مع الرئيس المالقي على أخذ مدينة سبتة . انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٧١).

(٤) عبدالله بن محمد بن أحمد العزفي: الرئيس الفقيه، كان من أهل الحديث والقرآن العظيم، عالي الهمة، عجيب السكينة والوقار، توفي بفاس في شعبان عام (٧١٣هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، (ص٣٨٥).

وخَدمه، ثم رحَّلهم إلى مالقة ومنها إلى غرناطة، فاستقبلهم السلطان المخلوع، وأنزلهم بجواره في خير منزل، فأدوا البيعة، ومكثوا في غرناطة معززين مكرمين عدة سنوات، إلى أن عادوا إلى المغرب[1]، بعد أن استعطفوا المخلوع بقصيدة شعرية مؤثرة.

ولما علم سلطان المغرب - وهو يحاصر مدينة تلمسان - بموقف الرئيس المالقي الغادر، ومناداته بدعوة السلطان المخلوع كما أمره، غضِب ووجّه ابنه الأمير أبا سالم إبراهيم[2] على الجيش، فسارع نحو سبتة - وكان الرئيس المالقي قد حصّنها - فحاصرها لعدة أيام، لكن القائد عثمان هاجمه ليلاً فهزمه وعاد أدراجه، وكانت فرصة لاستيلاء عثمان على مُلك بني مرين الذي كان مرشحاً له وطامعاً فيه، خاصة وأنه يرى وقوف ابن الأحمر وإمداده له[3].

فتحرك ناحية الجنوب ودارت بينه وبين سلاطين بني مرين معارك يطول شرحها، انتهت بهزيمة عثمان وعودته مع قرابته إلى غرناطة[4].

وفي شهر شوال من عام (٧٠٨هـ/ ١٣٠٩م) عُزل السلطان محمد المخلوع عن الحكم، وحلّ مكانه أخوه أبو الجيوش نصر[5]، وكان محباً للخير، مؤثراً

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٢، (ص٣٠٢)، مج ٧، (ص٢٧٠، ٢٧١)، وابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٥٢)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٦٩)، والناصري: الاستقصا، ج٣، (ص٨٢)، والمكناسي: جذوة الاقتباس، القسم الثاني، (١٩٧٤م)، دار المنصور، الرباط، (ص٤٣٢).

(٢) أبو سالم إبراهيم، بايعه بعد مقتل أبيه الوزراء والحاشية والأجناد، فلم يكتب له النجاح، وقُتل بسبب طلبه الحكم. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٧٧).

(٣) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج ٧، (ص٢٨٠).

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٢٨٢)، وشكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس (ص٩١)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١١٣) وما بعدها.

(٥) نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، ولد في عام (٦٨٦هـ)، وتوفي في عام (٧٢٢هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، (ص٣٣٤).

للسلام، على الرغم من كثرة الأخطار والفتن في عهده[١].

وكان أول ما قام به هو إعادة مدينة سبتة إلى سلطان المغرب[٢] وذلك للأسباب الآتية:

(١) رغبة سلطان الأندلس في الانتهاء من مشكلة سبتة؛ لكونها عقبة في سبيل الاتفاق والتعاون بينه وبين سلطان المغرب، وهي اليوم وبعض الجزر لا تزال محل خلاف ونزاع بين دولة أسبانيا والمغرب.

(٢) كثرة شكاوى أهل سبتة من سوء حكم الرئيس المالقي، وعدم رغبتهم فيه[٣].

(٣) الرغبة في إتمام فكرة إعادة سبتة التي طرحت بين أخيه السلطان المخلوع وسلطان بني مرين[٤] ولم تتم بسبب وفاة الأخير[٥].

(٤) ترك الرئيس المالقي لسبتة وصرف نظره عن ولايتها في أواخر شهر ذي القعدة عام (٧٠٨هـ/ ١٣٠٩م)[٦]، وثورته فيما بعد تعزّز هذا السبب وتقوّيه.

وفي أول عام (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) أرسل السلطان المريني جيشاً بقيادة تاشفين بن يعقوب الوطاسي، ووصل إلى سبتة، فثار أهلها على حامية الرئيس المالقي العسكرية، وأسروا أكابر القواد في المدينة، فدخل تاشفين القصبة في

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، (ص٣٢٤)، اللمحة البدرية (ص٧٥)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، (١٩٩٧م)، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، (ص٣٤، ٣٥).

(٢) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٣٢). سليمان بن عبدالله بن يوسف بن يعقوب بن عبدالحق، يكنى أبا الربيع، تولى الحكم في عام (٧٠٨هـ)، وتوفي مسموماً في عام (٧١٠هـ). انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، (ص٤٢).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٨٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١١٥).

(٤) السلطان أبو عامر ثابت بن عبدالله، حكم من عام (٧٠٦هـ)، إلى عام (٧٠٨هـ). انظر ابن خلدون: المصدر نفسه، مج ٧، (ص٢٧٦، ٢٨١).

(٥) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج ٧، (ص٢٨١).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٢٤٣).

يوم (١٠) صفر عام (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، وعادت سبتة إلى سلطان المغرب بعد عدة سنوات[١]. ولنا حول اعتداء ابن الأحمر عليها وقفة بسيطة:

إنّ من السنن المعهودة أنَّ الحملات الإسلامية كانت تأتي من بلاد المغرب دعماً وعوناً للمسلمين في الأندلس من أجل محاربة أعدائهم الكفار، لكن ما قام به الرئيس المالقي في أوائل القرن الثامن الهجري من هجوم مضاد على سبتة - مدينة إخوانه وجيرانه - في المغرب، واستيلائه عليها، وهي المرة الوحيدة التي وقعت من حاكم مالقي بهذه الطريقة، حتى وإنّ كان اتسعت فيه ولاية مالقة أكثر من ذي قبل، وأُمنية كان ينتظرها الرئيس بفارغ الصبر، وقد تحققت لمعاقبة المغاربة الذين استولوا على مالقة، إلا أنّ هذا العمل يعدُّ سلوكاً خاطئاً، وعدواناً غاشماً، وبغياً واعتداءً بغير وجه حق، عكسته - فيما يبدو لنا - طبيعة العلاقات المرينية الغرناطية التي شابها كثير من التنازع والتخاصم في النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

ولكون هذا العمل حمل في طياته المحاولات الجادة للإطاحة بنظام سلطان المغرب وتأليف حكومة جديدة يديرها الشيخ عثمان بن أبي العلاء سليل بيت بني مرين تحت إشراف الحكومة الأندلسية زادت خطورته، وكان من أقوى المسببات التي أدت إلى تجدّد الشقاق والخلاف بين حاكم المغرب وحاكم الأندلس، وهذا أيضاً أضعف المسلمين، وشجع النصارى على ابتلاع الأندلس.

إذ في أوائل عام (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) تكالبت الجيوش النصرانية على المسلمين في الأندلس، وحاصرت الجزيرة الخضراء لعدة شهور، تمكنت خلالها من احتلال جبل طارق[٢] التابع لرئيس مالقة، الذي قلق لأمره، فأرسل جيشاً

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون مج ٧، (ص٢٨٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١١٥).

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦٢)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٨٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١١٦).

بقيادة أبي يحيى بن عبدالله بن أبي العلاء[1] شيخ الغزاة، لاسترجاعه، فالتقى بجيش من جيوش النصارى في نواحي الجبل يقوده زعيمهم ألفونسو، فهزمه وأثخن فيه القتل، لكن الشيخ لم يُفلح في استرجاع الجبل[2]، وضاع مثلما ضاع غيره من أراضي الأندلس، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وبينما كان الرئيس أبو سعيد فرج المالقي سائراً لمبايعة قريبه السلطان أبي الجيوش، وتهنئته في غرناطة، قابله بعض زعمائها وحذروه من البيعة، وحثوه على الثورة بمدينته، ووعدوه بالوقوف معه؛ كونه الشخص المناسب الذي له أكبر التأثير في صنع القرار السياسي، فعاد الرئيس مسرعاً إلى مالقة، ودعا لنفسه، وأعلن الثورة في شهر شعبان من عام (٧١١هـ/ ١٣١٢م)[4]، للأسباب التالية:

(١) تضييق الولاة على أتباع الرئيس المالقي في البلدان التابعة له[5].

(٢) مصانعة السلطان ابن الأحمر لملك قشتاله[6] والالتزام له بدفع الإتاوة بعد حصار الجزيرة التابعة للرئيس المالقي[7].

(٣) حقد الرئيس المالقي على السلطان ابن الأحمر بسبب إعطاء الأخير الجزيرة الخضراء وسبتة لسلطان المغرب بعدما كانت في طاعته[8].

---

(١) يظهر من سير الأحداث أنه تولى مشيخة غزاة مالقة بعد ذهاب أميرها الشيخ عثمان بن أبي العلاء مع الرئيس المالقي للاستيلاء على سبتة في عام (٧٠٥هـ)، ومكث مدة طويلة في منصبه. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٨٠، ٢٨٤).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٨٤).

(٣) سورة يوسف، آية رقم (٢١).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، (ص٣٨٥)، مج ٤، (ص٢٤٣) .

(٥) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج ٤، (ص٢٤٣).

(٦) هراندة بن شانجة بن ألفونسو. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦١).

(٧) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦١)، وابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٢٨٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١١٦)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٥).

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٢٤٣)، وابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٢٨٥).

(٤) ضياع جبل طارق من يد الرئيس نتيجة لسوء السياسة الخارجية للسلطان ابن الأحمر[١].

(٥) تحريض شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء السلطان إسماعيل لانتزاع الحكم من السلطان نصر الضعيف[٢].

(٦) ضعف السلطان ابن الأحمر وسوء سيرته في الحكم[٣].

(٧) تنافس خاصة السلطان وتتبّعهم لحياة الرئيس المالقي بالسوء، يقول ابن الخطيب: «يتعقبون على الرئيس الكبير أموراً تثير مخيمة الصدور، وتستدعي فرض الطاعة، وتحتوي على مظنات مخلة، واحترسوا صافيات منافعه»[٤].

(٨) سوء سيرة وزير الدولة ابن الحاج[٥] صديق النصارى، ودوره في إثارة الشعب الغرناطي على السلطان ابن الأحمر، وإيجاد فجوة عميقة بينهما[٦].

(٩) ظلم السلطان ابن الأحمر واضطهاده للشعب الغرناطي المحكوم[٧].

وفي ١٧ رمضان من عام (٧١١هـ/ ١٣١٢م) أظهر الرئيس المالقي الاستبداد، وقدَّم ولده إسماعيل ابن فاطمة ابنة السلطان محمد الفقيه - سنتحدث عنه لاحقاً - رغبة في استرداد الملك إلى عقبه، وأغراه بانتزاع الحكم، فسمّاه السلطان، ورتَّب له الألقاب - أمير المؤمنين - ودوّن له الدواوين، فأرسل السلطان نصر خطاباً يطلب فيه من الرئيس المالقي إيقاف نجله، فجاء الرد من

(١) كمال شبانة: يوسف الأول بن الأحمر، (ص٣٢).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٢٠٧).

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦٩)، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج ٤، (ص٢٠٧).

(٤) انظر: الإحاطة، مج ١، (ص٣٨٤).

(٥) محمد بن علي بن عبدالله بن الحاج، كان خباً داهية، أعلم الناس بأخبار الروم وسيرهم. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٣، (ص٣٣٥).

(٦) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج ٣، (ص٣٤٠)، وابن خلدون: المصدر السابق، مج ٤، (ص٢٠٧).

(٧) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج ٣، (ص٣٤٠)، وابن خلدون: المصدر السابق، مج ٤، (ص٢٠٧)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع ٤، (ص١١٦).

الرئيس قاسياً متوعداً، مذكراً له بما فعله بأخيه محمد[1]، وعليه تحرك إسماعيل بالجيش، واستولى على الحصون المجاورة لمالقة، كحصن أنتقيرة الذي ناصبه القتال حتى تملكه فدخلت مربلة في طاعته، ثم سار إلى بلش وحاصرها وضربها بالمنجنيق حتى خضعت له، فاتسعت ولايته وانتشر خبره، وتضخمت جبايته.

وفي أول شهر محرم عام (٧١٢هـ/ ١٣١٢م) قصد السلطان غرناطة فنزل بقرية العطشاء من مرجها فخرج له السلطان نصر في جيش وافر العدد والعدة، والتقى الجمعان في يوم (١٣) من الشهر، فانتصر الجيش المالقي القليل العدد على الجيش الغرناطي، وعثر بالسلطان نصر فرسه في مجرى أحد الأودية كاد أن يهلك منه، لكنه نجا، ودخل البلد منهزماً، فعاد الجيش المنتصر إلى مالقة، وتم الصلح بين الطرفين في شهر ربيع الأول من العام نفسه بسبب حاجة الرئيس المالقي وولده إلى المال وقلته عندهم[2].

وعندما بلغ الرئيس المالقي من العُمر عتياً، وتجاهل الناس قدْره ومكانته، وربما نكالاً في تصرفات ومواقف ابن عمه السلطان نصر أبي الجيوش. ويضيف ابن الخطيب قوله: «ولما استأصلت القطيعة مُحتجنه الراكد في مغابن الخزاين من لدن عام سبعة وسبعين وستماية، واستنفدت عتاده المطاولة»[3] أرسل وزيره وكاتبه أبا عبدالله محمد بن عيسى[4] لحاكم (سلا) [5] فتم

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، (ص٣٨٥)، مج ٤، (ص٢٤٢)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٢٠٧)، وعبدة محمد: الخلافات السياسية في الدولة النصرية، (ص١٢١).

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦٩، ٧٠)، الإحاطة، مج ١، (ص٣٨٥، ٣٨٦)، مج ٣، (ص٥٣٦).

(٣) انظر: الإحاطة، مج ٤، (ص٢٤٣).

(٤) محمد بن إبراهيم الحميري من أهل مالقة، كان أديباً حسن الخط جيد النظم، رحل إلى المغرب، فتوفي بسجلماسة عام ٧١٦ هـ. انظر ابن الخطيب، الإحاطة، مج ٢، ص ٣٧١، ٣٧٩.

(٥) سلا: مدينة مغربية في الجنوب تطل على المحيط الأطلسي عند مصب نهر وادي الرمان. انظر المراكشي: المعجب، (ص٢٨٤، ٢٨٥).

الاتفاق بينهم في شهر رمضان عام (٧١٣هـ/ ١٣١٤م) على أن يأخذ الرئيس أبو سعيد المالقي مدينة سلا التابعة لسلطان المغرب مقابل أنْ يعطيه مدينة مالقة[١]، وهو تصرف غريب عجيب لا يتناسب مع طبيعة العلاقات السياسية بين حكومة الأندلس والمغرب، ولكنه يتفق مع المطامع والمصالح الشخصية للحاكمين.

وعندما علم جنود مالقة بتصرف رئيسهم راسلوا ابنه السلطان إسماعيل، فاتفق معهم على خلع والده استجابة لهواهم، وتصميماً في طلب حقه من الملك، فساروا إليه وقابلوه وهو خارج من بعض بساتينه، فالتفُّوا حوله، وأحضروه إلى بعض القصور في خارج مالقة تحت حراسة مشددة، ثم أسرع ولده السلطان إسماعيل باتجاه القصبة، فدخلها من غير مواجهة - لعدم الظن به - سوى أحد حراس الأبواب الذي حاول المقاومة فلم يستطع، فاستولى السلطان على الأموال والذخائر، واستبدَّ بحكمه، فنُقل والده من حصن قرطمة إلى حصن شلوبانية، وظل فيه على أفضل حال حتى وافاه أجله في ليلة الخميس شهر ربيع الأول عام (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)[٢]. وبمجرد سماع زعماء غرناطة وأهلها انتزاع السلطان الحكم من أبيه في مالقة ثاروا في يوم (٢٥) رمضان على سلطانهم أبي الجيوش، طالبين منه تسليم وزيره الخائن ابن الحاج، منادين بدعوة أخيه السلطان المخلوع، لكنهم لم يوفقوا في ثورتهم بسبب اختلافهم في وقت الثورة، ففروا إلى مالقة، وحرضوا سلطانها على انتزاع الحكم الغرناطي[٣]. فاستجاب لهم السلطان إسماعيل، وتحرك برفقة الجنود المعارضين لانتزاع الحكم للمرة الثانية، فأطاعته الحصون في طريقه،

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٢٤٣).

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج ٤، (ص٢٤٣، ٢٤٤)، اللمحة البدرية، (ص٧٠).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، اللمحة البدرية، ص٧٠.

ووصل إلى خارج غرناطة في صباح يوم الخميس (٢٧) شوال، فخرج له جيشها بقيادة عبدالحق بن عثمان[١]، وقاتله قتالاً شديداً كاد أن ينهزم منه لولا ثباته، ثم تواصل القتال، فهجم عليهم السلطان هجوماً عنيفاً، فولَّوا الأدبار، فتعقبهم حتى سور غرناطة، وإذا بعامة أهلها قد صعدوا على المآذن والهضاب، وأهل ربض البيّازين[٢] قد برزوا على شُرفات منازلهم يصيحون عليه، ويناودونه بالدخول، فدخل المدينة من جهة ربضهم، واستقر في القصبة القديمة يُصدر القرارات، ويتألف الناس ويعفو عنهم.

أما السلطان نصر، فقد لجأ بأهله وأمواله وذخيرته إلى قصر الحمراء[٣]، فأخفق أتباعه في الدفاع عنه على الرغم من تمكُّن المَنَعَة وتوفر المال والطعام، فخرج إلى وادي آش معوضاً بالمال والذخيرة، ودخل السلطان المالقي القصر في ظهر يوم السبت (٢٩) شوال من عام (٧١٣هـ/ ١٣١٤م)، فانفرد بالرياسة والزعامة، وأطاعه القاصي والداني[٤]. وعبّر الشاعر عن هذه الحرب بقوله:

---

(١) عبدالحق بن عثمان بن محمد بن عبدالحق، كان من أبطال بني مرين، تربى في بيت السلطان يوسف بن يعقوب، وبعدما كبر اجتاز إلى الأندلس، وتولى مشيخة غزاتها. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٤٣٧).

(٢) ربض البيازين: حي من أحياء غرناطة الشعبية، تقع في شمالها الشرقي، وكان أهله دائماً من عناصر الاضطراب والشغب. انظر المقري: نفح الطيب، مج ٤، (ص٥١٧)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢٠٨).

(٣) قصر الحمراء: هو جزء صغير من قصبة الحمراء التي يعود بناؤها إلى القرن الرابع الهجري، وعندما استولى محمد بن الأحمر على غرناطة، أنشأ في داخل القصبة قصره المحصن المعروف باسم الحمراء القديم.
انظر محمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية، (ص١٨٩، ١٩٠).

(٤) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦٢، ٦٣)، الإحاطة، مج ١، (ص٣٨٦، ٣٨٧)، مج ٣، (ص٣٤٠). يلحظ القارئ انفرادنا عند الحديث عن تولي السلطان إسماعيل السلطان إسماعيل حكم غرناطة أنه كان بعد محاولتين عسكريتين بينما لا نجد عند بعض الباحثين سوى ذكر لمحاولة واحدة، وهذا ناتج إما عن عدم فهم منهم أو ربما اختصار=

فــقـــاد من مـــالقـــة الجنودا
ونـشـــر الأعـــلام والـبنــودا
وعــاد نصـــر بمدى حــمــرائـه
اتـى وأمـــــر الـلـه مـن ورائـه
فـــخلــع الأمــر وألقى باليـــد
من بعـــد عــهــد مــوثق مــؤكـد
وســـار فـي الليل إلـى وادي آشى
والملك لـلـه يعــــز مـن يشـــا(١)

وفي عهد السلطان إسماعيل، خامس ملوك بني الأحمر، تجدد القتال بين المسلمين والنصارى، فدارت بينهم معارك شهيرة كان من بينها معركة المرج التي وقعت في مرج غرناطة صباح يوم الاثنين (١٥ شهر ربيع الأول عام ٧١٩هـ/ ١٤ حزيران عام ١٣١٩م)، وكتب الله فيها النصر للمسلمين والوبال والهزيمة على الكافرين. ويبدو أن جيشاً من مالقة قد شارك فيها؛ لأن أمير الجيش أبا يحيى بن عبدالله بن أبي العلاء وشقيقه أبا معروف وغيرهم قد شاركوا مع قائد الغرناطيين الشيخ أبي سعيد عثمان في هذه المعركة(٢). ومن المعارك أيضاً معركة (برجمة) نسبة إلى الموضع الذي دارت فيه.

وأول وقودها أنّ أبا يحيى شيخ الغزاة بمالقة عندما توجه بجيشه إلى رندة ليجتمع بشيخ غزاتها لابنه القائد مسعود للهجوم على مدينة شريش النصرانية، وعلم النصارى المجاورون لمالقة بذلك، قرروا غزو حصن قامرة

= أرادوه. انظر يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٣٢، ٣٣. والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص٣٥.

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، (ص٣٩٧).

(٢) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرين، تقديم مازن عبدالقادر، ط (١)، ١٤١٨هـ، دار الفكر المعاصر. بيروت، جـ ٢، ص٣٦٢، ٣٦٣.

وحصن نوح من بلاد مالقة، فاجتمعوا في (٦٠٠٠) مقاتل، وهاجموا حصن قامرة واستولوا عليه، ولما علم الشيخ أبو يحيى بالخبر عاد بقواته ومر في طريقه بحصن أطيبة، حيث انضم إليه من فرسانها (٣٠٠) فارس، فالتقوا بالعدو النصراني بعد الظهر على ربوة عالية من موضع (برجمة)، ونشبت بينهم حرب قوية انكشفت فيها مؤخرة الجيش الإسلامي للعدو، لكن المدد أتى من حصون مالقة، فطالت المعركة حتى الليل، وانتهت بانتصار المسلمين، وغنيمتهم مقادير هائلة من الغنائم، ومقتل كثير من النصارى، وأسر (٥٠٠) مقاتل عاد بهم الشيخ إلى مالقة على ظهور الدواب، وكان وقوع المعركة في يوم عاشوراء من شهر محرم عام (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)[١].

وفي يوم (٢٦ رجب من عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) قُتل السلطان إسماعيل غدراً في قصره بعد حكم دام أكثر من عشر سنوات، وكان مولده في شهر رمضان من عام (٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م). وقد امتاز بصفات حميدة؛ كحسن الخلق، وسلامة الصدر، وكثرة الحياء، والثبات والعفة، والعدل في الرعية، والاجتهاد في محاربة أعداء الدين، وغير ذلك من الصفات[٢].

وعقب مقتل السلطان إسماعيل تولى الحكم ابنه أبو عبدالله محمد، وكان غلاماً فارساً شجاعاً شهماً نبيلاً، ولد في اليوم الثامن من شهر محرم عام (٧١٥هـ/ ١٣١٥م)، وقتل في ضحوة يوم الأربعاء ١٣ ذي الحجة من عام (٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)، على ضفة وادي السقائين في طريق عودته بأساطيله إلى مالقة بعد استعادته جبل طارق المفقود منذ أيام جده السلطان أبي سعيد فرج،

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى، ج٢، ق (٣) ط الأولى، ١٩٥٨م، مطبعة لجنة التأليف. القاهرة، (ص٩٥٧، ٩٥٩) والذهبي: دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل ومحمود الأرناؤوط، ط الأولى، ١٩٩٩م، دار صادر. بيروت، (ج٢)، (ص٢٥٩).

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦٥، ٧٤، ٧٥)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٧).

ثم نُقلت جثته ودُفنت بمالقة في رياض تجاوز منية السيد[1]. وشهد عهده في أواخر عام (٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) إعطاء مريلة وما يليها من الأراضي التابعة لمالقة وغيرها لسلطان المغرب[2]، ترغيباً له في الجهاد ضد النصارى الذين تفاقم خطرهم، وقوي بأسهم[3]، وانتصروا - بقيادة الأميرال ألفونسو جوفر نتربو - على الغرناطيين في مياه المرية ومالقة[4]، كما شهد عهده في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة عام (٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م) وفاة شيخ الغزاة الأمير أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء في مدينة مالقة، ثم نُقل جثمانه ودفن بغرناطة[5].

ثم صعد كرسيَّ المُلْك السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري[6] وفي عهده قام النصارى بمهاجمة الأندلس بقصد احتلالها، وخاصة منطقة الجنوب، فتصدى لهم السلطان من مالقة وغيرها بجيوشه البرية والبحرية، بعد اعتقال عامر بن عثمان[7] شيخ الغزاة وإخوته من أسرة بني العلاء في مالقة وغيرها[8]، فدارت بينه - بمعاونة جيوش

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٨٩)، الإحاطة، مج ١، (ص٥٣٣، ٥٤٠).

(٢) السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبدالحق (٧١٠هـ - ٧٣١هـ)، ولد في عام (٦٧٥هـ)، وصفته أبيض اللون، قصير القامة، حسن الوجه، معتدل اللحية. انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، (ص٤٣).

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٨٠)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٢٢، ١٢٤).

(٤) عبدة عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية، (ص١٣٧).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٧٩).

(٦) يوسف بن إسماعيل بن فرج النصري أمير المسلمين بالأندلس (٧٣٣هـ - ٧٥٥هـ)، كان بدر الملوك وزير الأمراء غلب على أيامه الصلاح والخير. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٨٩، ٩٦).

(٧) عامر بن عثمان بن إدريس بن عبدالحق، يكنى أبا ثابت، كان رئيساً جليلاً، تولى الأمر بعد أبيه، فقام به خير قيام، توفي في عام (٧٤٩هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٦٤-٦٧).

(٨) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٦٥)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٣١٠، ٣١٢، ٤٤٢).

حاكم المغرب[1] - وبين النصارى معارك ضارية كان من أشهرها معركة طريف، المسماة في المصادر الأسبانية بمعركة نهر سلادو أو الملوك الأربعة، التي انتهت بهزيمة المسلمين شر هزيمة، واستيلاء النصارى على المدينة في جمادى الأولى من عام (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)[2] ثم تحرك هؤلاء الكفرة لاحتلال بقية مملكة بني الأحمر، فأخفقت حملتهم في المدة ما بين منتصف عام (٧٤١ - ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) في الاستيلاء على مالقة لحصانة هذه المدينة التي كان قد جدّد السلطان أبو الحجاج يوسف حصنها المتصل بقصبة مالقة خلال قيامه بإصلاح حصونه وتحصين ثغور مملكته[3].

وفي عيد الأضحى عام (٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م) أرسل السلطان من مدينة مالقة التي أقام بها لمتابعة الحرب أسطولاً بحرياً لإنقاذ الجزيرة الخضراء من حصار النصارى، قال الشاعر فيه:

لما أرحت السير في قصر ريّة
بعوم تضيق الأرض دون مجاله
رأى منك بحر الماء بحراً من الندى
فواصل منك الموج لثم نعاله
زجرت بها الأسطول يبتدر العدى
ويمضي إلى ما اعتاد من أفعاله

---

(١) السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب (٧٣١-٧٥٢). انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، (ص٤٧).

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٩٣)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٣١٠، ٣١١)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٢٧، ١٢٨)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٤٠).

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٩٦)، الإحاطة، مج ١، (ص٥٠٩)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٣١١)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص١٣٠).

بكل خـفـيف ذي خـفـيف مطاوع
مـثـار صَـبـاه أو مـهب شـمـالـه
فـالله عـيناً من رآها صـوافنـا
أفـاض عليـهـا القـار سـحم جـلالـه
إذا سـاعـدتهـا هـبـة الريـح أسـرعت
كما انسـاب أيم الروض غب انسلاله
وغـريان أثبـاج زجـرت سنيـحـهـا
ويظهـر نجح الأمر فـي حسن فاله(١)

لكن المسلمين لم يفلحوا في إنقاذ المدينة، وتسلمها العدو صلحاً في أوائل عام (٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م)(٢).

وبهـذا تكون مـدينة مـالقـة قـدمت دوراً رائعـاً في الدفـاع عن مملكة بني الأحمر ضد الحرب التي شنها النصارى عليهم في أوائل العقد الخامس من القرن الثامن الهجري.

وعندمـا تسلّم الحكم السلطان مـحـمـد الخـامس الغني بالله عـقب مـقـتل والده في عام (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)(٣)، عقـد السلم مع النصـارى، فـهـدأت الأمور، واستقرت الأحوال في أرجاء مملكة بني الأحمر لعدة سنوات(٤).

ثم في ليلة ٢٨ من شهر رمضان لعام (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م) قام الانقلاب ضده

(١) ابن الخطيب: ديوان ابن الخطيب، تحقيق محمد مفتاح، مجلدان، ط الأولى، ١٤٠٩هـ، الدار البيضاء، مج ٢، (ص٤٨٤، ٤٨٥).

(٢) ابن الخطيب: ديوان ابن الخطيب، مج ٢، (ص٤٨٣)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٧، (ص٣١٢).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص١٤).

(٤) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص١٠١، ١٠٧)، ديوان ابن الخطيب، مج ٢، (ص٢٣)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٤٠).

من داخل مملكته بقيادة ابن عم أبيه الرئيس أبي عبدالله محمد بن إسماعيل ابن فرج النصري(١)، فلم يستطع المدافعة، وانتهى الانقلاب بتعيين أخيه السلطان إسماعيل بن يوسف(٢) ملكاً على البلاد، بينما فر بنفسه إلى وادي آش، ومنها عبر أراضي مالقة حتى وصل إلى ثغر مربلة، فانتقل منه إلى بلاد المغرب، ومكث لدى سلطانها(٣) بفاس في رغد من العيش حتى أواخر عام (٧٦٢هـ/ ١٣٦١م)، ثم عاد إلى الأندلس، وأقام في مدينة رندة يخطط لاسترجاع ملكه المسلوب(٤).

وبمرور عدة أشهر استطاع فيها أن يستولي على كثير من حصون غرب مالقة وغيرها من حصون المملكة، قام النصارى بغزو أراضي المسلمين واحتلالها، فيمّموا وجوههم شطر مالقة، فتحرك لها السلطان المخلوع في (٢٠٠) فارس مسلم، كان من بينهم علي بن بدر الدين(٥)، ويحيى بن عمر بن رحو(٦)،

---

(١) الرئيس محمد بن إسماعيل (٧٦١هـ - ٧٦٣): تولى الملك عقب مقتل صهره السلطان إسماعيل بن يوسف، وكان دميم الخلقة، قُتل على يد ملك قشتالة النصراني. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، (ص٥٢٣) وما بعدها، اللمحة البدرية، (ص١٠٨).

(٢) إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج النصري، كان فتى وسيماً بديناً على حداثة سنه، تولى الملك في عام (٧٦٠هـ)، وقتل على يد صهره محمد بن إسماعيل في شهر شعبان عام ٧٦١هـ. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص١١٤، ١١٦).

(٣) السلطان أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي (٧٦٠هـ - ٧٦٢هـ). انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، (ص٥٦).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص٢٦) وما بعدها، أعمال الأعلام، (ص٣٠٨، ٣٠٩)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٣٠٩)، مج ٧، (ص٤٠٠).

(٥) علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو، تولى مشيخة الغزاة بوادي آش، ورافق السلطان محمداً الخامس أثناء سفره إلى المغرب، ثم عاد إلى الأندلس، وتولى مشيخة الغزاة للمرة الثانية، توفي في عام (٧٦٨هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٦٧).

(٦) يحيى بن عمر بن رحو بن عبدالله بن عبدالحق، جد الملوك من بني مرين. يكنى أبا زكريا، ولد في ظاهر تلمسان عام (٦٩١هـ)، وكانت وفاته سنة (٧٨٢هـ). انظر ابن الخطيب:=

وابنه عثمان(١) شيوخ الغزاة المغاربة الذين ساعدوه ووقفوا إلى جانبه حتى استعاد ملكه، وفي أثناء سيرهم أطاعتهم الحصون التابعة لمالقة؛ كذكوان وقرطمة، وغيرها بعد مقاومة ضعيفة استمرت يومين أو ثلاثة(٢). وفي يوم الثلاثاء ١٦ جمادى الثانية من عام (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م) وصل السلطان بجيشه وادي مالقة، فخرج له جميع أهلها، واستقبلوه أعظم استقبال طائعين فرحين بما آتاهم الله، وفتحوا له الأبواب، فدخل المدينة، ولم يكن بها طعام ولا جيش يدافع عنها، فقصد المسجد الأعظم(٣) وتوافد الناس عليه، فأغرى بالقصبة فاتجه أتباعه نحوها، فامتنعت واستعصت عليهم ساعة من النهار، ثم استسلمت حاميتها، فأمَّنها السلطان وعفا عنها كغيرها. وفي اليوم التالي قدمت عليه بيعات أهل حصن بلش والحمة وأنتقيرة وصالحة وسائر الحصون الغربية(٤).

وبهذه المناسبة السعيدة عيّن السلطان الغني بالله القائد علي بن بدر الدين شيخاً على الغزاة بمالقة مكافأة له على مواقفه المشرفة ودوره

= الإحاطة، مج ٤، (ص٣٦٥، ٣٧٠)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٤٤٥).

(١) عثمان بن يحيى بن عمر: شيخ الغزاة وابن شيخها، خرج إلى أرض النصارى مع والده أيام فتنة السلطان محمد الخامس، ثم عاد ووقف إلى جانب السلطان حتى استعاد ملكه، لكنه سجن ثم رُحِّلَ إلى المغرب. انظر ابن خلدون: المصدر نفسه، مج ٧، (ص٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق السعدية فاغية، ط الأولى ١٤٠٩هـ، مطبعة الجديدة. الدار البيضاء، جـ٢، (ص٢٨٦)، جـ٣، (ص١١٨، ١١٩، ١٢٢، ١٦٥)، الإحاطة، مج٢، (ص١٣٠)، أعمال الأعلام، (ص٣٠٩)، اللمحة البدرية، (ص١١٧)، وابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، (ص٢٧٥، ٣٩٦، ٤٤٤).

(٣) يعرف المسجد الأعظم بالجامع الكبير وبالمسجد الجامع. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٦٤، ٦٦، ٨١، ٩٨).

(٤) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١١٨، ١١٩، ١٢٢، ١٤٨)، أعمال الأعلام، (ص٣٠٩)، اللمحة البدرية، (ص١١٧)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٩٦).

الكبير[1]، كما أرسل السلطان من قصبة مالقة رسائله إلى أحبابه يخبرهم ويبشّرهم بالنصر العظيم[2]. وفي الوقت نفسه هنأه الشعراء على عودته الحميدة، وامتدحوه في قصائدهم ومنها بعض أبيات القصيدة التالية:

وافَيتَ «ريَّة» فاختَلَلتَ بأُفْقِهَا
بدراً وأضْحَتْ هالةً بكَ تُحْدقُ
ألْقَى عليها السَّعْدُ منك شَفَاعةً
فلَهَا بِكَ المَرأى البهيجُ المُؤْنَقُ
وزهَتْ وحُقَّ لها بأَنْ تَزْهى كما
بشُروق نور الشَّمْسِ يَزْهو المَشْرقُ
أجْرَيْتَ بحْراً من نداكَ زُلالُه
وأُجَاجُ بَحْرٍ جاورتهُ مُفَرِّقُ
فلأهْلها ولها بِكَ الفَخْرُ الذي
قَدْ قُلِّدوا أسْنى حُلاة وطُوِّقوا[3]

ولما سمع ملك غرناطة السلطان محمد (٧٦١هـ/ ٧٦٣هـ)[4] بسيطرة السلطان المخلوع على مالقة بوصفها جزءاً مهماً من أراضي مملكته خاف على نفسه، فجمع ما استطاع جمعه من الأموال والذخائر النفيسة من عاصمته، ثم خرج مع حلفائه في ليلة الخميس قاصداً ملك قشتالة[5] لعله يجد المنعة والنصرة لمواجهة السلطان - الغني بالله - لكن الملك الكافر قتله وأصحابه

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٧٠).
(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١١٨، ١١٩).
(٣) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١٢٥).
(٤) السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج النصري زعيم الانقلاب.
(٥) الملك بدرو بن ألفونسو بن فرديناند. تولى الملك في عام (٧٥١هـ). انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص١٠٧).

أبشع قِتْلة[1]. وكان السلطان محمد الخامس في هذا الوقت قد قدِم من مالقة في يوم الجمعة التاسع عشر بجيشه على عجلة من أمره والأمداد والوفود تتلاحق به وتنضم إليه، فوصل غرناطة في منتصف يوم السبت (٢٠) جمادى الثانية من عام (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م)[2]، واستقر بدار الملك للمرة الثانية، فسبحان الله مالك الملك، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

ثم بادر السلطان الغني بالله في الأعوام الأولى من حكمه الثاني بتحصين أطراف مملكته المتاخمة لحدود أعدائه وإصلاح ما خربته الفتنة الأسرية النصرية[3]، فجدد في عام (٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م) حصن جبل فارة بمالقة مثلما فعل والده إعانة للمسافرين في سفرهم ودفاعاً عن المدينة، كما جدَّد حصن أرجدونة وغيره من حصون مملكته المنكوبة والمهملة[4].

وفي هاتيك السنين الماضية شهدت البلدان المجاورة لمملكة بني الأحمر تغيرات خطيرة وتحولات كبيرة؛ ففي أرض الكفر اتقدت نار الحرب الأهلية بين النصارى حول العرش القشتالي[5]. فاقتضى نظر الحزم ورأي الاجتهاد للإسلام إطلاق الغارات على بلد الكفرة[6] من جميع النواحي لاستعادة الحصون المحتلة، فتحرك المسلمون من أهل غرب مالقة صوب حصن برغة[7]

---

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص١١٧)، الإحاطة، مج ٢، (ص٧٢)، نفاضة الجراب، جـ٢، (ص١١٩) وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٣٠٩)، نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١٢٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٤١، ١٤٢).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص٥١).

(٤) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج ٢، (ص٦٠، ٦١)، الإحاطة، مج ٢، (ص٥٢).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص٤٢) وما بعدها، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٤٢)، ومحمد عنان: المرجع السابق، ع (٤)، (ص١٤٣).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص٧٨).

(٧) حصن برغة: حصن نبيه خصيب، يقع في منطقة رندة، كثير الزياتين والأشجار. انظر ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١١٧).

المجاور لهم، وكان قد أفقدهم وسائل الاتصال، وقطع الطريق بينهم وبين أهل رندة، فيسّر الله لهم فتحه في منتصف شهر شعبان من عام (٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م)[١] «بعد قتال شديد وحرب عظيمة وجهاد شهير، واستولى المسلمون عليه، فامتلأت أيديهم أثاثاً وسلاحاً ورياشاً وآلة، وظهرت للمحين مساجده، وزينت بكلمة الله مشاهده، وأنست بالمؤمنين معاهده، ورتبت فيه الحماة والرماة والفرسان الكماة، واتصلت بفتحة الأيدي وارتفعت العوائق، وأوضحت بين المسلمين وإخوانهم السبل والحمد لله. وتوجهت بفتحه الرسايل، وعظمت المنن الجلايل»[٢]. وكان هذا الفتح قد شجع مسلمي الأندلس على التنافس الشريف في ميدان الجهاد لقتال الأعداء[٣]، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[٤].

أما في أرض العدوة المغربية، فقد عاد حكام بني مرين عقب وفاة السلطان عبدالعزيز المريني[٥] في عام (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) إلى الضعف والعجز، وأصبحت السلطة الفعلية والنفوذ بيد وزرائهم الطامعين، فتدخل سلطان الأندلس محمد الخامس في شؤون دولتهم مثلما تدخل جده الرئيس أبو سعيد فرج في أوائل القرن الثامن الهجري، فراسل الوزير أبا بكر بن غازي[٦]

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص٧٨)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٤٨).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص٧٨)، ريحانة الكتاب، مج ١، (ص٧١، ١٩١).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٨٠، ٨١).

(٤) سورة المطففين، آية رقم (٢٦).

(٥) السلطان عبدالعزيز بن علي بن عثمان المريني، يكنى أبا فارس، ولد في عام (٧٤٩هـ) وبويع بالسلطة في عام (٧٦٦هـ) وتوفي في عام (٧٧٤هـ)، وكان رجلاً طويل القامة، نحيف الجسم. انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، (ص٦١).

(٦) أبو بكر غازي بن يحيى بن إدريس بن عبدالله بن الكاس المجدولي من بطون بني ورتاجن، نشأ في ظل دولة بني مرين متمتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق، ثم تولى الوزارة أيام السلطان عبدالعزيز المريني، فاستبد بالدولة. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٤١٧).

المستبد بشؤون الدولة في تلك الأيام، لكنه لم يحسن الإجابة والرد بشأن اللاجئ السياسي ابن الخطيب[1]، فقرر ابن الأحمر القضاء على نفوذه في عدوة الأندلس والسيطرة على دولة بني مرين في عدوة المغرب.

ولم يكن للمرينين بالأندلس سوى جبل طارق، فتحرك له السلطان بجيوشه من مالقة وغرناطة، وحاصره مدة طويلة، فخاف الوزير أبو بكر على ملكه، وعيّن على ولاية سبتة ابن عمه محمد بن عثمان[2]، لكن ابن الأحمر راسله وعاتبه واستماله، فانتهت المراسلة بينهما على تسليم الجبل له، فتم الأمر ودخل السلطان الجبل بعد أن فك عنه الحصار وأمّن أهله، فدخلوا في طاعته، وانتهى ملك بني مرين من عدوة الأندلس للأبد في عام (٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)[3].

ثم اتجه السلطان بأنظاره إلى ما وراء البحر يوجه حكومة دولة بني مرين، ففاز بولاية سبتة في غرة صفر من عام (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)[4]، لكن وزير دولة بني مرين المستبد مسعود بن رحو بن ماساي[5] «صرف نظره إلى استرجاع ما فرط

---

(١) محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني، قرطبي الأصل يكنى أبا عبدالله، تلقب بلسان الدين، وبيته معروف ببني الخطيب، ولد في لوشة عام (٧١٣هـ)، وتوفي بالمغرب في عام (٧٧٦هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٤، (ص٤٣٩، ٦٣٤، ٦٣٦).

(٢) محمد بن عثمان بن رحو بن علي بن عبدالله ابن الكاس المجدولي، أصله من إحدى بطون بني ورتاجن، وهو صهر للوزير أبي بكر بن غازي، تولى الوزارة أيام السلطان أبي العباس أحمد المريني، وتوفي مقتولاً في سجنه بفاس. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٤١٧، ٤١٨).

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٤٠١، ٤٠٢)، والمقري: نفح الطيب، مج٥، (ص١٠٨).

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٤، (ص٢١٢)، مج ٧، (ص٤١٦).

(٥) مسعود بن رحو بن علي بن ماسي الفودودي كان من طبقة الوزراء لبني مرين، ومن بني فودود أحلافهم المختصين بالوزارة، أقام في الأندلس لدى ابن الأحمر كثيراً، وتولى الوزارة في المغرب واستبد بها، إلى أن قُتل أيام نكبة أسرته في عهد السلطان أبي العباس أحمد المريني. انظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٤١٦، ٤١٧، ٤٢٥).

من أعمال الدولة وافتتح أمره بسبتة»[1] فأرسل للسلطان ابن الأحمر يطلب منه هذه المدينة، فرفض ابن الأحمر طلبه، فجهز الوزير جيشه وبعثه إلى سبتة وحاصرها، فالتجأت حامية الأندلس إلى القصبة، وأشعلت النيران في الجبل ليراها ابن الأحمر في مالقة، وطلب قائد الحامية أبو زكريا ابن شعيب النجدة من الأندلس، فجهز له السلطان الغرناطي الأسطول الحربي من مالقة تحت قيادة السلطان المريني أبي العباس أحمد[2]، الذي أطلق سراحه من معتقله بغرناطة، فسارت الحملة ناحية سبتة. وتوالت الإمدادات، ودخل السلطان القصبة في غرة صفر عام (٧٨٩هـ/ ١٣٨٧)، ثم دعا المرينيين إلى الاستسلام فأطاعوه، وتسلّم المدينة، ثم تحرك صوب مدينة فاس عاصمة بني مرين لاسترجاع ملكه[3]. ولكن في عام (٧٩٣هـ/ ١٣٩١م) توفي السلطان محمد الخامس[4] بعدما أقام للأندلسيين دولة نعمت بالهدوء والاستقرار وكثرة الخير والرخاء لفترة طويلة. يقول ابن خلدون: «وأقام ابن الأحمر في اعتزازه، ولم تطرقه نكبة ولا حادثة سائر أيامه»[5]. ويقول ابن الخطيب: «لم يحدث في أيامه حدث إلا العافية المسحة، والهدنة المتصلة والأفراح المتجددة، والأمنة المستحكمة، والسلم المنعقدة»[6]، وفي موضع آخر من المصدر نفسه: «وشاع العدل، وبعُد الصيت، وانتشر الذكر، وفاض

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٤٢١).

(٢) أمير المسلمين أبو العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي المريني، يلقّب بالمستنصر بالله، ولد بغرناطة في عام (٧٥٦هـ)، وتولى حكم بلاد المغرب مرتين: الأولى في الفترة من (٧٧٦- ٧٨٦هـ)، والثانية من (٧٨٩ - ٧٩٦هـ). انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، (ص٦٢، ٦٤).

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج ٧، (ص٤٢١، ٤٢٢، ٦٦٤)، ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، ١٩٧٧م، دمشق، جـ٣، (ص٥٢٦).

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٢١٤).

(٥) انظر: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٢١٣).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص٢٣).

الخير، وغزُر القطر، فظهرت البركات، وتوالت الفتوح، وتخلدت الآثار»[1].

ولنا حول عهده فيما يخص مالقة الملحوظات التالية:

(١) أنّ السلطان محمداً الخامس أقام بمالقة كثيراً في فترة حكمه الثانية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى:

(٢) أن أهل مالقة رحبوا بقدومه أجمل ترحيب، ووقفوا إلى جانبه، وساروا معه حتى استرد ملكه المفقود.

(٣) إقامة اللاجئ السياسي ابن الخطيب الهارب من قبضة العدالة لدى دولة بني مرين وتحريضه لسلطانها بالاستيلاء على مملكة بني الأحمر، لا سيما وأنه يعرف أسرار تلك المملكة وأخبارها.

(٤) تدخل ابن الأحمر في شؤون دولة بني مرين التي دخلت مرحلة الشيخوخة والهرم، فاستقر بمالقة ليكون قريباً من بلاد المغرب من أجل الإشراف والمتابعة لتطورات شؤونها الداخلية.

وعقب وفاة السلطان الغني بالله - كما ذكرنا - تولى ابنه يوسف الثاني، وكان عهده قصيراً على خلاف عهد أبيه. ومن أبرز ما حصل فيه أن السلطان أرسل إلى ملك قشتالة هدايا كثيرة بصحبة والي مالقة لاستعادة الأسرى الذين قبض عليهم النصارى أيام غاراتهم على الحدود الغرناطية، فاستقبله ملك قشتالة، وعقد معه هدنة وقعها ممثلون عن السلطان يوسف[2].

وفي عام (٨١١هـ/ ١٤٠٨م) تولى الحكم السلطان يوسف الثالث بن السلطان يوسف الثاني، وفي أيامه بقدر ما ساد بلاط غرناطة الاتفاق والائتلاف مع بلاط قشتالة بقدر ما قوي ضغط النصارى على أراضيه[3]؛ ففي

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص١٥).

(٢) عبده عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية، (ص١٩٧).

(٣) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص١١٦)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٥١، ١٥٣، ١٥٤).

شهر ذي الحجة من عام (٨١٢هـ/ ١٤١٠م) خرج النصارى بقيادة فرناندو الوصي[١] لحرب المسلمين في جهات مالقة، وحاصروا حصن أنتقيرة، وأقاموا حوله خمسة معسكرات لمنع وصول الإمدادات الإسلامية، فجهز السلطان يوسف جيشاً - بقيادة أخويه محمد وعلي - خرج من غرناطة في (١٨) ذي الحجة، ونزل على حصن أرشدونة التابع لمالقة، فتكاملت أعداده في يوم (٢٨)، ثم سار في اليوم التالي للقاء العدو، وقد أعجبت المسلمين كثرتهم واغتروا بأنفسهم، فسارع النصارى بقيادة قائدهم الأسقف سافشودي روجا لمقاتلتهم، لكنهم انهزموا، وفي صباح أول يوم من شهر محرم لعام (٨١٣هـ/ ١٤١٠م) عاود عليهم النصارى المحاولة، فتصدى لهم المتطوعة، وكان جيش المسلمين قد اجتمع لأخذ نفقة الحرب فهاجمهم العدو، وحاول المسلمون الصمود، لكن كثرتهم لم تُغن عنهم شيئاً، فانهزموا هزيمة مؤلمة، وقتل منهم آلاف، وفرّ البقية، فتعقبهم النصارى لعدة أيام، وقد تمكنوا من دخول حصن أنتقيرة الذي طلب أهله الأمان عقب تفشي المرض والجوع والضعف فيهم، فأُعطي لهم وخرجوا جميعاً عنه إلى غرناطة، ودخله المحتلون في شهر جمادى الأولى من عام (٨١٣هـ/ ١٤١٠م)[٢].

وكان سقوط أنتقيرة يمثل منعطفاً كبيراً في تاريخ مملكة غرناطة، وقد رثى السلطان يوسف ذلك السقوط بقصيدة قال في مطلعها:

خليلي مهلاً فالزمان كما تدري
ولا بد من يسر على أثر العسر

---

(١) فرناندو الوصي أحد قادة النصارى في زمن ملك قشتالة خوان الثاني. انظر محمد عنان: دولة الإسلام، (ص١٥٣).

(٢) المقريزي: السلوك، جـ٤، ق١، (ص١٦٦) وما بعدها، والتنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبدالحميد الهرامة، تحقيق طلاب كلية الدعوة الإسلامية، جزآن، ط الأولى ١٣٩٠هـ، كلية الدعوة الإسلامية. طرابلس الليبية، (ص٤٨٤)، ومحمد عنان: الدولة الإسلامية، ع (٤)، (ص١٥٣).

فمهما دها صحو فلا بد من قطر

ومهما دجا خطب فلا بد من فجر[1]

وفي شهر شعبان من العام نفسه (٨١٣هـ/ ١٤١٠م) تحركت السفن الحربية من مالقة على ما يبدو بقيادة الأمير محمد بن عبدالعزيز[2] صوب بلاد المغرب بتوجيه من السلطان يوسف الثالث، لاستعادة الأمير محمد عرشه المسلوب منذ صباه، وللانتقام من سلطان المغرب[3] الذي كان يحاول السيطرة على جبل طارق، ويأمل في استرجاع أملاك بني مرين في الأندلس، فسار الأسطول بالجنود حتى نزل ساحل المغرب، وهناك تكللت جهوده بالنجاح والتوفيق، ولإدارة ومتابعة مثل هذه الشؤون الخارجية وغيرها كان السلطان يوسف يكرر زياراته لمالقة، ويقيم فيها لبعض الوقت[4].

وفي عام (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) توفي السلطان يوسف الثالث، وتسنَّم عرش غرناطة - على اختلاف[5] - السلطان الغالب بالله محمد بن نصر الملقب

(١) ابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، (ص١٧٣).

(٢) أمير المسلمين محمد بن عبدالعزيز المريني، يكنى أبا زيان، ويلقب بالسعيد، بويع بالحكم المغربي في عام (٧٧٤هـ)، وخُلع منه في أوائل عام (٧٧٦هـ)، وكان مولده في عام (٧٧٠هـ). انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، (ص٦٣).

(٣) السلطان أبو سعيد عثمان بن أحمد المريني، ملك فاس، يكنى أبا سعيد، بويع في جمادى الآخر من عام (٨٠٠هـ)، وعمره ١٦ سنة، وتوفي في عام (٨٢٣هـ). انظر المكناسي: جذوة الاقتباس، (ص٤٥٧).

(٤) ابن فركون: ديوان ابن فركون، تقديم محمد بن شريفة، ط الأولى (١٤٠٧هـ)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، (ص٧٩، ١٦١) وما بعدها، يوسف الثالث: ديوان ملك غرناطة، تحقيق عبدالله كنون، ط الأولى (١٩٦٥م)، مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، (ص٤١) وما بعدها.

(٥) يشير بعض الباحثين الأوروبيين - أمثال ليفي بروفنسال وآرشيل آربيه - إلى أنه من عام ٨٢٠هـ إلى عام ٨٢٢هـ تولى حكم غرناطة محمد بن يوسف الثالث (محمد الثامن) الملقب بالأيسر. انظر ابن عاصم: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق صلاح جرار، (٣) أجزاء (١٤١٠هـ)، دار البشير. عمّان، جـ١، الهامش،(ص١٢، ١٣).

بالأيسر[1]، وغلب على فترة حكمه الدسائس والانقلابات التي باركها وانتهزها النصارى الأسبان، ومن أشهرها: ثورة السلطان أبي الحجاج يوسف بن محمد ابن المول[2] الذي استغل في عام (٨٣٤هـ/ ١٤٣١م) الموقف المتأزم بين المسلمين والنصارى الذين عاثوا في جهات مالقة وغرناطة فساداً، وفق خطة حربية مدروسة تقتضي الهجوم الكبير على ميناء مالقة، وعزل السلطان الأيسر عن قواته الموجودة على طول الساحل الأندلسي[3]. وفي تلك الأجواء العكرة ثار ذلك السلطان على خاله السلطان الأيسر بعدما عقد مع النصارى في (٧) محرم عام (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م) معاهدة التحالف[4]، فالتقت فئته بفئة القوات الغرناطية، وانتهى اللقاء بينهما بانتصار فئته وتربّعه على عرش غرناطة في أواخر شهر ربيع الثاني عام (٨٣٥هـ/ يناير ١٤٣٢م)[5] فغادر السلطان الأيسر بأهله وحلفائه وأمواله ميمّماً وجهه شطر مالقة، التي بقيت لوحدها على طاعته، فاستقر بادئ ذي بدء بمدينة بلش، ثم سار صوب مالقة، فاستقبله أهلها في جمع غفير، ورحبوا به في حفل شهير، ووعدوه المَنَعَةَ والنُّصرة على استرجاع عرشه المسلوب، واتفقوا على إقامة معسكر جيشه بمدينة بلش، فشعر بالأمن والأمان على حياته.

---

(١) محمد بن نصر بن محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل، يكنى بأبي عبدالله (محمد التاسع). انظر السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٣٥٥هـ)، مكتبة القدسي. القاهرة، جـ١٠، (ص٦٨)، ومحمد عنان: وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع، صحيفة المعهد المصري في مدريد، (١٣٧٣هـ)، مج ٢، (ص٤١).

(٢) محمد بن المول: كان أميراً قوياً وافر الثراء والهيبة على صلة ببيت الملك، فأمه ابنة السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله. انظر محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٥٨).

(٣) محمد عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية، (ص٢٣١).

(٤) محمد عنان: وثيقة أندلسية قشتالية، مج ٢، (ص٤١) وما بعدها.

(٥) محمد عنان: المرجع السابق، ع (٤)، (ص١٦٠).

أما السلطان ابن المول، فقد خاف على ملكه، وأرسل حملة عسكرية بقصد إخضاع مالقة لطاعته، فتصدت له قوات الغالب بالله بمعاونة ملك أراغون[1]، وعلى إثرها تقدمت قوات مالقة بقيادة حفيد الأيسر وابن أخته الأمير أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر[2] على ما يبدو في هجوم مضاد فخرجت لهم قوات ابن المول بمساندة جيوش قشتالة في خارج غرناطة، ودارت بين الطرفين رحى حرب شرسة تناصفا فيها القتال، لكنها في نهاية المطاف انتهت بانتصار المالقيين وهزيمة الغرناطيين[3]، فأرسل المنتصرون للسلطان الأيسر في مالقة يستحثونه القدوم، فخرج في قلة من الناس ودخل غرناطة وقتل ابن المول، وعلى هذا تنتهي الثورة في أواخر عام (٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م)[4].

ثم ارتقى محمد الأيسر العرش للمرة الثالثة، فشن النصارى هجماتهم العنيفة ضد مملكته، فتصدى لها بجيوشه في بسائط مالقة وغيرها ما بين عامي (٨٣٨ - ٨٤٠هـ/ ١٤٣٥-١٤٣٧م) ثم انعقد السلم بين الطرفين، وانشغل كل منهما بأحوال مملكته الداخلية[5].

ولانقسام الشعب الغرناطي على نفسه إلى شيع وأحزاب متنافسة كل حزب بما لديهم فرحون، بسبب قلة صلة السلطان بشعبه[6] ثار في أوائل عام

(١) الملك ألفونسو الخامس. انظر ابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص١٧).

(٢) أبو الحجاج يوسف بن أحمد. كان عزيز النفس عالي الطموح، ووالدته فاطمة أخت السلطان الأيسر. انظر ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص١٧، ١٨، ٣٠٠، ٣٠١).

(٤) ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص١٧، ٣٠٢).

(٥) ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص١٨، ١٩)، وابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، (ص١٦٧، ١٦٨)، وعبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص١٣٠)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٦١).

(٦) محمد عنان: دولة الإسلام، (ص١٥٤، ١٥٨)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٤٤).

(٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) بمدينة المرية ابن أخت السلطان أبي الحجاج يوسف بن أحمد، فاضطر الأيسر بسببه إلى اللجوء إلى مالقة ينتظر الفرصة للعودة إلى الحكم مثلما انتظرها أيام ثورة ابن المول، فأرسل في بادئ الأمر القاضي ابن عاصم[١] يطلب من السلطان أبي الحجاج التنازل عن السلطة بالرضا مقابل السماح له الإقامة بمالقة[٢]، لكن يبدو أنهما لم يتفقا، فأخذ الأيسر خلال إقامته بمالقة يُرسل الحملات المتوالية على غرناطة لاسترداد عرشه، فتمكن في موقعة بلغش[٣] خارج غرناطة من هزيمة الجيش الغرناطي، وبينما هو في نشوة الفرح والسرور بهذا النصر، وإذا بعاصفة الثورة تجتاح منطقة مالقة التي احتضنته، فثارت عليه بلش وحصون غرب مالقة كذكوان وما والاها، ثم تبعتها جهات رندة وشرق مالقة تأييداً للسلطان أبي الحجاج يوسف[٤].

ولسبب غير واضح صرخ في وجهه أهل مالقة، فأصبح السلطان الأيسر في موقف لا يحسد عليه محاطاً بالثوار من كل جانب، فاضطر إلى الخروج وحيداً طريداً مُلقياً بنفسه في أحضان أهل حصن ألرّة[٥] وبنيرة[٦]، فكانوا خير مثال للشهامة والوفاء، لكن السلطان الأيسر أدرك في الوقت ذاته أن

---

(١) أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الغرناطي المالكي، ولد على الأرجح ما بين عامي (٧٩٤ -٧٩٩هـ)، وشغل وظائف عديدة. وكانت وفاته في أواخر العقد السادس من القرن التاسع (٨٥٧ -٨٥٨هـ). انظر ابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص٣٥، ٣٧، ٤٩، ٦٠).

(٢) ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ٢، (ص٦٥).

(٣) بلغش: لعلها تكون بيش أو برقلش وهما قريتان من قرى غرناطة. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مجـ١، (ص١٢٩، ١٣١).

(٤) ابن عاصم: المصدر السابق، جـ١، (ص٣٠٩، ٣١٠).

(٥) ألرّة (إليرة): تقع شمال غرب غرناطة. انظر ابن عاصم: جنة الرضا، الهامش، جـ٢، (ص١٨٥).

(٦) بنيرة: حصن من حصون مدينة مالقة. انظر: ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص٣١٠).

الزمان والمكان غير مناسبين له، فتنازل عن السلطة لكي لا تستمر الفتنة، فتربع السلطان أبو الحجاج يوسف على سرير الملك في أواسط عام (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)(١)، ولم يطل عهده، إذ ثار عليه السلطان أبو الوليد إسماعيل النصري(٢)، وتسلم الملك في شهر ذي القعدة من نفس العام، وبادر لأول أيامه بالجهاد في سبيل الله، فاستطاع أن يُلحق الهزائم بالنصارى، ويستعيد كثيراً من الحصون المحتلة في جهات مالقة بقيادة قائدها أبي العباس أحمد بن عبدالبر(٣)، ففتح الله على يديه في عام (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) حصن صالحة وبلش وغيرهما من الحصون(٤).

وفي منتصف عام (٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) عاد إلى السلطة السلطان محمد الأيسر، فأقام مثل سابقه سوقاً نشطة للجهاد ضد الكفار في جهات مالقة؛ ذلك أن النصارى أغاروا من أنتقيرة على مالقة طلباً للثأر في أواخر العام المذكور، فتصدى لهم القائد أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالبر(٥)، وأسقط منهم مئة وستين فارساً ما بين قتيل وأسير.

---

(١) ابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص٣١٠)، ومليودة الحسناوي: صفحات غامضة من تاريخ غرناطة النصرية في القرن التاسع الهجري، ندوة التراث المغربي والأندلسي، ١٩٩١م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، مطبعة النجاح. الدار البيضاء، (ص٢٧٦).

(٢) أبو الوليد إسماعيل النصري، ثار أكثر من مرة على سلاطين بني نصر، وكان آباؤه يسكنون مدينة مالقة ودفنوا بها. انظر ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص١٩١، ٣١٤)، جـ٢، (ص١٩٣).

(٣) أحمد بن عبدالبر بن الوزير، أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالبر، ينتمي إلى أسرة بني سراج المشهورة في غرناطة. انظر ابن عاصم: المصدر نفسه، مج١، (ص٢٤).

(٤) ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص٣١٤)، جـ٢، (ص٢٨٣).

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالبر، من عائلة بني سراج المعروفة في غرناطة، وكان وزيراً وقائداً لمدينة وادي آش، قام بالجهاد في سبيل الله خير قيام، وتوفي مقتولاً في عام (٨٥٦هـ). انظر ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ٣، (ص٣٠)، جـ٢، (ص٢٨٠) وما بعدها.

ثم اجتمع النصارى في (٦٠٠) مقاتل تحت قيادة القائد خوان شيء بذرة[١]، وغزوا أرض مربلة، فهزمهم المسلمون، ووقع قائدهم أسيراً في يوم الخميس الثامن من شهر محرم عام (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)[٢].

وعلى إثرها من اليوم نفسه تقدمت القوات المسلمة بقيادة القائد أبي إسحاق إبراهيم وأبي القاسم بن السراج[٣] للإغارة على مواشي النصارى التي كانت ترعى في مراعي المسلمين بجهات غرب مالقة، ومن غير ميعاد محدد يوماً أشبه بيوم بدر[٤] يوم الأحد (١١) من شهر محرم عام (٨٥٢هـ١٤٤٨/م)، التقت فئة المسلمين بفئة النصارى في موضع يقال له «الخزائن» ما بين مربلة وأسطبونة[٥]، ونشبت بينهم معركة عنيفة انجلت عن سقوط حوالي (٦٠٠) قتيل وأسير من النصارى، واستيلاء المسلمين على مغانم كثيرة[٦].

وبمرور زمن يسير اضطر السلطان الأيسر على ما يبدو إلى إيقاف القتال مع النصارى[٧]، وذلك لأنه في شهر صفر من عام (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) ثار عليه بمدينة مالقة الرئيس أبو الوليد إسماعيل المقيم بأرض قشتالة منذ زمن بعيد، فاستولى على دار الحكم بمالقة في يوم الخميس (١٩) صفر بتأييد من النصارى وتشجيعهم، فاستنكر الناس ثورته، وهب العلماء في توضيح

---

(١) خوان شيء بذرة كان قائداً لمدينة قسطيلة. انظر ابن عاصم: جنة الرضا، الهامش، جـ٢، (ص٢٨٦).

(٢) ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ٢، (ص٧٧، ٢٨٦، ٢٨٧).

(٣) أبو القاسم محمد بن يوسف بن السراج، كان قائداً شجاعاً قام بدور كبير في التصدي للرئيس إسماعيل عندما حاول الثورة للمرة الأولى. انظر ابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص٤٤، ٤٥)، جـ٢، (ص٧٧).

(٤) يوم بدر: يُقصد به معركة بدر الكبرى في الإسلام.

(٥) أسطبونة، وتسمى كذلك أشتبونة (Estepona): تقع شمال جبل طارق على البحر الأبيض المتوسط، كانت خربة في عصر بني الأحمر. انظر ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١).

(٦) ابن عاصم: المصدر السابق جـ٢، (ص٧٧، ٢٨٧، ٢٨٨).

(٧) ابن عاصم: المصدر السابق، جـ١، (ص٢٨).

مخاطرها، فتفرق الكثير عنه، وسار السلطان الأيسر باتجاه مالقة، فدخل أول ما دخل مدينة بلش، واستنزل أصحاب الرئيس منها في منتصف شهر ربيع الثاني، ثم زحف على مالقة وحاصرها حتى اقتحمها بالقوة في يوم الخميس الخامس عشر من شهر جمادى الأولى، فلم تلبث حامية القصبة وجبل فارة أن استسلمت، فأمَّنها السلطان، وفي يوم السبت السابع عشر من الشهر استقر السلطان الأيسر بالقصبة، وانثال عليه أهل مالقة والغربية وغيرهم من كل حدب وصوب يهنئونه بالنصر المبين، وقُتل الرئيس إسماعيل، ودُفن بمالقة، فانتهت الثورة في أشهر معدودات[1].

وفي ذلك الزمن المضطرب تكاثرت الثورات على السلطان الأيسر، فثار عليه مرة أخرى بمدينة مالقة حاكمها العسكري الأمير سعد النصري[2]، وكان قد أمده النصارى بالمساعدة اللازمة، فاضطر الأيسر إلى عقد معاهدة السلام معهم في أواخر عام (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)[3] لكن الثورة لم تخمد نارها، بل ازداد أعداد المنضمين والمؤيدين لها، فالتقى صاحبها - بمؤازرة النصارى - مع جيش السلطان الأيسر، وأسفر اللقاء بينهما عن هروب الأيسر وارتقاء سعد منصة الملك في أول عام (٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م)[4].

والملحوظ أن مالقة في عهد الأيسر اتخذت مواقف متباينة من الثورات المعارضة؛ فبينما نرى أهلها وقفوا إلى جانب السلطان وقفة رجل واحد أيام ثورة ابن المول، وكانوا سبباً في إعادة ملكه، نجدهم في ثورة ابن أخته خيبوا

---

(١) ابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص١٩١) وما بعدها.

(٢) الأمير سعد بن محمد بن علي النصري، توفي في عام (٨٦٨هـ). انظر مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٣١).

(٣) ابن عاصم: المصدر السابق، جـ١، (ص٣٠).

(٤) ابن عاصم: المصدر السابق، جـ١، (ص٣٠، ٣١)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٤٦).

ظنه بتخليهم عنه، فتركوه يواجه المصير بنفسه، بل ثاروا عليه، فكانوا سبباً في ضياع فرصة استرداد عرشه.

أما في ثورة الرئيس إسماعيل والأمير سعد، فكان موقف مالقة سلبياً للغاية؛ حيث وقف أهلها مع الثائر ضد السلطان الأيسر، الذي تغلب على الثورة الأولى ولم يتغلب على الثانية، فانتهى ملكه. وهكذا التاريخ يعيد نفسه في كل مرة، ولكن بطرق مختلفة.

وفي عام (٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م) شن ملك النصارى[١] هجماته المدمرة على مملكة غرناطة، فأحرق المزارع في سهول مالقة، ثم عاود الكرة في العام التالي للمناطق المجاورة لها، فاضطر السلطان سعد إلى مسالمة النصارى، فانسحبوا بعدما ضرب عليها الحصار لمدة (١٤) يوماً، ولم يتمكن من اقتحامها بسبب حصانتها وشجاعة الفرسان المسلمين الذين كانوا يدافعون عنها. ورغم ذلك، فإن الملك الكافر لم ييأس، وعاود هجماته في العام التالي للمناطق المجاورة لمالقة، فاضطر السلطان سعد إلى مسالمته ومهادنته، فقابله في ضواحي مالقة، وكان ابنه أبو الحسن قد رتب لهذه المقابلة الملكية، فالتقى الطرفان، وأسفر اللقاء بينهما عن حصول السلطان سعد على وعود نصرانية بعدم تدمير الممتلكات ومهاجمة الأملاك ونهب محاصيل المملكة على طول الأمد، ثم غادر الملكان المكان[٢]، فعم الخير والسلام أرجاء البلاد، ولكن أهل مالقة ثاروا على سلطان غرناطة، فقمع ثورتهم بقيادة القائد دياغو النصراني أحد اللاجئين المقربين في مدينة غرناطة[٣].

(١) هنري الرابع. تولى الملك عقب وفاة يوحنا الثاني، وظل يحكم لفترة طويلة. انظر يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٤٦).

(٢) يوسف فرحات: المرجع نفسه، (ص٤٦)، عبده عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية، (ص٢٦٠)، نقلاً عن H.Livermore: Els gundory Chico Muhammod XI, p.34.

(٣) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص١٢٣).

ولما أخذ السلطان سعد في أواخر أيامه يتخلص من أعدائه بني سراج(١) اتصل هؤلاء بالأمير أبي الحسن علي(٢)، وزينوا له الثورة على أبيه، متجاوزين كل القيم الإسلامية، فثار على والده في عام (٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م) وتملك غرناطة، فهرب والده إلى مالقة، حيث لقي عند أهلها كل حفاوة وترحيب، ثم عاد منها إلى غرناطة بعد مصالحة ابنه في العام الذي يليه(٣) فهرب محمد وعلي ابنا الوزير مفرج(٤) إلى مالقة، وبايعا أميرها يوسف النصري(٥) الذي أعلن استقلاله في مالقة وزحف على غرناطة، وقد أمده الملك القشتالي بالمال والعتاد والجند، كما انضم إليه العديد من المؤيدين لثوار بني سراج، لكنه مات قبل نهاية ثورته في عام (٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م)(٦).

وفي هذه السنة استغل النصارى ظروف أسرة بني الأحمر الحرجة، فاحتلوا حصن أرجدونة(٧) التابع لمالقة. والحقيقة أن فجوة الخلاف حول

(١) بنو سراج: أسرة عربية يعود نسبها إلى كلاب بن ربيعة، وجدهم سراج بن قرة صاحب رسول الله ﷺ، وهم من أشرف الأسر في قرطبة. انظر ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٠٩).

(٢) أبو الحسن علي بن سعد بن محمد النصري، خلد في أواخر أيامه إلى الراحة والملذات، ثم أصابه مرض، فمات في عام (٨٩٠هـ). انظر المقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٢، ٥١٥).

(٣) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص١٦٧)، وعبده عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية، (ص٢٧٠).

(٤) أبو السرور مفرج بن فتوح: كان من الوزراء المقربين من السلطان محمد الأيسر، ومن القواد الذين لهم باع طويل في الجهاد. انظر ابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص١٨٥)، جـ٢، (ص٢٨٣) وما بعدها.

(٥) لم نجد له ذكراً في مصادر ومراجع القرن التاسع الهجري التي لدينا.

(٦) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٤٦)، وعبده عواجي: المرجع السابق، (ص٢٦٩).

(٧) سحر عبدالعزيز سالم: بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، ١٩٩٧م، جـ١، (ص٢١٨).

العرش الغرناطي اتسعت في السنوات القادمة أكثر من سابقتها، حيث تمرد على السلطان أبي الحسن علي في عام (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) والي مالقة، أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد النصري المعروف بالزغل[١]، فأرسل إليه السلطان الحملات العسكرية لتأديبه، فضعف موقفه، وخشي ذهاب ملكه، فالتجأ إلى هنري الرابع ملك النصارى، فوعده العون والتأييد[٢]. ثم لم يمض عام واحد إلا وأعلن محمد الفرسوطي[٣] قائد مالقة العسكري - بتحريض ودعم النصارى - العصيان على الدولة، فحاول السلطان الغرناطي إخماد ثورته، وحاصر مالقة لأكثر من مرة، لكنه لم يستطع امتلاكها، واستدعى الثوار السلطان الزغل من قشتالة وبايعوه، فتربع على كرسي الملك بمالقة، وانقسمت المملكة بذلك شطرين متخاصمين[٤]، واستمر النزاع بين الأخوين حتى أواخر العقد الثامن، حيث قدم الزغل على أخيه، وتصالح معه ودخل في طاعته، فبقيت مالقة تعيش حالة الفوضى والاضطراب تحت يد القواد من بني سراج، فحاصرهم السلطان أبو الحسن بجيشه حتى أذعنوا له، فقضى عليهم جميعاً في عام (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)[٥].

وبعدما تهادن الأخوان وتراضيا عاد الزغل يحكم مالقة وما يتبعها، وأخوه على غرناطة وما يليها[٦].

---

(١) الزغل: لقب يعني الشجاع أو الباسل، المصدر زغلة. انظر محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، الهامش، (ص١٩٢).

(٢) ضياء باشا: الأندلس الذاهبة، تعريب عبدالرحمن ارشيدات، تحقيق صلاح ارشيدات، (٣) أجزاء، ١٩٨٩م عمان، جـ٣، (ص٢٣٥)، ومحمد عنان: المرجع نفسه، (ص١٩٢).

(٣) لم يذكره سوى المؤلف محمد عنان، وأورده من غير تعريف. انظر محمد عنان: المرجع نفسه، (ص١٩٢).

(٤) محمد عنان: المرجع نفسه، ع (٤)، (ص١٩٢).

(٥) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٣٤، ٣٥)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١١).

(٦) محمد عنان: المرجع السابق، ع (٤)، (ص١٩٤)، وسحر عبدالعزيز: بحوث مشرقية ومغربية، جـ١، (ص٢٠٨).

وبمرور سنوات قليلة هبت ريح الثورة من جديد على غرناطة بقيادة أبي عبدالله محمد بن علي[1] ففر والده أبو الحسن إلى مالقة التي بقيت مع غرب المملكة تنادي باسمه تحت طاعة أخيه الزغل، وتربع أبو عبدالله محمد في أواخر عام (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) سلطاناً على عرش غرناطة، وهو آخر حكام المسلمين في الأندلس[2].

وبينما المسلمون على تلك الحالة من التمزق والتفرق تداعى عليهم الأسبان النصارى من كل جانب، فشمرت المدن الغرناطية عن ساعد الجد، وهبت للدفاع شاهرةً سيف الحق، حاملةً راية الإسلام، وقامت مدينة مالقة من بينها بدور بطولي رائع سطرت فيه أجمل صور الملاحم الدفاعية التي غدت صفحة مضيئة في تاريخ الإسلام.

ويجدر بنا في الصفحات التالية أن نقدم ذلك الدور المجيد لمالقة منذ غزو النصارى لها في عام (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) حتى آخر رمق من أنفاسها، وهي مدة عصيبة - لا تتجاوز الخمس سنوات- رافقت أواخر أيام مملكة غرناطة، وإن كان دفاع مالقة الباسل ليس بحديث عهد في تاريخها المسلم، فقد تصدت مع المرابطين للأسبان النصارى في أواخر أيام ملوك الطوائف.

وفي عصر بني الأحمر عندما اشتد ضغط النصارى كافحت مدينة مالقة كفاحاً مشرفاً طوال أيامهم خصوصاً، وكانت ثغراً مهماً يستقر به الجنود المغاربة المجاهدون في سبيل الله؛ ففي أيام السلطان الفقيه شاركت في الدفاع عن الجزيرة الخضراء بكل ما أوتيت من قوة، وفي أيام السلطان يوسف بن

(١) أبو عبدالله محمد بن علي بن سعد النصري، حكم غرناطة فترتين (٨٨٧ - ٨٨٨هـ) (٨٩٢-٨٩٧هـ). وكان شديد التعصب والسطوة، ارتحل في آخر أيامه وسكن بلاد المغرب. انظر المقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥٢٧)، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٤٩).

(٢) المقري: المصدر نفسه، مج٤، (ص٥١١، ٥١٥، ٥٢٨)، وضياء باشا: الأندلس الذاهبة، جـ٣، (ص٢٤٨).

إسماعيل جاهدت في معركة طريف (٧٤١هـ/١٣٤١م) حق الجهاد، ثم استمر نضالها الشريف يتزايد بمرور السنين، خاصة في عهد السلطان الأيسر ومن خَلَفَه من سلاطين بني الأحمر في القرن التاسع الهجري حتى سقطت في أواخر ذلك القرن.

٣- دور مالقة في التصدي للحملات الأسبانية حتى سقوطها في عام (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م):

عقب إخفاق النصارى في احتلال لوشة[١] في شهر جمادى الأولى من عام (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م)[٢] قرر ملكهم غزو مالقة واحتلالها للأسباب التالية:

١- وجود السلطان أبي الحسن علي عند أخيه السلطان الزغل في مالقة. والأخير هو أشد خصوم النصارى، ورأس القوة الإسلامية الخطيرة[٣].

٢- تميز مدينة مالقة وأهميتها؛ فهي الميناء الرئيس الكبير لملكة غرناطة[٤]، وأهم القواعد العسكرية لبني الأحمر على البحر المتوسط[٥].

٣- رغبة النصارى في استكمال خطة تطويق الأندلس من الجنوب الشرقي[٦].

٤- إن مالقة أعظم الثغور الباقية للغرناطيين[٧] والتي تشكل أكبر مصادر الإنتاج الضخم والثروة الاقتصادية والقوة الثقافية لملكتهم.

---

(١) لوشة: (Loja) مدينة تقع في منطقة غرناطة على مقربة منها. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٣).

(٢) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٥٧).

(٣) العمروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ١٩٨٢م، دار الغرب الإسلامي. بيروت، (ص٢٤٨).

(٤) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٣)، وفون شاك: الفن العربي في أسبانيا وصقلية، (ص٨٥).

(٥) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٦) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢٠٣).

(٧) شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢١٣، ٢١٦)، ومحمد عنان: المرجع نفسه، ع (٤)، (ص٢٠٣).

٥- إن مالقة أصبحت مركز الاتصال الوحيد القريب الذي تصل منه الإمدادات والمعونات المختلفة من أنحاء المغرب الإسلامي للغرناطيين في الأندلس[١].

٦- استحكام عرى الخلاف والتشرذم في بيت الأسرة النصرية المالكة[٢].

٧- سماع النصارى عن عزم ملوك الإسلام (السلطان بايزيد الثاني العثماني والسلطان الأشرف قيتباي المملوكي) على إنقاذ وإعانة إخوانهم المسلمين في الأندلس[٣] وهذا السبب يضعِّفه البعض؛ لأن وقت الاستغاثة وقع بعد سقوط مالقة، وليس قبل ذلك[٤].

وفي شهر صفر عام (٨٨٨هـ/ مارس ١٤٨٣م) احتشد أمراء النصارى؛ وهم: مركيز قادس الدون بطره هنريكس رئيسهم، والكونت دوسيفونتاز، والدون نزودوكردناز، والدون الونزو دو أغيلار، أمراء أشبيلية وشريش وأنتقيرة وغيرهم، وزحفوا من أنتقيرة في جيش يقدر بالآلاف نحو قرى بلش وشرق مالقة وجبالها في يوم الخميس (٢٠) مارس لإهلاك الحرث والنسل وتدمير الممتلكات وتخريبها، وحالما وصلوا تصدى لهم أهل تلك المناطق، واعترضوهم في الهضاب الوعرة والشعاب الضيقة والجبال الصعبة والأودية الصلبة، فقذف الله في قلوب الأسبان الرعب، وأتاهم من حيث لم يحتسبوا، وتفرقت بهم السبل، ولم تغن عنهم كثرتهم وعدتهم شيئاً، ففروا في تلك الأرض القاسية ونشبوا فيها، فتتبعهم المسلمون باتجاه مالقة يقتلون فريقاً ويأسرون آخر، وبينما هم على تلك الحالة كانت مالقة قد تزودت بالمؤونة من بسطة ووادي

---

(١) شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٠٥، ٢١٣)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، (ص١٣١).

(٢) المقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٢).

(٣) شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢١٣).

(٤) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢٢٠).

آش، فخرج سلطانها الزغل بجيشه منها، والتقى ببعض من هؤلاء النصارى وعليهم المركيز قادس وبمعيته الكونت دوسيفنتازة وغيره في خارج مالقة، فوقعت بينه وبينهم موقعة دموية يوم (١١) صفر من العام المذكور استبسل فيها الزغل، وقاومه النصارى مقاومة شديدة، لكنهم خسروا[١] وانقلبوا صاغرين، وجعلهم الله أحاديث ومزقهم كلَّ ممزَّق، وعرفت تلك الموقعة بموقعة الشرقية لوقوعها في المنطقة المسماة بذلك في شرق مالقة[٢].

وفي تلك الأيام كان السلطان أبو الحسن قد خرج على رأس جيش من مالقة، واصطدم بابنه محمد على جيش غرناطة في مكان يقال له الدب في نواحي المنكب، فألحق به الهزيمة وعاد[٣]. وكانت نتائج معركة الشرقية هي:

(١) ارتفاع الروح المعنوية القتالية لدى المسلمين، فانتعشت الآمال، وسرت الحماسة في كل مكان من مملكة غرناطة[٤].

(٢) مقتل وأسر الآلاف من النصارى، وفيهم ثلة من أكابر القواد كالكونت دوسيفنتاز قائد أشبيلية[٥].

(٣) هروب كثير من النصارى بأنفسهم - وعلى رأسهم كبيرهم مركيز قادس - من أرض القتال إلى حيث أتوا[٦].

---

(١) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٦٢) وما بعدها، والمقري: نفح الطيب، مج ٤، (ص٥١٤)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص١٩٤، ١٩٥، ١٩٦)، وابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، (ص١٣١).

(٢) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢٠٣)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، (ص٣٩٥).

(٣) المقري: المصدر السابق، مج٤، (ص٥١٤).

(٤) محمد عنان: المرجع السابق، ع(٤)، (ص٢٠٣).

(٥) مؤلف مجهول: المصدر السابق، (ص٦٤)، المقري: المصدر السابق، مج٤، (ص٥١٤)، شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص١٩٦).

(٦) مؤلف مجهول: المصدر السابق، (ص٦٤)، وشكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص١٩٦).

(٤) غنم المسلمون غنائم كثيرة مما خفَّ وزنه وغلا ثمنه؛ كالأموال والذهب والفضة وغير ذلك من الأمتعة والدواب والمعدات العسكرية، وحُملت كلها إلى مالقة، ولعدم مراعاة زمرة من الظلمة وذوي النفوذ تطبيق تعاليم الله في هذا المغنم وفق ما جاء في القرآن، وامتناعهم عن إعطاء كل ذي حق حقه عاقبهم الله بعقم البهائم جزاء على مخالفتهم أمره(١).

(٥) زيادة إصرار النصارى أكثر من ذي قبل على احتلال مدينة مالقة عاصمة الزغل ومقر قواته.

(٦) قيام المجلس القشتالي في سبيل تخليص الأسرى النصارى ومنع المسلمين من استغلال انتصارهم في معركة الشرقية بتدابير حيوية مهمة، حيث جنَّدوا كل المراكب التي تعبر المضيق لكي تمنع مسلمي مالقة من إرسال الأسرى إلى شمال أفريقيا(٢).

وعقب معركة الشرقية قدم وفد من كبار غرناطة إلى مالقة، وأعادوا السلطان أبا الحسن علياً إلى ملكه، وكان ابنه السلطان أبو عبدالله قد أصبح أسيراً لدى النصارى(٣)، فاستلم والده السلطة، وبادر بمجاهدتهم ومدافعتهم عن مدينة مالقة، فأرسل جيشاً في عام (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) يقدر بالآلاف جعل قيادته لقائد مالقة وقائد رندة، وتوغل الجيش في أرض العدو، فاجتمع عليه جيش النصارى، وبعد عدة معارك لحقت بالجيش الإسلامي الهزيمة وآب إلى بلاده(٤).

---

(١) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٦٤،٦٥)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٤)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص١٩٧، ١٩٨).

(٢) عبده عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية، (ص٣٠٤) نقلاً عن: Bernaldez Historia de Ios Rees Catolicos, p.129

(٣) المقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٥).

(٤) شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢٠٢، ٢٠٣).

وكان أهم ما نتج عن تلك الحروب أن مالقة أصبحت مهددة والطريق مفتوحاً نحو رندة[1]، وبسبب أن النصارى عزموا على أخذ مالقة، واعتمدوا سياسة التخريب والتدمير ضدها، لكي تسهل عليهم مهمة احتلالها، فإنهم خرجوا مرة أخرى في عدد ضخم من مقاتليهم عليهم قائد قادس[2] وغيره من القواد، فاجتاحوا أراضي مالقة، وحطّموا زروعها، وأحرقوا بيوتها، فنهض إليهم المالقيون، لكنهم لم يفوزوا منهم بطائل. ونرجّح أنَّ ذلك كان في عام (٨٨٩هـ/١٤٨٤م)[3].

وفي عام (٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م) استلم السلطان الزغل السلطة من أخيه السلطان أبي الحسن[4]، وكان الزغل رجلاً شجاعاً جريئاً ذا رأي وعزيمة[5]، وهو آخر حكام مالقة من سلاطين بني الأحمر، وفي أيامه بدأ النصارى تنفيذ برنامج احتلال مالقة الذي وضعوه على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

في عام (٨٩٠هـ-١٤٨٥م)، وتقتضي احتلال حصون غرب مالقة، بما فيها حصن رندة درع مالقة الأساسي من الغرب.

المرحلة الثانية:

في النصف الأول عام (٨٩٢هـ-١٤٨٧م)، وتنص على احتلال حصون شرق مالقة، بما فيها حصن بلش درع مالقة الأساسي من تلك الجهة.

المرحلة الثالثة:

في منتصف عام (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م)، وتتضمن احتلال مالقة بذاتها بعد

---

(١) عبده عواجي: الخلافات السياسية في الدولة النصرية، (ص٣١٧).

(٢) قادس: مدينة في جنوب إشبيلية على شاطئ المحيط الأطلسي. انظر الزهري: الجغرافيا، (ص٨٩).

(٣) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٠٤).

(٤) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٦٨)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع(٤)، (ص٢٠٤)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٥١).

(٥) شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص١٩٤)، ومحمد عنان: المرجع نفسه، ع (٤)، (ص١٩٢).

ضرب الحصار عليها من البر والبحر لتسقط - في يد النصارى- مثلما سقطت أيام الفتح الإسلامي في يد المسلمين بخلاف الطريقة والترتيب.

وتنفيذاً لهذه الخطة خرج النصارى في جيش بلغ تعداده حوالي (٣٠) ألف مقاتل في شهر ربيع الآخر من عام (٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م)، وقصدوا حصن قرطمة وذكوان، وقاتلوا أهلهما حتى استولوا عليهما[١] ثم استكملوا احتلال بقية الحصون الغربية وحصن صالحة الشرقي، وقصدوا مالقة، فخرج لهم الزغل بعدما حصنها في ألف فارس، وصدهم، فاتجهوا نحو رندة غطاء مالقة الأيسر، وقد كانت في معزل عن المسلمين، فحاصروها في شهر جمادى الأولى حتى استولوا عليها، ثم وزّع النصارى حاميتهم على تلك الحصون للتضييق على مالقة التي أصبح الطريق إليها مكشوفاً من تلك الناحية، ومهددة تهديداً مباشراً[٢].

وفي عام (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م) والحرب الأهلية في غرناطة تجري على قدم وساق يذيق الله فيها المسلمين بعضهم بأس بعض، تحرك صاحب قشتالة[٣] صوب حصن بلش في جيش عرمرم[٤]، وقيل: إن تحركه كان بإيعاز من السلطان أبي عبدالله محمد، الذي بعث في الوقت نفسه إلى جهة مالقة من يذكر بأهمية الدخول في طاعة النصارى، وينذر بعواقب البقاء على طاعة الزغل، ومعه نسخة من عقود الصلح التي أبرمها سلطانه مع صاحب قشتالة،

---

(١) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٦٨)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٠٥).

(٢) مؤلف مجهول: المصدر نفسه، (ص٧٦)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٥، ٥١٦)، وشكيب أرسلان: المرجع نفسه، (ص٢٠٥)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، (ص٢٠٦)، والآثار الأندلسية الباقية، (ص٢٧١).

(٣) فرديناند ملك أرغون تزوج بإيزابيلا ملكة قشتالة في عام ١٤٦٩م، فتوحدت المملكتان تحت حكمه. انظر شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص١٦٠، ١٦٢).

(٤) المقري: المصدر السابق، مج٤، (ص٥١٨، ٥١٩)، وشكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢١٣).

فدخلت مالقة وحصن المنشأة في طاعته خوفاً من النصارى ورغبة في السلم، فتكلم أهل مالقة مع أهل بلش في ذلك، فرفضوا الخنوع والخضوع؛ لأنهم قد تعاهدوا هم وأهل مالقة وسائر أنحاء مملكة غرناطة مع السلطان الزغل على أن يكونوا يداً واحدة على عدو الدين ونصرة من قصدهم من المسلمين. غير أن أهل مالقة نكثوا العهود والمواثيق - ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾(١) - سوى حصن جبل فارة، فقد ظل على حكم الزغل، فحاصر النصارى بلش من البر والبحر في منتصف شهر ربيع الثاني من عام (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م)، وكانت هي حصن مالقة الشرقي، فقاوم أهلها مقاومة عنيفة، وأنجدهم السلطان الزغل بجيش كثيف لم تغن قوته شيئاً، وسقطت بلش في يوم (١٠) جمادى الأولى من العام نفسه في يد الأسبان، وتفرق أهلها في البلاد، وعقب سقوطها دخلت جميع الحصون الشرقية في طاعة الكفار، كحصن قمارش ومنتماس وغيرهما، وأصبح الأسبان يشكلون خطراً حقيقياً على مالقة من كل الجهات(٢).

وفي منتصف عام (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م) بعدما قُصّ جناحا مالقة الأيمن والأيسر، وهما حصن بلش وحصن رندة اللذان يحميانها من جهة الشرق والغرب، شق النصارى طريقهم باتجاه مالقة وطوقوها من البر والبحر في جيش جرار متزود بمختلف الأسلحة بما فيها المدافع(٣)، وفي بادئ الأمر عزم كبار مالقة وتجارها - وفي مقدمتهم علي دردوق(٤) - على تسليم المدينة

---

(١) سورة الفتح، آية رقم (١٠).

(٢) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٨٨) وما بعدها، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٩، ٥٢٠)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢١٣، ٢١٤، ٢١٦).

(٣) المقري: المصدر نفسه، مج٤، (ص٥٢٠)، وشكيب أرسلان: المرجع نفسه، (ص٢١٧، ٢١٨)، ومحمد عنان: المرجع نفسه، ع (٤)، (ص٢١٦).

(٤) علي دردوق هو أحد كبار مدينة مالقة وتجارها الأغنياء. كان يمتلك عدة سفن ترابط في مياه خليج مالقة، وتسافر إلى المشرق الإسلامي. انظر شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢١٦).

للنصارى، لكن حامداً الزغبي(١) قائد حامية جبل فارة - الذي أوكل له الزغل مهمة الدفاع عن المدينة - رفض التسليم، وقرر مع المالقيين الذود وحماية مالقة حتى الموت بدلاً عن حاكمها الزغل المقيم في وادي آش، حيث قال للنصارى: «إنني قد تسلمت مدينة مالقة لأحميها لا لأسلمها»(٢)، فحاول فرديناند ملك النصارى أخذ المدينة عن طريق الرشوة والإغراء وبأسلوب الوعيد والتهديد، فلم ينجح(٣)، وفرض على مالقة حصاراً صارماً لم تعهده في تاريخها، وبدأ في ضربها بالمدافع وشنّ الهجمات عليها، وكان المدافعون وعددهم يزيد على (١٥) ألف مجاهد قد تجهزوا بأنواع الأسلحة، وامتنعوا في مدينتهم، وحال لسانهم يقول: ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٤)، وتصدوا للأسبان، ودافعوا دفاعاً مستميتاً بقيادة قائدهم الشهير حامد الزغبي، الذي أبدى من ضروب البسالة والتجلد والبراعة في تنظيم الدفاع وإدارة المعارك ما شهد له به الأعداء. ولا ننسى إبراهيم الزناتي(٥) وغيره؛ فجميعهم أبلوا بلاءً حسناً لحماية دينهم ووطنهم، وحاولوا تحطيم الطوق المضروب عليهم، بل حطموه وقاتلوا الأسبان، فألحقوا بهم

---

(١) حامد الزغبي: من بني زغبة الموصوفين بالشدة والقسوة، كان قائد مدينة رندة، وبعد سقوطها في يد الأسبان قدم على مالقة، وتولى الدفاع عن حصن جبل فارة مع جند غمارة حتى سقطت المدينة في يد الأسبان، وقيل فيه إنه من بني الثغري. والله أعلم.
انظر شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٠٢، ٢١٧)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢١٦).

(٢) شكيب أرسلان: المرجع نفسه، (ص٢١٧، ٢١٨).

(٣) ضياء باشا: الأندلس الذاهبة، جـ٣، (ص٢٧٢، ٢٧٣)، وشكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢١٨).

(٤) سورة النساء، آية رقم (٧٤).

(٥) إبراهيم الزناتي: من قبيلة زناتة البربرية، كان وافر العزم، فياض الشجاعة، قام بالدفاع عن مالقة خير قيام. انظر ضياء باشا: المرجع السابق، جـ٣، (ص٢٦٨).

الخسائر الجسيمة، وهزموهم في عدة مواضع، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا آخرين، وصارعوهم حتى في باطن الأرض، فأخذوهم وأرهبوهم، ودحروهم، وهم محتسبون متوكلون على الله لا يظهرون ضعفاً ولا عجزاً، قائمون بواجبهم على خير ما يرام[1].

والحقيقة أنّ صمود مالقة وثباتها في هذه الملحمة الصعبة يعود إلى أسباب مهمة؛ هي:

١- موقع مالقة المهم وطبيعتها الجغرافية وسورها الحصين[2].

٢- استخدام المالقيين لسلاح البارود والمدافع الحربية، وتعدد الأبراج في مدينتهم لمراقبة الأعداء والتصدي لهم[3].

٣- وجود قصبة مالقة المنيعة وحصن جبل فارة، وإشرافهما على المدينة من مكان عال[4].

٤- أنفة وعزة الإسلام وشدة الإيمان في نفوس المجاهدين، وأملهم الكبير في الله بالنصر والتمكين.

٥- بأس وشجاعة جند قبيلة غمارة البربرية - حامية مالقة - وصبرهم الطويل، وتدربهم على فنون الحرب، وكثرة قتالهم مع النصارى الأعداء[5]، وفيهم قال الشاعر:

---

(١) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٢، ٩٣)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥٢٠)، وضياء باشا: الأندلس الذاهبة، (ص٢٧٤، ٢٧٥)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٨، ٢١٩)، ومحمد عنان: دولة الإسلام،، ع (٤)، (ص٢١٦)، الآثار الأندلسية الباقية، (ص٢٤٤، ٢٤٨).

(٢) القيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٥٠١)، والمراكشي: المعجب، (ص١٠، ٢٦٩)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥)، وشكيب أرسلان: المرجع نفسه، (ص٢١٦).

(٣) ضياء باشا: المرجع السابق، جـ٣، (ص٢٧١)، وشكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢١٨، ٢٢٢).

(٤) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٤٣)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥)، وشكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢١٦).

(٥) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٧)، الحلل السندسية، جـ (١)، (ص٢٣٨).

وفرسانها الفرسان بأساً ونجدة
مقاماتهم في حربهم ليس تُجحد
بأمثالهم تحمى البلاد من العدى
ويُدفع عنها كافر متمرد(١)

كما قيل فيهم: «وكان لمالقة حامية وافرة مجربون في الحروب، ومعتادون لقاء الأهوال»(٢).

وفي موضع آخر: «ولم يكن في الدنيا أحسن من هؤلاء إذا ركبوا؛ لأنهم سريعوا الكرَّة، عقبان عند الوثوب، شديدوا الوطأة إذا أقبلوا من معاصمهم اندفقوا على مروج الأندلس، ولا اندفاق السيل المنهمر من الجبال»(٣).

ورغم هذا، إلا أن حامية مالقة ظلت تتراجع القهقرى حتى اعتصمت بحصن جبل فارة، بينما ظل النصارى يتقدمون ويشددون النطاق العسير، فاستطاعوا بناء سورين - من التراب والخشب - وحفر خندق على مالقة من جهة اليابس، ومنع الداخل منها والخارج إليها، فلم تلق المدينة أي نجدة أو إسعاف من غرناطة أو خارج الأندلس - رغم استصراخها واستغاثتها - سوى فئة قليلة من أهل وادي آش دخلوها بالقوة(٤)، ويقال: إن السلطان الزغل أرسل جيشاً لإنقاذ مالقة، لكن ابن أخيه السلطان محمداً اعترضه بجيش في الطريق وهزمه(٥)، وفي قول آخر: إن السلطان الزغل ترك مالقة وحيدة تواجه القدر المحتوم، خوفاً من غدر ابن أخيه، وكل ما فعله أنه استغاث

(١) القيسي: ديوان القيسي، (ص٣٨٨).

(٢) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦).

(٣) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٠٢).

(٤) المقري: نفح الطيب، جـ٤، (ص٥٢٠)، وضياء باشا: الأندلس الذاهبة، جـ٣، (ص٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٤).

(٥) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٢٠).

بملوك الإسلام[١] ولات حين استغاثة. وفي المقابل كانت الإمدادات والمعونات تترى على الأسبان من مختلف الجهات، وحضرت إيزابيلا زوجة فرديناند بنفسها أرض القتال، لإذكاء روح الحماسة والإقدام في نفوس الأسبان، فقام علي دردوق وجماعته وكذلك النصارى أكثر من مرة بإقناع حامد الزغبي بتسليم المدينة مقابل الأمان على النفوس والنفائس، فأبى الزغبي الاستسلام، وأصر على المقاومة والصمود حتى النهاية[٢].

و﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾[٣]، حيث طالت مدة الحصار لنحو ثلاثة أشهر أو أكثر، وقُتل العديد من رجال الحامية الشجعان، وانقطع الأمل في وصول المدد من الخارج، ونفدت الذخيرة، وفنيت المواد الغذائية، وفتك الجوع المرير بأهل مالقة، لدرجة أنهم أكلوا الأنعام وأوراق الشجر والجلود، إلى جانب تفشي المرض بالمدينة، واشتداد العسر والكرب، وتغلب اليأس على المحصورين، حتى ضاقت عليهم أنفسهم والأرض بما رحبت، فاضطروا في النهاية إلى الاستسلام بشرط المعاملة الحسنة والأمان على النفوس والأموال، فدخل النصارى المدينة غدراً ومكراً، ولفظت مالقة أنفاسها الأخيرة وسقطت شهيدة في يوم (٢٧) شعبان عام (٨٩٢هـ/١٤٨٧م)[٤]، بعدما صبرت صبر الكرام، وضربت أروع صور الثبات في الشدائد والأهوال.

---

(١) محمد عنان: دولة الإسلام،، ع (٤)، (ص٢١٦)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، (ص٣٩٩).

(٢) شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢٢٢، ٢٢٣)، وضياء باشا: الأندلس الذاهبة، جـ٣، (ص٢٧٣).

(٣) سورة الأحزاب، آية رقم (١١).

(٤) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٣، ٩٤)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥٢٠، ٥٢١)، وضياء باشا: المرجع السابق، جـ٣، (ص٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٦)، وشكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤)، ومحمد عنان: المرجع السابق، ع (٤)، (ص٢١٦، ٢١٧)، وعبدالعزيز سالم: المرجع السابق، (ص١٣١).

ويعد سقوط مالقة في يد الأسبان الكفار مأساة حقيقية وفاجعة كبيرة هزّت الأمة الإسلامية في ذلك الزمن، ونذير شر يوحي باقتراب النهاية وسقوط العاصمة غرناطة.

وفي هذه المصيبة العظيمة كتب المؤرخون، ورثى الشعراء فراق مالقة وحال أهلها، فقيل: «وكان مصابهم مصاباً عظيماً تحزن له القلوب، وتذهل له النفوس، وتذوب وتبكي مصابهم العيون بالدماء»[1]. وقال الشاعر:

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة
قد استغربت ذبحاً وقتلاً حجورها
وجزّت نواصيها وشلت يمينها
وبدل الويل المبين سرورها
وقد كانت الغربية الجنن التي
تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطعت رجلها بيمينها
ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات حجرها
فأقفر مغناها وطاشت حجورها[2]

وعقب دخول النصارى مدينة مالقة نقض ملكهم فرديناند شروط وثيقة التسليم، وقام رجاله باستباحة المدينة، فقتلوا اللاجئين الأسبان، وأحرقوا اليهود المرتدين عن النصرانية[3]. وفي هذا يتضح قوة الإجرام النصراني وسوء

---

(١) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٤).

(٢) شكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ٣، (ص٥٤٨)، ومحمد عنان: دولة الإسلام،، ع (٤)، (ص٢٦٨، ٢٦٩)، وعبدالرحمن الحجي: قصيدة رائعة في رثاء الأندلس، مجلة المناهل، عَ ٢٨، س (١٠)، ١٤٠٤هـ، وزارة الشؤون الثقافية. الرباط، (ص٣٥٣).

(٣) ضياء باشا: الأندلس الذاهبة، جـ٣، (ص٢٦٩).

أخلاق النصارى، وأحياء وتكرار ما كان يفعله أسلافهم باليهود من ظلم واضطهاد قبل الفتح الإسلامي لأسبانيا، كما أسروا جميع أهل مالقة الرجال والنساء والأطفال بعد نهب أموالهم وسلب متاعهم عدا من استطاع الفرار منهم إلى بقية المدن الغرناطية أو بلاد المغرب[1]. ثم أصدر فرديناند قراراً ملكياً باعتبار مسلمي مالقة رقيقاً يجب عليهم الفدية، وإذا أدوها يُسمح لهم بالعيش آمنين أحراراً في بلاد النصارى لا في مملكة غرناطة، كما يسمح لهم بالعبور على السفن إلى المغرب إذا شاؤوا، فعبر ما بقي من أهل مالقة في ثلاثة أيام إلى بادس[2] فيما بعد، وقد أهدى فرديناند بعض الأسرى إلى الملوك، والبعض الآخر وزَّعه على الأمراء والقادة[3]. أما آل الثغري، فإنهم لم يتمتعوا بهذه المنح، وأجبروا على التنصر لاحقاً قسراً[4]. مما يدل على عنصرية النصارى وتعصبهم الديني المخالف لتشريعات الإسلام ومبادئه السامية، كما في قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾[5].

كما قام فرديناند برفع الصليب في أعلى برج التكريم[6] بدلاً من راية التوحيد، وتحويل المسجد الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا[7]، هذا بالإضافة

---

(١) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٤)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥٢١)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢١٧).

(٢) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص١٣٧)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢١٧)، بادس: هي مدينة متحضرة تقع على ضفة البحر المتوسط مقابل مدينة مالقة وفي آخر بلاد غمارة. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٢٧، ٥٣٣، ٥٨١).

(٣) ضياء باشا: الأندلس الذاهبة، جـ٣، (ص٢٧٧).

(٤) محمد عنان: المرجع السابق، ع (٤)، (ص٣١٥).

(٥) سورة البقرة، آية رقم (٢٥٦).

(٦) برج التكريم: أحد أبراج قصبة مالقة المنيعة. انظر كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٣٥).

(٧) عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، (ص١٣٢). انظر الملحق (ص٤٣١).

إلى اقتلاع ما تبقى من منطقة مالقة من الحكم الإسلامي وإدخالها في طاعة النصارى[(١)].

وهنا في الحقيقة يتبين للقارئ البصير الفارق الكبير بين مدى تطبيق المسلمين لتعاليم الإسلام السمحة وأخلاقه العالية؛ من حفظ العهود والمواثيق، وحسن المعاملة، وإقامة العدل، واحترام حقوق الآخرين ودور عبادتهم، وسائر شعائرهم، وتوقير حرمتها والوفاء والتسامح معهم؛ سواء كانوا من النصارى أو اليهود أيام الفتح الإسلامي لأسبانيا وبعده وبين مدى ما انتهجه النصارى الضالين، كما هو حالهم ودَيْدَنُهم من أفعال قبيحة وصفات خبيثة؛ كالغدر والخيانة، ووحشية المعاملة، ونكث عهود الأمان والتسليم مع المسلمين في دينهم وأنفسهم وأموالهم ومساجدهم أيام سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس، بل قبله وبعده. وما هذا إلا دليل على قسوتهم وجحودهم ونكرانهم ومقابلتهم الحسنة بالسيئة، ومدى طغيان روح العصبية النصرانية على عقولهم وتأصل المبادئ الكريهة في نفوسهم

وعلى أية حال، فقد انقضت ثمان مائة سنة من عمر مالقة في الإسلام، انطوى سجل تاريخها بكل ما فيه من الأفراح والعز والمجد، وما شابَهُ من الأحزان والضعف والذُّل، خاصة زمن السقوط، الذي كان من أهم أسبابه عدم وجود أسطول بحري يدافع عن مالقة، وانغماس فئات من أهلها في اللهو والملذات، وبعدهم عن الدين وأخلاقه[(٢)].

(١) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٤)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥٢١)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، (ص٢٢٣).

(٢) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٤٢٣، ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٣٤٧، ٣٤٨.

الباب الثاني

(التاريخ الاقتصادي)

حبا الله بلاد الأندلس طبيعة جغرافية غنية بالخيرات والثروات الطبيعية التي أدت إلى قيام حرف الزراعة والصناعة والتجارة فيها منذ أمد بعيد(١). وقد زاول المسلمون هذه الحرف بعد استقرارهم في تلك البلاد، تأسياً بما ورد في الكتاب والسنة من الآيات والأحاديث التي تحث على العمل وتحصيل الرزق والكسب الحلال في ظل استخلاف الإنسان في الأرض وعمارته لها، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾(٢)، ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(٣)، وورد في الحديث النبوي: «ما أكل أحد طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»(٤).

والحقيقة أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته وينفعه في مراحل حياته من ولادته وصغره حتى هرمه وعجزه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾(٥)، وقد خلق المولى عز وجل جميع ما في العالم وسخَّره للإنسان من أفلاك وأنعام وغيرها، وامتنَّ بها عليه في غير ما آية من كتابه؛ فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(٦). ويد الإنسان مبسوطة على هذا العالم بأمر الله ومشيئته لينفق ما

(١) العبادي: الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، ١٤١٤هـ، دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية، (ص١٠٨، ١٠٩).

(٢) سورة النساء، آية رقم (١٠٠).

(٣) سورة الملك، آية رقم (١٥).

(٤) البخاري: صحيح البخاري، شرح وتخريج مصطفى ديب البغا، مج ٦، ط (٥)، ١٤١٤هـ، نشر دار ابن كثير. دمشق، مج٢، (ص٧٣٠).

(٥) سورة محمد، آية رقم (٣٨).

(٦) سورة الجاثية، آية رقم (١٣).

آتاه من المكاسب في تحصيل حاجاته وضرورياته، وليس للإنسان من سبيل في كسب العيش وابتغاء الرزق سوى السعي الحميد والعمل الشريف[١].

ولذلك قام المسلمون والنصارى وغيرهم في الأندلس - حتى وقتنا الحاضر - بممارسة الوجوه الطبيعية للمعاش؛ وهي الفلاحة والصناعة والتجارة[٢]، ويقول ابن خلدون: تحتل الفلاحة المرتبة الأولى؛ لأنها بسيطة وطبيعية وفطرية لا تحتاج إلى نظر وعلم واسع، وتنسب في الخليقة إلى آدم أبي البشر. وبالتالي، فهي أقدم وجوه المعاش؛ لأن الإنسان لا يستطيع الحياة من دونها، ويكون الكسب فيها من النبات في الزرع والشجر بمباشرته وإعداده لاستخراج الثمار[٣].

أما الصناعة، فيذكر ابن خلدون أنها تأتي في المرتبة الثانية؛ لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار، ومستنبطها للبشر - بالوحي من الله - نبيُّه إدريس عليه السلام. وتحصيل الرزق منها يكون في موادٍّ بعينها من الأعمال الإنسانية؛ كالكتابة والخياطة وغيرها[٤].

وأخيراً، فإن التجارة من موارد الرزق الحلال التي يزاولها الإنسان بيده وعقله وجوارحه وخبرته وماله، عن طريق البيع والشراء والشراكة وغيرها إذا أحاط نفسه بسياج الأخلاق؛ من صدق وأمانة وسماحة نفس وحسن معاملة، وغير ذلك من الأسباب التي تؤدي إلى النماء والازدهار[٥]. وأما إن كان غير ذلك، «فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هي تحيُّلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصيل فائدة الكسب من تلك الفضلة، ولذلك أباح الشرع فيه المكاسبة»[٦].

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٠٦).
(٢) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج١، (ص٤٠٩).
(٣) انظر: المصدر نفسه، مج١، (ص٤٠٨، ٤٠٩، ٤٣١).
(٤) انظر: المصدر نفسه، مج ١، (ص٤٠٨، ٤٠٩).
(٥) السايح: المسلمون والتجارة، مجلة الخفجي، عَ (٣)، س (٩)، ط١٣٩٩هـ، الكويت، (ص٢٣، ٢٤).
(٦) ابن خلدون: المصدر السابق، مج١، (ص٤٠٩).

الفصل الأول
الزراعة

تعدُّ الزراعة من أنشطة الحياة المهمة التي تؤثر في تطور الحضارة الإنسانية وبقاء الدول وزوالها، وذلك مستمد من كونها مورداً طبيعياً يرتكز عليه النشاط الاقتصادي بشكل كبير، وهي أهم الحرف التي يزاولها السكان في بلاد الأندلس[1].

ووردت في القرآن الكريم والسنة العديد من الأدلة التي تحث على مزاولة هذه الحرفة وأهميتها؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾[3]، وفي الحديث النبوي: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[4].

ولكون مدينة مالقة إحدى قواعد بلاد الأندلس الحسنة التي جمعت بين مرافق البر والبحر - أي الأراضي الواسعة الخصبة التي تحفل بكثرة المؤن والمحاصيل ومياه البحر الممتلئة بالثروات - وكثرة الخيرات والفواكه[5]، حيث

---

(١) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولة المرابطين والموحدين، مركز الاسكندرية للكتاب. الاسكندرية، (ص٩٠)، والعبادي: الزراعة في الأندلس، (ص١٠٨، ١٠٩)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، (ص٦٨٩).

(٢) سورة (ق)، آية رقم (٩-١١).

(٣) سورة عبس، آية رقم (٢٤-٣٢).

(٤) البخاري: صحيح البخاري، مج٢، (ص٨١٧).

(٥) الضبي: بغية الملتمس، (ص٢٥٠)، والحميري: الروض المعطار، (ص٧٩)، والحموي: معجم البلدان، جـ٣، (ص١٣١).

تقول على لسان أحد الأدباء[1] في ظل تنافس مدن الأندلس: «أتتركوني بينكم هملاً، ولم تعطوني في سيدنا أملاً، ولم ولي البحر العجاج والسبل الفجاج والجنات الأثيرة والفاكهة الكثيرة»[2].

وعليه، فإن أهلها وحكوماتهم اهتموا بالزراعة اهتماماً بالغاً، فنظموها وطوَّروها، واعتنوا بأراضيها وإقطاعاتها، وأنفقوا على مشاريعها المختلفة، حتى فازت مالقة بوصفها منطقة زراعية منتجة بالمراكز الأولى، وتقدمت على كثير من مدن الأندلس في الميدان الزراعي، مما كان له أبلغ الفائدة في جني الأرباح الوفيرة، والغنى الزراعي المطلوب، والإنتاج الثري النافع، وتحسن الوضع الاقتصادي بشكل عام. وقد أسهب المؤرخون والشعراء والجغرافيون في وصف زراعة مالقة، وكثافة أشجارها وغروسها وأزهارها، وانتشارها على نطاق واسع، وجودة ثمارها، وضخامة إنتاجها، وتعدد غَلاتها في مختلف الأوقات والأحوال ما سيأتي ذكره في ثنايا هذا الفصل إن شاء الله.

وفيما يتصل بالفلاحة، فقد اشتغل أهالي مالقة في حرث الأراضي وتهيئتها للزراعة من منطلق دينهم الإسلامي، الذي حثهم على استغلال الأرض واستثمارها مقابل الفائدة الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[3]. وكان من أشهر الأسر المالقية التي قامت بهذا العمل: أسرة القاضي النباهي[4] التي انتهت من سعة الحال وكثرة المال والماشية والحرث إلى محل لا غاية لعهده من الثروة بالنسبة إلى أمثالهم من أهل زمانهم.

---

(١) صفوان بن إدريس بن إبراهيم التجيبي: من أهل مرسية، يكنى أبا بحر. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٣٤٩).

(٢) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٧٣).

(٣) سورة الواقعة، آية رقم (٦٣، ٦٤).

(٤) أبو عبدالله محمد بن الحسن بن محمد الجذامي النباهي: كان من علية الفقهاء. انظر النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٤٦).

وغيرهم كثير[1]، ولعل الأبيات التالية كانت من نصيب أرض مالقة:

بمحرثها الجم المحاسن جنة
بما قد حوى منها غدا وهو مفرد
فما هو إلا للنواظر نزهة
وما هو إلا للجوانح مورد
يروق ويروى ناظراً أو جوانحاً
فذلكم يحلو وتلكم يبدد
بأرواحه الزهر البهي منظم
متى أمّه زواره ومنضد
فأبيضه لوناً وأحمره معاً
لجين يروق الناظرين وعسجد
وقضبانه بالري من واكف الحيا
عليها كمثل الدر وهي زبرجد
وأطياره تشدو بنغمة بعمة
وترجيع تلحين بديع وتنشد
تسبح أشجان القلوب برحبها
إذا ما غدت فوق الغصون تُغرّد[2]

وفيما سبق دليل قاطع على حراثة أرض مالقة على أيدي أهلها، ونفي الاتهام الذي أنكره القاضي عمر الفقيه عندما قيل: إنّ مالقة ليس بها زرع، وأن فلاحتها وحرثها ليس لها أصل ولا فرع[3]، وكانت قامرة أطيب بقاع الفلاحة في مالقة خصوبة وإنتاجاً[4]، يقول ابن الخطيب: «وقامرة الفلاحة

(١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٤)، النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٤٧).
(٢) القيسي: ديوان القيسي، (ص٢٨٧).
(٣) المقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص١٣٠)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣، ٥٤).
(٤) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٤).

المخصوصة بالاعتدال»[1].

ولكون أرض مالقة تمتلك الخصوبة والنماء والاعتدال، فإنها لم تكن بحاجة إلى كثير من السماد للإنعاش والتجديد وزيادة الإنتاج. ويوضح هذا القول ابن بصال: «ولاعتدال هذه الأرض في مزاجها استغنت عن الزبل الكثير، فهي لا تحتاج إليه إلا عند فصل الشتاء من أجل ذلك، فيجددها الزبل عند ذلك، ويدفع عنها إفراط الهواء. وينبغي أن يكون هذا الزبل الذي يطرح فيها ذا حرارة ورطوبة، وأما في فصل الحر، فلا تحتاج هذه الأرض من الزبل إلا يسيراً، ويكون من الزبل الآدمي وشبهه، ولا يكون هذا الزبل نيئاً بل مدبراً، وإن كان من ثلاثة أعوام، فهو أحسن وأوفق لهذه الأرض في فصل الحر، وأما في الشتاء فإن طُرِحَ فيها من الزبل ما له عام أو أكثر فهو موافق لها، لأن حرارتها متمكنة فيه»[2].

وفي حالة صعوبة وضع السماد - خاصة في الأراضي الواسعة - فإن فلاحي الأندلس كانوا يقومون وقت الزراعة بالحرث المكثف، ويبدأ في الغالب من منتصف يناير حتى يونيو، وبعد إعداد الأرض وتجهيزها تزرع المحاصيل وتغرس الثمار[3]. والجدير بالذكر أن العملية الزراعية في مالقة منذ «القيام على إثارة الأرض وزراعتها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه»[4] لم تقتصر على عمل الشعب وهمته، وإنما حظيت بعناية الحكام ودعمهم المستمر طوال فترة الحكم الإسلامي، وخاصة عندما يخيم الأمن والاستقرار على ربوع المنطقة، مثلما حصل في أيام المرابطين والموحدين؛ حيث استصلحت الكثير من أراضيهم

(١) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٢) انظر: ابن بصال: الفلاحة، ترجمة وتعليق خوسي ماريه، ١٩٥٥م، معهد مولاي الحسن، تطوان، (ص٤١، ٤٢).

(٣) ابن بصال: المصدر نفسه، (ص٥٥، ٥٦، ١٠٩، ١١٠).

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٣٢).

لغرض الزراعة كأراضي مالقة وغيرها[1].

وفي أيام مملكة غرناطة فرضت الظروف السياسية على المسلمين شعباً وحكومة أن يُولوا الزراعة وفلاحة الأرض حيزاً كبيراً من اهتمامهم لتحسين الوضع الاقتصادي - وهو ما حصل بالفعل - حيث قام مؤسس المملكة محمد ابن الأحمر بتوطين المسلمين الفارين من النصارى، ودعاهم إلى تنشيط الفلاحة وإحياء موات الأرض واستثمارها[2]. أما السلطان فرج بن إسماعيل، فقد نافس ابن عمه فيما يعود إلى الفلاحة والاعتمار والازدياد والاستكثار، حتى عَظُمت غَلاته، وأينعت غرساته. وعلى نهجه سار السلطان محمد الخامس وزاد[3]، وكان لهذا الاهتمام أثر كبير في تطور ميدان الزراعة وصمود مملكة غرناطة لأكثر من قرنين من الزمان في وجه النصارى الأعداء.

الفلاحة والغراس في مالقة:

عَرَفَ زُرَّاع - مالقة مثل سائر الأندلسيين - طريقة غرس الأشجار المثمرة بالنوى أو البذور أو النوامي[4] منذ القدم، فيذكر أنه بعد الفتح الإسلامي قام المسلمون بغرس الحدائق في مالقة من كل ناحية، حتى إن مسيرة حدائقها يوم للمسافر[5]. وفي عهد الأمير عبدالرحمن الداخل يذكر أنّ سفر بن عبيد الكلاعي[6] - من

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٤١١)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص١٩٦، ١٩٧).

(٢) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٧٥).

(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج٤، (ص٢٤٢، ٢٤٣)، وشكيب أرسلان: المرجع نفسه، (ص٧٥).

(٤) النوامي: القضبان، وهي الفروع الصغيرة. انظر ابن بصال: الفلاحة، (ص٥٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص ١٠٠).

(٥) الزياني: الترجمانة الكبرى، (ص٨٧).

(٦) سفر بن عبيد الكلاعي: كان من أهل رية ويسكن في قريته ببنيلة بالقرب من قرطبة. انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٥٠).

جند الأردن - أعطاه الأمير جزءاً من الرمان المجلوب من بلاد الشام، فَراقَهُ حسنه وخبره، وسار به إلى قريته في مالقة: «فعالج عجمه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجراً أثمر وأينع، فنزع إلى عرقه وأغرب في حسنه... ثم جاء به إلى الأمير، فسأله عنه، فعرّفه وجه حيلته، فاستبرع استنباطه، واستنبل همته، وشكر صنعه، وأجزل صلته، واغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من جناته، فانتشر نوعه، واستوسع الناس في غراسه ولزمه النسب إليه، فصار يعرف إلى الآن بالرمان السفري»(١).

أما السلطان أبو سعيد فرج النصري، فقد وجّه جهوده إلى تطوير الغراسة والاهتمام بها، حتى إن ابن الخطيب شهد على غزارة غروس مالقة وأعنابها عنها في سلا(٢).

وكان من المحاصيل التي تُغرس في مالقة: الأترج والعنب واللوز والجوز والنخيل وغيرها(٣).

نظام الأراضي الزراعية:

تعددت الملكية الزراعية في مالقة، ونورد منها ما يلي:

(١) ضياع(٤) الأمراء والأثرياء:

انتشرت الضياع في مدينة مالقة، وما يتبعها من القرى، كبلّش منذ القدم؛ بدليل أن كلمة ضيعة يقابلها في اللغة الأسبانية كلمة (Aldea) أي الضيعة(٥).

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٥٠)، والمقري: نفح الطيب، جـ١، (ص٤٦٧، ٤٦٨).

(٢) انظر: الإحاطة، مج٤، (ص٢٤٢، ٢٤٣)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٨).

(٣) ابن بصال: الفلاحة، (ص٥٩، ٦١، ٦٧، ٧١)، وابن سعيد: المغرب، جـ٢، (ص٤٢٣).

(٤) الضياع: هي قصر ريفي أو منية تحيط به مجموعة من الحقول والبساتين. انظر كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٥٤).

(٥) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٤٢)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٥٣).

وكان بمالقة العديد من كبار الشخصيات وأصحاب المناصب الذين يمتلكون الضياع، وعلى سبيل المثال: كان للقاضي محمد بن الحسن النباهي وقبيلته في زمن الموحدين ضياعٌ كثيرة في مالقة[١]، كما كان للشيخ أبي جعفر ابن صفوان[٢] ضيعة على وادي شنيانة في خارج مالقة يجتمع فيها مع أصحابه[٣]، ولأبي الحسين بن الفخار[٤] مكان حسن بقرية ذكوان[٥] التابعة لمالقة، ربما يكون ضيعة أو بستان.

وللقاضي أبي الفضل عياض[٦] ضيعة في خارج مالقة اشتراها ببيع بعض رباعه في مدينة سبتة[٧]، وكان للقاضي محمد بن الحسن الجذامي النباهي على عصر الطوائف ضياع عامرة في مالقة، وضيعة في قرطبة يتولى إدارتها رجل يقال له ابن الفاسي، ويذهب إليها القاضي كثيراً[٨].

ولا يزال نظام الضياع موجوداً في أسبانيا حتى اليوم بدليل أن كلمة مجشر - (Mausar) المزرعة أو الضيعة - لا تزال مستخدمة في الطبوغرافية الحديثة لمدينة مالقة والمرية وغيرها من مدن أسبانيا[٩].

---

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٤٧).

(٢) أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان (٦٩٥-٧٦٣هـ) من أهل مالقة الأدباء، له عدة تواليف (كمطلع الأنوار الإلهية). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٢٢١).

(٣) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج١، (ص٢٧٣).

(٤) شاكر بن محمد الحضرمي، كان أديباً شاعراً، توفي في عام (٥٨٦هـ). انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٥٣، ٣٥٥).

(٥) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص١٦٠).

(٦) القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي. أصله من سبتة، توفي في مراكش عام (٥٤٤هـ). انظر ابن الخطيب: المصدر السابق، مج٤، (ص٢٢٢، ٢٣٠)، والنباهي: المصدر السابق،(ص ١٣٢، ١٣٣).

(٧) أبو عبدالله محمد: التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب، (ص١١٣).

(٨) النباهي: المصدر السابق، (ص١٢٢، ١٢٣).

(٩) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، الهامش، (ص١٥٤).

(٢) أراضي الأحباس:

انتشرت أراضي الأوقاف على مساحات واسعة في الأندلس[١]، وكانت تحبس لأعمال الخير؛ كحبس الأراضي الزراعية على الذرية من البنين والبنات ليستعينوا بها على المعيشة وتقلبات الحياة. ومن ذلك أنّ رجلاً من أهل مالقة أقر بحبس على نفسه وعلى ابنته في جنان[٢]، ورجلاً آخر أقر بحبس قرية على ابنته وعلى من يولد بعدها وعلى أعقابهم وأعقاب أعقابهم[٣]، ورجلاً آخر أيضاً كان وصيّاً على أملاك أخيه التي ورَّثها لبناته، وهي أراضٍ بيضاء مشجّرة بأشجار التين وسائر الثمار عامرة وغامرة[٤]، كما حُبست فائدة شجرة توت وأراضٍ زراعية على أوجه الخير والمساكين في مدينة بلّش، التي حُبس لها كذلك معاصر الزيتون وأراضٍ على من يقوم بحراسة أسوارها ليلاً حتى لا تتعرض للهجوم المفاجئ من قبل النصارى في عهد بني الأحمر[٥].

وقد كانت الأحباس في بلش كثيرة حتى إن أهلها أخذوا يصرفون الفائض من الوقف على ما يفيدهم. ومن ذلك ما وقع في وقف أحد مساجد قراها في عصر بني الأحمر؛ حيث صرف الزائد من الوقف على بناء برج على صومعة المسجد، لاستطلاع أخبار النصارى حتى لا يداهموا المدينة على حين غِرَّة من أهلها[٦].

أما حصن أرجدونة التابع لمالقة، فقد أوقف عليه القائد خالد بن أبي الحسن الغرناطي ثلث أملاكه من الأراضي الزراعية في قرية اليسانة التابعة

(١) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص١٥٥).

(٢) الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، ١٤٠١هـ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جـ١٠، (ص٣٦٩).

(٣) الونشريسي: المصدر نفسه، جـ٧، (ص٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) القاضي عياض وولده محمد: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق بن شريفة، ط الأولى، ١٩٩٠م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ص١٣٤).

(٥) الونشريسي: المصدر السابق، جـ٧، (ص١٤٣، ١٤٥، ١٥٧).

(٦) الونشريسي: المصدر السابق، جـ٧، (ص١٤٨، ١٤٩).

لغرناطة وقفاً مخلداً ينتفع به أهل الحصن على الدوام حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين[١].

(٣) الإقطاع العسكري الزراعي:

كان يقتضي نظام هذا الإقطاع منح الجنود المسلمين أراضي زراعية يستثمرونها مقابل تقديم خدماتهم العسكرية وقت الحرب، وقد طبقت الدولة الإسلامية هذا النظام في الأندلس منذ السنوات الأولى[٢]، فيذكر أنه في ظل الصراع بين العرب أنزل والي الأندلس[٣] جند الأردن - لإخماد الحرب المستعرة - مالقة، على أن يقوموا بفلاحة أرضها شريطة أن يقدّموا عدداً منهم للسلطة الحاكمة[٤]، وعندما تحققت الوحدة والاستقرار في الأندلس بعد سقوط حكام الطوائف قام المرابطون بتطبيق نظام الإقطاع، وأصبحت مالقة من المناطق المجندة[٥]، فانتعشت الزراعة وزاد الإنتاج وأقبل الجنود والفقهاء؛ كالقاضي عياض اليحصبي[٦] وحفيده عياض[٧] في أيام الموحدين وغيرهم على شراء الأراضي في مالقة واستثمارها[٨]، وحُرِم حكام الطوائف من فوائد

(١) كمال السيد: الأحباس في الأندلس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة. من بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، ١٩٩٣م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، الهامش، (ص٢٠٢).

(٢) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٥٥).

(٣) أبو الخطار الكلبي حسام بن ضرار، تولى ولاية الأندلس في أيام دولة بني أمية المشرقية. انظر الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٧).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، (ص٢٢)، وحسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، (ص٥١).

(٥) ابن الخراط: اختصار اقتباس الأنوار، (ص١٤٤).

(٦) سبق التعريف به في (ص ١٨٤).

(٧) عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي، من أهل سبتة، يكنى أبا الفضل، ولد في عام (٥٦١هـ)، وتوفي في عام (٦٣٠هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٢١).

(٨) القاضي عياض: مذاهب الحكام، (ص١٣٤)، وابن الخطيب: المصدر نفسه، (ص٢٢١)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٣٣).

هذا النظام عدا أبناء بلقين: عبدالله وأخوه تميم حكام غرناطة ومالقة[١].

هذا وللأهمية بمكان ذكر بعض المصطلحات المتعلقة بالأراضي الزراعية في مالقة؛ ككلمة (منية) وجمعها منى ومنيات، وهي القصور والبيوت الريفية التي تحيط بها المزارع والبساتين الواسعة، وتعيش فيها دواجن وماشية ملاكها[٢]، مثل منية السيد الواقعة على ضفاف نهر وادي مالقة، وكان يقصدها صاحبها المأمون الموحدي[٣] للعيش في أحضان الطبيعة بعيداً عن ضجيج المدينة وهمومها.

وأيضاً: كلمة (بقاع) وتعني الحقول والمزارع ذات الأشجار المثمرة. وقد انتقلت إلى الأسبانية جمعاً (las vegas) ويرادفها في المعنى كلمة فحص - وبالأسبانية (Alfoz)[٤] - كفحص (قامرة) الواقع في غرب مالقة وهو منطقة خصبة زاخرة بالمروج الخضراء والبساتين تمثل نموذجاً صادقاً على الفن الزراعي في مالقة.

وهناك الرياض والجنان، ومفردها جنة، وهي المزرعة أو البستان الذي لا بناء فيه[٥]، وقد انتشرت في سهول مالقة وجبالها ووديانها وهضابها وفي جوف عمرانها وخارجه حتى غدت مالقة بأكملها جنة[٦] منذ القدم، والدليل

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تعليق محمد الهاشمي، ١٣٥٥هـ، مطبعة الوطنية. الرباط، جـ٢، (ص٦٩)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، (ص٢٢٩).

(٢) العبادي: الزراعة في الأندلس، الندوة، (ص١١٢، ١١٣)، وحسين مؤنس: رحلة الأندلس، (ص٢١٨).

(٣) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، (ص١٦٤)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج ١، (ص٤١١).

(٤) العبادي: الزراعة في الأندلس، الندوة، (ص١١٣).

(٥) الفاسي: الألفاظ المغربية العامية، مجلة المناهل، عَ (١٦)، س(٦)، ١٤٠٠هـ، إصدار وزارة الدولة. الرباط، (ص٦٩).

(٦) المقري: نفح الطيب، جـ١، (ص١٧٨)، جـ٢، (ص٢٨٢)، وفون شاك: الفن العربي في أسبانيا، (ص٨٤، ٨٥)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية (ص ٨، ٥٢)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣٠). G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2 , P. 463 464.

على ذلك أن ملك مالقة أيام الفتح الإسلامي كان يخرج إلى جنان أو جنة له في خارج مالقة طلباً للراحة من عناء الحصار[1]، فأصبحت على هذا مدينة مالقة من أقدم الشواهد على وجود الحدائق في أسبانيا[2].

ويقول ابن الخطيب عن كثرة جنات مالقة: «والجنات التي ملأت السهل والجبل وتجاوزت الأمل بحيث لا أسد يمنع من الإصحار بالعشي والأسحار، ولا لص يستجن بسببه في الديار»[3]، ويقول في موضع ثانٍ: «والبساتين ذات المرأى العجيب... والجنات الوارفة الظلال»[4].

ويقول في موضع آخر: «وأما الساكن بين راهن قيد الحياة ومنتقل من جناتها إلى روضات الجنات، فأكبر به أن يفاضل أو يجادل فيه أو يناضل»[5].

وأكبر مثال نستشهد به على روعة جنات مالقة والتأنق في زراعتها والاهتمام بها: جنة السيد المأمون الموحدي الواقعة على ضفة نهر وادي المدينة[6] «وما أدراك ما بها من جنة دانية القطوف سامية السقوف، ظاهرة المزية والشفوف إلى غيرها مما يشذ عن الحصر إلى هذا العصر»[7].

وكان للقاضي عياض اليحصبي جنة في ربض مالقة الشرقي[8]، ولابن سالم جنة عرفت باسمه[9]، كما كان للسلطان أبي سعيد فرج النصري في خارج مالقة العديد من البساتين[10]، ولأحد الأهالي مزارع واسعة تكثر فيها

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٦٢)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٧٥).
(٢) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣٠).
(٣) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٩).
(٤) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).
(٥) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٢، (ص٣٥٩).
(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٤١١)، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، (ص١٦٤).
(٧) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٨).
(٨) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٢١).
(٩) ابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص١٩٢).
(١٠) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٤٤).

أشجار التين وسائر الثمار[1]. أما الوزير أبو عمران[2] فقد كان له بستان في خارج مالقة يعدُّ نموذجاً حقيقياً للبستان المالقي على وجه الخصوص، حيث حرص فيه الوزير على اختيار تربته، ووفرة مياهه ثم تأنق في زراعته وغراسته بأنواع الأشجار والثمار والأزهار، حتى أصبح في غاية الجودة والجمال، وكان يخرج إليه بحثاً عن الراحة والمتعة والأنس، حيث يأتيه أصحابه وطلاب العلم، فيتسامرون فيه، ويتجاذبون أطراف الحديث، ويعقدون المجالس الشعرية لقضاء أجمل الأوقات بين محاسن الطبيعة، فحظي البستان وصاحبه بأوصاف عجيبة ومعان مخترعة وأمداح رائعة[3] كقول الشاعر:

محل ابن رزق جرّ فيه ذيوله
من المزن ساق يحسن الجرّ والسقيا
ذكرت عشياً فيه لا ذمّ عهده
وإن نحن لم نمتع ببهجته لقيا[4]

ويقول آخر:

ما مثل موضعك ابن رزقٍ موضع
زهر يرقّ وجدول يتدفع
وكأنما هو من بنانك صفحة
فالحسن ينبت في ثراه ويبدع
وعشية لبست رداء شحوبها
والجو بالغيم الرقيق مقنع

---

(١) القاضي عياض: مذاهب الحكام، (ص١٣٤).

(٢) الوزير أبو عمران موسى بن رزق، كان من النبهاء والأدباء عالي الهمة. انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٠٧).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٠٧، ٢٠٧).

(٤) ابن غالب: ديوان الرصافي البلنسي، جمع إحسان عباس، ط الثانية، ١٤٠٣هـ، دار الشروق. بيروت، (ص١٢٣).

بلغت بنا أمـــد الســـرور تألقـا
والليل نحــو فــراقنا يتطلــع[1]

ومن كلام شاعر آخر على نسق ما سبق في ذلك البستان:

فــأنعم أبا عــمــران والَه بروضــةٍ
حَسُنَ المصيف بها وطاب المربع[2]

والحقيقة أنّ الرحالة المسيحين الذين شهدوا سقوط مالقة الأخير أعجبوا بمبانيها، وامتدحوا بساتينها النضرة وحدائقها المنتشرة في كل مكان المحيطة بها من كل جانب[3]، فيقول أحدهم: وأشجار الفواكه المورقة النامية في البساتين العديدة المجاورة للأسوار. ويقول آخر: المكان الذي تقع فيه المدينة عبارة عن سهل واسع في غوطة كبيرة وجميلة مليئة بالبساتين والأشجار، وفي الضاحية الواقعة جهة البحر العديد من البساتين والمنازل المهدمة، كما كان يوجد بالقرب من المدينة البستان المسمى ببستان الملك[4]. ولما قام الرحالة (منذر) في عام (١٤٩٤م) بزيارة إلى مالقة بدا المنظر أكثر روعة؛ حيث رأى سهلاً خصيباً نمت عليه من قبل العديد من البساتين الغنَّاء التي أهمل شأنها منذ تاريخ الحصار[5]، وغير ذلك من الأقوال التي تبيّن كثرة المزارع الغنية والأشجار المتشابكة والحقول المنتجة حول مالقة وداخلها؛ كالتي على الشاطئ الأيسر لنهر مالقة الكبير بين أبواب غرناطة وأنتقيرة، أو تلك المزارع الواقعة بين أبواب البحر في خارجها[6].

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٠٨)، والمراكشي: المعجب، (ص١٥٥).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص٢٠٨).

(٣) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٥٣).

(٤) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣١).

(٥) توريس بالباس: المرجع نفسه، (ص٢٣١).

(٦) G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2,p . 464, 465

أما (الرياض) فمفردها روضة، وهي الدار التي تزرع في داخلها الأشجار وتغرس الأزهار[١]، وقد كانت منتشرة بكثرة في داخل مالقة وخارجها على الروابي وضفاف الأنهار كنهر واديها الكبير[٢]، وتأكيداً على هذا القول يقول ابن الخطيب عن مالقة: «إنما هي كلها روض وجابية وحوض بساتين قد رقمتها الأنهار وترنمت بها الأطيار»[٣].

كما كان في خارج سور مالقة الرياض الشرقي. ويرجح أنها مجموعة من البساتين أو الجنات الجاهزة للسكنى في شرق مالقة[٤]، وكان أهل مالقة يخرجون إلى تلك الرياض بغرض الفسحة والفرجة، وخاصة الشعراء الذين لا تخلو مجالسهم من الحديث شعراً وأدباً عن وصف الطبيعة الخلابة[٥]، كقول الشاعر في وصف روضة:

أيا روضة تبدي النجوم أزهراً
وتختال في ثوب من الحسن رائق
لقد سل فيض النهر بيضاً كأنها
بياض المشيب في سواد المرافق[٦]

ويقول شاعر آخر في وصف عشية:

وعشية قد كنت أرقب وقتها
سَمَحت بها الأيام بعد تعذُّر

---

(١) الفاسي: الألفاظ المغربية، المناهل، عَ (١٦)، س (٦)، (ص٦٩).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٦٩، ٢٣٢، ٣٢٣)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦، ٣٥٨)، وطافور: الرحلة، (ص٦).

(٣) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٨).

(٤) الونشريسي: المعيار المغرب، جـ٥، (ص٢٠٦).

(٥) ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٧٥، ٨٧٦).

(٦) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٦٦).

نلنا بهـــا آمـــالنا في روضـــة
تُهدي لنا شِقيها شميم العنبـر(١)

ويقول شاعر في وصف عشية قضاها بين حدائق مالقة الغناء التي كانت تتكاثر في جوفها وفي ضواحيها وكل الوديان من حولها(٢):

أأنسى من الأزمـان أنس عـشـيـة
أجلنا بهـا الأحـداق بين الحـدائـق
حـــدائق بيض بالأزاهـر وسطهـا
جـــداول كـالأمطار وسط المهارق
كـــأن على تلك الأباطح جـــردت
صـــوارم لما فـــيق من كل طارق(٣)

مقومات الزراعة في مالقة:

يقوم النشاط الزراعي نتيجة تضافر مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية؛ سواء كانت تلك العوامل مجتمعة أو مفردة، فإنها تؤثر على نوعية الإنتاج الزراعي وكميته، وعلى المكان الذي يمارس فيه بشكل عام. وفي مقدمة هذه المقومات ما يأتي:

(١) التربة الخصبة:

امتازت أرض مدينة مالقة والأراضي التابعة لها بالجودة والخصوبة واللين والرطوبة والطيب وقوة التأثير(٤). وهي خصائص أدت إلى قيام النشاط

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٦٩).

(٢) الفاسي: الأعلام الجغرافية الأندلسية (ص٨٥)، ومحمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية، (ص٢٤٦، ٢٤٨).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص١٨٨).

(٤) الإصطخري: المسالك والممالك، (ص٣٦)، والأمير عبدالله: التبيان، (ص ٩٤)، والمراكشي: المعجب، (ص٨)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣، ٦٠، ٦٥)، وطافور: الرحلة.=

الزارعي وتطوره وديمومة عطائه وإنتاجه في ظل وجود المناخ الملائم وتوفر المياه العذبة.

ويعد فحص قامرة[1] أخصب تربة تزخر بالمروج الخضراء والبساتين المنتجة في مالقة، حيث يقول فيه ابن الخطيب: «خص الله مالقة بما افترق في سواها، ونشر بها المحاسن التي طواها؛ إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال وقامرة الفلاحة المخصوصة بالاعتدال... إلى أن يقول: وكفى بفحص قامرة صادع بالبرهان المبين»[2].

ويوضح لنا ابن بصال خصائص أرض مالقة اللينة أكثر، ويقول: «فالغالب على طبعها - أي الأرض - البرودة والرطوبة، وطبعها أعدل طبائع الأرضين الموصوفة قبل هذا يجود فيها جميع الثمار والنبات... قابلة لكل ماء، موافقة لكل هواء، مسامها مفتوحة، فالماء يدخلها والهواء يتخللها ويصل أصول الثمار المغروسة فيها ويتعاقب الهواء على أصولها بالحر والبرد، فتصلح بذلك صلاحاً شديداً»[3].

(٢) المناخ:

يعد المناخ من أبرز العوامل المؤثرة في الإنتاج الزراعي؛ سواء أكان التأثير سلبياً أم إيجابياً، ولكون مالقة جزءاً لا يتجزأ من إقليم البحر الأبيض المتوسط، فإن جوها في الصيف تسوده الحرارة والجفاف، وفي الشتاء البرودة

= (ص٦)، وشكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ١، (ص٣١)، وحسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، جـ١، (ص١٣٠). G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo 2, P. 463.

(١) لا يزال الفحص موجوداً إلى اليوم في ولاية مالقة بالقرب من بلدة أنتقيرة، انظر العبادي: مشاهدات ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ١٩٨٣م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، الهامش، (ص٦٠).

(٢) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٣) انظر: الفلاحة، (ص٤١).

والأمطار مثل سائر مناطق الأندلس التي تشبه بلاد الشام في مناخها، وللرياح الشرقية والغربية أثر رئيس في سقوط الأمطار عليها[1] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[2].

وفي الدلالة على طيب مناخ مالقة ومدى تأثيره قيل: «مالقة حيث الجو الصقيل والروض الذي يطيب به المقيل والراحة التي تمتزج بالأرواح كما قيل»[3].

وبالتالي. فإن مناخ مالقة يمتاز بالاعتدال الصالح لنمو النبات وزراعة المحاصيل المختلفة وراحة الإنسان وصحته وعيش الحيوان[4].

(٣) توفر المياه (مصادر - ووسائل):

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[6].

هذه حقائق ربانية واضحة تشير إلى أن الماء هو أساس حياة الكائنات، وبالتالي فهو أهم مقومات الزراعة على الإطلاق.

ولتميز أرض مدينة مالقة بالمياه العذبة الغنية[7] الصالحة للزراعة، فإن أهلها قاموا بتنظيم المياه وتوزيعها بالطرق السليمة ليضمنوا الحصول على

---

(١) الحميري: الروض المعطار، (ص٣)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٣١، ١٣٢) مج٤، (ص١٦١)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٥٢، ٥٣)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص ٨٨)، وابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، (ص١٣٩)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٥).

(٢) سورة الحجر، آية رقم (٢٢).

(٣) المقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص١٣٠، ١٣١، ١٣٢).

(٤) ابن سعيد: الجغرافيا، (ص١٣٧)، المراكشي: المعجب، (ص٨).

(٥) سورة الأنبياء، آية رقم (٣٠).

(٦) سورة الأنعام، آية رقم (٩٩).

(٧) المراكشي: المعجب، (ص٨)، وابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٥٨، ٨٧٣، ٨٧٥)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣١١، ٣٣٣)، والإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، ق١، (ص٥٦٥).

إنتاج كاف من الغلات الزراعية التي تسد حاجة السكان[١].

مصادر الري في مالقة:

اعتمد أهل مالقة في مياههم على ثلاثة موارد؛ هي:

أ- مياه الأمطار: تعد الأمطار مصدر المياه على وجه الأرض؛ سواء كانت مياه آبار أو أنهار أو غير ذلك، وهي أفضل مصادر الري للنبات[٢]، وبسبب عدم انتظام سقوطها في الأندلس، فإن أهل مالقة قاموا بإنشاء خزانات كبيرة أو صهاريج لحفظ المياه الصافية للاستفادة منها في سقيا المزارع والشرب وقت الحاجة وأيام الجفاف[٣]؛ إذ أكثر ما تسقط الأمطار والثلوج على مالقة في فصلي الشتاء والربيع[٤]. وفي العصر الحديث، (عام ١٩٧٦م) اكتُشفت في إحدى المواضع بهضبة مالقة مساكن وصهريج كبير تحت الأرض، يبدو أنه كان يمد أهل الحي بالماء اللازم، وعلى مقربة منه وجدت بركة ماء يُرجّح أنها كانت تقع في صحن إحدى الدور المهمة لشخص من ذوي الثراء[٥]، كما يُذكر أنه عثر في مالقة على أحواض رخامية كانت تزوّد القصور بالمياه الصالحة للشرب، بينما كان البعض الآخر يتخذها للزينة في الحدائق مع نافورة تنبثق منها المياه[٦]، كما عثر في الجهة الشمالية من

---

(١) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٠٤).

(٢) ابن بصال: الفلاحة، (ص٣٩).

(٣) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج ٢، (ص٣٥٧)، وكمال السيد: المصدر السابق، الهامش، (ص١٠٨)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٦٤)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣٠).

(٤) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٣١)، مج٢، (ص١٦١)، ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٧٤، ٨٧٩).

(٥) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٢).

(٦) جومث مورينو: الفن الإسلامي في أسبانيا، ترجمة لطفي عبدالبديع والسيد عبدالعزيز سالم، مراجعة جمال محرز، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، (ص٢٢٤).

هضبة مالقة على صهريج كبير بجوار إحدى المقابر[1].

ب- مياه العيون: تعد مياه العيون من مصادر الري الصالحة لجميع الخضراوات والمزروعات في الأندلس[2]، وقد استفاد أهل مالقة منها في الشرب وسقيا أراضيهم الزراعية، خاصة وأن تلك المياه الجارية تتوافر بغزارة في مدينتهم[3]، ومثال ذلك أن الشاعر ابن السراج المالقي[4] ظل يتنقل من مكان إلى آخر في مالقة، حيث كانت تجري فيها مياه العيون، فيشرب منها ويقيم عندها[5]. وكان للشعراء قصائد وأشعار في وصف هذه العيون أيام إقامتهم عندها؛ ومن ذلك قول شاعر وقف على ماء يجري من ربوة العقاب المطلة على وادي مالقة:

وكأنما وادي العقاب عشية

مستمطر دمعي بجرية مائه[6]

ويقول شاعر آخر أثناء إقامته أيام الربيع في البادية على روضة فيها ورد وحولها مياه العيون تطرد:

ورد جنى وروضة تركت

بوفرها والمياه تَطَّرِدُ[7]

---

(١) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٥٧).

(٢) ابن بصال: الفلاحة، (ص٤٠).

(٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، (ص٢١٩)، والسقطي: في آداب الحسبة، تحقيق حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، (ص٣٧، ٣٨، ٤٠)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٠٠، ٣١١، ٣١٢).

(٤) ابن السراج المالقي محمد أبو عبدالله الإدريسي شاعر بني حمود. انظر الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٥٦).

(٥) ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٧١) وما بعدها.

(٦) ابن بسام: المصدر نفسه، مج٢، ق١، (ص٨٥٨).

(٧) ابن بسام: المصدر نفسه، مج٢، ق١، (ص٨٧٥).

ويقول آخر، وقد شرب من ماء يجري في موضع حسن أقام فيه عدة أيام:

شـــربنا على مـــاء كـــأن خـــريره
خـــرير دمـــوعي عند رؤية أزهـر[1]

جـ- مياه الآبار:

أنعم الله عز وجل على أرض مالقة بوفرة المياه الجوفية الحلوة[2]، وفيها قيل: «وماؤها قريب الغور كثير العذب»[3]، ولذلك أطلق أهلها على أحد شوارع مدينتهم اسم شارع الآبار الحلوة (Pozosduces)[4].

وتعد هذه المياه من موارد الري المهمة عند أهل مالقة، الذين قاموا بحفر الكثير من الآبار لري مزروعاتهم ومحاصيلهم البعيدة عن بقية مصادر المياه[5]، كما حفر أهل مالقة تلك الآبار في منازلهم وحصونهم - كحصن جبل فارة - لغرض الشرب[6] وغيره من الاستعمالات، وقد لجؤوا - مثل سائر أهل الأندلس - إلى استخدام الوسائل الهندسية في استخراج تلك المياه الجوفية[7].

ومن أشهر أهل مالقة الذين قاموا بإنفاق الأموال الطائلة في إقامة الإنشاءات الخيرية - كحفر الآبار - العالم الجليل يوسف بن محمد البلوي[8]،

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١ (ص٨٧٢).

(٢) ابن بسام: المصدر نفسه، مج٢، ق١، (ص٨٥٨).

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٦٥).

(٤) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٢٤).

(٥) ابن الزبير: صلة الصلة، ق٥، (ص٢٨٥، ٢٨٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص ١٠٧).

(٦) محمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية، (ص٢٤٨)، وتوريس بالباس: الأبنية الأسبانية الإسلامية، تعريب علية العناني، مجلة المعهد المصري، عَ الأول، س الأولى، ١٣٧٢هـ، مدريد، (ص١٢٧).

(٧) العبادي: الزراعة في الأندلس، الندوة، (ص١٢٠).

(٨) يوسف بن محمد بن عبدالله بن يحيى البلوي، يكنى أبا الحجاج، ويعرف بابن الشيخ.=

حيث حفر بمعرفته في مالقة آباراً عديدة تنيف على الخمسين بئراً، وأوقفها لسقيا المسلمين طمعاً في ثواب الله وأجره الجزيل[1]، مما يقطع بعمل أهل مالقة في حفر الآبار ووجودها. وثمة حقيقة مهمة تعد من المشكلات التي أرّقت أهل مالقة؛ وهي: أن مياه الصرف الصحي في البيوت كانت تفسد عليهم مياه الآبار، التي هي مصدرهم الرئيس في الشرب[2] وليس الوحيد كما يذكر البعض[3].

د- مياه الأنهار:

افتقرت مدينة مالقة إلى المجاري المائية الكبيرة الدائمة - الأنهار - ولكنها لم تفتقر هي وما حولها من جريان الأنهار الصغيرة والعيون؛ كأنهار ذكوان ونارجة ومياه بزليانة[4].

ورغم ما سبق، فإن مالقة اعتمدت في ري أراضيها الزراعية، اعتماداً كبيراً، على واديها الكبير - المعروف بوادي المدينة - الذي كانت تجري فيه المياه في فصلي الشتاء والربيع؛ إذ لم يكن دائم الجريان[5]، «وتخلل الوادي الزائر لها في

= كان مشهوراً بالفضل والعلم والدين، توفي في عام (٦٠٤هـ). انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٧٣).

(١) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص٣٧٩)، وابن الزبير: صلة الصلة، ق٥، (ص٢٨٥)، والغنبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجايه، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية. الجزائر، (ص٢١٢).

(٢) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣).

(٣) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣٠).

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، (ص٢١٩)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٤٠)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٥٣)، والمقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص٤١) ونفح الطيب، جـ١، (ص١٧٨)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٤)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧)، وابن غالب: فرحة الأنفس، (ص٢٩٤).

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥).

فصلي الشتاء والربيع في سرر بطائحها وتوشيحه لحضور أرجائها»[١].

وقد لا تطول مدة جريان مياه هذا الوادي لأكثر من فصل واحد فتقتصر إما على فصل - الشتاء[٢] أو فصل الربيع[٣]- على حسب كمية الأمطار الساقطة والثلوج الذائبة من الجبال المجاورة، وبالتالي تنشط العملية الزراعية على ضفافه وفروعه، ويفرح أهل مالقة بقدومه، وفي ذلك يقول صاحب كتاب «المغرب»: «ولها الوادي الربيعي الذي يأتي زائراً مغباً، فيزداد أهلها فيه غبطة وحباً، وعلى مذانبه المتفرعة كسبائك اللجين ما ترتاح بمرآه النفس والعين»[٤].

ومما لا شك فيه، فإن وادي مالقة يعدُّ من أخصب الأودية للزراعة ونمو النبات، وأغزرها في إنتاج المياه العذبة[٥]، وأنسبها ميداناً للجري والسباق. وفي ذلك يقول ابن الخطيب: «وواديها الكبير عذب فرات. وأدواح مثمرات، وميدان ارتكاض بين بحر ورياض»[٦]. وكان ذلك الوادي من أفضل أماكن القنص وصيد الحيوانات كالأرانب والحوت والطير[٧]، واستقبال الوفود المحلية والخارجية. وفي ذلك يقول الشاعر:

تحل بواديها الكبير وفودها

فيعذب فيه وردها وشروعها[٨]

ولتوفر خصائص السياحة الرئيسة في ذلك الوادي، فإن أهالي مالقة

---

(١) الشقندي: فضائل الأندلس، (ص٥٧). انظر الملحق (ص٤٢٩).

(٢) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨).

(٣) ابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٢٣).

(٤) ابن سعيد: المصدر نفسه، جـ١، (ص٤٢٣).

(٥) ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٥٨)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٩٠).

(٦) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٧) المقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص١٢٩).

(٨) ابن فركون: ديوان ابن فركون، (ص١٢٠).

كانوا يقصدونه للهو والنزهة والترويح عن النفس[1]، بما يخالف شريعتنا الإسلامية، وفي ذلك يقول الشاعر:

بوادي رية عرّج فإني
رأيت الحسن عنه لا يميل
وهات الخمر صرفاً دون مزج
بحيث الماء والظل الظليل
غدا متقسماً في كل وجه
كما سُلت على خز نُصُول
تجول لواحظي ما دمت فيه
بحيث ترى مذانبه تجول[2]

وسائل الري والصرف:

بذل الرومان جهوداً كبيرة في تنظيم المياه ورفعها إلى ما حول أودية الأنهار، أو جلبها من أماكن بعيدة في بلاد الأندلس، مما أثّر في تقدم وسائل الري والصرف، وخاصة في مدينة مالقة التي خضعت لسيادتهم ردحاً من الزمن[3]، واستمر العمل على أيام المسلمين في التقدم والتطور، حتى إنه اشتهر من أهل مالقة في استنباط المياه من باطن الأرض بطرق فنية وأساليب عملية المهندس الحاج (يعيش المالقي)[4] الذي استطاع الكشف عن قناطر المياه الرومانية القديمة، وتوصيل المياه إلى قصور الموحدين في إشبيلية بعدما قام بعملية وزن الأرض في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) على أيام الخليفة يوسف بن

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٥٧، ٣٠٨)، والمقري: نفح الطيب، جـ٤، (ص١٦١).

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٣، ٤٢٤).

(٣) عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص١٢٨)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٦١).

(٤) الحاج يعيش المالقي. يعرف بالأحوص، وهو من ألمع المهندسين في عصر الموحدين. قام بالعديد من الأعمال الهندسية والميكانيكية. انظر ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، (ص٨٤، ٨٥، ٨٨).

عبدالمؤمن الموحدي[1]، وما كان لهذا المشروع التقني أن ينجح ويصبح عيناً بعد أثر لولا توفيق الله ثم خبرة يعيش ومعرفته التامة بوسائل الري والصرف، وحسن توظيفها في مجال عمله.

وكان من تلك الوسائل التي اعتنى بها أهل مالقة واستخدموها في أستخراج مياه الآبار ورفع مياه الأنهار للاستفادة منها في الزراعة والشرب: السواني[2] والدواليب[3] والنواعير[4]، وكانت تدار إما بالدواب أو بقوة تيار الماء[5].

وفي تلك الآلات قال الشعراء أوصافاً جميلة؛ منها في ناعورة:

ودائر يسرق من مائه
كواكباً فهو بها صاعد
حتى إذا قام بها واستوى
وقلت هذا فلك زائد
أهوت إلى الأرض كما قد جرت
نيازك لاح لها مارد
فعاد من حليتها عاطلاً
وهو إلى حالته عائد[6]

---

(١) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، (ص٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) السواني: جمع سانية بالأسبانية (Acena). وهي عند العرب الدابة كالبعير يربط به الرشاء، فيخرج الغَرْب من الآبار، وقيل: هي البئر نفسها، وقيل: هي الآلة التي تربط بها الكيزان لإخراج الماء من البئر، وذلك خطأ. انظر: الأهواني: ألفاظ مغربية، ص٢٩٠.

(٣) الدواليب: جمع دولاب بضم الدال وفتحها؛ هي الآلة التي تُخرج الماء. انظر الأهواني: المرجع نفسه، ص٢٩٠.

(٤) النواعير: جمع ناعورة، وبالأسبانية (Noria) وهي عجلة مائية واسعة مدورة، ذات ابتكار مشرقي تدار بقوة تيار الماء، وفي أثناء دورانها تصدر أنيناً عالياً كان سبباً في تسميتها بالناعورة. انظر كمال السيد: المرجع السابق، (ص١٠٩، ١١١)، والأهواني: المرجع نفسه، (ص٢٩٠، ٢٩١).

(٥) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٠٠)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص١١١).

(٦) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص١٨٤).

ويقول شاعر في وصف دولاب:

ودائرة في الماء سـبـحـاً تخـالهـا
كـردَّانة في كف مـحكمـة الغـزل
فهـا ذي تطيـر الماء من فرط سـبحـها
وهـذي تطيـر القطن من شـدة الفتل
لقـد شـاقني منهـا أنين كـأنـه
أنين بكائي يـوم بنت عن الأهل(١)

ويقول آخر:

وذي حـنـين يـكـاد شـوقـاً
يخـتلس الأنفس اخـتـلاسـا
لمـا غـدا للـريـاض جـاراً
قـال لـه المحل لا مـسـاسـا
يبـتـسم الـروض حـين يبكي
بـأدمـع مـا رأيـن بـاسـا
مـن كل جـفـن يَسُـلُّ سـيـفـاً
صـار لـه غـمـده رئـاسـا(٢)

كما يقول أحد الشعراء في وصف سانية:

سـانيـة مـبـدعـة كلهـا
وشـكـلهـا كـالفـلـك الدائـر
أكـواسـهـا شـهـب بدت للورى
مـن طـالـع لـلأفق أو غـابـر(٣)

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٦٥).
(٢) المراكشي: المعجب، (ص١٥٦).
(٣) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص٣٠٩).

ويقول الفقيه عمر المالقي عن السواني عندما تبدأ العمل في الصباح الباكر: «حيث يشبه أنين السواني حنين المتعشقات من الغواني إذا حُمد الصباح وانفلق الإصباح»(١).

وفي ظل اهتمام أهل مالقة بتنظيم وسائل الري والصرف، فإنهم أنشأوا القناطر، وفرّعوا الأنهار - كنهر الوادي الكبير - إلى تفريعات كثيرة وجداول صغيرة - سواقي - يجري فيها الماء وكأنها سبائك لجين، ساعدتهم - إلى حد كبير - في انتشار الزراعة وازدهارها على ضفاف الأودية والبسائط(٢)، هذا إلى جانب الأدوات الزراعية، التي كان يمتلكها مزارعو مالقة، ويستخدمونها في إصلاح الأرض وحصد الثمار وغير ذلك، فإنها كانت من أهم الوسائل التي أدت إلى التقدم الزراعي وحسن العمل في هذه الحرفة.

أما القناطر؛ فقد بنى والي مالقة محمد بن يحيى المسوفي قنطرة على واديها في عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) لكنها تهدمت. ثم بنى قنطرة أخرى أكملها بعده الوالي ابن حسون، لكنها تهدمت أيضاً(٣). وعلى هذه المعلمة الشهيرة أطلق مسمى (قنطرة أنتقيرة)؛ لأنها تؤدي إلى تلك البلدة، ويذكر أنها ظلت قائمة حتى تهدمت في العصر الحديث (١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م)(٤) وكانت تلك القنطرة تقوم بخدمة أهل مالقة ونقلهم وغيرهم بين ضفتي واديها.

(٤) توفر الأيدي العاملة:

يعدُّ توفر اليد العاملة من العوامل البشرية المهمة التي يقوم عليها العمل

---

(١) المقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص١٢٨).

(٢) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٧، ٣٨، ٤٠)، وابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٢٣)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٦٢). واليوم أجدبت ضفاف نهر مالقة. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، الهامش، (ص٤١١).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١١٧).

(٤) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٥٢). انظر الملحق (ص٤٢٩)

الزراعي، وإن كنا لم نجد في المصادر ما يشفي غليلنا من معلومات عن مزارعي مالقة وجنسياتهم. ولكن كل ما يمكننا قوله هو أنه بحكم بيئة مالقة الجغرافية وطبيعة أرضها الخصبة، فإن كثيراً من أهلها - بفضل نشاطهم وذكائهم وخبرتهم - برعوا في زراعة الأرض بمختلف المحاصيل والأشجار، واستغلال مياه الري والصرف وحسن استخدامها، وهذا أدى إلى انتشار الزراعة على مساحات واسعة[١].

ولعل أكبر المؤشرات التي تدل على مدى الجهد المبذول في ميدان النشاط الفلاحي لأهل مالقة هو تنوع الغلات وكثرة المنتوجات، التي أدت إلى رخص المعيشة واكتفاء مالقة وشهرتها اقتصادياً؛ إذ يقول ابن الخطيب: «ومالقة مجتزئة بنفسها في الغالب، محسبة من شرقيها وغربيها بطلب الطالب»[٢]. حتى في أيام السنوات العجاف يقول ابن الخطيب: «ومزارعها المغلة عند اشتداد السنين»[٣]. وليس شهرة المهندس الحاج يعيش المالقي في استنباط المياه الجوفية من الأرض أيام الموحدين[٤] سوى البرهان اليقين على وجود اليد العاملة الماهرة، وإن كان هناك الكثير من المهندسين والعمال الذين اشتغلوا في مختلف الأعمال المتعلقة بالزراعة؛ كعمل القناطر والأحواض وحظُوا بدعم حكام مالقة، ولم تسعفنا المصادر بأخبارهم.

العوامل المؤثرة في الزراعة:

رغم اتساع مساحة الأراضي الزراعية، وانتعاش الزراعة، وتوفر الإنتاج

(١) القاضي عياض: مذاهب الحكام، (ص١٣٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٤٤٥)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٨).

G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2, p. 463 .

(٢) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٨).

(٣) انظر: المصدر السابق، مج٢، (ص٣٥٦).

(٤) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، (ص٢٧٧)، وعبدالعزيز سالم: العمارة المدنية بالأندلس، (١٩٥٩م)، دائرة معارف الشعب، مطابع الشعب، (ص١٤٨، ١٦٥).

في مالقة نتيجة الاستقرار وانتشار العدل في ظل حكوماتها القوية، إلا أن الثروة الزراعية فيها تعرضت لمؤثرات طبيعية وبشرية أدت إلى قحط البلاد وموت العباد وفرارهم وقلة الطعام وغلاء الأسعار وظهور الفساد[1]. ومن هذه المؤثرات:

١- الجفاف والسيول:

شهدت مدينة مالقة - كغيرها من مدن الأندلس - حالات جفاف وعدم سقوط للأمطار في بعض زمن الحكم الإسلامي، كان لها أكبر الأثر في هلاك المزروعات والحيوانات، وجوع الناس، وغور المياه، وضعف الثروة الزراعية بصفة عامة، فيُذكر أن السلطان محمد الخامس النصري عندما دخل مالقة في عام (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م) لم يكن بها ماء ولا طعام[2].

وفي عام (٨١٥هـ/ ١٤١٢م) بلغت مالقة من القحط والجهد المبلغ العظيم[3]. وفي مثل تلك الحالات كان الأهالي يخرجون إلى المصلى لأداء صلاة الاستسقاء، ويدعون ربهم نزول الغيث النافع للبلاد والعباد والزرع والضرع؛ كمثل ما حصل في أيام القاضي ابن الطراوة[4] حيث خرج الناس للاستسقاء، فقال:

خرجوا ليستسقوا وقد نشأت
بحرية يبدو لها رشحُ
حتى إذا اصطفوا لدعوتهم
بدا لأعينهم بها نضح[5]

(١) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٩٠).

(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١٢٢).

(٣) ابن فركون: ديوان ابن فركون، (ص٢١٠).

(٤) سليمان أبو الحسن الفقيه: كان إماماً في العربية وغيرها من العلوم. انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٤٣).

(٥) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص٣٤٤)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٢٤٦).

وعلى العكس مما سبق، فوقوع مدينة مالقة في منطقة حوض البحر المتوسط جعلها تشهد ظروفاً مناخية تؤدي إلى سقوط الأمطار بغزارة تسيل على إثرها الأودية والشعاب فتخضر الأرض وتتفتح الأزهار، وتنبت الأعشاب - مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾[(١)] - ومن ذلك ما وقع في عام (٨١٥هـ/١٤١٢م) حيث استرسلت الأمطار في السقوط بعد قحط أصاب مالقة، فقال الشاعر:

فأشرقت أوجه البشرى بناشئة
من الغمام قد انهلت مدامعها
حيا الحيا وجفون الزهر نائمة
والآن لا يألف الإغفاء هاجعها
لله ناظرة منها وناظرة
تنبّهت بعدما أغفت هواجعها[(٢)]

غير أنه قد تسقط الأمطار بكميات غزيرة، فيهلك الحرث، وتتضرر الممتلكات، وبالتالي يتعطل النظام الزراعي. وكان لوادي مالقة أثر في ذلك بعض الأحايين[(٣)] حيث يذكر أن سيلاً كبيراً دخل رياض أمير مالقة، فألحق بها الضرر، فقال الشاعر يصفه:

عذراً لواد أمَّ قصد مقامكم
كدراً وحسن الزور في تكديره
عجلان محمر الأديم كأنما
غلب الحياء عليه عند خطوره[(٤)]

(١) سورة الزمر، آية رقم (٢١).

(٢) ابن فركون: ديوان ابن فركون، (ص٢١٠).

(٣) G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo 2, p. 464.

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٩٢).

٢- الحيوانات:

كان الفلاح المالقي يستفيد من الدواب في حرث الأراضي لغرض الزراعة واستخراج المياه من مصادرها، وفي نقل المحاصيل من المزارع إلى الأسواق[١]، ولكنها في الوقت ذاته كانت تشكل خطراً على ثروته الزراعية في مواسم الأمطار وأيام الربيع إذا هاجمت المزارع والقرى في الليل، أو في وضح النهار، مثلها مثل بعض الطيور التي كانت تأكل المحاصيل فتسبب الخسائر للمزارعين، وتفسد عليهم زروعاتهم كالطائر المسمى (طير العصير) الذي كان يأكل التين في مالقة[٢].

٣- الأوبئة الفتاكة:

عادة ما يصاحب حصار المدن النهب والسلب وتفشي الأمراض والمجاعة التي تلحق الضرر بالثروة الزراعية كمّاً وكيفاً[٣]، وكان من أكثر الأمراض المستعصية المعدية التي حذرنا النبي محمد ﷺ منها وأصابت مالقة مرض الجذام. وفيه قيل: «وكيف لا يتعلق الذام ببلد يكثر به الجذام، محلة بلواة آهلة والنفوس بمعرة عداوه جاهلة»[٤]. أما وباء الطاعون، فهو من أشهر الأوبئة التي اجتاحت منطقة مالقة وغيرها من بلاد الأندلس في عام (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)[٥] وقد ترك بصماته السيئة على ممتلكات الشعب المالقي بما فيها مزارعهم وبساتينهم، حيث هلك الناس وفر الكثير من أهالي المنطقة. أما من بقي منهم، فظل يبكي حزنه وأساه، وبالتالي تدهورت الثروة الزراعية[٦].

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٤١، ٤٩، ٨٣).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٧٩

(٣) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٧).

(٤) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣).

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٩٤).

(٦) ابن الخطيب: الوصول لحفظ الصحة في الفصول، نشر الخطابي، مجلة الأكاديمية، (ص١٤٠)، معيار الاختيار، (ص٥٣).

وعن تلك الحالة يصور لنا المؤرخ النباهي أعداد ضحايا ذلك الطاعون الأسود في إحصائية يشير فيها بقوله: «انتهى عدد الأموات في تلك الملحمة الوبائية بمالقة إلى ما يزيد في اليوم على الألف، بقي بعد ذلك أشهراً حتى خلت الدور، وعمرت القبور، وخرج كثير من الزعماء والفقهاء والفضلاء»[١].

٤- الحصار الحربي:

تعرضت مدينة مالقة خلال تاريخها الإسلامي لشتى أنواع الحصار البري والبحري، الذي خلف وراءه أسوأ الأثر على حياة المجتمع المالقي، وخاصة من الناحية الاقتصادية، ومن ذلك حصار جيوش بني أمية لمالقة أيام ثورة ابن حفصون[٢]، وحصار حسن بن يحيى الحمودي في عام (٤٣١هـ/ ١٠٤٠م) عن طريق البحر[٣]، وحصار ابن عباد البري والبحري في زمن الطوائف[٤]، وحصار السلطان محمد الفقيه النصري في عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م)[٥]، وغيرها الكثير. وبالتالي شلَّت حركة التجارة والصناعة والزراعة، وتعرضت الممتلكات للنهب والإحراق والتدمير، وأنواع العدوان على يد الأعداء، فتعطلت مصالح الرعية، وتوقف الإنتاج، وضعف الدخل المالي[٦].

٥-الفتن الداخلية والغارات النصرانية:

تعد مدينة مالقة من أكثر المدن الأندلسية تعرضاً للثورات والحروب[٧] التي تندلع بين الأسر المسلمة الحاكمة أو بين شعوبها وحكوماتها، سواء أكانت

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٩٤).

(٢) ابن حيان: المقتبس، جـ٥، (ص٦٥، ٨٥، ٨٦، ٨٧).

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٦)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢٨٩).

(٤) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٥٧، ٥٨)، وابن عذاري: المصدر نفسه، جـ٣، (ص٢٧٣).

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٣٨٢، ٣٨٣)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٥١).

(٦) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٧).

(٧) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣).

الثورة فردية أم جماعية، وذلك بسبب انتشار الظلم والجور، أو حب الزعامة والظهور، أو غير ذلك من الأسباب. ومن تلك الفتن الداخلية الحروب بين أمراء بني حمود في النصف الأول من القرن الخامس الهجري على ملك مالقة[1]، وحروب باديس بن حبوس الصنهاجي الذي لقي على مالقة من طول الفتن ما لم يلاقه أي سلطان[2]، ثم النزاعات بين أحفاده على ممتلكات الإرث[3] وكذلك الخلافات بين أسرة بني إشقيلولة وسلاطين بني الأحمر التي اضطرتهم إلى الاستعانة بأعدائهم النصارى[4]، إضافة إلى الثورات والتقاتل بين أسرة بني الأحمر على حكم مالقة، وخاصة في القرن التاسع الهجري[5]، وبالتالي كانت العواقب وخيمة على الحياة في مالقة بصفة عامة؛ إذ خربت الأراضي الزراعية، وأهملت شؤون الري، وأتلفت المزروعات، وانتهكت الحرمات، وانتشر الجوع، وقلّ الطعام[6]. ومثال ذلك ما حدث في عام (٧٦٣هـ/١٣٦٢م) عندما دخل السلطان محمد الخامس النصري مالقة على إثر تمرّد قريبه محمد بن إسماعيل النصري عليه، فلم يجد «بها نغبة ماء ولا سد جوعة ولا حبة غلفة، ولو قصدها الطاغية لم تصابره يومين مضيعة وخذلاناً

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٧، ٢٠٨)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢٩١)، والمراكشي: المعجب، (ص٥٠).

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٤٣، ٥٨)، وابن عذاري: المصدر نفسه، جـ٣، (ص٢٧٣)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس،(ص١٢١)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١،(ص٤٣٥).

(٣) الأمير عبدالله: المصدر نفسه، (ص٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٨٧، ٢٨٨، ٣٨٢، ٣٨٣).

(٥) ابن الخطيب: المصدر نفسه، (ص٣٠٨، ٣٠٩)، الإحاطة، مج١، (ص٣٨٥)، مج٤، (ص٢٤٣)، نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١١٨) وما بعدها، وابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص٣٠، ٣١، ١٨٥، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢١٠).

(٦) ابن الأبار: التكملة، جـ٢، (ص٥٦٢)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٢١)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٩٤).

وفشلاً»[١]، كما فر الكثير من أهالي البلاد وقُتل الآخرون، وفرضت المغارم والمطالب على الباقين لحاجة الدولة إلى المال بحجة القضاء على الفتن والثورات[٢] كثورة القاضي ابن حسون وثورة ابن زنون التي كانت سبباً في هلاكهما على أبشع صورة[٣].

ولما كانت الضرائب من مصادر الدخل التي لم يرد لها شرح في الكتاب والسنة وكان يقرّها الوالي أو السلطان على السكان في حالة الضعف أو الضرورة أو الحاجة واضطراب الواقع[٤] فإن زيادتها على مزارعي مالقة الذين كانوا يعتمدون في زراعتهم على العنب والتين وغيرهما أدى إلى تركهم الضياع وإهمال المزارع وتلف المحاصيل، خاصة وأن ضريبة العنب كانت مرتفعة في مالقة على وجه الخصوص[٥].

كما أدت زيادة الضرائب إلى كثرة ثورات أهل مالقة وشكاويهم؛ كالشكوى التي تقدموا بها على زمن المرابطين للسلطان علي بن يوسف في بلاد المغرب[٦] أو ثورة البربر على خليفتهم محمد المهدي في عصر ملوك الطوائف[٧] أو غير ذلك من الثورات التي وقعت في زمن سلاطين بني الأحمر[٨].

---

(١) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١٢٢).

(٢) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ط الأولى، ١٤٠٨هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ص١٦٩).

(٣) الضبي: بغية الملتمس، (ص٣٦)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٥٤، ٢٥٥).

(٤) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٦٦).

(٥) عصمت دندش: المرجع السابق، (ص١٦٩)، والطوخي: المرجع السابق، (ص٢٦٧).

(٦) مؤلف مجهول: وثائق تاريخية جديدة، (ص١٧١) وما بعدها.

(٧) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٧، ٢٠٨)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢١٧، ٢١٨).

(٨) ابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص٣٠٩، ٣١٠)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص١٢٣).

أما عن الغارات التي شنها النصارى على جهات مالقة، فلم تكن أقل خطراً من الفتن والثورات الداخلية بين المسلمين في تلك الجهات، وذلك لما خلَّفته من آثار سيئة على الحياة الاقتصادية في مالقة، حيث خُرِّبت الأملاك والضياع، وأحرقت المزروعات، وانتهبت الغلات؛ كالعنب والزيتون والتوت واللوز والتين، وانتشرت الأمراض والمجاعات، وشح الإنتاج، وتدهور ميدان الزراعة بشكل عام، وفي مثل تلك الأحوال المضطربة كانت تكثر أعمال النهب والسطو والسلب(١).

ونذكر من تلك الغارات الصليبية - على سبيل المثال - حملة ألفونسو الأول ملك أرغون على أراضي مالقة وغيرها من أراضي المسلمين التي عاث فيها دماراً وتخريباً على زمن المرابطين(٢).

وفي زمن الموحدين شن ألفونسو الثامن غاراته التخريبية المدمرة على جهة مالقة وغرناطة مما أدى إلى حدوث المجاعة والغلاء(٣).

أما عن حملات النصارى على مالقة في زمن مملكة غرناطة، فقد توالت بشكل مكثف، ركّز فيها النصارى على ضرب موارد الاقتصاد الإسلامي من زراعة وغيرها كهدف استراتيجي تبنته السياسة النصرانية للقضاء على السيادة الإسلامية في الأندلس. فيذكر أنه في أوائل عام (٨١٣هـ/ ١٤١٠م) شنت الجيوش النصرانية هجماتها على أراضي مالقة، وخلفت وراءها آلاف

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٩٣)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٣١١)، وابن عاصم: المصدر نفسه، جـ١، (ص١٧، ١٨، ٣٠٠، ٣٠١)، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٢، ٩٣، ٩٤)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٩٥).

G. Robles : Malaga Musulmana , Tomo2, p. 463

(٢) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، (ص٩١) وما بعدها، وابن الخطيب: المصدر نفسه، مج١ (ص١١٢).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، (ص١٤٥، ١٤٦)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج٦، (ص٣٢٤).

القتلى والجرحى والجوعى والمرضى من المسلمين، وسرقت محصول الزيتون مع غيره من المحاصيل(١).

وفي القرن التاسع الهجري - أواخر أيام مملكة غرناطة - لم يتوقف النصارى عن غزو أراضي مالقة واجتياحها؛ ففي عهد السلطان الأيسر قام النصارى بعدة هجمات بربرية ألحقت الضرر بالمسلمين وممتلكاتهم.

وفي المدة ما بين عامي (٨٦٠-٨٩٠هـ/ ١٤٥٦-١٤٨٥م) اجتاح النصارى أراضي مالقة عدة مرات، فأحرقوا مزارعها، وأتلفوا محاصيلها، وأفسدوا أراضيها(٢).

أما أكبر ضياع وهلاك شهدته مالقة، فقد كان في عام السقوط (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م) عندما حاصرها النصارى من البر والبحر ومعهم أنواع الأسلحة الفتاكة، حيث دُمرت مساحات واسعة من الأراضي الزراعية؛ كمزارع القمح والكروم والبساتين، كما أُحرقت الأشجار والشجيرات من الزيتون واللوز والنخيل وغيرها في الضواحي، وتوقفت الحياة الزراعية بكاملها، بالإضافة إلى تفشي المرض والجوع في المدينة حتى أكل الناس الحيوانات وأوراق الشجر، وذهب الآلاف من الضحايا المسلمين قتلاً وتشريداً(٣) مثلما ذهب الحكم الإسلامي وزال عن تلك الربوع.

علماء النبات وأثرهم على الزراعة:

عكف علماء مالقة على دراسة وبحث علم النبات والزرع - كسائر علومهم

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ٤، ق١، (ص١٦٦) وما بعدها، والتنبكي: نيل الابتهاج، (ص٤٨٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع(٤)، (ص١٥٣)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٩٧).

(٢) ابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص١٧، ٣٠٢، ٣٠٩، ٣١٠)، جـ٢، (ص٦٥، ٧٧، ٢٨٣، ٢٨٦).

(٣) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٣، ٩٤)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥٢٠، ٥٢١)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٢٠) وما بعدها، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣١).

الأخرى - من منطلق دينهم الإسلامي وواجبهم الوطني تجاه بلادهم، فترجموا الكتب القديمة، وألفوا الكتب العلمية، وأجروا التجارب التطبيقية التي ساهمت كثيراً في تطور الزراعة وانتشارها على مدى واسع(١).

وأبرز مثال على ذلك: العالم اللغوي أبو عبدالله محمد بن معمر، المعروف بابن أخت غانم(٢)، وكان من أعيان مدينة مالقة الذين كان لهم مشاركة واسعة في علم الفلاحة؛ حيث شرح كتاب (النبات) لمؤلفه الدينوري في ستين مجلداً(٣) مما كان له عظيم الفائدة في خدمة ميدان الزراعة بالأندلس.

أهم المحاصيل الزراعية:

عرف أهل مالقة زراعة وغراسة العديد من الخضر والحبوب والبقول والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة التي كانت تثمر في منطقة الساحل قبل المناطق الداخلية في الأندلس بسبب المناخ(٤)، ومن ذلك:

(١) الحبوب:

تعد تربة مالقة اللينة الرطبة والأراضي التابعة لها - كسهيل وبلّش وقرطمة وذكوان - من أصلح المناطق الزراعة الحبوب - في الأندلس - كالأرز والشعير والفول والقمح والشنتيه والذرة، التي يرجّح أن زراعتها جاءت في وقت متأخر من وصول الإسلام إلى الأندلس(٥)، أما محصول الأرز، فأصله

---

(١) أحمد السايح: المسلمون والزراعة، مجلة الخفجي، عَ (١)، س (٨)، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، الكويت، (ص١٠، ١١)، وعادل محمد: علم النبات في الأندلس، مجلة المورد، عَ (٢)، مج١٧، ١٩٨٨م، وزارة الثقافة والإعلام. بغداد، (ص٨٧) وما بعدها.

(٢) غانم بن وليد المخزومي خال ابن معمر وله نسب لشهرة ذكره وعلو قدره. انظر المقري: نفح الطيب، مج ٣، (ص٣٩٧).

(٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٣٣)، والمقري: المصدر السابق، مج٣، (ص٣٩٧).

(٤) ابن الشباط: قطعة في وصف الأندلس، (ص١٠١)، وطافور: رحلة طافور، (ص٩)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٥) ابن بصال: الفلاحة، (ص١١٠)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٦، ٣٧، ٤١، ٦٧)،=

شرقي من بلاد مصر، جلبه المسلمون إلى الأندلس وزرعوه أيام استقرارهم عقب الفتح الإسلامي، ويبدو أن زراعته كانت تكثر في وادي مالقة، لذا أطلق عليه مسمى وادي الأرز[١].

وكان وقت زراعة الحبوب وحصادها في مالقة يختلف من محصول إلى آخر، وقد تتفق؛ فمثلاً القمح والشعير والفول كانت تحصد في شهر مايو[٢].

(٢) البقول:

تزرع كثير من البقول في أرض مالقة؛ كالثوم واللفت[٣] والخس[٤] والجرجير[٥]، ولهذه المحاصيل أنواع متعددة يستفيد منها الإنسان في طعامه ومعالجة أمراضه[٦].

(٣) الجوز واللوز:

اشتهرت منطقة مالقة بزراعة أشجار الجوز واللوز في جبالها وتربتها اللينة الرخوة[٧]، وكانت فاكهة اللوز طويلة الشكل حسنة المنظر ليس لها نظير

= وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص١٢٧)، المصدر نفسه، (ص٥١، ٥٣، ٥٤).

(١) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٢١)، وحسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، جـ١، (ص١٢).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، (ص١٩٨)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١١٨) وما بعدها.

(٣) اللفت: يعرف كذلك باسم الشلجم. انظر ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مجلدان، ط (١)، ١٤١٢هـ، دار الكتب العلمية. بيروت، مج١، (ص٨٩).

(٤) الخس: يعد الخس من أجود البقول غذاءً وشفاءً لكثير من العلل. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص٣٢٧).

(٥) الجرجير: يسمى بقلة عائشة، وينقسم صنفين: بري وبستاني. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص٢١٩).

(٦) ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص٢٠٧، ٢١٩، ٣٢٦)، وابن بصال: الفلاحة، (ص١٤١، ١٥٨، ١٥٩)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٤٧، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٩).

(٧) ابن بصال: المصدر نفسه، (ص٧٢)، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٢)=

في الأرض، وهي تعد من أفضل الفواكه الجافة بمالقة[1].

وفي وصف غصن شجرة لوز قال الشاعر:

وزنجـي ألـــــم بـنَـوّر لـوز
وفي كــاســاتنــا بنت الكروم
فـقـال فـتى من الفـتـيان صـفـه
فـقلت الليل أقـبل بالنـجـوم[2]

(٤) قصب السكر والموز:

كانت مالقة من أهم مراكز إنتاج السكر وتصنيعه في العصر الإسلامي[3]، وقد راجت زراعة قصبه مع الموز كمنتوجات استوائية في سهول مالقة الساحلية وشمجيلة[4] وغيرها من مناطق سواحل الأندلس الواقعة تحت تأثير المناخ الدافئ[5]، والصواب في كلمة موز (مُزّ) وهو من جنس الشجر الخوار، ورقه من الباطن أخضر ومن الخارج أشد خضرة، وله ساق كساق النخلة، وهو

= وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٢)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣، ٥٤)، والحميري: الروض المعطار، (ص٢٤)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣١)، ومحمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧٠م، مدريد، مج١٥، (ص١٠٦).

(١) الزهري: الجغرافية، الهامش، (ص٩٣)، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص١٢٣)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩).

(٢) ابن غالب: ديوان الرصافي، (ص١٢٦).

(٣) الحميري: الروض المعطار، (ص٢٤).

(٤) شمجيلة أو شمجلة: مدينة تتبع مالقة تقع على مقربة من البحر المتوسط. انظر ابن غالب: المصدر السابق، (ص٢٩٥).

(٥) الحموي: معجم البلدان، مج٣، (ص٣٦١)، والمقري: نفح الطيب، جـ١، (ص١٣٧، ٢٠٠)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٤، ٥٥)، والحميري: المصدر السابق، (ص٢٤)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢، ١٢٠).

كثير بمالقة، ويستغرق من حين نشوئه إلى حين إثماره ستين يوماً[1]. وفي وصفه يقول الشاعر:

ثلاثة أغـلاف على جسـد رطب

مخالفة الألوان من صنعة الرب[2]

واليوم تطورت تلك المنتوجات إلى زراعة المانجو والقشدة الخضراء وغيرها[3].

(٥) الرمان:

ورد ذكر الرمان في عدة آيات من القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4]، وكانت زراعته تجود في تربة مالقة الرملية اللينة[5] وله عدة أنواع أشهرها:

أ- الرمان المرسي الياقوتي: وكان نادر الوجود[6]، قال فيه ابن الخطيب: «وكفى برمانها حقاق ياقوت وأمير قوت وزائر غير ممقوت»[7]. وقال آخر «ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا»[8].

ب- الرمان السفري: وينسب إلى سفر بن عبيد الكلاعي[9]، وكان موطنه الأصلي بلاد الشام، فجلبه إلى الأندلس الأمير عبدالرحمن الداخل، وأعطى

(١) الإشبيلي: عمدة الطبيب في معرفة النبات لكل لبيب، تحقيق محمد الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ق١، (ص٤٩٨).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٠٨).

(٣) العبادي: الزراعة في الأندلس، الندوة، (ص١١٦).

(٤) سورة الأنعام، آية رقم (٩٩).

(٥) ابن بصال: الفلاحة، (ص٦٢).

(٦) ابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٢).

(٧) انظر: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٨) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٦٨٢.

(٩) سبق التعريف به في أول الفصل.

جزءاً منه سفر بن عبيد، فأُعجب به وغرسه في مدينة مالقة، فأثمر وأينع، ثم تكاثر في بلاد الأندلس، وكان أفضل رمان الأندلس متقدماً على أجناسه بعذوبة الطعم ورقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة[١]، وقد أثنى عليه ابن سعيد عند ذكره لفواكه الأندلس[٢]. وفيه قال الشاعر:

ولابسة صدفًا أحمر
أتتك وقد ملئت جوهرا
كأنك فاتح حُقٍّ لطيف
تضمن مرجانَه الأحمرا
حبوباً كمثل لثات الحبيب
رُضاباً إذا شئت أو منظرا
وللسَّفْر تُعزى وما سافرت
فتشكو النوى أو تقاسي السُّرى[٣]

(٦) الزيتون:

يعد الزيتون من الأغذية الأساسية اليومية في حياة الأندلسيين. لهذا انتشرت زراعته في أكثر بلاد الأندلس، وخاصة في منطقة مالقة. وقد دخل اسمه العربي في اللغة الأسبانية في صيغة (Aceitunas) واسم زيته في صيغة (Aceite) وإن كان شجره ظل محتفظاً باسمه الروماني القديم (Olive)[٤].

وللزيتون استخدامات كثيرة وأهمية كبيرة في الحياة، نستنبطها من ورود

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٥٠)، والمقري: نفح الطيب، مج ١، (ص٤٦٧).

(٢) المقري: المصدر نفسه، مج١، (ص٢٠٠).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص٣٥١)، والمقري: المصدر السابق، مج١، (ص٤٦٨).

(٤) الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر، (ص٢٤٤)، والزهري: الجغرافية، (ص١٢٨، ١٢٩)، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٢)، والعبادي: الزراعة في الأندلس، الندوة، (ص١١٦).

ذكره في القرآن الكريم[١]، واكتشاف معاصر زيته في هضبة مالقة بجوار بعض الحجرات في القرن العشرين[٢].

ولما كان الزيتون من المحاصيل الرئيسية في مالقة، فإن الأهالي كانوا يحتفلون بعيد عصره أثناء إقامتهم في المزارع والحقول لجمعه[٣].

(٧) التين:

اختصت مدينة مالقة بين سائر مدن الأندلس بالتين المنسوب إليها - التين المالقي - وهو من أحسن التين طيباً وعذوبة[٤]، وقد أقسم به المولى عز وجل في سورة كاملة أنزلها باسمه في القرآن الكريم: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[٥]، ويقول الشاعر مصداقاً لذلك:

ومنبت ما قد أقسم الله باسمه

وسورته في الذكر تتلى وتُسرد[٦]

وفي وصفه قيل: «هو من أحسن التين لوناً وأكبره جرماً، وأنعمه شحماً، وأحلاه طعماً»[٧]، ويعد التين من الفواكه الرئيسة بمالقة، وأفضلها بين أنواعه في بلاد العالم، حتى غدا مضرب المثل في الحسن والطيب[٨]، شهد بذلك

(١) سورة عبس، آية رقم (٢٩)، سورة التين، آية رقم (١).

(٢) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٢).

(٣) كمال السيد: المرجع نفسه، (ص٨٥).

(٤) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٤)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨).

(٥) سورة التين، آية رقم (١).

(٦) القيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٣٨٧)، وابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، (ص١٣٩).

(٧) محمود مقديش: نزهة الأنظار، مج١، (ص١٦٢).

(٨) الإدريسي: المصدر السابق، مج٢، (ص٥٧٠)، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٣)، والمقري: نفح الطيب، مج ١، (ص١٥١).

شعراء الأندلس، كابن سعيد أثناء مدحه فواكها، وشعراء بغداد ومالقة[1] كقول الشاعر في مدحه:

مـــالقـــة حـــيـــيـــت يا تينهـــا
الفـــلـك من أجلـك يـاتيـنـهـــا
نهى طبـيـــبـي عنـــك في علتي
مـا لطبـيـبـي عن حـيـاتي نهى[2]

وكان يقام في أيام جني ثمار التين بحقول مالقة ومزارعها عيد يحتفل به أهلها ويشربون عصيره وسط جو من الفرح والمرح[3]، وكما كان يدخل تين مالقة في بعض أنواع الأدوية والمنافع، فإنه دخل في تركيب الخمرة المحرمة التي اشتهرت بها مالقة حتى سار يضرب المثل بالشراب المالقي[4].

وكان شجر التين يزرع بكثرة في مالقة والمناطق التابعة لها؛ كسهيل وبلّش وقمارش وبزليانة وغيرها، ثم يحصد ثمره في فصل الصيف، وكان يتعب الجماعة الكثيرة في جمعه، وبلغ من كثرته أن الطريق الساحلي من سهيل إلى بلش - وهو قدر ثلاثة أيام - كان كله مزروعاً بأشجار التين القريبة من الأرض حتى ليجني جميعها الطفل الصغير[5].

---

(١) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٠٠)، وأوليفيا كريستمبل: التجارة والتجار في الأندلس، تعريب عبدالله فيصل، ط١، ١٤٢٣هـ، مكتبة العبيكان. الرياض، (ص٢٥٧).

(٢) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٩)، والمقري: المصدر السابق، مج١، (ص١٥١).

(٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٣)، والعبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، (ص١٤٠).

(٤) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن سعيد: المصدر السابق، جـ١، (ص٤٢٣، ٤٢٤).

(٥) الأنصاري: نخبة الدهر، (ص٢٤٤)، والشقندي: المصدر نفسه، (ص٥٧)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٨)، والمقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص٤١)، نفح الطيب، مج٤، (ص٢٠٥)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٩٦).

وتين بلش هو الذي فيه قيل لبربري: كيف رأيته ؟ فقال: لا تسألني عنه وصب في حلقي بالقفة[1].

أما مالقة نفسها، فقد حف بها التين من جميع الجهات ما لا يوجد مثله في أرض، حتى إنه ليزرع في الجبال والمنازل[2]، وقيل: «إنه ليس في الدنيا مدينة عظيمة يحيط بها سور من حلاوة عرض السور يوم للمسافر إلا مالقة، يعني أن شجر تينها الشبيه بالحلاوة يحيط بها إحاطة السور[3]، ولكثرة التين في مالقة أطلق على أحد أرباضها الكبيرة ربض التيانين نسبة إليه[4]. وكان في العصور الوسطى يباع في العديد من الأسواق الخارجية - التي ربما لا يصلها اليوم - كسلعة نادرة ثمينة اشتهرت على مستوى العالم بين طبقة الأغنياء المنعّمين لعقود عديدة[5].

(٨) الأعناب (الكروم):

كانت أشجار العنب تُغرس في أغلب جهات بلاد الأندلس، وغطت مزارعه في مالقة مساحات شاسعة من أراضيها وسهولها وجبالها، وبلغت من الكثرة أنك لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع عابر، مما أضفى على مالقة الحسن والجمال[6].

---

(١) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٤).

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٧٠)، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٣)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٨٠)، مثلى الطريقة في ذم الوثيقة من كتاب قضايا ثقافية من تاريخ المغرب الإسلامي، تقديم عبدالمجيد تركي، ١٤٠٩هـ، دار الغرب الإسلامي. بيروت (ص٣٣٤)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨).

(٣) محمود مقديش: نزهة الأنظار، مج١، (ص١٦٢).

(٤) محمود مقديش: المصدر نفسه، الهامش، (ص١٦٢)، وشكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ١، (ص١٢٣)، وتورس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٧٣).

(٥) G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2, p. 466

(٦) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٧١،=

وظلت تلك المزارع تنتج أنواعاً مختلفة من العنب الذي ليس له مثيل في الدنيا كما قيل[1].

ويعد العنب الفاكهة الرئيسة الأولى في مالقة، وكان أهلها يحتفلون بعيد عصره خلال إقامتهم بالمباني الريفية في الحقول والبساتين أيام جنيهم له[2].

وقد وردت عدة آيات في القرآن الكريم تشير إلى أهمية هذا المحصول وفائدته، كقوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾[4]. وعلى الرغم من ذلك، فإن أهل مالقة ما زالوا إلى اليوم يستخدمونه في تصنيع خمرتهم المفضلة التي كانت تحظى بطلب واسع عند شاربيها من أهل الأندلس وخصوصاً الشعراء أيام البهجة والسرور[5] ودليل ذلك أن الشاعر ابن السراج المالقي خرج مع أصحابه إلى البر في وقت العصير، وأقاموا عدة أيام في لهو وشرب، فقال:

رعى الله عصراً ضمَّنا في عصيره

محل وصلنا اللهو فيه لياليا

= ٥٧٣)، والحميري: الروض المعطار، (ص٣٧، ٤٤)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١، ٥٣)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣١).

(١) G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2, p. 469

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص ٩٤)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٥٠٦)، المصدر نفسه، (ص٥٣)، وابن غالب: ديوان الرصافي، (ص١٢٦)، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٣)، والعبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، (ص١٤٠).

(٣) سورة الرعد، آية رقم (٤).

(٤) سورة عبس، آية رقم (٢٨).

(٥) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، جـ١، (ص٤٢٤)، وحكمة الأوسي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الخانجي. القاهرة، (ص٦٠).

تدور علينا الراح في أريحية
من العيش لو دامت زماناً كما هيا[1]

(٩) البطيخ والتفاح:

كان يزرع في منطقة مالقة البطيخ والتفاح، ويتهاداها الأهالي إلى بعضهم البعض، وللشعراء في هاتين الثمرتين أوصاف جميلة[2]، كقول الشاعر في وصف بطيخة:

وسليلة القثاء أكسبها البها
لونين كلٌّ عند منظره حسن[3]

وقول آخر في تفاحة:

تفاحة أهديت إليه
حمراء في لون وجنتيه[4]

(١٠) الخوخ والكمثرى:

فاكهتان لهما أنواع متعددة جادت زراعتهما في أرض مالقة اللينة، وهما لذيذتا الطعم، ويتهاداها الأصحاب بعضهم بعضاً[5]، ولهم فيها أوصاف جميلة عجيبة؛ كقول الشاعر في كمثرى مهداة:

زارتك فردية ترجو عوائدها
من لثم أنملك السبط السنيات
صفر الملابس في شكل وفي أرج
كأنها مذهبيات العنبريات[6]

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٨٢).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٠١، ١٢٠)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٥، ٦٧).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص١٢٠).

(٤) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق (ص١٠١).

(٥) ابن بصال: الفلاحة، (ص٦٧، ٧٠)، وابن البيطار: الجامع، جـ٢، (ص٣٤١، ٣٤٢).

(٦) ابن الخطيب، ديوان ابن الخطيب، (ص١٧٥).

وللشاعر في وصف الخوخ:

يـا حـبـذا الخـوخ إذا مـا بدا
في الأغـصن المخـضـرة الملد
مـن ذاقـه ذاق لَـمَـى شـادن
مَـبْـسِـمُـه أحلى من الشـهـد(١)

(١١) أشجار النخيل:

كثرت زراعة أشجار النخيل بمالقة في جهة الساحل وفي داخل الأبنية المعمارية كمسجد مالقة الكبير ومسجد النخلة المسمى باسمها في حومة الدروب(٢).

وفي الزمن الحاضر غدت النخيل بمالقة غابات ضخمة جميلة تظلل شوارعها مثلما كانت أيام المسلمين(٣)، وقد نالت هذه النبتة مكانة عظيمة في الحياة - لأهميتها وفائدتها - نستخلصها من آيات عديدة في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾(٥).

والجدير بالذكر أن ثمار النخيل (التمور) تعد من المحاصيل المتكاملة التي تفيد الإنسان كطعام يعتمد عليه في حياته، ولذلك وصانا النبي ﷺ في سنته

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣١١).

(٢) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٦)، (ص٢٧٦)، والمقري: نفح الطيب، مج ١، (ص١٣٧)، وابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (ص٦٨٢، ٦٨٣)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩)، وضياء باشا: الأندلس الذاهبة، ج٣، (ص٢٧١)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢)، ومحمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص١٠٦)، والفاسي: الأعلام الجغرافية الأندلسية، (ص٨٥).

(٣) محمد عنان: الآثار الأندلسية، (ص٢٠٨، ٢٤٢)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣١).

(٤) سورة مريم، آية رقم (٢٥).

(٥) سورة الأنعام، آية رقم (٩٩).

على أكلها والحرص عليها[1].

(١٢) الليمون والأترج والنارنج (البرتقال):

يُذكر أن الأترج والنارنج والليمون من نوع واحد[2]، والأترج هو نبات طيب الرائحة ورقه مثل ورق الجوز، وتبقى ثمرته عليه طوال السنة، وتنفرد بخواص تميزها عن بقية الثمار[3]، أما النارنج ورقه أملس لين شديد الخضرة وشجره شبيه بشجر الأترج، وورده أبيض طيب الرائحة[4]، وكانت هاتان الثمرتان تزرع في أرض مالقة الرملية في داخل البساتين وفي صحون المساجد كصحن الجامع الكبير بمالقة[5]، المعروف بصحن البرتقال (Patio de Noronjos) وظل باقياً حتى عهد قريب[6].

وقد أضفت أشجار البرتقال مع أشجار الليمون - وغيرها - البهجة والحسن على مدينة مالقة[7].

وكان للشعراء في ثمار هذه الأشجار أمداح وأوصاف كثيرة؛ منها:

في جنة دالت في مقاطفها
ثمارها الدانيات تذليلا
كأن أترجها تميد بها
أغصانه بحسنٍ منه محمولاً[8]

(١) البخاري: صحيح البخاري، جـ ٥، (ص٢٠٧٤، ٢٠٧٥).

(٢) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٤٥).

(٣) ابن بصال: الفلاحة، (ص٨١)، وابن البيطار: الجامع، مج١، (ص١٣).

(٤) ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٤٧٠).

(٥) ابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٣)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩)، ومحمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص١٠٦)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٠).

(٦) كمال السيد: مالقة الإسلامية، الهامش (ص٣١).

(٧) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣١).

(٨) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٢٩). وانظر أيضاً: (٢٨٤، ٢٨٥).

وفي النارنج يقول الشاعر المالقي:

وثمار نارنج نرى أزهارها
مع ناتئ النارنج في تنضيد
فإذا نظرت إلى تآلفها أتت
كمباسم أومت للثم خدود[1]

ويقول آخر:

انظر إلى النارنج مستغرباً
فما على إغرابه من مزيدْ
ألّفَت الضدين أشجارُها
وذاك من أغرب ما في الوجودْ[2]

(١٣) الكتان:

يعد الكتان من النباتات التي زرعت في تربة مالقة الرملية الرطبة، وهي من أصلح الأراضي لزراعته، وكان يحصد في شهر مايو[3]، وفي جودته فاق كتان البلاد المصرية على حد قول الأندلسيين[4]، ومع بداية القرن الخامس الهجري أخذ يبتعد عن مواقعه الأصلية في سفوح الجبال، ويهاجر نحو السواحل الجنوبية للأندلس باتجاه مالقة وغيرها[5].

غراسة وزراعة النباتات الطبية والعطرية:

كانت النباتات الطبية والعطرية تزرع في رياض مالقة وبساتينها، وفي

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص١٨٢).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٠٧، ٣٢٨).

(٣) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٢٦).

(٤) الزهري: الجغرافيا، (ص٩٦)، والبكري: المسالك والممالك، جـ٢، (ص٣٨٤)، والحميري: الروض المعطار، (ص٢٤، ١٦٨).

(٥) لوسي بلنز: نباتات الصباغة والنسيج، ترجمة مصطفى الرقي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الجيوسي، جـ٢، (ص١٣٩٩).

صحون المنازل وحول المقابر لغرض الزينة والتجميل حتى إنه أطلق على القبر - أحياناً - مسمى الروضة[1]، كما كانت تنبت في الجبال وساحل مالقة الرملي[2] «الساحل الذي ينشرح به الصدر الحرج حيث البنفسج يدير كؤوس البهار، والياسمين نجوم طالعة بالنهار، حيث يتمازج طيب الزهر بعرف الأترج ونفحات السحر»[3]، حتى إنه لم تكن هناك مدينة مثلها تتوافر فيها الزهور الزكية[4]، وقد دخلت بعض أسماء تلك النباتات مع غيرها من المنتجات والمصطلحات الزراعية إلى اللغة الأسبانية في القرن السابع الهجري، ومثال ذلك (Alfoz الفحص، Algodong القطن، Arroz الأرز، Arrayan الريحان، Jazmin الياسمين)[5].

ولكون حُب الورود والأزهار نزعة جمالية متأصلة في نفوس المالقيين، فإنهم أخذوا في وصفها - وبقية معالم بلادهم وطبيعتها التي كانوا يعشقونها - شعراً ونثراً إلى حد بعيد؛ كقول الشاعر في الحدائق والأزهار:

حدائق بيض بالأزاهر وسطها
جداول كالأمطار وسط المهارق

---

(١) ربما يكون الغرض من غراسة الأزهار حول القبور التيمن والاقتداء بالنبي محمد ﷺ عندما مر على قبرين فأخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز على كل قبر واحدة، تخفيفاً عن أصحابها. انظر البخاري صحيح البخاري، جـ١، ص٤٨٥.

(٢) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٠، ٥١، ٥٤، ٥٧، ٦٢، ٦٦) وما بعدها، والإشبيلي: عمدة الطبيب في معرفة النبات، ق٢، (ص٤٩، ٧٠٣، ٧٤١، ٧٩٠)، وابن الأبار: الحلة السيراء، جـ٢، (ص٢٦٧)، وابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٧٥)، وعبدالعزيز سالم: العمارة المدنية بالأندلس، (ص١٢٢).

(٣) المقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص١٢٨).

(٤) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣٠).

(٥) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٠)، والعبادي: الزراعة في الأندلس، الندوة، (ص١١٩).

كـــأن علـى تلك الأباطح جُــرِّدت

صـــوارم لما خــيف مـن كل طـارق[١]

ويقول آخر في وصف روضة:

أيا روضـــة تبـــدي النجــوم أزاهـراً

وتخـتال في ثوب من الحـسن رائق[٢]

ويقـول آخـر في روضـة ورد قـد خـرج إليـهـا في زمـان طلوع الـورد ونموه وتكاثره في أغصـانه أيام الربيع مع أصحـابه، وأقـام فيـها بغـرض الفـسحـة والتنـزه والماء يجري من حولهم والطيور تغرد:

أمـــا ترى الـزهر كـــيف جـــاد لنا

بيــــوم أنـس ســـاعـــاتـــه جُـــددُ

ورد جــنـــى وروضـــــــة تـــركـــت

بـوفــــــرهـا والميــــاه تـطـردُ[٣]

ويقـول آخـر للشـاعـر بن كسـرى[٤] المولع بـالزهـر عندمـا سـيق إليـه في إحـدى المرات، وكـان من عـادة أهل مـالقـة تبـادل الـزهـور والـورود وإهـداؤهـا بعضهم بعضاً:

يا مـــغـــرمـــاً بـالـزهـر زهـر جـلالـكم

أربـى عـلـى زهــر الـريــاض وزادا[٥]

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٨٩).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص١٦٦).

(٣) ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٧٦).

(٤) أبو علي بن كسرى: أحد كتاب مالقة وأدبائها البارزين. انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٥٣، ٣٧٧).

(٥) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص٢٣٨).

أما البهار[١] فقد قال فيه الكتندي[٢] المولع به:

وحـــــقـكـم إنـــــه بـهـــــار
يوجب أن تـصـــبـح الـعـــقـــار

فخاطبه ابن كسرى، وكتب له:

يا مـــولعـــاً بـالبـــهـــار زرنـا
فـــروضنا زاره الـبـــهـــار[٣]

ويضيف ابن الخطيب، فيقول عن مالقة: «فمن ادعى أنه ليس في الأرض مدينة أنضر منها جناباً، ولا أغزر منها غروساً وأعناباً وآرج أزهاراً، ولا أضوأ نهاراً لم تكذب دعواه، ولا أزرى به هواه»[٤]. وفي موضع آخر يقول عنها: «ونشقت وردها الأرج وزهرها»[٥].

ومن أمثلة النباتات الطيبة والعطرية في مالقة: الآلاس[٦]، والسوسن[٧]،

(١) البهار: يسمى النرجس. وهو نبات له ساق وزهر أبيض ويعرفه البعض باسم الأقحوان الأصفر. انظر الإشبيلي: البديع في وصف الربيع، تحقيق عبدالله عسيلان، ١٤٠٧، ط الأولى، دار المدني. جدة، (ص٩٩)، وابن البيطار: الجامع، مج١، (ص١٦٥).

(٢) محمد بن عبدالرحمن الكتندي، يكنى أبا بكر من أهل غرناطة، وسكن مالقة مدة وكان من أهل الأدب البارع والنظم الفائق. انظر ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص١٠٦).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٠٨).

(٤) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).

(٥) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٦) الآلاس (الريحان): كثير في أرض العرب بالسهل والجبل، خضرته دائمة، ويسمو حتى يكون شجراً عظيماً، وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة، وثمرة سوداء تسمى القنطس. انظر ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٣٧).

(٧) السوسن: ويقال له: السوسان، يتكون من عدة أصناف؛ فمنه ما يغرس في البستان، ومنه ما ينبت في البر، وجميعه له زهر. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٥٦، ٥٧)، والإشبيلي: البديع في وصف الربيع، (ص١٣٢).

والياسمين[1]، والنرجس[2]، والورد[3]، والبنفسج[4]، وإكليل الجبل[5]، والحناء[6]، والقرتمن، ويعرف في مالقة بقرن الأيل[7]، والناردين الجبلي[8]، والسنبل[9]، والغاسول الشيحي[10]، والزنجبيل الإفرنجي[11]،

---

(١) الياسمين: نبات له عصي طوال لها ساق وله نور أبيض طيب الرائحة، ويكون منه أصفر. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج٢، (ص٥٠٩).

(٢) النرجس: نبات له ورق وساق جوفاء، عليها زهر أبيض وثمرته سوداء وينبت في المواضع الجبلية، وهو طيب الرائحة. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٤٧٦).

(٣) الورد: له أصناف كثيرة، وهو نور كل شجر وزهر كل نبتة، وأصله فارسي وهو كثير في أرض العرب. انظر: الخطابي: تنقيح الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ط (١)، ١٩٩٠م، دار الغرب الإسلامي. بيروت (ص٣١٦).

(٤) البنفسج: نبات له ورق أصغر من ورق نبات القسوس وأدق منه واشد سواداً. وله ساق على طرفه زهر طيب الرائحة، وينبت في المواضع الظليلة الحسنة. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج١، (ص١٥٦).

(٥) إكليل الجبل: نبات مشهور في بلاد الأندلس يكون في الجبال وغيرها، ورقه طويل رقيق ولونه أسود وله ثمر صلب. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج١، (ص٧٠، ٧٩).

(٦) الحناء: شجرة كبار مثل شجر السدر، وله فاغية - وهي نوره وبزره - في عناقيد متراصفة، وورق شجره شبيه بورق شجر الزيتون، غير أنه أعرض وألين وأشد خضرة، وله زهر أبيض طيب الرائحة. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج١، (ص٣٠١).

(٧) القرتمن: هو نبات طوله نحو ذراع ينبت فيما بين الصخور في سواحل البحر وورقه أبيض حسن وله زهر أبيض وثمر رخو طيب الرائحة، ومنه عدة أصناف. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج٢، (ص٢٤٩).

(٨) الناردين الجبلي: هو نوع من أنواع السنبل يسمى ناردين أوري. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٤٧٠).

(٩) السنبل: ينقسم ثلاثة أصناف: هندي، وورومي، وجبلي. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٤٨).

(١٠) الغاسول: نبات ينبت في سواحل الأندلس، وورقه مثل ورق شجرة السعوط إلى البياض أقرب. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٢١).

(١١) الزنجبيل الأفرنجي: أصول تدب تحت الأرض، وهي طيبة الطعم والرائحة. انظر الإشبيلي: عمدة الطبيب، (ص٣٥٩).

والعنبر[١]، والمسك[٢]، والزعفران[٣]، والكركم الصغير[٤]، والأفسنتين[٥]، والإذخر[٦]، والخشخاش المقرن[٧]، والسورنجان[٨]، والشقاقل الجبلي[٩]، والعصفر[١٠].

(١) العنبر: مختلف في أصله، فيقال إنه روث دابة بحرية، وقيل: هو نبع عين في البحر، وقيل غير ذلك، ويرجح الباحثون أنه مادة صمغية تستخرج من أشجار قاع البحر ويقذفها الموج إلى الشاطئ. انظر ابن البيطار: الجامع، مج٢، (ص١٨٣)، والمقري: نفح الطيب، مج ١، (ص١٩٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، الهامش، (ص٢٢٣).

(٢) المسك: طيب يستخرج من غزلان الظباء. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج٢، (ص٤٤٤).

(٣) الزعفران: أصل من أصول الطيب الخمسة في أرض الأندلس، وله عدة أسماء؛ منها الكركم، ويدخل في الصباغة والطب. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج١، (ص٤٦٧)، والمقري: المصدر السابق، مج١، (ص١٤٤، ١٩٩).

(٤) الكركم الصغير: هو الماميران، نبات دقيق له أغصان مربعة، وأصله ذو شعب كثيرة، وقيل: هو حشيشة لها ساق ذو أغصان عليها ورق وله زهر أصفر. انظر الإشبيلي: عمدة الطبيب، (ص٤٠٨).

(٥) الأفسنتين: نبات له ورق عريض شديد الخضرة، منابته ساحل البحر في الرمال ما بين مالقة وبزليانه. انظر الإشبيلي: المصدر السابق، (ص٧٠٣).

(٦) الإذخر: منه نوع ينبت في مالقة، وهو من جنس الديس، أصفر وأحمر وأغبر يشبه الأسل في شكله. انظر الإشبيلي: المصدر نفسه، (ص٤٠٩).

(٧) الخشخاش المقرن: نبات له علف (قرون) وهو النوع الوحيد الذي له قرون كقرون اللوبيا، وله زهر أصفر وثمر صغار، وهو يشبه نبات الماميثا البرية، وهو كثير بساحل مالقة، ينبت في الرمل على مقربة من البحر. انظر الإشبيلي: المصدر نفسه، (ص٧٩٠).

(٨) السورنجان: نبات من جنس السيوف من نوع البصل، وفي ورقه وأصله كنبات البلبوس عليه قشر أحمر وداخله أبيض تقوم من وسطه ساق عليها زهر أبيض ومنابته الجبال الباردة في منطقة مالقة وما حولها. انظر الإشبيلي: المصدر نفسه، (ص٧٤١، ٧٤٢).

(٩) الشقاقل الجبلي: هو القرصعنة. ومن الشقاقل نوع آخر في كل ورقة منه حبة حمراء ملزقة بالورق، وأصله في غلظ إبهام الرجل، وهو موجود في مالقة والجزيرة الخضراء. انظر الإشبيلي: المصدر نفسه، (ص٧٨٧).

(١٠) العصفر: نبات تجود زراعته في التربة الرطبة ذات الهواء المعتدل، ويدخل في الصباغة،=

ومما لا شك فيه أن تلك النباتات المفيدة لقيت عناية كثير من العلماء الذين كرسوا جزءاً كبيراً من حياتهم في دراسة أعشاب مالقة ونباتاتها العلاجية حتى ينالوا هدفهم لمداواة المرضى وتقويم غذاء الإنسان وصحته، ومن أمثال هؤلاء العلماء: العالم أحمد بن محمد المالقي[1]، والعالم علي بن أحمد الغساني[2].

نظام تخزين المحاصيل:

بعد جمع المحاصيل على يد الزراع تدرس ثم تنقل إلى المطامير أو الأهراء (المخازن) كي لا تتعرض إلى الفساد[3]، وكان فحص (قامرة) بمالقة من أجود الأماكن لتخزين الغلات الزراعية[4]، وقد برع أهل مالقة في تخزين المحاصيل الزراعية كالحبوب والفواكه، وذلك بسبب تقدمهم في علم الفلاحة وطبيعة بلادهم الجغرافية[5]، ورغم أن طعام مالقة لا يقبل الاختزان، إلا أن سلطانها أبا سعيد فرج بن إسماعيل غصّت بيوت الأهراء بحبوبه[6] مما يدل على وجود نظام

= وله عدة أسماء، كالخريع والبهرم، وبزره هو القرطم. انظر ابن بصال: الفلاحة، (ص١١٦)، وابن البيطار: الجامع، مج٢، (ص١٧٠).

(١) أحمد بن محمد المالقي: ولد في مالقة عام (٥٦٢هـ) وكان من أشهر علماء النبات. انظر المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق١، (ص٤٧٦، ٤٧٧).

(٢) علي بن أحمد الغساني: طاف في بلاد الأندلس، ثم استقر بمالقة حتى وفاته في عام (٦٣٩هـ). انظر الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق إبراهيم شبوح، ١٣٨١هـ، مديرية إحياء التراث القديم. دمشق، (ص١٣٥)، والإشبيلي: المصدر السابق، ق٢، (ص٧٠٢، ٧٠٩).

(٣) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٦٠، ١٦١).

(٤) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٨٨، ٩١، ٣٧٠، ٣٧١)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص١٦١).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٤٢)، معيار الاختيار، (ص٥٢).

حفظ المحاصيل بمالقة، كما أثبتت الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين الميلادي عن وجود بعض المطامير المحفورة في الصخور لحفظ الغلال في هضبة مالقة، فضلاً عن العثور على خواب ضخمة لحفظ الحبوب والزيوت[1] ولا يزال الشارع المسمى بشارع (Alholi) -أي الأهراء- في مالقة هو الشارع الوحيد الذي يحتفظ باسمه العربي[2]، ذخراً لهذا النظام، وفخراً للمسلمين العرب.

أما الفواكه، فقد عرف أهل مالقة طرقاً عديدة لحفظها، وخاصة التي تصدَّر إلى مختلف بلدان العالم؛ كاللوز اليابس والزبيب الذي يمتاز بخاصية الحفظ لمدة طويلة دون أن يطرأ عليه أي تغيير[3]، إضافة إلى التين الذي يُحمل إلى بلاد الهند والصين مسافة سنة، ومع ذلك يبقى صحيحاً سليماً لا يدخل فيه السوس، ولا يطرأ عليه أي اختلاف[4] ويكون صالحاً للأكل.

الثروة الغابية والرعوية في مالقة:

تنوعت أشجار الغابات النابتة في أرض مالقة ما بين أشجار البقم[5]، والبلوط[6]، والضرو[7]، والسدر[8]، والقنب[9]،

---

(١) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٢٤).

(٢) كمال السيد: المصدر السابق، (ص٤٣).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٦٢، ٣٤٢).

(٤) محمود مقديش: نزهة الأنظار، (ص١٦١).

(٥) شجر البقم: خشب شجر عظام ورقه مثل ورق اللوز الأخضر وساقه وأفنانه حمر. انظر ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص١٤١).

(٦) البلوط: من جنس الشجر العظام، ومنه حلو ومر، وأنواعه كثيرة قد ينزل على بعضها القرمز. انظر الخطابي: تنقيح الجامع، (ص٧٦).

(٧) الضرو: مفرده (ضروة) وهو من شجر الجبال يشبه شجر البلوط إلا أنه أنعم، وأطراف ورقه تميل إلى الحمرة، وهي لينة وتثمر عناقيد مثل عناقيد البطم. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج٢، (ص١٢٤).

(٨) شجرة السدر: من هذه الشجر ما ينبت على الأنهار ولا شوك له، وهو الغبري، ومنه ما ينبت في البر ويكون شجره قريباً من الأرض وهو الضال، ونبقه صغير الحجم، وتسميه بعض العرب الدوم. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج٢، (ص٦).

(٩) القنب: أو الشهدانج، وهو نبات ينتفع به في أن يُعمل منه حبال قوية، وله ورق شبيه بورق=

والصنوبر[١]، والمقل[٢]، والدوم[٣]، والأرغيس[٤]، والحلفاء[٥]، والحور[٦]، والعرائس، وهي أشجار ذات أوراق دائمة مظللة يزرعها المسلمون المرفّهون بين الأسوار وفوق الممرات والطرق في الحقول وبين أشجار التفاح والسرو وغيرها في داخل البيوت، أما أشجار القسطل[٧] (أبو فروة) الموجودة في الجبال المجاورة لمالقة فقد كان الأهالي يستفيدون منها هي والأشجار السابقة فائدة كبيرة في أبنيتهم وصنع أثاثهم وعمل أبواب وأسقف منازلهم الثرية وغير ذلك من مختلف المجالات كالطب والصناعة والتجارة[٨].

الثروة الرعوية:

اختص الله مالقة بكثرة الخيرات وغزارة البركات ووفرة المياه وخصوبة

= الشجرة التي يقال لها أماليا، وهي شجرة الران. انظر ابن البيطار: الجامع، مج٢، (ص٩٤، ٢٠٩).

(١) الصنوبر: يعرف شجره الذكوري باسم الأرز، وهو شجرة غليظة الخشب رؤوس ورقها دقاق حادة، ويستخرج منها القطران. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج٢، (ص١١٨).

(٢) شجر المقل: نبات يستخرج منه صمغ إذا بخر به كان طيب الرائحة، وهو جنسان: صقلي وعربي. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج٢، (ص٤٥٣).

(٣) الدوم: (المقل): هو شجرة تعبل وتسمو، ولها خوص كخوص النخل يصنع منه الحصر والفرائر. انظر الخطابي: تنقيح الجامع، (ص١٦٠).

(٤) الأرغيس: نوع من الشجر كثير الشوك. انظر السقطي: في آداب الحسبة، الهامش، (ص٥٦).

(٥) الحلفاء: نبات معروف يستخدم لعلاج كثير من الأمراض. انظر ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٢٨٣).

(٦) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣٠)، الحور: نبات له العديد من الفوائد الطبية، ويستخرج منه صمغ الكهرباء. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص٢٠٤).

(٧) القسطل أو الشاهبلوط: له عدة مسميات منها سرديالا ودنوسالا. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج ١، ص ,١٥٢

(٨) ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص١٤١)، مج٢، (ص٧، ١١٧، ١١٨، ١٢٥)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٤، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦١).

الأرض والجبال[1]، فأصبحت من أهم المناطق الرعوية في الأندلس التي لا تختلف عن بقية مناطقها من حيث نوع الرعي؛ سواء كان مختلطاً بمناطق الزراعة أو رعياً شبه صحراوي[2]، وكلاهما ذو مشكلات مختلفة، فقد تعتدي الماشية على مزرعة ما وتلحق الضرر بها، أو يقوم النصارى برعي مواشيهم في أراضي المسلمين الرعوية، فيرد المسلمون عليهم بغارة حربية، مثلما حصل في جهات غرب مالقة في عام (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)[3]، ومن هنا يتضح أن مناطق رعاة المسلمين عادة ما تكون بجوار مناطق الحدود التي يسرح فيها النصارى ماشيتهم[4].

وعن أجود الأماكن في مالقة التي يتوافر فيها العشب والمرعى وتجد السائمة فيها المرتع الخصب للطعام والماء: فحص رية الشهير - ربما يكون هو فحص ذوي رعين[5]- وفيه جادت قريحة الشاعر بقوله:

مهما حثثت السير تقصد رية
فبفحص رية قبل ذلك تنزل
الماء والمرعى وجود أفيح
تندى بنفحته الصبا والشمأل[6]

كما كان سهل مالقة الفسيح وسفوح جبالها وواديها الكبير والأراضي

---

(١) ابن الخراط: اقتباس الأنوار، (ص١٤٤)، والضبي: بغية الملتمس، (ص١٥٠)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، وابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس، (ص٢٩٤).

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص١٩٨).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٨٦، ٨٧)، وابن عاصم: جنة الرضا، جـ٢، (ص٢٨٧، ٢٨٨).

(٤) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٧٨).

(٥) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، راجعه لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية. بيروت، (ص٤٣٤).

(٦) الصريحي: ديوان ابن زمرك، (ص١٠٠)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج١، (ص٤٠٢).

التابعة لها مسرحاً لرعي الحيوانات بعد سقوط الأمطار وجريان الماء[1]، وهذا ساعد على نشاط هواية الصيد عند أصحابه الذين كانوا ينتظرون مواسمه بفارغ الصبر.

الثروة الحيوانية:

وردت في سورة النحل وغيرها من السور في القرآن الكريم آيات عديدة تشير إلى الحيوانات ومنافعها؛ كقوله عز وجل: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[2].

ومن طرق حصول الإنسان على المنفعة والفائدة من هذه الحيوانات استخراج المنتجات؛ كاللبن من الأنعام، والحرير من الدود، والعسل من النحل[3]، ولأن مالقة هي مدينة البر والبحر - كما ذكرنا - فإن أهلها اهتموا بصيد الحيوانات البرية والبحرية وتربيتها للاستفادة منها في المواصلات والاقتصاد والبيع والشراء والطب، وغير ذلك[4].

ومن أشهر الحيوانات البرية في مالقة:

(١) الخيل والبغال والحمير والبقر والجمال: تعد هذه الأنواع أشهر الحيوانات وأكثرها استخداماً في حمل الأثقال وفلاحة الأرض وخوض المعارك ونقل الإنسان من مكان إلى آخر[5]، وكانت البغال من بينها هي الوسيلة الأكثر

---

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢، ٦٠، ٦٢، ٦٥)، والمقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص١٢٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص ١٧٦، ١٧٧).

(٢) سورة النحل، آية رقم (٤ - ٨).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٠٨).

(٤) الضبي: بغية الملتمس، (ص١٥٠).

(٥) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٩، ٤١، ٤٩، ٨٣)، وابن الخطيب: مثلى الطريقة في ذم=

ملائمة للسير في أراضي الأندلس المرتفعة، ولم تكن رحلة العالم ابن بطوطة على ظهر البغل من الجزيرة الخضراء إلى غرناطة مروراً بمالقة، ورحلة العالم الحنفي[1] من مالقة إلى غرناطة على ظهر البغل مروراً ببلّش سوى خير شاهد على ذلك وغيرها كثير[2]، أما الخيل فقد حازت اهتمام أهل مالقة؛ لأن الله تعالى أمرنا بها لإرهاب الأعداء، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[3]، كما أقسم الله بها في سورة باسمها لعظمها عنده، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾[4] وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»[5] ولذلك فقد أخذت خيل مالقة نصيبها من الشعر وصفاً وإبداعاً، كقول الشاعر في فرس وعليها صاحبها:

رأيت غزالاً فوق طرف كأنه
هلال بدا تحت الدجنة يشرق
فقلت له لما انثنى عطف شارة
ومر كبرق لاح بل هو أسبق[6]

= الوثيقة، (ص٣٣٤)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٣٩٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٨٤)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٢٢).

(١) زين الدين عبدالباسط بن خليل الحنفي: ولد بمدينة ملطية في عام (٨٤٤هـ)، استغرقت رحلته خمس سنوات كاملة. انظر محمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص٩٦، ٩٨).

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٨٣)، وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨١)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص١٨٤).

(٣) سورة الأنفال، آية رقم (٦٠).

(٤) سورة العاديات، آية رقم (١).

(٥) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٨٣)، وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨١)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص١٨٤).

(٦) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٥٤).

ويقول آخر:

أعناقها قصب ماس النشاط بها
لهن من ورق الريحـــــان آذان[1]

وكان ساحل مالقة ميداناً رئيساً للسباق والتدرب على ركوب الخيل[2] التي اعتمد عليها أهالي مالقة اعتماداً كبيراً في القتال ضد الأعداء والمرابطة في سبيل الله، خاصة وأن مالقة مدينة من مدن الحدود، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: «وجيشها اليوم مشهور الإقدام متعدد المئين على مر الأيام... وتقيم الجهاد سوقًا نافقة، وتركض الخيول السابحة، وتعامل الله على الصفقة الرابحة... وما منها - أي مالقة - إلا معقل سام وبلد بالخيل والرجل مترام..»[3].

أما الجمال، فكانت قليلة في الأندلس بصفة عامة، ولم تستخدم بكثرة إلا منذ عصر المرابطين[4]، وكان الأمراء يهتمون بتربيتها ، ويتهادون المزايين منها إلى بعضهم البعض شكراً وعرفاناً؛ فمثلاً أهدى السلطان أبو عنان فارس المريني[5] إلى السلطان أبي الحجاج يوسف النصري بعض الجمال الغالية، فتركها الأخير ترعى في فحص مالقة حيث الماء الوفير والعشب الكثير[6]، كما أهدى أمير مالقة ابن حسون مطية عظيمة إلى العالم محمد بن الحسن[7]

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص ٣٢٨).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص ١٥٤).

(٣) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).

(٤) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٨٥).

(٥) أبو عنان فارس بن علي بن عثمان المريني لقبه المتوكل على الله، ولد في عام (٧٢٩هـ)، ومات في عام (٧٥٩هـ). انظر ابن الأحمر: النفحة النسرينية، (ص٥١).

(٦) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج١، (ص٤٠٢).

(٧) محمد بن الحسن بن عبدالعظيم يكنى بأبي عبدالله، من فقهاء مالقة وكبرائها، توفي في حدود (٥٤٠هـ). انظر ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص ٩١، ٩٢).

مكافأة له على مدافعته عن سب أسلافه وأقربائه[١]، أما السلطان أبو سعيد فرج النصري، فكانت المسارح في مالقة تضيق عن سائمته[٢].

(٢) الضأن والماعز:

تعد الضأن والماعز من الحيوانات المهمة في الأندلس؛ وذلك لفوائدها الضرورية في حياة الناس، وكان أهل مالقة يقومون بتربيتها وعلفها أنواع الحبوب الجيدة[٣]، كما عرفوا طرق علاجها من الأمراض التي تصيبها؛ كالرطوبة التي تنزل على الدماغ بسبب البرد، أو المرض الذي يصيب الدابة في ركبتها فيمنعها المشي (مرض الانتشار) أو الورم الذي يصيب يد الدابة، وهو (مرض الزائد) وغيرها من الأمراض[٤].

وكان أهل مالقة يغنمون أعداداً هائلة من المواشي جراء انتصارهم في حروبهم ضد الأعداء[٥]، ولكن في مثل تلك الحروب وأيام الفتن الداخلية - كفتنة بني إشقيلولة مع أقربائهم بني نصر حكام مملكة غرناطة - كانت الماشية تتعرض للنهب والاغتصاب[٦] على أيدي اللصوص وضعاف النفوس.

(٣) الحيوانات الوحشية والطيور:

تتعدد حيوانات الصيد والطيور في منطقة مالقة؛ كالغزلان والأيايل[٧]

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٩٢).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٢٤٢).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٤٨، ٤٩)، وابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٣، (ص٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٨١، ١٨٢)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٤٠١).

(٤) السقطي: المصدر نفسه، (ص٨١، ٨٢).

(٥) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج٢، (ص٧٨)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٥٩).

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٦٤).

(٧) الأيايل: جمع أيل، وهو الوعل الذكر. انظر الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، الهامش، (ص١٢٩).

والخنزير الجبلي والأرانب البرية والحجل(١) والبزاة(٢) والغرانق(٣) والشواهين والعصافير، وغير ذلك من الحيوانات والطيور التي اشتهرت بها الأندلس(٤).

وكانت الطيور بمالقة تكثر في مرتفعات جبل فارة، وفي الهضاب وأماكن تجمع المياه وعند ساحل البحر المتوسط(٥).

وكان الأهالي يخرجون لها رغبة في قدح زناد الشجاعة وممارسة هواية الصيد.

الصيد:

يعد الصيد من وسائل التسلية المهمة في مالقة؛ ففيه يعكف الصيادون على قنص الطيور والحيوانات المختلفة في مواسم محدودة تتزايد فيها أعدادها للاستمتاع بأجمل الأوقات والاستفادة من لحوم الصيد وجلودها في التجارة والطب والأكل وغير ذلك(٦)، وكان أهالي مالقة وحكامها - كيحيى بن علي الحمودي وإدريس العالي بالله خلفاء بني حمود وغيرهم من سلاطين بني نصر - يهتمون بالصيد، ويكثرون الخروج إلى البر لممارسة تلك الهواية في

(١) الحجل: طائر معروف على قدر الحمام مرقش كالقطا أحمر المنقار والرجلين. انظر ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٢٦٤).

(٢) البزاة: جمع باز، وهو نوع من الصقور يصاد به، ويمتاز بأنه أحمر العينين أصفر الرجلين. انظر معلوف: معجم الحيوان، ط٣، ١٤٠٥هـ، نشر دار الرائد العربي. بيروت، (ص١٠٢).

(٣) الغرانق: جمع غرنوق، وهو طائر مائي كبير أغبر اللون أبتر الذنب طويل العنق والرجلين. انظر معلوف: المرجع نفسه، (ص٢٨، ٧٥).

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣١٩)، وابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٦١)، والمقري: نفح الطيب، مج ١، (ص١٩٨، ١٩٩)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٩٢).

(٥) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٨، ٣٥٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٩١).

(٦) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٣)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٩٢).

الجبال والأودية والهضاب والبوادي المجاورة[1]، وأثبتت الحفريات الأثرية في القرن العشرين الميلادي عن وجود حراب للصيد بهضبة مالقة (مارموياس) دليلاً على اهتمام المالقيين برحلات الصيد والقنص[2].

تربية الدواجن:

اهتم فلاحو مالقة بتربية الحمام والدجاج وغيرها في منازلهم ومزارعهم من أجل بيعها وأكل لحمها والاستفادة من روثها في تسميد التربة وتخصيبها[3].

تربية الحشرات:

ورد في القرآن الكريم ذكر لبعض الحشرات، وتكفينا سورة النحل دلالة على أهمية تلك المخلوقات.

أ- تربية النحل:

يعد نحل العسل من أهم الحشرات الاقتصادية التي عرفها الإنسان من قديم الزمان، وكانت تربيته تعد فرعاً من فروع الاستغلال الزراعي[4]، ولذلك قام أهالي مالقة مسلمين ونصارى برعاية وتربية النحل في البساتين والجبال والحقول والغابات وكثيراً حول منطقة وادي المدينة في داخل بيوت أو خلايا من الشجر وغيره[5] قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢١٧)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص١٣٢)، اللمحة البدرية، (ص٦٥، ٧٧)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٩١).

(٢) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٣).

(٣) ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٧٨)، وابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٣٥)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٢٤)، والمقري: نفح الطيب، مج ٢، (ص٢٠٤)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٨٦، ١٨٧).

(٤) رمضان محمد: نحل العسل، مجلة العلوم والتقنية، س١٥، ع ٥٧، ١٤٢٢هـ، مدينة الملك عبدالعزيز، (ص٤٠).

(٥) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٢)، G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2, P. 470

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[1]، لاستخراج الشمع الذي كان يستهلكه أهل مالقة كثيراً والعسل النافع الشافي بإذن الله، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

ب- تربية دودة القز (Bombyx Mori):

تعد هذه الدودة من الحشرات النافعة للإنسان في حياته لإنتاجها الحرير الطبيعي لباس العامة والخاصة من نساء أهل الأندلس، وأحد عناصر الثروة الاقتصادية لكورة مالقة عبر قرون عديدة، وفي العصر الحديث هُجر وانحط إنتاجه لسوء الحظ. وكانت دودة القز تعتمد في غذائها الرئيس على أوراق أشجار التوت، لذلك قام مزارعو مالقة وقراها - كنارجه وبلّش - بزراعة أشجار ذلك النبات[3] في أرضهم والمحافظة عليه رغبة في إنتاج ذلك المخلوق العجيب، وهو حرير يسمى حرير القز، يفرزه زوج من الغدد الشفوية لليرقات على هيئة شرانق[4].

الثروة البحرية:

سخر الله لأهل مالقة البحر المتوسط - الغني بحيواناته كالأسماك وغيرها - يمارسون فيه هواية الصيد، ليأكلوا منه لحماً طرياً ويستخرجوا حلية يلبسونها، وترى فلكهم مواخر فيه ابتغاء فضل الله سبحانه وتعالى، وقد انتشرت الأسماك وتنوعت في أطراف البحر المتوسط على طول منطقة مالقة، وخصوصاً في سواحل سهيل وبلش ومربلة وبزليانة، إضافة إلى الأنهار الداخلية

---

(١) سورة النحل، آية رقم (٦٨).

(٢) سورة النحل، آية رقم (٦٩).

(٣) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٣)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٨٩). G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2, P. 469

(٤) حمدية السباعي: منافع الحشرات، مجلة العلوم والتقنية، (ص١١).

والساحلية كنهر مالقة الكبير[1]، الذي تهاجر إليه الأسماك من البحر أيام جريانه، ولهذا اشتغل كثير من سكان مالقة في حرفة صيد الأسماك بوصفها مصدر رزق يقتاتون منه ويتكسبون - قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾[2] فكانوا يخرجون على قواربهم الصغيرة في الصباح الباكر، ويرمون شباكهم لصيد الأسماك، ثم يحملونها إلى الأسواق والمضارب (الخيام) لبيعها[3].

ولجودة أسماك مالقة وكثرتها، فإن ألفونسو الأول ملك أرغون أنشأ جفناً صغيراً صاد به حوتاً، وأكل منه في بلش مالقة، أثناء حملته الصليبية ضد المسلمين في عام (٥١٩هـ/ ١١٢٥م)[4]، كما كان حوت بزليانة من وفرته يُحمل إلى الجهات المجاورة لها[5].

ومما سبق يتضح أن وسائل الصيد البحري في مالقة كانت هي المراكب الصغيرة والشباك.

ومن أشهر أنواع الأسماك في منطقة مالقة: سمك التونة[6]، وسردين مربلة السمين[7]، وسمك يسمّى الرعاد، يعمل من جلده الطواقي التي تسكّن صداع الرأس[8]، وسمك آخر يسمّى العرونة، وهي سمكة عريضة مفرطحة

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١)، وريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، والمقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص٦٢٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٩٤، ١٩٥).

(٢) سورة المائدة، آية رقم (٩٦).

(٣) المقري: المصدر السابق، جـ١، (ص١٢٨، ١٢٩)، كمال السيد: المرجع السابق، (ص١٩٤).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص١١٢).

(٥) الإدريسي: المصدر السابق، مج٢، (ص٥٦٥).

(٦) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، (ص٢٥).

(٧) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١).

(٨) ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٤٣٨)، وخوان فيرنيت: فضل الأندلس على ثقافة الغرب،=

الشكل لون ظاهرها رعاد مصر وباطنها أبيض ولا تؤكل البتة(١).

وإلى جانب هذه الثروة السمكية الكبيرة في مالقة كان في بحرها من الحيوانات البحرية الشفنين، وهي دابة بحرية تشبه في شكلها ولونها الخفاش، ولها ذنب كذنب الفأرة، في أصله شوكة تلسع فتؤلم، ويسمّي أهل مالقة هذه الدابة بالأبرق، وأهل أسبانيا يسمونها حوت البر(٢).

= تقديم فاضل السباعي، ترجمة نهاد رضا، دار أشبيلية. دمشق، (ص٣٦١).

(١) ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٤٣٩).

(٢) ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٨٥).

الفصل الثاني
الصناعة

من دواعي القول إن الصانع الأعظم الذي خلق الكون من عدم، وصنع كل شيء فأتقن صنعه وفق نظام دقيق لا يخالطه نقص أو خلل هو المولى جل في علاه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١)، وليس بمقدور الإنسان الضعيف أمام هذه القدرة العجيبة سوى التأمل والتفكر بعقله المحدود - الذي فضله الله به على سائر المخلوقات - في الصناعة الإلهية الإبداعية المطلقة ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٢).

ومن هذه الحقيقة التي ترتبط بالعقيدة الإسلامية أشد الارتباط قام الإنسان المسلم أيام الحكم الإسلامي في بلاد الأندلس وغيرها من بلاد المسلمين بصنع كل ما يمليه عليه عقله من تصورات وأفكار ضرورية تتعلق بحفظ حياته ومعيشته (صنائع بسيطة) أو غير ضرورية تختص بمظاهر الترف والزينة - كماليات - (صنائع مركبة)(٣) حتى إن بلاد الأندلس تفوقت في الاقتصاد وتميزت بين البلدان في ظل وجود الأمن والأمان، وتوالي بني الإنسان على طول الأزمان، واتصال العمران ووفرة المواد الخام من النبات والمعادن والحيوان التي جعلها الله أصولاً تتفرع منها أنواع الحرف والصناعات التي ظلت تصنع في المحلات والبيوت وغيرها على المستوى اليدوي كما هو سائد في تلك العصور(٤).

---

(١) سورة الشورى، آية رقم (١١).

(٢) سورة النمل، آية رقم (٨٨).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٢٦، ٤٣٢).

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٢٨)، والعبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مج١١، ع٤، ١٩٨٠م، (ص١٣٣).

ولكون مالقة مدينة من بلاد الأندلس، فإنها لم تكن بمعزل عن فن الصناعة، بل قامت بإنتاج العديد من الصناعات التي اعتمدت على الكثير من المقومات الأساسية؛ وأهمها:

(١) وفرة المواد الخام: وهي الثروة النباتية والحيوانية والمعدنية الموجودة في باطن الأرض وخارجها؛ كالحبوب والفواكه والجلود والأسماك والحديد والنحاس[١]، وتعدُّ هذه المواد الطبيعية أهم العناصر المطلوبة للإنتاج والتصنيع، وبزوالها لا يمكن للإنسان القيام بأي عمل صناعي.

(٢) رأس المال: يعد هذا العامل من الضرورات التي تقتضيها نشأة المشاريع الصناعية، وقد كثرت في مالقة الأموال التي وهبها الله لسكانها، فوظفوها في أنواع الأعمال والاستثمارات الصناعية التي تعود عليهم وعلى بلادهم بالنفع والتنمية[٢].

(٣) الأيدي الصانعة الماهرة: ساعد توفر المواد الطبيعية ورأس المال وانتشار الأمان والاستقرار السياسي وتشجيع الحكومة - وخاصة حكام بني الأحمر - على اتساع فرص العمل أمام شباب مالقة ورجالها، الذين اتسموا بالنشاط والحيوية وحب العمل والجدية، فنزلوا ميدان الصناعة، واستطاعوا - بمهاراتهم الفنية وخبرتهم المتوارثة وصبرهم الطويل - إتقان العمل والإبداع فيه، فتحسن مستوى المعيشة، وجاد الإنتاج في مدينتهم[٣]، وفي هذا قال ابن

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٨، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٦٠)، والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٤، ٥٧٠)، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٣)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩).

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٤)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٨٢، ٣٠١)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة (١٠٢)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس،=

غالب يصف أهل الأندلس جميعاً: «وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع»[١]، كما قال: «وأما أهل الصنائع، فإنهم فاقوا أهل البلاد وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعاً لهم ومتصرفين بين أيديهم ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم ويصير الذكر لهم»[٢].

ومثال ذلك أن رجلاً من أهل مالقة كان يشكو من ضيق ذات اليد، ثم التقى بصاحب له طحان دعاه يوماً إلى مقر عمله، فأتاه ورأى ما يفعله، ثم جاءه في يوم آخر واستنابه في العمل فأخلص وكسب، ثم آل به الحال أن اتخذ لنفسه رحى ثانية بحثاً عن الأرباح والفائدة[٣].

ومثال آخر: العالم محمد بن أحمد المالقي؛ كان والده نجاراً وهو يعمل في خياطة الثياب أول الأمر، ثم حوّل منها إلى صنعة أخرى[٤]، والعالم محمد بن عبدالله الأنصاري[٥] والعالم علي بن أحمد المذحجي[٦].

أما أبرز مثال يوضح قوة الرغبة في العمل والإبداع الصانع يعيش المالقي،

= (ص٧٢، ٧٥، ٢١٦)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١١٨، ١١٩)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٥، ١٧)، وتوريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ترجمة سيد غازي، ١٩٧١م، دار المعارف. مصر (ص٥٥).

(١) انظر: فرحة الأنفس، (ص٢٨٢).

(٢) المقري: نفح الطيب، مج ٣، (ص١٥٢).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٤٠).

(٤) المقري: المصدر السابق، مج ٢، (ص ٢١٣).

(٥) محمد بن عبدالله الأنصاري من أهل مالقة يكنى أبا القاسم نشأ بمالقة ورحل إلى المغرب والمشرق ولد عام (٦٧٣هـ) وتوفي على أثر الطاعون في عام (٧٥٠هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٢٢٦، ٢٢٧).

(٦) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٤، (ص٨٨).

الذي تفنن في عمل الصناعات الجميلة في مختلف المجالات[١].

وتعد الأيدي العاملة من العناصر المهمة التي يتوقف عليها نجاح أي مشروع صناعي أو إخفاقه.

وفي هذا الميدان الإنساني الخالص شاركت النساء المالقيات[٢] وهي ميزة فريدة تدل على نزول المرأة سوق العمل لسد وقت الفراغ، ومساعدة الرجل في توفير لقمة العيش[٣].

ولكثرة المنتجات المصنوعة في مالقة غزت هي والصناع الأسواق المحلية والخارجية لبلدان العالم، فأصبحت مالقة من المدن الصناعية المهمة في بلاد الأندلس، حتى إنه أطلق عليها دار العجائب المصنوعة[٤].

ويكفينا من البراهين على ذلك الآثار والشواهد الباقية حتى الآن على أرض مالقة وما هو موجود منها في متاحف الحضارة الدولية[٥]، إضافة إلى ما ذكره المؤرخون والجغرافيون وغيرهم عن حجم الثروة الصناعية في تلك المدينة[٦].

(١) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، (ص١٤٤، ١٥٥)، وعبدالعزيز سالم: العمارة المدنية بالأندلس، (ص١٤٨، ١٦٥).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٣٢٥)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٢٧).

(٣) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٦٦).

(٤) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ومؤلف مجهول: المصدر السابق، (ص١٥٥)، وابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، (ص٤٦٨، ٤٦٩).

(٥) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٧)، وتوريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، (ص٦١)، المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣٦، ٣٦٢، ٣٧٣)، ومحمد مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة. بيروت، (ص١١٥)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٣)، وعبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، الهامش، (ص١٧١). انظر الملحق، ص٤٤١.

(٦) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧، ٥٨)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣١).

وخلاصة القول: إن الصناعة التي حظيت بالاهتمام على المستوى الحكومي والفردي[(١)] هي العمل الناتج عن مجموع الشغل الإنساني وسائر الآلات المحصلة لفروع الأعمال، أو هي كل عمل تصورته العقول وأخرجته القوة المحركة من مواد الكائنات على طبق تلك التصورات[(٢)].

ويقول ابن خلدون فيها: «اعلم أن الصناعة هي مَلَكَة أمر عملي فكري، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس»[(٣)].

الأسباب المؤثرة في الصناعة:

تعرض العمل الصناعي في مالقة لمعوقات أضعفت من إنتاجه في سوق الحياة، ولقي حوافز دفعت بعجلته نحو الأمام، وكلاهما ساهم في ارتفاع معدل النشاط الاقتصادي لمالقة وانخفاضه.

وبما أننا أوردنا بعض الظروف التي شلّت سير الحركة الزراعية وسنتطرق لتأثيرها لاحقاً بشكل جديد على العمل التجاري، وقد نضيف عليها جنباً إلى جنب مع الدوافع التي ساعدت على رواج تجارة مالقة وتقدم حركتها، فإننا سنقتصر على ذكر بعض الأسباب التي أثرت في صناعة مالقة على سبيل المثال من دون شرح منعاً للتكرار.

الحروب الفتاكة في داخل الأندلس وخارجها، والضرائب غير الشرعية، والحصار السياسي والاقتصادي، وكثرة الأسواق والتجارة، ووفرة الخيرات والثروات المختلفة، والاستقرار وسيادة الأمن والتزايد السكاني، والتوسع العمراني، والتشجيع اللازم من الأمراء والولاة[(٤)].

---

(١) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، وما بعدها، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٧٢، ٧٥).

(٢) أحمد باشا: المهندسون في العصر الإسلامي، دار نهضة مصر. القاهرة، (ص٧٥).

(٣) انظر: تاريخ ابن خلدون، مج١، (ص٤٢٦).

(٤) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٤٣، ٥٨، ٩٠) وما بعدها، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣،=

الصناعات القائمة على الإنتاج الزراعي والحيواني:

تعددت الصناعات التي تعتمد على الثروة الزراعية والحيوانية في مالقة، واقترن نشاطها بحياة تلك الثروة أشد اقتران. ومن هذه الصناعات:

١- صناعة المنسوجات:

هي فن مشرقي الأصل قديم، احتل أهمية كبيرة لدى الناس في بلاد الإسلام لارتباطه القوي بمجالات حياتهم المختلفة. ويعود الفضل في إنشاء دار طرازه في بلاد الأندلس لخلفاء بني أمية(١)، أول من أقاموا دولة مسلمة في تلك البلاد.

وكان يوجد في مالقة دار طراز لصناعة المنسوجات(٢).

أ- الحرير: حرم الإسلام لباس الحرير على الرجال وأجازه للنساء، حيث جاء في الحديث النبوي: «حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم»(٣)، فربما قاد هذا الحكم الإلهي النساء بشكل خاص إلى الاهتمام بتربية دودة القز المنتجة للحرير، واختيار الشرانق ورعايتها وتحضين بيضها مدة (٦٠) يوماً تقريباً، من شهر فبراير إلى أن يفقس في شهر مارس من كل سنة، وهي العملية الأولى في صناعة نسج الحرير(٤).

= (ص٢٨٩)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٥٤، ٢٥٥)، وريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥، ٣٦٠)، ومحمد عبدالستار: المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مج١١، عَ (١)، ١٩٨٠م، (ص٣٠٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٧٢).

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٨١، ٤٨٣، ٤٣٩)، وسعد زغلول: الحياة الدينية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مج١١، عَ١، (ص٥٢) وما بعدها.

(٢) عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢٧٤، ٢٧٥)

(٣) النووي: رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط١٩، ١٤١١هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت، (ص٦٣٢).

(٤) محمد الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس من خلال النصوص التاريخية، مجلة كلية الآثار، عَ الرابع، ١٩٩٠م، مطبعة جامعة القاهرة، (ص٢٠٤، ٢٠٥)، للاستزادة=

وحيث إن الغذاء الرئيس لهذا المخلوق الصغير هو أوراق أشجار التوت، فإن أهل مالقة وما يجاورها اعتنوا بزراعة تلك الأشجار على مساحات شاسعة من أراضيهم مثلما اعتنوا بتربية تلك الدودة، وكان ملاك الأراضي يقدمون بذور أشجار التوت إلى المزارعين مقابل تقديمهم ثلاثة أرباع موسم الشرانق والربع الأخير مكافأة لهم(١)، فأصبحت مدينة مالقة من أكثر بلاد الله حريراً(٢)، ومن أكبر مراكز صناعته في بلاد الأندلس، وظلت تنافس مدينة المرية وغيرها على الصدارة في هذه الصناعة حتى حازت قصب السبق في عصر الموحدين بعد احتلال النصارى للمرية في عام (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)(٣).

ومن أجود مصانع المنسوجات الرائعة التي تصف لنا طريقة صنع الحرير بدقة وحذاقة أهل مالقة في تلك الصناعة قرية نارجة المالقية، التي زارها ابن سعيد(٤) ووالده موسى(٥)، حيث يقول ابن سعيد: اجتزت في إحدى المرات مع والدي قرية نارجة، فرأينا جماعات كبيرة من الأهالي نصبوا خيامهم في مكان مكشوف متسع في بطن وادي القرية، وقاموا جميعاً بجمع وغزل وصباغة

= في طريقة العملية الأولى للحرير انظر ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٤٠٨)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص ١٩٠).

(١) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٣)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٦).

(٢) الزهري: كتاب الجغرافيا، (ص٩٤).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، (ص٥٦)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦، ٣٥٧)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، (ص٣٤٧)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢١٨)، والكحلاوي: المرجع السابق، (ص٢٠١، ٢٠٨).

(٤) علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك بن سعيد يكنى أبا الحسن، ولد عام (٦١٠هـ). انظر المقري: نفح الطيب، مج ٢، (ص٣٣٣).

(٥) موسى بن محمد بن عبدالملك أبو عمران الكاتب الشهيد، ولد عام (٥٧٣هـ)، وتوفي في الإسكندرية عام (٦٤٠هـ). انظر المقري: المصدر نفسه، مج٢، (ص٣٣٣، ٣٣٤).

الحرير، ولما سأل موسى وابنه الصناع بما يُعرف ذلك الموضع؟ قالوا: (الطراز) قال موسى: «اسم طابق مسماه، ولفظ وافق معناه»[1]، ثم قال من الشعر:

بنارجــة حيث الطراز المنمنمُ

فرد ابن سعيد:

أقم فوق نهر ثغره يتبَسَّـمُ[2]

وكان معظم العمال في أثناء عملية التصنيع بعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب في وسط جو مليء بالبهجة والسرور، وهي عادة اتخذها الأندلسيون بشكل عام[3].

وعن أجود أنواع الحرير الذي كانت تنتجه مالقة في دور طرازها يقول ابن الخطيب: «مالقة حرسها الله طراز الديباج المذهب... ومقصر المتاع المشدود، ومضرب الدّست[4] المضروب، وصنعاء صنائع الثياب، ومحج التجار إلى الإياب لأفعام العياب بشهادة الحس والجن والإنس ولا ينكر طلوع الشمس»[5]، كما يقول: «وحلل ديباجها البدائع ذات تطريز... إلى أن يقول... والحلل التي تلح صنعاء فيها بالطلب وتدعو إلى الجلب»[6].

بينما يقول المؤرخ ابن سعيد: «ويصنع فيها - أي المرية - وفي مالقة وفي مرسية ثياب الحرير الموشاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة»[7]، وفي موضع

---

(١) المقري: نفح الطيب، مج ١، (ص١٧٨)، والكحلاوي: مراكز صناعة الحرير، الهامش، (ص٢٣٥).

(٢) المقري: المصدر السابق، مج١، (ص١٧٨).

(٣) المقري: المصدر السابق، مج١، (ص١٧٨)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٣١).

(٤) الدست: كلمة وردت بعدة معان أرجحها الثياب. انظر الفيروزيادي: القاموس المحيط، مجلدان، ط١، ١٤١٧هـ، دار إحياء التراث، بيروت، مج١، (ص٢٤٨)، مج٢، (ص١١٨٦).

(٥) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٦) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٧) انظر: كتاب الجغرافيا، (ص١٤٠)، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط، ١٩٥٨م، معهد مولاي الحسن، تطوان، (ص٧٤).

آخر: «وفيها من ضروب الوشي العجائب»[1]، وهذا الوشي المذهب الذي تخصصت مالقة في إنتاجه - كما يقول الشقندي[2] - واشتهرت به أصله نسيج من الحرير مختلف الألوان تدخل في صناعته خيوط الذهب، وكان أهل المشرق يتعجبون من حسن صناعته وغرابته إذا رأوه[3]. وينفرد أحد الباحثين بقوله: إن مالقة تنتج نوعاً من الحرير يُسمى القلشاني[4] لم نجد له ذكراً في كتاب (الروض المعطار) الذي استقى منه الباحث المعلومة.

أما الحلل الديباجية، وهي أنسجة من الحرير تُحلى بخيوط الذهب أو الفضة على أشكال الحيوانات ونحوها[5] فقد تخصصت مالقة في إنتاج ذات الصور العجيبة منها، المختصة بالخلفاء وحاشيتهم ومن هم على شاكلتهم. وكانت باهظة الثمن يتجاوز ثمن الحلة الواحدة منها آلاف الدنانير[6]، وهي في غاية الدقة والإتقان والفخامة. ويغلب على الظن أن تسمية كتاب «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية» جاءت من تلك الثياب الحريرية تعبيراً عن التميز والندرة في تدوين الأخبار وأهميتها، لا سيما وقد أثبتت الدراسات الحديثة أبوة الكتاب ونسبته - بعدما كان مجهول المؤلف - إلى محمد بن

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٤).

(٢) انظر: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٩).

(٣) المقري: نفح الطيب، مج ١، (ص٢٠١)، مج٣، (ص٢٢١)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢٨٠).

(٤) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢١٩).

(٥) العبادي: الحياة الاقتصادية، (ص١٤٥)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٣٣، ٢٣٤).

(٦) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (٣٥٦، ٣٥٧)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢١٨). وأقول: إن حكم اتخاذ صور ذات الأرواح المنسوجة في ملابس المسلمين عمل محرم نهانا النبي ﷺ عنه لعظم عقوبته عند الله. فقال عليه الصلاة والسلام: (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون)=

سماك المالقي الذي تعود أصول أسرته إلى مالقة[1].

أما عصر بني الأحمر الذي تطورت فيه صناعة الحرير وأثّرت منسوجاته على ما حوله من الممالك النصرانية والدول الإسلامية كدولة بني مرين في المغرب[2]، فإن مالقة تزعمت القيادة في إنتاج الحرير من غير منازع، وتصديره بكميات هائلة إلى البلدان الخارجية[3]، وقد يكون السبب في ذلك أهميتها ودورها التاريخي الذي لعبته في ذلك العصر، وبالتالي في هذا مخالفة على ما أجمع عليه بعض الباحثين أنَّ مدينة المرية تربعت على عرش الصناعة وحدها في العصور الوسطى[4]، ونستشهد على هذا القول أن منسوجات قرية نارجة كانت تُبعث صوب مراكش ومصر إلى الأمراء المسيحيين في ممالكهم، كما شهدت المدونات النصرانية بكثرة إنتاج مالقة للديباج والوشي أثناء حديثها عن زيارة عدة سفن قشتالية لمالقة في عام (٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م)، وعودتها محملة بالضيافة من منسوجات الحرير الموشي الذي حاز على إعجاب الأوربيين

= انظر النووي: رياض الصالحين، ص ٦٣٢. ومِمَّا سبق ذكره نستدل على:

١- تهاون المسلمين شعباً وحكومة في الالتزام بحكم الإسلام في هذه الصور.

٢- مهارة اليد العاملة الأجنبية في صناعة المنسوجات، وربما تكون اليد التي عملت في ذلك هي اليد المسلمة.

(١) مؤلف مجهول: الحلل لموشية، (ص٩)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٩٣)، وابن سماك: الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، نشر محمود مكي، مجلة المعهد المصري، مج٢، ١٩٧٩-١٩٨٠م، مدريد، (ص٥، ٤٣، ٤٦).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٨١)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢٧٥، ٢٨٠).

(٣) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦، ٣٥٧)، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج ١، ص ٢٨١، وكمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر، (ص٢١٤).

(٤) عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، (ص٩٩، ١٠٢، ١٦١)، والكحلاوي: مراكز صناعة الحرير، (ص٢٠٧).

وتقديرهم، لما فيه من الجودة والرقة[1].

ومن مميزات عصر بني الأحمر ومآثره الجليلة في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية أن رسوم الحيوانات التي كانت تزين الثياب الحريرية في مالقة وغيرها قد اختفت، وحلت محلها الزخارف الهندسية المختلفة[2].

ب. الصوف والكتان والقطن:

قامت صناعة الصوف في مالقة على الإنتاج الحيواني - مثل الحرير- أما الكتان والقطن فقامت على الإنتاج الزراعي. وقد تبوأت مالقة في صناعة هذه المنسوجات مركزاً مرموقاً قريباً من مركزها في صناعة الحرير وتجارته، حيث كثرة الإنتاج والتصدير، ويؤكد ذلك ابن الخطيب ويقول: «ومقصر المتاع المشدود، ومضرب الدست المضروب، وصنعاء صنائع الثياب، ومحج التجار إلى الإياب»[3]. ومن ذلك أيضاً أن قسوة مناخ البحر المتوسط في فصل الشتاء والحاجة إلى الدفء دفعت أهل مالقة رجالاً ونساءً إلى العمل في غزل الصوف وبيعه في السوق المخصص له[4].

الملابس الجاهزة:

يدفعنا الحديث عن صناعة المنسوجات إلى الحديث عن صناعة الملابس الجاهزة من الحرير أو الكتان أو الصوف أو القطن التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الصناعة.

ففي البداية يعود الفضل في تنظيم الأزياء وتطويرها في الأندلس إلى علي بن نافع، المعروف بزرياب[5]، ومن ذلك أنه حدّد استعمال كل نوع من

---

(١) عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢٨٠).

(٢) عبدالعزيز سالم: المصدر السابق، (ص٢٨١)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٦).

(٣) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٣٢٥)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٦٦).

(٥) علي بن نافع الملقب بزرياب، مولى المهدي العباسي وغلام إسحاق الموصلي. غلب عليه لقب=

الملابس تبعاً للفصل السنوي الذي يلائمه[1].

ولقلة المعلومات في بطون المصادر عن فن الحياكة في مالقة، فإن ملابس أهلها كانت تشابه ملابس المسلمين في المدن الأندلسية الأخرى من حيث كونها تمتاز بالرقة واللطافة والجمال والغلاء[2] وفي ذلك يقول ابن الخطيب: «والملابس المختالة في أفنان الجمال»[3]. كما اعتاد علماء مالقة على الاهتمام بملابسهم وتطييبها ولبس مختلف الألوان منها، ومثال ذلك العالم أحمد بن محمد الأنصاري[4] والعالم سليمان بن أحمد المشهور بالداني[5]، وفيه قال الشاعر لحظة ما رآه لابساً ثوباً أصفر وعمامة بيضاء:

قدّ قضيب من اللجين
عليه ثوب من النُضار
أضاء كالبدر جنح ليل
وعمم الليل بالنهار[6]

ومن الأقمشة الحريرية التي كان يلبسها رجال مالقة: العمائم المفتولة

= (زرياب) لسواد لونه، قدم من المشرق إلى بلاد الأندلس، وكان شاعراً ورئيساً من رؤساء الفن الغنائي، توفي في عام (٢٣٨هـ). انظر ابن حيان: المقتبس، تحقيق محمود مكي، (ص٢٢١)، والمقري: نفح الطيب، مج ٣، (ص١٢٢) وما بعدها.

(١) المقري: المصدر نفسه، مج٣، (ص١٢٨).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٩١)، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق (١)، (ص٣٨٢).

(٣) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).

(٤) أحمد بن محمد بن أحمد الأنصاري أبو جعفر، كان من بيت علم وجلالة، خرج من موطنه قرطبة، فسكن مالقة ثم غرناطة، ولد في عام (٥٧٠هـ)، وتوفي في حدود عام (٦٥٠هـ). انظر المراكشي: الذيل والتكملة، س.ف١، ق١، (ص٣٨٢).

(٥) سليمان بن أحمد، يكنى أبا داود، من سكان مالقة. كان كاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً. انظر ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ٢، (ص٤٠٦).

(٦) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٤٧).

والبيضاء[١]، وقد لبسها العالم يوسف البلوي[٢]، والقلانس وبرز في صناعتها ابن رفاعة[٣]، وهي بلا شك أغطية الرأس التي تتفاوت أهميتها عند أهل الأندلس[٤].

أما النساء، فكن يستخدمن القنوع الحريرية، ومن خُدع صناعها أنهم يصنعونها من الحرير النيء[٥] كما كان يصنع من الحرير سواءً كان خزاً أو ديباجاً بمختلف ألوانه (الطيلسان) وهو ثوب معين يوضع على الرأس وينسدل على الكتفين ويرتديه عوام الناس وخواصهم[٦]، وقد اشتهرت بلبسه أسرة العالم أحمد الأنصاري - الملقّب بابن الطيلسان - بعدما كانت مشهورة بلقب بني سليمان، والسبب هو أنه كان للعالم عدة أثواب مختلفة الألوان يلبس كل يوم ثوباً غير الذي لبسه في اليوم السابق[٧]، وفي هذا دلالة على أناقة العالم واهتمامه بمظهره الخارجي.

كما كان يصنع من الحرير الحلل الموشية، وتتكون من قطعتين من الثياب: الرداء والإزار[٨]، ويقال: إنه كان يصنع بمالقة نوع رفيع من الثياب المحلاة بخيوط الفضة الجافة يسمى (الدست)، ذكره ابن الخطيب في قوله: «إلى

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٤٧)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٧٧).

(٢) ابن الزبير: صلة الصلة، ق٥، (ص٢٨٦).

(٣) محمد بن عيسى: كان من الوراقين المشهورين في رية، ولد في عام (٢٧٠هـ). انظر الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق ماريا لويسا، ١٩٩٢م، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، (ص١٧٦).

(٤) المقري: نفح الطيب، مج ١، (ص٢٢٢، ٢٢٣)، وسحر عبدالعزيز: ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، (ص٢٥٤).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٧٧).

(٦) المقري: نفح الطيب، مج ١، (ص٢٢٣)، سحر عبدالعزيز: ملابس الرجال في الأندلس، (ص٢٥٨، ٢٥٩).

(٧) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف(١)، ق١، (ص٣٨٢).

(٨) السقطي: المصدر السابق، (ص٦٠، ٧٧)، عبدالعزيز الأهواني: ألفاظ مغربية، (ص١٥٤).

الدست الرهيف ذو الورق الهيف»[1].

أما الأقمشة القطنية التي تصنع من محصول القطن، فإن مالقة اشتهرت بما اشتهرت به بصرة العراق - بالبز، وهو قماش قطني ثمين تصنع منه الفوط والمآزر والطيالس[2]، بينما أقمشة الصوف التي تفوقت مالقة في صناعتها نذكر منها الجلاليب - ومفردها جلباب - وهي نسيج من الصوف مفتوح في جزء منه[3]، أما الدراريع - ومفردها دراعة - التي انتشرت بين الناس في الأندلس، حتى إنك تراها في الريف على الطحان الذي يطحن القمح، فهي قميص قطني يلبس في فصل الصيف[4]، وقيل: هي لباس من الصوف وغيره يسبل على الصدر[5].

ومن الملابس التي شاع استخدامها عند الجواري في مالقة الثياب الشفافة الملونة والمورّدة والسود الفلافل ذات اللونين الأحمر والأصفر. وكذلك الكساء، وهو ثوب مخملي أبيض محشو بالأحمر[6]. كما كان أهل مالقة يلبسون الجباب - جمع جُبة - المصنوعة من النسيج السميك[7] وإذا كانت من قطن أو صوف لبسها العامة، وإذا كانت من الحرير لبسها الخواص من الناس[8].

أما التشمير، فكان لباساً خاصاً يرتديه كل من له علاقة بفن الطبخ أثناء عمله كخادم الطحان في الطاحونة[9].

والجدير قوله: إن قيمة الثياب الحريرية وغيرها من جهاز العروس في

(١) انظر: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٢) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٧٧)، والعبادي: الحياة الاقتصادية، (ص١٤٣).

(٣) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، الهامش، (ص٩٤).

(٤) السقطي: المصدر السابق، (ص ٤٠)، وكمال السيد: المر جع السابق (ص٩٤).

(٥) الفاسي: الألفاظ المغربية، (ص٦٢).

(٦) السقطي: المصدر السابق، (ص٦٤، ٦٨).

(٧) السقطي: المصدر نفسه، (ص٤٠)، وكمال السيد: المرجع السابق، الهامش، (ص٩٤).

(٨) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٠٩).

(٩) السقطي: المصدر السابق، (ص٣٩، ٤٦)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٢٧).

مالقة بلغت آلاف الدنانير[١].

وفي ختام حديثنا عن صناعة النسيج، فإنه من الواجب على المحتسب القائم على أحوال صناع الأنسجة والملابس مراقبتهم، سواء أكانوا من الطرازين أم الخياطين. ومهنتهم هي الأكثر انتشاراً بين الرجال، وقد زاولها من أهل مالقة محمد الساحلي[٢] ومحمد المالقي[٣] وكذلك القصارون الذين يقومون بتبييض الثياب، أو الرفاؤون، الذين يقومون برفو الثياب. ومنهم اشتهر في مالقة الأديب محمد بن غالب الرصافي[٤] ومهنتهم من أشرف المهن وأقلها غشاً[٥]، ويجب على المحتسب اتجاههم تفقد أعمالهم لكي لا يقوموا بتأخير الناس وتعطيلهم عن أشغالهم؛ لأن بعضهم كانوا يغشون ما فيه مخالفة لشريعتنا الإسلامية[٦]. وكانت محلات صناع الملابس توجد في رحبة من رحبات السوق المعروفة بالاسم الروماني المرقطال[٧].

صناعة الورق[٨]:

عرف أهل الأندلس صناعة الورق في القرن الرابع الهجري، وكانوا أمهر

(١) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).

(٢) محمد بن أحمد، يكنى أبا عبدالله. اقتصر على العيش من حرفة الخياطة، ثم تعداها إلى العلم والشغل فيه. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٢٢٩، ٤٣١).

(٣) المقري: نفح الطيب، مج٢، (ص٢١٣).

(٤) محمد بن غالب الرصافي أبو عبدالله، أصله من بلنسية، واستوطن مالقة، وتوفي بها في عام (٥٧٢هـ). انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٩٣).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٤١).

(٦) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٧٨).

(٧) ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة محمد عبدالهادي، مراجعة العبادي، ١٩٥١ م، المطبعة الأميرية، القاهرة، (ص١٠٠).

(٨) للرغبة في معرفة صنع الورق وتطور صناعته. انظر ربحي عليان: صناعة الورق وحركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة المغاربة، جامعة منوبه. تونس، ٢٠٠١م، جـ١١، (ص٨٥) وما بعدها.

الناس في الوراقة[1]، وعن طريقهم انتقلت هذه الصناعة إلى أوروبا[2]، وكانت تشترك مع صناعة المنسوجات في المواد الخام التي تقوم عليها؛ كالكتان والقنّب والقطن[3].

وللحصول على الورق يُنقع معجون الكتان والقنب في ماء الجير (الكلس)، ثم يمرر في طاحونة (رحى) ويمزج مع الغرا والنشا ويسوّى بعد ذلك، ويملس باستخدام القالب (القرميد) حتى يصل إلى لوح الورق المناسب، ثم تجرى أخيراً عملية التجفيف[4].

ومن الثابت أن مدينة شاطبة[5] تفوقت على المدن الأندلسية في صناعة الكاغد[6] من الورق أيام حكم المرابطين[7] حتى على مدينة مالقة التي كانت تنتجه في عصرهم؛ بدليل أن المحتسب المالقي[8] يقول عن أحد الصيادلة: «واختطرت يوماً على واحد منهم وقد اعتم وارتدى في زي حاج، وبسط بساطاً

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، (ص٢٣٩)، والبشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، جامعة أم القرى. مكة المكرمة، (ص١٣٤)

(٢) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٤٤، ٢٤٥).

(٣) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٢٣).

(٤) كمال السيد: المرجع السابق، (ص٢٤٦).

(٥) شاطبة: مدينة جميلة منيعة تقع في إقليم أرغيرة. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٣٨، ٥٥٦).

(٦) الكاغد: كلمة فارسية لعل أصلها صيني، وتدل على نوع من الورق مصنوع من الألياف والحشائش. انظر الحاجري: الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج١٢، (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م)، (ص١٣٤).

(٧) الإدريسي: المصدر السابق، جـ٢، (ص٥٥٦)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٠٣).

(٨) أبو عبدالله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي. كان من الفقهاء والعلماء الأجلاء الذين عملوا مؤسسة الحسبة وسافروا إلى مختلف الأقطار. انظر السقطي: في آداب الحسبة، (ص١٠، ١٦).

نظيفاً، وصف بين يديه قراطيس كباراً غير مشدودة من الكاغد الملون»(١).

ومن هذا النص نقتبس كثرة إنتاج مصانع مالقة للورق الكاغد، وتوفره في الأسواق، ورخص ثمنه، وتنوع استخداماته، وتعدد مواصفاته. وفي عصر الموحدين أدت زيادة الطلب على الورق وتوفر مواده الخام وحالة الاستقرار وألوان الخير التي شهدتها مدينة مالقة إلى إنتاج الورق بكميات ضخمة، ولعل كثرة الوراقين العاملين في مهنة الوراقة(٢) وتطور عملياتها الفنية من نسخ وغيره دليل على ذلك(٣) خاصة في القرن السابع الهجري - وما بعده - الذي تساقطت فيه المدن الأندلسية في يد الأعداء النصارى، فاضطر أهلها إلى الهجرة نحو المدن الأخرى(٤) والعمل في سوق الصناعات، وبالتالي نشطت صناعة الورق في مالقة، وأقبل كثير من الناس على الوراقة، واتخذوها مصدراً لرزقهم(٥) مثل العالم أحمد بن علي الأنصاري(٦) والعالم محمد بن أحمد المذحجي(٧) والعالم محمد بن عبدالله الأنصاري(٨).

---

(١) انظر: في آداب الحسبة، ص٦٠.

(٢) الوراقة: هي فن النسخ والتجليد والزخرفة والتجارة فيها وغير ذلك. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٥١).

(٣) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٢٥).

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٤٩)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٠٦، ٤٤٦، ٤٤٨)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٩٠).

(٥) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٢٤، ١٢٥)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص١٩١، ١٩٦).

(٦) أحمد بن علي الأنصاري المالقي، يكنى أبا العباس، كان تقياً ورعاً، توفي في حدود عام (٦٤٥هـ) انظر المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق١، (ص٣٢١، ٣٢٣).

(٧) محمد بن أحمد المذحجي، يكنى أبا عبدالله، كان أستاذاً كاتباً شديد العناية بالكتب، توفي عام (٧٣٤هـ). انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٦٥).

(٨) سبق التعريف به.

ومن جهة ثانية فإن مدينة مالقة تقدمت على المدن الأندلسية في صناعة الجلود عامة وتجليد الكتب تجليداً ممتازاً، كما أسهمت بدور بارز في تطوير عملية التجليد حتى بلغ تجليد الكتاب بفضلها مكانة رفيعة في العالم الإسلامي[1] أدت إلى التنافس في اقتنائه وارتفاع قيمته وانتشاره بشكل واسع.

أما في عصر بني الأحمر، فمن الواضح أن مالقة زادت في الإنتاج المحلي من الورق السميك الجاف[2]، ولعل من أسباب ذلك:

١- أن مالقة أصبحت العاصمة الثانية لملكة غرناطة[3] التي تتطلب شؤونها الداخلية والخارجية الحاجة إلى الورق بكثرة.

٢- كثرة المكتبات الخاصة في مالقة ونفائس الكتب والمؤلفات على اختلاف أحجامها وتباين أنماطها التي اهتم وراقو مالقة بعملياتها الفنية منذ عصر الموحدين حتى أواخر عصر بني الأحمر[4].

وأهم تلك المصنفات التي تنوعت موضوعاتها في تاريخ مالقة

---

(١) لمعرفة طريقة تجليد الكتاب وأدواته انظر الإشبيلي: التيسير في صناعة التسفير، تحقيق عبدالله كنون، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مج٧، ١٩٥٩م، (ص٩٠) وما بعدها، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، والبشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ط الأولى، ١٤١٤هـ، جامعة أم القرى. مكة المكرمة، (ص٢٠٦)، ومحمد ماهر: المكتبات في الإسلام، ط السابعة، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت، (ص١٨٣).

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، جـ٤، (ص٣٨٨).

(٣) عبدالعزيز سالم والعبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، (ص٣٤١).

(٤) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٦)، ق٢، (ص٢، ٥، ٦)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص١٨٨، ١٨٩)، مج٤، (ص٨٦، ٨٧)، ومحمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية، (ص٤٣٠)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٢٥).

وحضارتها، وأصبحت في متناول القراء والباحثين اليوم كتاب (الإكمال والإتمام في صلة الأعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام) وهو الكتاب المشهور (بأعلام مالقة) لمؤلفيه ابن عسكر وابن خميس[١]، وكان مصنوعاً في مجلد لطيف على حروف المعجم[٢].

صناعة البسط والحصر:

كانت البسط تصنع من الصوف في مالقة، وتستخدم في فرش أرضيات المساجد ومنازل الأثرياء وتزيين الجدران وغير ذلك[٣]. ولعل كلمة (Alfombra) الأسبانية - التي تعني سجادة أو بساط - جاءت من الكلمة العربية الحمرة أو الخمرة، أي: الحصيرة[٤].

أما الحصر التي تقوم صناعتها على نبات الحلفاء، فإن أهل مالقة استخدموها فراشاً على الأرض في المنازل وداخل حوانيتهم وفي تغطية حفر أعمال البناء وغير ذلك[٥]، ولا تزال هذه الصناعة باقية إلى اليوم في أسواق المدن الصغيرة ببلاد المغرب[٦].

---

(١) سبق التعريف بابن عسكر. أما ابن خميس، فهو محمد بن محمد بن علي بن خميس أبو بكر. أكمل الكتاب المذكور بعد وفاة خاله ابن عسكر. انظر المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٦)، (ص٤٥٠، ٤٥١)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٣، ٢٦، ٢٧، ٣٦).

(٢) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ترجمة صالح العلي، ط الأولى، ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت، (ص٢٥٩).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٠، ٨٤)، والمقري: نفح الطيب، مج٣، (ص٢٢١)، ومرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية، (ص١٣٥)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٢١).

(٤) العبادي: الحياة الاقتصادية، (ص١٤٨).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٤٨، ٧٥)، وابن الزبير: صلة الصلة، ق٥، (ص٢٨٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٧٢، ٢٥٨).

(٦) المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة، (ص٧٣، ٧٤).

صناعة الطيب:

تولد عن اتساع زراعة النباتات الطبية والعطرية في مالقة واعتناء أهلها بالطب والعطور التي تبعث على الروائح الطيبة والأنسام الزكية الداخلة في اهتمامات الإنسان، إلى ظهور صناعة الطيب من الورد والمسك والنرجس والآلاس والياسمين والبنفسج وغيرها من الأشجار والأزهار التي قلما تكون في مدينة مثل مالقة[1]، ولذلك حظيت منتجات صناعة الطيب بأجمل القصائد الشعرية لدى محبي الطيب والعطور، كقول الشاعر في مطيب[2] مصنوع من زهر النرجس في يد صبيٍّ:

وشادن جاء وفي كفه
مطيب من زَهَر النرجس
فقلت للشرب هلال جلا
نور الثريا وسَط المجلس[3]

وفي مجلس أحد السادة الموحدين[4] بمالقة دخل الشاعر محمد الأنصاري[5] فقال في وصف مطيب ورد وسوسن:

انظر إلى الورد والسوسان في نسق
شكلاً لشكل وأعداداً لأعداد

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٠) وما بعدها، والإشبيلي: عمدة الطبيب، ق٢، (ص٤٩، ٧٠٣)، وابن الأبار: الحلة السيراء، جـ٢، (ص٢٦٧)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).

(٢) المطيب: هو حزمة يصنعونها من أنواع الرياحين، ويضعون فيها أنواع المشمومات كالنرجس والآلاس. انظر المراكشي: المعجب، (ص٢٦٧)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٢٣، ٢٥٨)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣٠).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٢٨).

(٤) السيد أبو زيد الموحدي، انظر ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص١١٩).

(٥) محمد بن عبدالله المعروف بالبلنسي، كان شاعراً، عاش أيام الموحدين. انظر ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص١١٩).

وكلمـــا نالــه لمح العــيـــون ودنت
منهــا المســوك وفـاح النَّـدُّ بالنادي
فاعزز بما نظرَتْ عيناك من عجب
مــلـك لملـك وأجنــــاد لأجنـاد[1]

ولما كان الناس يتهادون أصناف الطيب بعضهم إلى بعض قال الشاعر عبدالرحمن السهيلي في مسك أهدي له:

أهدي له شــبـهـــاً بأنفـــاســه
مَـنْ عَــذَّبَ القلب بوســـواسـه
يا مـــرسل المسك لـنا نفـــحـة
وكل مـــسك دون أنفـــاسـه[2]

والحقيقة المرة التي كانت تتعرض لها صناعة الطيب كغيرها من الصناعات: أن بعض صنَّاعها يلجؤون إلى الغش والخداع، فقد يغشون المسك بدم فراخ الحمام والنسر، والعنبر بشحم الحوت، وغير ذلك من الأساليب[3]، ولكن هناك طرق يستطيع الخبير من خلالها الكشف عن جودة الطيب وفساده؛ فمثلاً يختبر المسك بأن يؤخذ منه شيء في الفم ويحل باللعاب ويتفل على ثوب أبيض ثم ينفض، فإذا انتفض ولم يتغير الثوب فالمسك خالص، وإن تغير فهو مغشوش. أما الكافور، فيمزج بالماء، فإن رسب فهو مغشوش بالرخام الرخيص وغيره، وإن عام فهو سالم لا غش فيه. أما العنبر والعود الرطب، فتقدح بالنار لاختبار صلاحيتها وجودتها[4].

وعلاوة على ما سبق، فإن الجواري والعبيد كانوا يدخلون الطيب كالورد

---

(١) شبه الشاعر الملوك بالورد والأجناد لما سواه. انظر ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١١٩).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص٢٥٥).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦١، ٦٢).

(٤) السقطي: المصدر نفسه، (ص٦١، ٦٢).

والمسك وغيرها في صناعة بعض المواد التي تحسن من صورهن عند شرائهن في السوق كأسلوب من أساليب الخداع[1].

صناعة الجلود:

نتيجة لوفرة الحيوانات المختلفة في بلاد الأندلس قامت دباغة الجلود في خارج المدن على ضفاف الأنهار، لكي لا تؤذي رائحتها الكريهة السكان[2] «ولا يباح للدباغ بيع جلد إلا أن يكون قد خرج ماؤه، وتحققت النهاية في دباغه، ومتى يبس وطوي وتكسر، فهو غير جيد للدباغ»[3]. وعلى هذا الأساس قامت صناعة الجلود. وكانت مالقة إحدى المدن الأندلسية المتخصصة في تلك الصناعة. سيما في عصر الموحدين وعصر بني الأحمر[4]. وفي ذلك يقول ابن الخطيب عن مالقة: «معدن صنائع الجلد المنتخب»[5]. ومن الأمثلة على المصنوعات الجلدية في مالقة: مقابض السيوف، وكانت تصنع من السفَن، وهو جلد خشن غليظ كجلود التماسيح[6]. والأغشية[7] والحزم[8] والمدورات[9]

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٦، ٦٧، ٦٩).

(٢) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة عبدالعزيز سالم وصلاح الدين حلمي، مراجعة لطفي عبدالبديع، ١٩٩٠م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، (ص٦٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٥٠)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٧).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٧٩).

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩)، والزهري: الجغرافيا، (ص٩٣)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٣٠)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣٦).

(٥) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٦) الإصطخري: المسالك والممالك، (ص٣٥)، والمقدسي: أحسن التقاسيم، (ص٢٣٨).

(٧) الأغشية (غشاء) جلد يُلبس به جفن السيف من أسفل شاربه إلى أعلاه، أو يقصد به السرج. انظر الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مج٢، (ص١٧٢٧).

(٨) السقطي: المصدر السابق، (ص٤٠).

(٩) المدورات (مدارة): جلد يدار ويخرز ويستقى به. انظر الفيروزآبادي: المصدر السابق، مج١، (ص٥٥٧).

والجراب[1] والوسائد وأغلفتها[2] والطواقي التي تسكن صداع الرأس، وكانت تصنع من جلد سمك يقال له الرعاد[3] وكذلك الأقراق ومفردها قرق[4].

«ولا يخلط جلد العنز مع جلد الضأن في عمل قرق إلا أن تتصل حاشيتا جلده خرزاً واحداً في ظهره، أو بوصل من الجلد صغير لا يبلغ سعة الظهر، ويكون مجموعاً بالخرز لا بالتشبيك. ومتى وجد على غير ذلك، فليس بشيء. ولا شيء في القرق إلا جلد على جلد، وبينهما خرقة تغلظه وترقق جانبيه، لا بما يدلس به المفسدون من كثرة الغراء والطين، وكذلك يجعلون تحت الأطراف لتصلب وتقف وعند اللباس ينكسر ويظهر تدليسه وفساده، ويمنع بالجملة بيع الأقراق وخرصتها إلا بعد التيبيس العام»[5].

ومن هذا النص يتضح أن صناعة القرق تكون من الجلد اللين الفاخر، وأن هناك بعض أساليب الغش التي يلجأ لها الجلادون في هذه الصناعة؛ كالتلبيس بدلاً من الخياطة بالخرز، أو التكثير من الغراء أو غير ذلك، والجدير

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٢)، الجراب: هو المزود أو الوعاء الذي يُحفظ فيه السيف وغمده وحمائله أو غير ذلك. انظر الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مج١، (ص١٣٩)، والعبادي: صور من حياة الحرب والجهاد، (ص٤٣).

(٢) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣٦).

(٣) ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٤٣٨).

(٤) القرق: يطلق على نوع من النعال - الأحذية - خفاف تصنع من الجلد ولحاء الفلين، وتلبس في الصيف، وتنطق في الأسبانية (Alcorgue) وفي اللاتينية (Quercs) . انظر كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٧٠، ٢٥٠)، مالقة الإسلامية، (ص٩٦)، والأهواني: ألفاظ مغربية، (ص٣٠٥). ويذكر الدكتور حسين مؤنس أن القرق هو الفلين. ومن هنا جاء اسمه في الإنجليزية (Cark)، وكان يصنع منه الأندلسيون نعال أحذية خفيفة تسمى القرفة، ولازالت تصنع في أسبانيا إلى اليوم، وتسمى (Alpargates). انظر: أطلس تاريخ الإسلام، ط الأولى، ١٤٠٧هـ، نشر الزهراء للإعلام العربي. القاهرة، (ص٢٩٣).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٧٩).

بالذكر أن المشتغلين بصناعة الجلود لم يكن لهم سنٌّ محدد، وإنما بالإمكان أن يشتغل فيها الفتيان الصغار من أهل مالقة مثلها مثل أي صناعة[1].

الصباغة:

عرف أهل مالقة صباغة النسيج والجلود وغيرها بمواد صباغتهم من الزعفران والقرمز والبقم والألوان الملائمة كالأصفر والأحمر[2]. وعادة ما تكون دور الصباغة على ضفاف الأنهار[3] كصباغة الجلود، أما صباغة الحرير التي تعدُّ العملية الأخيرة في صناعة الأنسجة فالعادة أن تصبغ في موضع الإنتاج[4] لكنه يجب على الصباغين فيها ألا يصبغوا المنسوجات الحمراء بالبقم، فإنه لا يثبت «وما عدا السحابي من الألوان في القطن والكتان، فإن الصبغ فيهما كذلك لا يثبت»[5].

الصناعات الخشبية:

تعدُّ النجارة من الحرف الضرورية للعمران. ومادتها الخشب، والقائم عليها هو النجار[6]. وقد وهب الله أهل مالقة ثروة نباتية متنوعة استغلوها أحسن استغلال في مختلف مجالات حياتهم، فقامت الصناعات الخشبية التي اعتمدت على تلك الثروة على حسب الحاجة، وتعدد الاستخدامات، حتى إنه أصبح للنجاريين في مالقة شارعٌ يسمى شارع النجارين – نسبة إلى مهنتهم –

---

(١) الأزدي: تحفة المغترب ببلاد المغرب، (ص١٣٥)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٨، ٣٩).

(٢) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٧٨)، وابن بصال: الفلاحة، (ص١١٦)، وابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٤٦٧)، مج٢، (ص١٧٠، ٢٥٦، ٢٥٩)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٠١)، ولوس بلنز: نباتات الصباغة والنسيج، الحضارة العربية في الأندلس، مج٢، (ص١٤٠١).

(٣) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٣١).

(٤) الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير، (ص٢٠٦).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٧٨، ٧٩).

(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٣٦، ٤٣٧).

تنفتح عليه أحد أبواب قيسارية مالقة على مقربة من المسجد الجامع، يزاولون فيه مهنتهم - بما فيهم الفتيان الصغار - مثل سائر الصناع، حتى سقطت مدينتهم في يد النصارى[١]. ومن هؤلاء المالقيين: علي بن أحمد المذحجي[٢] والعالم أحمد المالقي[٣]. وحسب رأي ابن خلدون، فإن أول متعلم ومعلّم لهذه الصناعة في البشرية هو نبينا نوح عليه السلام[٤].

ومن أهم الصناعات الخشبية في مالقة صناعة السفن المختلفة، كالحراريق[٥] والأغربة[٦] والزوارق[٧] وغيرها؛ سواء كانت كبيرة أو صغيرة حربية أو تجارية[٨] وكانت تصنع من خشب الصنوبر الجيد في دار الصناعة أو دار القطائع الواقعة في جنوبها على ضفة شاطئ البحر المتوسط، وهي من

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٦، ٥٧، ٥٨)، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٣)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٠٢، ١٠٣)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٥١٣)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٠٥)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٣٢).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٨٨).

(٣) المقري: نفح الطيب، مج٢، (ص٢١٣).

(٤) انظر: تاريخ ابن خلدون، مج١، (ص٤٣٧).

(٥) الحراريق: تسمى أيضاً الحراقات، ومفردها حراقة، وهي نوع من السفن الحربية التي تستخدم لحمل الأسلحة النارية لحرق سفن العدو. انظر محمد عبدالعزيز: البحرية العربية في الأندلس، مجلة المورد، مج١٢، عَ (٤)، وزارة الثقافة والإعلام. بغداد، ١٩٨٣م، (ص٧١).

(٦) الأغربة: جمع غراب، وهي من السفن الحربية القوية، ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التي كانت على شكل غراب. انظر الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٥٠).

(٧) الزوارق: جمع زورق، وهو نوع من المراكب البحرية البسيطة التي تستخدم في السياحة كثيراً. انظر المقري: نفح الطيب، مج٤، (ص١٦١).

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩)، وابن الخطيب: ديوان ابن الخطيب، مج٢،=

أكبر دور الصناعة في بلاد الأندلس[1]، واليوم تقع في المكان المعروف بالسوق الحديث، ولا يزال اسمها يطلق على أحد المواضع في المدينة[2].

وكان من تلك الدار تجهّز الأساطيل، وتزوّد السفن بكل ما تحتاجه من المعدات والقطع اللازمة وإصلاح ما يفسد منها[3]، وفيها جادت قريحة الشاعر بقوله:

وفيت بها ريح الصبا دار صنعة
بأكنافها شتى المحاسن تحسد
بناء بديع الشكل سام إلى السما
قواعده بالأرض تبنى وتعقد
لحسن حناياه بأعلاه منظر
يروق مُحيَّاه العيون ومشهد
بها تم من مبناه أعجب هيكل
يشير إلى عظم الفخار ويرشد
أعد لإنشاء الأساطيل عدة
لها حبس منه عليها مؤبد
لغزو العِدى في البحر أحكم صنعة
وأبدع مبناه البديع المشيّد[4]

= (ص٤٨٥)، والأزدي: تحفة المغترب ببلاد المغرب، (ص٨٢)، وشكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ٢، (ص٢٤١)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، الهامش، (ص٥٥)، ومحمد عبدالعزيز: البحرية العربية في الأندلس، مجلة المورد، مج١٢، عَ (٤)، (ص٧١).

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١٥٣، كمال السيد: المرجع نفسه، (ص٢٠، ٥٥)، وفون شاك: الفن العربي في أسبانيا، (ص٨٥).

(٢) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، الهامش، (ص٢٥٣)، المرجع السابق، الهامش، (ص٥٥). انظر الملحق (ص٤٣٨)

(٣) ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، تحقيق محمد الشريف، ط (١)، ١٩٧٣م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، (ص٥٦١)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢٢٠)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) القيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٣٨٧).

وعلى الرغم من الاختلاف في زمن إنشاء دار صناعة مالقة، فيذكر أنها أنشئت في زمن الخليفة عبدالرحمن الناصر على عصر الخلافة الأموية[1]، ويذكر أنه يعود تاريخ إنشائها إلى عصر بني نصر[2] والراجح لدينا أنها أنشئت في عصر الإمارة الأموية على عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط؛ لأن مالقة أصبحت مركزاً للأساطيل في البحر المتوسط واتخذها الأمير ليدفع بها الأعداء عن سواحل بلاده[3]، ولذلك عندما قام النورمان في عام (٢٤٧هـ/ ٨٦١م) بغزو مالقة من البحر، فإنهم لم يتمكنوا من دخولها وولوا مدبرين[4].

والحقيقة هي أن المسلمين في مالقة اهتموا بالسفن وصناعتها اهتماماً بالغاً؛ لأنها كانت وسيلة المواصلات الوحيدة التي تنقلهم في البحر، سواء كانوا مسافرين لطلب العلم أو للتبادل التجاري مع مختلف بلدان العالم[5]، كما أن طبيعة مالقة وموقعها والحاجة إلى الرزق والمعيشة فرضت على سكانها ركوب السفن للبحث عن ثروات البحر الطبيعية كالأسماك[6].

هذا وقد اقتضت الضرورة العسكرية، وفقدان المسلمين لأراضيهم الداخلية، وتناقص الموانئ الساحلية في بلاد الأندلس إلى العناية بالسفن والزيادة في تصنيعها لمواجهة المد الأسباني الكاسح، وتوثيق صلاتهم بإخوانهم

(١) ابن حيان: المقتبس، جـ٥، (ص٨٦) وما بعدها.

(٢) عبدالعزيز سالم: العمارة المدنية بالأندلس، (ص١٤٧).

(٣) حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، جـ١، (ص٧٨).

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٦٨).

(٥) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٨)، والمركشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق١، (ص٢٥٨)، وابن الزبير: صلة الصلة، ق٣، (ص١٤٢)، وابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، جـ٢، (ص٥٥٧)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٣٧٩، ٣٨١)، والمقري: نفح الطيب، جـ٢، (ص٢١٤).

(٦) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

في بلاد المغرب ليكونوا عوناً لهم في مواجهة ذلك المد[١]، ولذلك قام المرابطون باستثمار ميناء مالقة في تصنيع السفن الحربية والتجارية[٢].

أما عصر الموحدين، فقد شهد ازدهاراً كبيراً في صناعة السفن، وأصبحت مالقة من القواعد الرئيسة التي يرابط فيها الأسطول الموحدي الذي كان لأسرة بني الرنداحي في قيادته آثار تشهد على حسن كفاءتهم[٣].

والثابت في عصر بني الأحمر أن قطع الأخشاب وتصنيع السفن وتوسيع الميناء والعناية به لاستيعاب أعداد السفن المتزايدة نشطت وتطورت بشكل كبير عما كانت عليه في العصور السابقة[٤].

ومما يثبت ذلك أن ابن الخطيب يقول عن مالقة: «وفتحت جفنها على الجفن غير الغضيض والعالم الثاني ما بين الأوج إلى الحضيض»[٥]، حتى إنه دخل ميناء مالقة في زمن السقوط أكثر من مئة سفينة عسكرية للنصارى في وقت واحد[٦].

ومما يدل أيضاً على تضخم إنتاج السفن في مالقة: أن السلطان أبا سعيد فرجاً النصري واليها نافس ابن عمه السلطان محمداً الفقيه حاكم غرناطة في إنشاء السفن الضخمة، زاد عليه في كثرة أعدادها[٧]. ومن هذا نلمس أهمية

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٢٤، ٢٢٥، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦١)، وابن عاصم: جنة الرضا، جـ٢، (ص٢٩٣) وما بعدها، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٨٨)، الإحاطة، مج٢، (ص٥٦٤)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٤٩)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٤٤٤، ٥١٠).

(٢) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٣٢).

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج٧، (٢٢٠٧).

(٤) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣١٢).

(٥) انظر: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٦) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٢٢).

(٧) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٢٤٢).

مالقة واهتمام حكام بني نصر بصناعة السفن لمكافحة أعداء الله ورسوله، وتنشيط القطاع الاقتصادي لدولتهم.

أما عن الأسباب التي أدت إلى ذلك التقدم والازدهار، فهي:

أولاً: من الناحية السياسية:

أصبحت مالقة العاصمة الثانية لبني الأحمر، فوقعت عليها مسؤولية كبيرة في صنع القرار السياسي بعد غرناطة. وهذا اقتضى وجود أسطول كبير يرابط في البحر يكون على أتم الاستعداد لمختلف الحالات بما يتناسب مع أهمية مالقة السياسية، وحماية سواحل مملكة غرناطة، ونقل الجيوش والمقاتلين وغير ذلك، وهذا لا يمكن الحصول عليه إلا بتضافر الجهود المادية والمعنوية على تطوير صناعة السفن وتنشيطها، وقد أكدت مجريات الأحداث التاريخية أهمية هذا السبب ودوره[1].

ثانياً: من الناحية الاقتصادية:

كانت مالقة أهم ثغور المسلمين في الأندلس والميناء الوحيد الكبير لمملكة غرناطة؛ إذ فقدت بلاد الأندلس أكثر موانئها الساحلية التي تعتمد عليها في الميدان الاقتصادي[2] في عصر بني الأحمر مما أكسب مالقة أهمية عظيمة في إنتاج المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية ونقل البضائع والتجار، وهذا استوجب كثرة السفن والاهتمام بها، ولذلك كان للتاجر علي دردوق في أواخر الحكم الإسلامي في مالقة عدد من السفن التجارية التي تغدو وتروح من مينائها إلى جميع موانئ الشرق[3].

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٤٢١، ٤٤٢).

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٤٦، ٢٤٨)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٥٨، ٥٩، ٦٥، ٢١٣، ٢١٦)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع(٤)، (ص٢٠٣).

(٣) شكيب أرسلان: المرجع نفسه، (ص٧٦، ٧٧، ٢١٦).

ثالثاً: من الناحية الاجتماعية:

نتج عن احتلال النصارى لأكثر أراضي المسلمين في بلاد الأندلس هجرة الكثير من أصحاب الخبرة والنشاط إلى مالقة، واتخاذها مقراً وسكناً دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وبحثاً عن الأمان والرزق[1]، وهذا دفعهم للعمل في صناعة السفن بوصفها إحدى الصناعات المهمة في مدينة تقع على شاطئ البحر.

رابعاً: من الناحية الحربية:

بعدما أصبح النصارى قاب قوسين أو أدنى من احتلال جميع بلاد المسلمين في الأندلس[2] كانت مالقة - بحكم موقعها المهم ودورها الكبير - هي أكثر المدن الغرناطية تعرضاً للهجوم النصراني الذي بدأ يشتد أكثر من ذي قبل[3]، ولذلك كان المالقيون في حاجة ماسة إلى زيادة إنتاج السفن - وخاصة في أواخر القرن التاسع الهجري - من أجل حماية مدينتهم والدفاع عن الإسلام والمسلمين، ولكن النصارى في ذلك الوقت سيطروا على البحر المتوسط، وحطموا قوة المسلمين فيه مثلما حطموا قوتهم في أكثر جهات البر بالأندلس حتى إن حامداً الزغبي قائد المجاهدين شرع في ترميم المتهدم من أسوار مالقة، وعزم على صنع ست سفن حراقات ليهاجم بها أسطول النصارى[4]، إلا أنه لم يستطع على ما يبدو، فسقطت مالقة في يد الأسبان،

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص ١٤٩)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٢٠٠) وما بعدها، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٥٤، ٥٨، ٦٢، ٦٥، ٧٢)، ومحمد شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر، (ص١٨، ١٩)، واميليو غرسيه: الشعر الأندلسي، (ص٧١)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات، (ص١٠٤).

(٢) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، (ص٢٢٤، ٢٢٥)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٠٦).

(٣) ابن عاصم: جنة الرضا، جـ٢، (ص٢٩٣) وما بعدها، والمقري: المصدر نفسه، مج٤، (ص٤٤٤، ٥١٠).

(٤) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص ٢١٨، ٢١٩).

وظل ميناؤها يودّع آلاف المهاجرين من أهل الأندلس[1]، وفي عام (١٤٩٤م) زار الطبيب الألماني (خير ونيمو مونزر) مالقة، فشاهد فيها سبعة عقود كانت تستخدم مراسٍ للسفن والشواني[2].

ومن الصناعات الخشبية المهمة في مالقة التي تصنع من الخوص (سعف النخيل) المكانس والملاعق والأطباق كالأواني والسُفر والأعواد، وما يدخل في معناها من أدوات الطعام وأغراض الطبخ، وكان لها في مالقة سوق واسع تصنع فيه وتبتاع[3].

كما كان يُصنع في مالقة من الخشب كل ما يتصل بأدوات البناء في المنازل والمساجد وغيرها من السقوف والشبابيك والأبواب والشماسات والمقاصير والمنابر[4]، وقد برع من أهل مالقة في هذه الصناعة النجار يعيش المالقي الذي صنع مقصورة المسجد الجامع (جامع الكتيبة) في مراكش، وكانت تتكون من ستة أضلاع تتحرك بطريقة هندسية دقيقة تثير إعجاب كل من يشاهدها ولا تزال آثار قطعتين من الخشب الذي تهبط فيه المقصورة موجود في أرض الكتيبة[5].

(١) حسين مؤنس: رحلة الأندلس، (ص٢١٥).

(٢) الشواني: مفردها شيني أو شونة، وهي السفينة الحربية الضخمة التي تستخدم للهجوم والدفاع، وتسمى في الأسبانية (Galera). انظر الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٤٥، ٢٥٠)، ومحمد عبدالعزيز: البحرية العربية في الأندلس، (ص٧١).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٦، ٣٨، ٦٠، ٨٤)، والقلقشندي: صبح الأعشى، مج٥، (ص٢١٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٦٨)، والطوخي: المرجع نفسه، (ص٣١٢).

(٤) السقطي: المصدر نفسه، (ص ٣٦)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص ٢٤٧)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢١٨)، وكمال السيد: المرجع نفسه، (ص٣٠٥).

(٥) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، (ص١٤٤)، وعبدالعزيز سالم: العمارة الحربية في الأندلس، دائرة معارف الشعب (٦٤)، ١٩٥٩م، مطابع الشعب، (ص١٦٤)، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، (ص٤٩٥).

ومن الصناعات الخشبية المشهورة في مالقة أيضاً صناعة كل ما يتعلق بالأثاث المنزلي كالكراسي وتجهيزات الأعراس من الأسرَّة والصناديق وغيرها، التي تدل على سعة الأحوال وكثرة الأموال في مالقة[١]، هذا فضلاً عن صناعة أدوات الحرب؛ كالأبراج والسلالم والأسوار الخشبية[٢].

وإضافة إلى ما ذكرنا، فإنه كانت تُصنع من أشجار الحلفاء في مالقة حبال السُّفن والأوعية التي تحفظ الفاكهة الرطبة والبرغات[٣] و(القفاف) التي تستعمل في نقل الفخار، ولا سبيل إلى عملها من غير الحلفاء العصيرية على أية حال[٤]. وهناك نوع من قفاف الخدمة يُصنع من الحلفاء يقال له الردامي[٥]. بينما كانت تُصنع أوعية وزن الفاكهة اليابسة من شجر الدوم[٦] وكانت من قلوب شجر المقل تُصنع الغرابيل التي يُغربل (ينخل) فيها الدقيق وغيره[٧]. وفي الحقيقة إن الحديث عن الصناعات الخشبية في مالقة طويل ومتشعب، ولكن ما أوردناه يكفينا دلالة على كثرة وتطور تلك الصناعات.

صناعة الأطعمة والأشربة:

لكون الغذاء قوام صحة الأبدان وأول الأسباب في اعتدال مزاج الإنسان[٨]، وليس من سبيل في الاستغناء عنه، فإن ديننا الإسلامي حث على

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٩)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٥٥).

(٢) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٣)، شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٩، ٢٢٠).

(٣) البراغات: جمع برغة، وهي نعال تُصنع من نبات الحلفاء والقنب. انظر كمال السيد: المرجع السابق، الهامش، (ص١٢٧).

(٤) السقطي: المصدر السابق، (ص٢٥، ٣٢، ٣٤، ٨٠، ٨٧).

(٥) السقطي: المصدر نفسه، (ص٨٦).

(٦) السقطي: المصدر نفسه، (ص٣٤).

(٧) السقطي: المصدر نفسه، (ص٢٥، ٢٧، ٣٦، ٦٠، ٨٤).

(٨) التجيبي: فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، ط=

الاهتمام بالشراب والطعام، سواء كان طبيعياً أو مصنعاً كما في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾(1)، وقوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾(2)، وقوله: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾(3).

ولذلك تعد صناعة الأطعمة والأشربة القائمة على الإنتاج الزراعي والحيواني من أهم الصناعات التي برع فيها مسلمو الأندلس بما يتلاءم مع طبيعة بلادهم وعاداتهم وتقاليدهم(4)، ولهذا اهتم أهل مالقة بطعامهم وشرابهم، وتفننوا في صناعة ألوانه وطرق عمله وتقديمه، حتى إنه خرج من بين علمائها من ذكر كيفية تركيب الطعام والشراب في مؤلفاته؛ كالعالم السقطي المحتسب(5) وابن البيطار(6) الذي تخصص في إيراد أصناف الأغذية وفوائدها ومضارها، حتى إنه سمّى أحد كتبه باسم «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»(7)، دلالة على أهمية الدواء والغذاء.

ونتيجة لتوفر ضروب الأطعمة في مالقة وبلوغها حد الاكتفاء في الغالب،

= الثانية، ١٩٨٤م، دار الغرب الإسلامي. بيروت، (ص٢٩).

(١) سورة عبس، آية رقم (٢٤).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (٢٥٩).

(٣) سورة البقرة، آية رقم (٥٧).

(٤) مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، تحقيق أمبروزيو اويثي ميراندا، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مج٩-١٠، ٦١-١٩٦٢م، (ص٧٧)، التجيبي: فضالة الخوان، (ص٣٠).

(٥) انظر: في آداب الحسبة، (ص٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣).

(٦) أبو محمد عبدالله بن أحمد. ولد بمالقة في أواخر القرن السادس الهجري، وطاف بأقطار البحر المتوسط لدراسة أنواع النباتات، ثم كانت وفاته بغتة بدمشق في عام (٦٤٦هـ). انظر المقري: نفح الطيب، جـ٢، (ص٦٩٢)، جـ٣، (ص٣٧٧).

(٧) أعظم كتاب ألفه ابن البيطار في علم النبات على زمن الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، وقد سماه بالجامع؛ لجمعه بين الدواء والغذاء. انظر ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٣، ٤).

فإنها كانت تقوم بتصدير الفائض إلى الخارج[1]، وفي وقت الحروب تمد الجيوش العسكرية بكل ما تحتاجه من المواد الغذائية[2]. ومن جانب آخر فإن أهلها من كثرة أموالهم وتأصل الكرم في نفوسهم - خاصة التجار والعلماء - بالغوا في إقامة الدعوات الواسعة والتنوع في صناعة الأطعمة في المناسبات الخاصة - كالزواج - على جري العادة بين الناس[3].

ومن ذلك أنّ العالم ابن عسكر أعد في مناسبة زواجه الطعام على يومين، يوم للذبح، وهو يوم مهنة وتعب، ويوم للإطعام كان يطعم فيه الضيوف[4].

أما العالم محمد بن الحسن الجذامي، فإنه كان دائماً يكثر من إقامة الولائم الكبيرة، ويتوسع في حسن ضيافة من يحضرها من شيوخ بلده، بل كان في كل ليلة من ليالي رمضان يدعو عدداً من الفقهاء وكبار الشخصيات في منزله للإفطار مما لذ وطاب، مع تلاوة كتاب الله ودراسته[5]. وغيره كثير[6].

كما أن أهل مالقة أيضاً أسهموا بما لديهم من ألوان الطعام في أيام المحن والرزايا التي تحل بإخوانهم المسلمين[7] مثلما كانوا يتبرعون - على حسب استطاعتهم - للفقراء والمحتاجين من أهل مدينتهم[8] عملاً بقوله

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٢) ابن حيان: المقتبس، (ص٢٧، ٢٨)، وابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، (ص١٣٠)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٥)، والصريحي: ديوان ابن زمرك، (ص١٠٠).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص ٣٣١)، والقيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٣٨٩)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦، ٣٥٨)، الإحاطة، مج٤، (ص٢٤٢).

(٤) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص٣٣١).

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس،(ص١٢٢).

(٦) ابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٣).

(٧) النباهي: المصدر السابق، (ص١١٩، ١٢٢)، ابن الخطيب: المصدر السابق، (ص٥٢).

(٨) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص١١٠، ٢٩١، ٣٠٢، ٣٦٧).

تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[١].

وعن أصناف الأطعمة التي كان يجهزها الطباخون من أهل مالقة في المطابخ ثم يبيعونها في الأسواق نذكر:

(١) المرقاس[٢]:

يعد من أطيب الأطعمة وأحسنها، وكان يصنع من لحم فخذ الضأن، ويضاف له الأمعاء المحشوة بالشحم والدهن والثوم والخل والكمون وغيرها[٣]. ويقال: إنه نوع من المرق يدخل في تركيبة المواد المذكورة[٤].

(٢) الأحرش:

وهو في صناعته مثل المرقاس، سوى أنه يضاف له شيء يسير من دقيق الدرمك (السميد) والبيض[٥].

(٣) البلاجة:

كانت تصنع من الأكباد في قليل من الزيت مضاف لها الخبز الكثير والكزبرة اليابسة والكركم وغيره[٦]، وقد تصنع من لحم الطيور ولحم الغنم وشحمه وأمعائه وكبده وقلبه بعد تقطيعها إلى أجزاء صغيرة[٧]. ويشير أحد الباحثين إلى أن البلاجة هي فطائر محشوة بالدجاج[٨].

---

(١) سورة البلد، آية رقم (١٤، ١٥، ١٦).

(٢) يقال له: المركاس، وهو خطأ، ويُعرف عند أهل مصر (بالسجق) وهو نقانق تحشى باللحم المدقوق ثم تقلى. انظر الأهواني: ألفاظ مغربية، (ص٣١٢).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٤٧)، ومؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس، (ص٢١).

(٤) السقطي: المصدر نفسه، الهامش، (ص٤٧).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٤٧). ولمعرفة كيفية طريقة عمل الأحرش، انظر: مؤلف مجهول: المصدر السابق، (ص٢٢).

(٦) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٤).

(٧) لمعرفة كيفية صنع البلاجة. انظر مؤلف مجهول: المصدر السابق، (ص٤٩)، والسقطي: المصدر السابق، الهامش، (ص٥٥).

(٨) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٩٧).

(٤) التفايا والأطرية:

تعد «التفايا من أجلّ الأغذية وأعدلها كيموساً وأوفقها لكل مزاج»[١]، ولها عدة أنواع، وكانت تُصنع من لحم الضأن والتوابل والماء والزيت واللوز وغيره[٢]، أما الأطرية كالمكرونة، فهي صنف من الطعام كالخيوط، كان أهل مالقة يصنعونه من الدقيق، ويطبخونه في الماء بلحم وغير لحم[٣]. كما كانوا يأكلون لحوم صدر الدجاج[٤].

(٥) الصيود كالغرنوق:

كانت تحضّر وهي طرية وتطبخ في الطواجن بعد وضع الخل والزيت والثوم والملح، وتقلّب على الوجهين، ويُذر عليها الطيب، ثم تُباع. وهي في غاية اللون والطعم[٥].

وقد أدى وقوع مالقة على البحر المتوسط إلى إقبال سكانها على صيد الأسماك، والعمل في صناعة معالجتها وتجفيفها وتمليحها في خارج المدينة على مقربة من الساحل[٦] منذ القدم؛ بدليل أن تسمية مالقة (Malaga) بهذا الاسم إنما جاءت لكونها مركزاً لتمليح الأسماك ومستودعاً لحفظه[٧]، وقد

---

(١) مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس، (ص٨٥).

(٢) المقري: نفح الطيب، مج٣، (ص١٢٧، ١٢٨)، ومؤلف مجهول: المصدر السابق (ص٨٦، ٨٧، ١١٨، ١١٩).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص ٤٦)، وابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٥٣)، والخطابي: الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، مجلدان، ط (١)، ١٩٨٨م، دار الغرب الإسلامي. بيروت، مج٢، (ص٣٦٣).

(٤) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٦)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٢١٨)، والمقري: المصدر السابق، مج٤، (ص٢٠٤).

(٥) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٥).

(٦) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٧٤، ٧٥)، والمقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص١٢٨)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٢، ٣١١).

(٧) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، (ص٢٤).

استمرت هذه الصناعة طوال الحكم الإسلامي ولم تتوقف حتى بعد سقوط المدينة في يد النصارى؛ إذ حظيت باهتمام وتطوير الملكين الكاثوليكيين[١]. ومما لا شك فيه إن صناعة تمليح الأسماك وحفظه تعد أهم الصناعات الغذائية التقليدية المشهورة التي تفوقت فيها مالقة بين مدن الأندلس[٢].

ومن الأسماك التي كان يستخرجها أهل منطقة مالقة من البحر المتوسط بكميات كبيرة، وتحظى بعملية التحضير والحفظ: (الطون) و(التونة) الذي اتخذته المستعمرات الفينيقية في أسبانيا شعاراً لها، ورسمته على نقودها على شكل سمكتين[٣] وربما يقصد به حوت التن السمين الطيب، الذي لا يوجد مثله في البحر المتوسط، ويصاد على طول شهر مايو في موانئ سواحل الأندلس ثم يؤكل طازجاً. ولعلَّ حوت ميناء مربلة السمين الذي ذكره ابن الخطيب هو حوت التن الذي كان يصاد بالشِّباك فيها مع سمكها الممتاز المعروف باسم (السردين)[٤]، كما اشتهرت سهيل والمنكب وبزليانة من منطقة مالقة بأنواع الحوت الطيب أيضاً، الذي كان يوزّع بعد اصطياده بالشباك على الجهات المجاورة[٥].

ومن هذه الأهمية والوفرة دخلت الأسماك في صناعة العديد من الأطعمة التي مهر أهل الأندلس في تجهيزها وتقديمها[٦]، بل إن كثيراً من أهل مالقة

---

(١) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٢، ٣١١).

(٢) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥)، والطوخي: المرجع السابق، (ص٣٠٢، ٣١١)، وعصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، (ص١٨٠).

(٣) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، (ص٢٥)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٢).

(٤) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١، ٥٤)، والزهري: الجغرافية، (ص١٢٠).

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص ٥٦٥)، وابن الخطيب: المصدر نفسه، (ص٥٤)، والحميري: الروض المعطار، (ص٥٤).

(٦) مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس، (ص١٧٣) وما بعدها.

جعلوا من الأسماك وجبة رئيسة كالغداء يتناولونه فيها[1]. ولجودة أسماك مالقة ولذة طعمها، فإن ألفونسو المحارب عندما قام بحملته الصليبية على أيام المرابطين لم يفوّت الفرصة في أن يصنع مركباً بحرياً صغيراً اصطاد به حوتاً، وأكل منه في بلّش مالقة[2].

ونجد في كتب الطبخ والحسبة توجيهات وإرشادات تنم عن المهارة في هذا اللون من الحِرَف والصناعات، والحرص التام على سلامة الغذاء وصحة المجتمع؛ ومن ذلك ما كان يجب على طباخي الحوت - لا سيما الكبير منه - أن يسلقوه في ماء مغلي بعد تقشيره وتقطيعه، ثم يغسلونه بعد خروجه من الماء، ويترك حتى يُمصل من مائه. وحينئذ يحكم طبخه[3]. كما شدد السقطي على الطباخين بشكل عام، فقال: «وأما الطباخون، فلا يتركون يطبخون بالليل ولا في السَّحَر، ولا في الديار الخالية والمواضع الغابية، وليطبخوا في حوانيت مجصَّصة مسطحة يتمكن من غسلها في كل الأوقات، ويتناولون أشغالهم بضوء المصباح، وبحيث لا يخفى شيء من أمورهم حتى يشاهد الثقة المقدم عليهم تنظيفهم اللحم، وضمه في القدور، ورفعها على النار بعد وضع الأبازير فيها وما لابد منه لطبخها. وفي هذا القصد يختلف الصناع فمنهم خفيف الحركة كثير النشاط مولع بالتعجيل، ومنهم من يتقرب النضج بالماء القوي الغليان وبالتحريك بعود الذكار، فيكمل عمله مبكراً للغداء، ومنهم من يتأخر عن ذلك الموقف، ومع ذلك فيكون بين يديه أثناء تناوله للعمل قبل الرفع على النار متعلم يخفق بمروحة تدفع الذباب، فما حمل من القدور بالأبازير صُفّت إلى جهة وغُطّت بمنديل نظيف إلى حين الرفع على النار، فإذا

(١) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٦)، (ص٤٤١)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٦٧).

(٢) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، (ص٩١، ٩٢)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص١١٢).

(٣) مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس، (ص١٧٢)، والتجيبي: فضالة الخوان، (ص١٩٧).

ظهر للناس تناول الطباخ وبحث الثقة وتفقّد المحتسب، وجيف أو كان الطباخ مأموناً مع ظهور تناوله، أمن الناس الفساد، واطمأنوا لصحة العمل ولم يخافوا»[1].

(٦) الهرائس المقلوة:

جرت العادة بين الناس على أكل الهريسة بالعجين المقلو بالزيت[2] وهي أصناف؛ منها: هريسة الشحم والقمح، وكانت تعد من دقيق القمح ولحم الغنم وشحمه المذاب، أو لحم صدور الدجاج، أو غير ذلك[3].

والواجب على طباخيها ألا يقلّلوا اللحم ويكثروا الدرج[4] والماء حتى لا تأتي الهريسة وقد غلب عليها الدقيق؛ أي هريسة مجرية[5]، كما ينبغي عليهم الاهتمام بنظافة أجسادهم وأدوات الاستخدام كالقدور[6].

(٧) الإسفنج (الزلابية):

هي نوع من أنواع الحلوى[7] وكانت تصنع من السميد والدقيق والبيض والجوز واللوز والفستق والعسل والخميرة، وبعد أن تصبح عجيناً محشواً تقطع إلى لقيمات، ثم تُقلى في زيت كثير[8].

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٠).

(٢) مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس، (ص١٩١).

(٣) السقطي: المصدر السابق، (ص٤٦)، للتعرف إلى كيفية عمل الهرائس. انظر مؤلف مجهول: المصدر نفسه، (ص١٩١، ١٩٢).

(٤) الدرج: سخينة مطبوخة مصبوغة بماء المغرة. انظر السقطي: المصدر السابق، (ص٥٢).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٢).

(٦) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٢).

(٧) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٩٢)، والخطابي: الطب والأطباء في الأندلس، جـ٢، (ص٣٦٢).

(٨) لمعرفة طريقة تحضير الإسفنج. انظر مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس، (ص٢١٦).

(٨) الكعك والمسمنات وأصناف المربى:

يُصنع الكعك والمسمنات من دقيق الدرمك والزيت والماء والخميرة واللوز والعسل والسكر والسمن[١]. أما المربى، فقد كان أهل مالقة يعدّون منه أنواعاً كثيرة؛ كمربى الزنجبيل والعنب والجزر والشقاقل والسفرجل والتفاح وغيرها، وكانوا يستخدمونها في تركيب الأدوية، ويغشون فيها إما بأوراق البقول أو اللفت أو بالقرع الرطب، أو غير ذلك[٢].

(٩) المجبنات تعرف في اللغة القشتالية (المخبنة :Al - Mojabana)

هي نوع من الفطائر أو القطائف التي تُحشى بالجبن، ثم تُقلى في زيت الزيتون الكثير الطيب[٣]، ويجب على صُنّاعها أن يغسلوا الجبن وينظفوه ويعجنوه بالماء الساخن، ثم يصبوا عليه الماء الأكثر سخونة ثم يفرشوه على الصحن للتجهيز. ولكنهم قد يغشون في ذلك، فيخلطون الدقيق المدهون بالدرمك أو السميد، أو قد يكثرون العجين في الجبن، وهو ما يعرف باسم (الطرف) أو غير ذلك[٤]، وفيها قيل: «اعلم أن المجبنة لا تتهيأ من جبن واحد، بل من الجبنين؛ أعني: البقري والغنمي؛ لأنها إن عملت بجبن الغنم وحده تتفتق، فيخرج الجبن منها ويسيل، وإن عملت بجبن البقر تشرَّك واستدار وصار لحمة واحدة، ولم تفترق أجزاؤه، والأصل في صنعتها أن تمزج الجبنتين»[٥].

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٤)، لمعرفة طريقة تجهيز الكعك والمسمنات. انظر مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس، (ص١٩٨، ٢٠٨).

(٢) السقطي: المصدر نفسه (ص٥٩، ٦٠).

(٣) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٨٤)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، الهامش، (ص٢٥٩)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٩١)، وعصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، (ص١٧٧).

(٤) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٢، ٥٣)، للزيادة في معرفة تحضير المجبنات. انظر مؤلف مجهول: المصدر السابق، (ص٢٠٠).

(٥) مؤلف مجهول: المصدر السابق، (ص١٩٩).

وفي وصف المجبنات قال الشاعر:

ومصفرة الخدين مطوية الحشا
على الجبن والمصفر يؤذن بالخوف
لها هيئة كالشمس عند طلوعها
لكنها في الحين تغرب في الجوف[1]

ويشير ابن الخطيب في ترجمة محمد بن قاسم الأنصاري[2] من أهل مالقة إلى عدد من المطاعم والحلويات الشعبية؛ كالمجبنة - التي لا تزال بعض المدن المغربية العريقة، مثل فاس تحافظ على صناعتها حتى اليوم - والشواء[3] الذي يقدم في الولائم والمناسبات المختلفة، ويباع في الأسواق، ويكثر تداوله في بلاد المغرب حتى اليوم، وغير ذلك من أصناف الأطعمة التي يتناولها أهل الأندلس[4] فيقول ابن الخطيب لمحمد بن قاسم: «فكن لقالي المجبنة قالياً، ولحوت السلة سالياً... وارفض في الشواء دواعي الأهوا، وكن على الهراس وصاحب فريد الراس شديد المراس، ويثب على بايع طبيخ الأعراس»[5].

(١٠) صناعة الخبز والطواحين:

تعدُّ صناعة الخبز (سيد الأقوات) من أهم الصناعات الغذائية التي تتصل بصناعة الأرحية في مالقة، وذلك لأن الخبز المصنوع أصله دقيق مطحون من القمح أو الشعير أو غيره من الحبوب[6].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص١٥٨)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص٢٠٥).

(٢) محمد بن قاسم الأنصاري، يكنى أبا عبدالله، ويعرف بالشّديد. تردد إلى غرناطة وأقام كثيراً بها، ومولده في مالقة عام (٧١٠هـ). انظر: الإحاطة، مج٣، (ص١٩٦).

(٣) الشواء: من الأطعمة البسيطة غير المركبة. وهو بطيء الهضم، كثير الغذاء. انظر مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس، (ص٢٨، ٣٨).

(٤) المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية، (ص٥٠).

(٥) انظر: الإحاطة، مج٣، (ص١٩٨).

(٦) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٢٠).

ومن أجود أنواع الدقيق التي يُصنع منها الخبز في مالقة دقيق الدرمك (السميد) ويمتاز بشدة البياض والانتفاخ. أما دقيق المدهون، فهو أقل جودة وبياضاً منه[١]، ولكن وجد بالقرب من أرحية مالقة غار فيه تراب أبيض يقوم أهل الدقيق والخبازون بخلطه مع العجين، فيصبح الخبز منتفخاً مختمراً كأن دقيقه من الدرمك[٢]. وفيه قيل:

فليس يرتفع مـــثل الدرمك
وبتـراب مـخـمـر كما حكي
إن تراباً قـرب أرحى مـالقـه
مـخـمـر وفي البـياض وافـقـه[٣]

وفي الحقيقة أن كثيراً من باعة الدقيق والخبازين أهل جرأة وغش، لا يرتدعون إلا بالقوة وشدة العقاب. ومن أساليب غشهم: أنهم يصنعون الخبز من الدقيق المهبى (المتحول إلى ذرات صغيرة كالغبار) أو من كثير النخال، مما يؤدي إلى احتراق الخبز وعدم استوائه، أو يخلطون الطيب من الدقيق مع اللطيف ويبيعون الجميع بسَوْم الطيب، ويخلطون المدهون مع الدرمك[٤] ومثال ذلك أن السقطي يقول: «ولقد أخبرني عدل من الشهود، كَيِّسٌ من جِلَّة الطلبة أنه نزل في ليلة من الليالي في علو مبتنى رحى تُصنع فيها الطرامج[٥] وكان في ذلك المبتنى طاق يشرف منه على داخل الرحى، فانتبهت يقول: من آخر الليل ولم أسمع دوي الطحن، فنظرت في جوف الرحى، فإذا الطحان قد أخذ

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، الهامش، (ص٢٤٩).

(٢) الدرمك: نوع من القمح الجيد. انظر السقطي: المصدر نفسه، (ص٣٦، ٣٧).

(٣) السقطي: المصدر نفسه، (ص١٤).

(٤) السقطي: المصدر نفسه، (ص٣٥، ٣٦، ٤١، ٨٥).

(٥) نوع من الخبز يسمى خبز الملَّة.

من دقيق الدرمك جزءاً وأزاله إلى ناحية ووضع عوضه من دقيق المدهون ووضع الدقيق بعد أن غربله ووضع في النخال مغربل كنس الرحى، ورأيته في ليلة أخرى وقد أخذ أعدال القمح وفتح عنها واستسقى الماء وسقى القمح بها وقد أخذ منه بقدور الماء قمحاً واستأثر به، فزاد القمح بذلك ليناً ورخوصة، وتركه إلى أن دخل الليل ورفعه للطحن ولما حدث فيه من الرخاوة لم تزل الرحى تشبك عليه مرة بعد أخرى، ويتغير الدقيق ويفسد لونه، ولم يكن له بد من أن يرفع الحجر إثر كل عدل وينقشه ومع كثرة النقش وقع الحجر في الدقيق مع ما يخرج من تضريس الحجر عند الدور حتى فحُش لكثرته، فتحصل من أمره بما فعل أن حال وأفسد»[1].

وكان الخبز يختلف في الجودة والاستواء حسب مكان تحضيره. وفي ذلك يقول ابن البيطار: «وأما خبز الفرن، فدون خبز التنور في الجودة؛ لأن باطنه لا ينضج نضج ظاهره، وأما الذي يخبز في الطابق، أو يدفن في الجمر، فكله رديء؛ لأن باطنه نيئ ولا ينضج بالسوية»[2]. وقد عرف ابن البيطار كيفية صنع الخبز المركب من أجود أنواع القمح الذي يُخمّر ويكون خفيفاً خالياً من الشوائب[3]. وفي طريقة تحضير الخبز يقول السقطي: «وعجينة الخباز أربعة أرباع دقيق، والغبار بها من رطلين إلى ثلاثة، ولا يجعل الماء في ذلك بارداً ولا هو يغلي، بل يكون وسطاً، ويجعل اليد عليه مرات يعجن ويدرس ويوزن ويسلخ ويقرص ويجعل صفين ويغطى»[4].

وعلى صناع الخبز أن يتخذوا طابعاً خاصاً بهم ينقش فيه كل صانع اسمه،

---

(١) انظر: في آداب الحسبة، (ص٣٦، ٣٧).

(٢) انظر: الجامع، مج٢، (ص٣١٣، ٣١٤).

(٣) محمد أبو الفضل: أضواء على النشاط العلمي، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، (ص٤٣٢).

(٤) انظر: في آداب الحسبة، (ص٨٥).

ويطبعه على خبزه لتمييزه وإقامة الحجة عليه[١]. ولم تكن النساء المالقيات بمعزل عن صناعة الخبز فقد قام بعضهن بعمل الخبز لبيعه في الأسواق.

ولكون الخبز له شكل ووزن محدَّدان، ويباع في الميزان، فإن باعته اتخذوا موازين ليختبروه بالوزن إذا وصلهم، فإن وجدوه وازناً باعوه، وإن كان ناقصاً تركوه لصناعه[٢]. وكان أهل مالقة - في الغالب - يشترون الخبز يومياً من الخباز أو من المحلات المخصصة لبيعه في السوق[٣]، وقد أفادت الرواية المسيحية بأنه وُجِد عند الاحتلال النصراني في داخل مدينة مالقة أفران وفندق ومسجد وغيره[٤] وفي ربض بلّش مالقة ثلاثة أفران[٥].

أما صناعة طحن الغلال، فلمَّا كانت الحبوب من الأغذية الأساسية المهمة في حياة الإنسان[٦]، فقد انتشرت الأرحاء بكثرة في مالقة وما حولها من القرى لطحنها، سواء كان قمحاً أو شعيراً أو غير ذلك. وكانت الأرحاء تعمل بقوة تيار الماء على مقربة من مواضعه كالجداول الجارية أو بواسطة الدواب أو الرياح[٧] وفي ذلك يقول ابن الخطيب عن أرحاء مالقة «وأرحيتها تطرقها النوائب، وتصيب أهدافها السهام الصوائب، وتعد لها الجنائب، وتستخدم فيها الصبا والجنائب»[٨]. وبرز من أهل مالقة في صناعة الطواحين الحاج يعيش؛

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٥).

(٢) السقطي: المصدر نفسه، (ص٢٦، ٤٦).

(٣) السقطي: المصدر نفسه، (ص٣٤، ٣٥).

(٤) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٢٤، ٢٦).

(٥) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٨١).

(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٢٧).

(٧) السقطي: المصدر السابق، (ص٣٨، ٣٩، ٤٠)، ومحمود عبدالعزيز: التخطيط ومظاهر العمران في العصور الإسلامية الوسطى، المجلة، ع ٩، ١٩٥٧م، القاهرة (ص٥٨)، والعبادي: الزراعة في الأندلس، الندوة، (ص١١٥)، وتوريس بالباس: المرجع السابق، (ص٢٣١).

(٨) انظر: معيار الاختيار، (ص٥٣).

حيث صنع في أعلى جبل طارق رحى هوائية تطحن الأقوات بالرياح لأول مرة في عام (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) على عهد الخليفة عبدالمؤمن الموحدي[١] وهي صناعته تقنية حديثة اعتمدت على الرياح مصدراً للطاقة في الدفع والتحريك.

وكان بعض الطحانين في مالقة يهتمون بأرحيتهم، فيحسنون اختيار مواقعها، ويقومون بتنظيفها وإعدادها للطحن، ويشركون معهم في العمل مقابل أجر معين صبياناً يعلمونهم أساليب الغش التي يلجؤون إليها؛ كسرقة الدقيق، أو سقي القمح بالماء، أو خلطه بالتراب الأبيض، أو بعظام الحيوانات، أو غير ذلك[٢]. ويكفينا مثالاً على ذلك ما يقوله السقطي المحتسب: «وقد كنت أيام نظري في الحسبة قد بايت جماعة من الشهود والأمناء في رحى لعمل قيمة الدقيق، فجاء الطحان وكنس الرحى وأعده للطحن ورفع القمح في الغنص، وخرج عن الرحى، وذهب وترك صبياً مناهزاً في سنه يتصرف بالرحى. ولم يزل الصبي عرياناً في تشمير له وليس بالرحى شيء غير عدل فارغ مفروش إلى جهة كان الصبي يرجع إليه، ويمتد عليه إذا أراد أن يستريح، وحان وقت صلاة المغرب، فخرجت لتجديد الوضوء وخرج من كان معي، وتركت أحد ثقاتي بالرحى، ولم ير غير ذلك الصبي الصغير احتقره وخرج بعدي لتجديد الوضوء كذلك، وعندما رأيته وقع في خاطري أنه أتى علينا والقمح بالرحى، فانتبهت على تركه إياه، ورجعت إلى الرحى، ولم أر به ما تغير، وأشعرت الحاضرين بما اتفق، لكن لم يمكنني في ذلك الحين اختبار شيء من ذلك، وبقيت إلى أن كمل الطحين مع انصداع الفجر، ووزن الدقيق، فنقص من الوزن الأول نصف ربع واحد، فوجهت عن المعلم وعرفته، فتجاهل ووقف معي أنه لم يحضر، واشتددت

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، (ص٨٨)، والعبادي: صور من حياة الحرب والجهاد، (ص٢١٧).

(٢) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤١).

في ذلك عليه وعلى الصبي، وعندما ظن في العزم على الإيقاع وتخيل ذلك مني قال للصبي: هذا أمر لا ينجيني منه إلا أن ترد ما أخذت، فقام الصبي وكشف العدل عن حفرتين مملوءتين، فأخذ وأوزن، فكان نصف الربع الذي نقص»(١).

وكان ممن يطحن الحبوب في مالقة إلى جانب الطحانين (ملاك الأرحية) الميار، وهو شخص يشتري القمح ويجلبه على دابته، ثم يطحنه في الرحى ويبيعه بعد ذلك دقيقاً في الأماكن المخصصة له(٢).

صناعة الأشربة:

نتج عن وفرة الفاكهة الطبيعية والنباتات العطرية والحيوانات قيام صناعة الشراب وازدهارها في مالقة، التي اختصت بالطيّب الحلال منه والحرام(٣).

ومن المشروبات التي كان يبيعها العطارون في المحلات ويشربها سكان مالقة أو يعملونها في منازلهم: الحليب واللبن. وكانت تصنع من الحليب

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٨، ٣٩).

(٢) السقطي: المصدر نفسه، (ص٣٩).

(٣) الخمر من الأشربة المحرمة التي أدى اختلاط الأجناس البشرية وضعف الوازع الديني وفساد الأخلاق ووفرة فاكهة التين والعنب في مالقة إلى قيام صناعتها فيها، وتقدمها على المدن الأندلسية في هذه الصناعة، لدرجة أنه أصبح يضرب المثل بالشراب المالقي الحلال منه والحرام. وقد قيل لأحد الملوك حين أشرف على الموت: اسأل ربك المغفرة فرفع يده، وقال: يارب أسألك من جميع ما في الجنة خمر مالقة وزبيب إشبيلية.
ومن هذه العادة الذميمة يقف الشرع الإسلامي موقفاً واضحاً؛ إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، [سورة المائدة، آية رقم (٩٠)]، وانظر: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٧١) وما بعدها، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٧٠)، والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٢٤)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٤٣)، مالقة الإسلامية، (ص٥٩، ٦٠)، وسعيد عبدالفتاح: الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، (ص١٠٧، ١٠٨).

الطبيعي المستخرج من الحيوانات، وشراب التفاح والتمر الهندي وشراب البنفسج والعناب، وهي سريعة الفساد أكثر من غيرها، وكان الدروان نوع من العصير الأسود النباتي[١].

صناعة السكر والعسل:

قامت هذه الصناعة على الإنتاج الزراعي لمحصول القصب الذي جلبه المسلمون من المشرق إلى الأندلس، وتوسعوا في زراعته في الجهات الساحلية ذات التربة الرطبة[٢]، وكانت مالقة وشمجيلة من أهم مراكز إنتاجه وتصديره[٣]، وظل الصناع يصنعون مادة السكر طوال الحكم الإسلامي حتى تضاءل إنتاجه بعد سقوطها ورحيل المسلمين عن الأندلس[٤].

أما العسل، فقد كان صناعه يجمعونه من المناحل المنتشرة في أرض مالقة، ويجهزونه ثم يدخلونه في العديد من الصناعات؛ كصناعة المعاجين والعقاقير والحلوى التي كان المالقيون يتناولونها بشراهة منذ القدم حتى العصر الحديث[٥].

صناعة الخل:

عرف أهل مالقة - مثل بقية سكان الأندلس - صناعة الخل من العنب واستخدامه في فنون الطبخ وأمور الصيدلة[٦]، ولا تخلو هذه الصناعة من الغش؛ حيث يقول السقطي: «وإذا قطر الخل الخالص على الأرض نش، وإذا

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦١، ٦٥).

(٢) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٢٤).

(٣) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٦، ٦٠)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص١٢٤)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٩٠).

(٤) العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، (ص١٥١).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٨، ٦٠، ٦١).
G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2, P. 470.

(٦) السقطي: المصدر نفسه، (ص٥١، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٦٢)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص٢٥٨).

كان قد غش بالماء لم ينش، وإذا غمست فيه ديسة من البردي شربت الماء دون الخل»[١].

صناعة تجفيف الفواكه:

برع أهل مالقة في صناعة تجفيف الفواكه؛ كالتين وكذلك العنب لإنتاج الزبيب وخاصة في قرية شاط التابعة لمالقة[٢]، حيث جاء في وصف زبيبها أنه في غاية الحسن، كبير المقدار، أحمر اللون، يصحب طعمه مزازة[٣]، وكان في عملية التجفيف يفرز العنب بعناية، ثم يعرض للشمس على أسطح المنازل ليدخل فيما بعد في كثير من الأطعمة الأندلسية[٤] كما كان يوجد في بلّش مالقة التين اليابس بكميات ضخمة[٥].

صناعة الزيت:

إلى جانب الكتان والقرطم[٦] يعدُّ الزيتون أهم المصادر النباتية التي يستخرج منها الزيت في مالقة وما يتبعها كبلّش وقمارش، وكذلك أرجدونه وهو اسم مشتق من (Eteledana)، ومعناه معصرة الزيت[٧]، وقد ظلت مالقة تنتج الزيت بكثرة طوال أيام الحكم الإسلامي ولا يزال يشكل نسبة كبيرة من

(١) انظر: في آداب الحسبة، (ص٨٥).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٨، ٢١٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٥٧، ٢٥٨)، G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2, P. 469

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٤).

(٤) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣١١)، وعصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، (ص١٧٨).

(٥) محمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص١٠٦).

(٦) القرطم: هو العصفر. انظر ابن البيطار: الجامع، مج٢، (ص٢٥٩).

(٧) الأنصاري: نخبة الدهر، (ص٢٤٤)، السقطي: في آداب الحسبة، (ص٨٤، ٨٥)، القيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٤٩٧)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣، ٥٤)، ومحمد عنان: المرجع السابق، (ص١٠٦).

إنتاج زيت زيتون أسبانيا حتى يومنا هذا[١]. وكان الزياتون أصحاب المعاصر التي تدار بقوة تيار الماء أو الدواب يستخلصون الزيت من الزيتون إما عن طريق الطحن، وفي هذه الحالة يسمى زيت الماء، وهو أفضل الأنواع. أو عن طريق العصر، ويسمى زيت المعصرة، أو عن طريق الغلي، ويسمى الزيت المطبوخ، الذي يدخل في صناعة العديد من الأطعمة[٢].

ولا تخلو صناعة الزيت من الغش والخداع؛ فقد تُعصر زريعة الكتان في معاصر الزيتون، فيقوم المحتسب بمنع ذلك لكي لا تعلق رائحته بالزيت، أو قد يغش البان[٣] بالزيت المغسول، ويلقى فيه «أطراف الآس الأخضر لتظهر فيه خضرة تقارب بها البان»[٤].

وأما مواقع معاصر الزيوت، فإنها دائماً تكون قريبة من الميناء لكي تسهل عملية التصدير[٥]. أما طرق اختزان الزيت؛ فينبغي اختزانه في أوان نظيفة توضع في مواضع ذات برودة ويبوسة، ويجعل معه قليل من الملح وورق الزيتون وغيره، ثم يحرّك حتى تختلط، ثم يوضع في الظل لكي لا يتغير وتطيب رائحته[٦]، وقد وجد في القرن العشرين الميلادي بهضبة مارموياس الواقعة في شرق مالقة خوابٍ ضخمة لحفظ الحبوب والزيوت، كما وجد في موضع آخر من الهضبة بعض الحجرات وبجوارها معصرة للزيت[٧].

---

(١) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٢٣)، العبادي: الزراعة في الأندلس، (ص١١٦)، Provencal: Histore de L'Espagne MusuimAne . Tome 3 p. 266.275.

(٢) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٤١)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٣٩).

(٣) البان: شجر طويل يشبه نبات الأثل، وورقه شديد الخضرة، يستخرج منه دهن البان. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج١، (ص١٠٨).

(٤) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٢، ٨٤).

(٥) عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، (ص١٢٦).

(٦) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٤٢).

(٧) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٢، ٤٣).

ويبدو أن كمية الإنتاج الكبيرة من الزيت في مالقة أدت إلى ازدهار صناعة الصابون المستخدم في نظافة الأبدان[١].

صناعة العقاقير والأدوية:

نتج عن كثرة النباتات الطبية والأعشاب الطبيعية والثروة المعدنية في مالقة قيام صناعة العقاقير والأدوية المفردة والمركبة، واستخلاص الأدهان، وتصنيع المعاجين على أيدي الصيادلة والعطارين[٢] الذين قال فيهم المحتسب المالقي: «هؤلاء قوم شغلهم أوسع الأشغال، وأمورهم مختلفة الأحوال، والكشف عنهم صعب المرام، وغش مفسديهم لا يكاد يحصر ولا يرام»[٣]، فكانوا يغشون الميعة السائلة[٤] بعلك الشوك، والمصطكي[٥] بصمغ شجر الضرو، والسقمونيا[٦] بالمقل الأزرق[٧]، والسنبل بمسحوق الكحل، والأفيون[٨] بالماميثا[٩]، والمحمودة الأنطاكية بدقيق الكرسنة[١٠]،

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٨٣).

(٢) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٦)، المقري: أزهار الرياض، جـ١، (ص١٢٨).

(٣) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٦).

(٤) الميعة السائلة: صمغ أبيض يستخرج من شجرة تشبه شجرة السفرجل، وهي علاج للأمراض الصدرية. انظر ابن البيطار: الجامع، مج٢، (ص٤٤٦).

(٥) المصطكي: هو صمغ شجرة المصطكي (علك الروم) وله عدة ألوان كالأسود والأبيض. انظر ابن البيطار: الجامع، مج٢، (ص٤٤٩).

(٦) السقمونيا (المحمودة الأنطاكية): وهي مادة صمغية تستخرج من نبات ذي أغصان كبيرة، ولا تتغير لمدة طويلة. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٢٣، ٢٤).

(٧) المقل الأزرق: هو مادة صمغية تستخرج من شجرة المقل وكان طيب الرائحة إذا بخر به. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٤٥٣).

(٨) الأفيون: هو صمغ الخشخاش الأسود، ويستعمل مخدراً في الطب. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص٦١).

(٩) ماميثا: دواء تُعالج به العين. وشجره يشبه الخشخاش المقرّن في زهره وورقه وثمره، ينبت في البراري والأراضي الرطبة. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٤٠٤).

(١٠) الكرسنة: شجرة صغيرة دقيقة الورق والأغصان. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص٣٢٣).

والحضض[1] بمرارة البقر، والأدهان كلها؛ كدهن البلسان ودهن البطم[2] ودهن السوسن ودهن حب القطن بدهن الشيرج[3] وغير ذلك كثير[4].

ولذلك، فالواجب على الصيادلة الأمناء العارفين بطبيعة العمل مراقبة المفسدين منهم ومحاسبتهم. كيف لا وقد بلغ مجموع العقار نحو ثلاثة آلاف نوع يوجد لها أشباه تماثلها في الصفة والنوع[5].

أما المركبات والمعاجين التي كانت تصنع وتباع كسائر الأدوية والعطور في الأسواق وداخل مجتمعات العوام من الناس، وفي مداخل الطرق ورحباتها؛ فإن بعض الصيادلة - أيضاً - غشوا فيها، وخلطوا مثلاً السميد المقلو في الطاجن بالكمونية والأنيسون والأبازير وغيرها من المعاجين[6]، وفي ذلك يحكي السقطي المحتسب عن أحد الصيادلة ويقول: «واختطرت يوماً على واحد منهم وقد اعتم وارتدى في زي حاج، وبسط بساطاً نظيفاً، وصفّ بين يديه قراطيس كباراً غير مشدودة من الكاغيد الملون فيها أنواع من العقار الهندي، ومعه مهراس نحاس، وعن يمينه طبق عود كبير جديد بديع الدهان رائق المنظر مملوءاً أنيسوناً مطحوناً خلط معه من السميد المقلو مثلاً بمثل أو قريباً من ذلك، وعلى يساره نافخ نحاس وعليه طنجير نحاس قد وضع فيه عسلاً ورفعه على النار، وجعل يأخذ من ذلك العقار شيئاً شيئاً بقدر ما يدرى أنه يفوه به

(١) الحضض (الخولان): دواء رطب يستخرج من شجرة مشوكة، ويستعمل في مداواة القروح وغيرها. انظر ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٢٧٩، ٣٥٥).

(٢) البطم: شجرة الحبة الخضراء التي تنبت في الجبال. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص١٣٤).

(٣) دهن الشيرج: دهن يصنع من السمسم. انظر الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس، مج٢، (ص٢٦٣).

(٤) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٦، ٥٧).

(٥) السقطي: المصدر نفسه، (ص٥٨).

(٦) السقطي: المصدر نفسه، (ص٥٩، ٦٠).

ذلك المجموع في الطبق، ودرسه ونخله بمنخل ظريف له، وغلى العسل في أثناء ذلك وارتفع، وهو يوهم الحاضرين عليه المشاهدين لفعله أنه إنما يصنع المعجون من العقار المذكور. فلما ارتفع العسل قليلاً أنزله عن النار، وحركه بملعقة كانت بيده حتى رضي سخانته، ثم ألقى فيه العقار المسحوق وحركه، ثم صبه على المجموع المذكور في الطبق وعجينه في ذلك الغبار، واتخذه رغفاً رقاقاً بعد أن وضع فيه فانيد أبيض، وشغل الناس بالكلام في أثناء تصرفه بإنشاد قصيدة ووصف حكاية حتى اشتدت الرغف ببرد الهواء، وقطعها قطعاً بمقص عنده، ووضعها في قراطيس، وباعها منهم بالزحام على جوارش أنيسون بمثل ما كانوا يشترون به الطيب الذي لم يخلط فيه سميد. وكذلك يفعلون بالأكحال والشيفات(1) والشحوم ويلونونها بالأصباغ»(2).

ومن هذا النص نستدل على أن صناعة المعاجين والأدوية كانت تتم تحت أنظار الناس. ورغم شدة المراقبة على الصيادلة، إلا أن بعضهم كانوا يخدعون العوام من الناس بسرد القصص والأشعار المسلّية التي تشغلهم عن كيفية تركيب الدواء.

ولهذا ينبغي على العطارين والصيادلة «ألا يخلطوا عقار نسخة بوجه من الوجوه إلا بمحضر الأمين عليهم، فيأتون إليه وكل دواء متحول على انفراد حتى يقابل بالدكان، وتعد عقاقيره ويخلط الجميع بين يديه ويحلّفهم على أن لا يكثروه بغيره ولا يعجنوه إلا بعسل طيب يؤدون فيه الأمانة والنصيحة. وحينئذ ينصرفون لعقده»(3).

كما كان هناك عدة طرق لاختبار الدواء إذا كان مغشوشاً أو غير مغشوش؛ ومن ذلك: أن المحمودة الأنطاكية إذا حذت اللسان حذواً شديداً،

(1) الشيفات: تعد هي والأكحال من الأدوية التي تتداوى بها العين. انظر الخوارزمي: مفاتيح العلوم، تحقيق نهى النجار، ط الأولى، ١٩٩٣م، دار الفكر اللبناني. بيروت، (ص١٩٧).

(2) انظر: في آداب الحسبة، (ص٦٠، ٦١).

(3) السقطي: المصدر نفسه، (ص٦١).

فهي مغشوشة بلبن اليتوع[(١)] وإذا جعل الطباشير[(٢)] في الماء طفا، وللأفيون رائحة في الماء، والخام من دهن البلسان إذا قطر منه على قطعة قماش صوف ثم غسلت زال ولم يبق له أثر، والمغشوش عكس ذلك. والراوند الصيني[(٣)] مثل الدم أحمر اللون خفيف لا رائحة له، والجيد من الحضض ما كان خارجه أسود وداخله ياقوتي اللون ووجد فيه قبض ومرارة. والزنجار[(٤)] يفرك باليد سريعاً، فيبيض ويبقى خشناً إذا غش بالرخام، كما كانوا يصنعون من مطبوخ محاح البيض الكهرباء[(٥)].

وهذا الحرص من الدولة على مراقبة الأسواق، والكشف عن تلاعب بعض الحرفيين والصُنّاع يدل دلالة مهمة على أن التطور الحضاري في ميدان الصناعات كان من أسباب نهوضه ونجاحه إشراف الدولة واهتمامها بجودة الإنتاج وسلامته.

وفي ضوء حديثنا عن ميدان الصيدلة والطب يجب أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن هذا الميدان ارتكز على جهود جمع غفير من العشابين والنباتين الذين عكفوا على دراسة النباتات والأعشاب وجمعها لاستخدامها في صناعة الدواء وعلاج الناس، مما أسهم بشكل كبير في تطور علم الطب والصيدلة في

---

(١) اليتوع: كل ما كان له لبن حار يقرّح البدن، كالسقمونيا. وهو سبعة أنواع. انظر ابن البيطار: الجامع، مج٢، (ص٥١٢، ٥١٥).

(٢) الطباشير: رماد أصول القنا الهندي المجلوب من ساحل الهند. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج٢، (ص١٢٩).

(٣) الرواند الصيني: نبات ينبت في شمال الصين أحمر اللون ولا رائحة له. انظر ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص٤٢٢، ٤٢٥).

(٤) الزنجار: هو ما يتخذ من صفائح النحاس ويجعل في الخل فيصير أخضر فينحت عنه ويعاد فيه حتى يصير كله زنجاراً. انظر الخوارزمي: مفاتيح العلوم، (ص٢٦٠).

(٥) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٨، ٥٩)، الكهرباء: مادة صمغية تقطر من ورق الدوم، وتوجد بالقرب من السواحل في بلاد الأندلس. انظر ابن البيطار: المصدر السابق، مج٢، (ص٣٥٥).

مالقة. وكان من أولئك العلماء: العالم أبو جعفر أحمد بن محمد اللخمي المالقي المولود في عام (٥٦٢هـ/١١٦٧م) وكان عشّاباً نباتياً، اشتغل بالنبات فأصبح من علمائه المشهورين في المعرفة به[١]. وتخلط المصادر بينه وبين العالم أبي العباس أحمد بن محمد الأموي، المعروف بابن الرومية[٢]. والعالم أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي، المعروف بابن الشيخ. وكان له كتاب سماه (ألف باء للألباء) ضمَّنه موضوعات في علم النبات والحيوان والطبيعة[٣]، والعالم أبو الحسن علي بن أحمد الغساني العشاب، وكان قد تجول كثيراً في بلاد الأندلس، ثم استقر في مالقة حتى وافته المنية في عام (٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م)[٤]. ومن العلماء الذين زاروا مالقة وعاينوا أعشابها، وتعرفوا إلى أماكنها، وجمعوا ما احتاجوا إليه للدراسة والبحث: العالم ابن عبدون الإشبيلي، صاحب كتاب «عمدة الطبيب في معرفة النبات»[٥].

أما أهم عالم مالقي كان له أوفر الحظ والنصيب في إثراء الفكر النباتي وتقدم علم الطب على مستوى العالم في القرون الوسطى، وذهبت حياته ضحية ذلك العلم، فهو العشّاب الطبيب ضياء الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد، الشهير بابن البيطار، وكان مولده بمالقة في أواخر القرن السادس الهجري[٦]،

---

(١) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق١، (ص٤٧٦، ٤٧٧).

(٢) الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني، (ص١٤٢) توفي العالم ابن الرومية بمسقط رأسه إشبيلية في عام ٧٣٦هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٢١٢، ٢١٤).

(٣) ابن الزبير: صلة الصلة، ق٥، (ص٢٨٥، ٢٨٧)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٧٣)، انخل جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط الثانية، ١٩٥٥م، نشر مكتبة الثقافة. القاهرة، (ص١٧٩).

(٤) الرعيني: المصدر السابق، (ص١٣٥).

(٥) الإشبيلي: عمدة الطبيب، ق٢، (ص٧٠٣، ٧٠٩)، والخطابي: معجم أندلسي من القرن السادس الهجري، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، عَ (٢٥)، ١٤٠٩هـ، (ص٧٣، ١٠٣).

(٦) المقري: نفح الطيب، جـ٢، (ص٦٩٢)، جـ٣، (ص٣٧٧).

ثم طاف في شبابه بأقطار حوض البحر المتوسط، والتقى بكثير من علمائها، واستفاد منهم في دراسة أصناف النبات: أصله وساقه وورقه وزهره وثمره، واختباره وغرسه وفوائده واستخلاصه، وتركيب الأدوية منه، إلى أن انتهى به المطاف في قطر مصر، فعينَّه السلطان الكامل محمد الأيوبي رئيساً على العشابين، وفي شهر شعبان عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) توفي بغتة في دمشق بسبب تناوله عقاراً ساماً[١]. وقد خلّف لنا رحمة الله عليه - عقب الدراسة النظرية والرحلة العلمية والخبرة الطويلة والبحث التجريبي الذي اعتمد على المشاهدة والاستنباط - عدداً من المصنفات التي حازت قصب السبق في فن النبات والطب[٢] وهي:

١- كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»[٣]:

كان أعظم كتاب ألفه ابن البيطار في علم النبات، ورتّبه على حروف المعجم أيام الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، وقد سماه بالجامع لجمعه بين الدواء والغذاء[٤] وفيه ذكر ابن البيطار ماهيَّة الأدوية وقواها ومنافعها ومضارَّها، معتمداً على اكتشافاته وما سجله من أقوال العلماء اليونان والعرب الذين سبقوه في هذا المضمار[٥]. ولا يزال هذا الكتاب جديراً بالتحقيق

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد وهلال محيي، جـ٣، ط الأولى ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت، (ص٢٥٦، ٢٥٧)، وحسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، جـ٢، (ص٢٥٥).

(٢) المقري: نفح الطيب، جـ١، (ص٦٩١، ٦٩٢)، جـ٣، (ص١٨٥).

(٣) وصف ابن البيطار في هذا الكتاب أكثر من (١٤٠٠) صنف من العلاجات المستمدة من أصل حيواني ونباتي ومعدني، منها (٣٠٠) صنف لم يسبقه إليها أحد. وقد طُبع هذا الكتاب وترجم عدة مرات، منها طبعة القاهرة ١٨٧٥م، والترجمتان الفرنسية والألمانية. انظر عمر رضا: العلوم البحتة في العصور الإسلامية، ١٣٩٢هـ، مطبعة الترقي. دمشق، (ص٣١٩).

(٤) ابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٣، ٤).

(٥) ابن البيطار: المصدر نفسه، مج١، (ص٣، ٤).

والدراسة العلمية على نمط طرائق البحث الحديث، ولا يستطيع الباحثون في علم النبات والصيدلة الاستغناء عنه بأي شكل من الأشكال، وقد استعمل هذا الكتاب في تكوين أول معشبة نباتية وصيدلة إنكليزية(١).

٢- المغني في الأدوية المفردة(٢):

كتاب لم يصنَّف في معناه مثلُه(٣) ويعد أحد أسس تكوين علم العقاقير الحديثة. وقد تناول فيه ابن البيطار الأعضاء عضواً عضواً، ذاكراً طريقة معالجتها بالعقاقير. ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً(٤)، وبحق فإن ابن البيطار أضاف إلى علوم النبات مادة علمية جديدة من عنده، ابتكر فيها أسماء نباتات وعقاقير حديثة وضعت الأسس الأولى لربط النبات بتصنيفه صيدلياً وطبياً(٥).

٣- دراسته لكتاب ديسقوريوس (الحشائش): دراسة علمية عميقة لم يقم بمثلها أحد في بلاد الأندلس على طول تاريخها(٦). وهذا ليس بغريب إذا علمنا أن ابن البيطار ألَّف مؤلفات جديدة في الحشائش انتهت إليه معرفتها في زمانه، ولم يسبقه إليها أحد(٧).

---

(١) عادل محمد: علم النبات في الأندلس، (ص٨٧) وما بعدها.

(٢) طبع وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية عدة مرات خلال القرن (١٥هـ) وما بعده. انظر عادل محمد: المرجع السابق، (ص٩٢).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٢٢، (ص٢٥٦).

(٤) عادل محمد: المرجع السابق، (ص٩٢)، والخطابي: تنقيح الجامع، المقدمة، (هـ).

(٥) عادل محمد: المرجع السابق، (ص٩٢).

(٦) محمد أبو الفضل: أضواء على النشاط العلمي، الندوة، (ص٤٣٣)، والقاسمي: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ٢٠٠٠م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، (ص١٢١).

(٧) الذهبي: المصدر السابق، (ص٢٥٦)، والمقري: نفح الطيب، جـ٣، (ص٢٧٧).

الثروة المعدنية وصناعاتها:

أودع الله عز وجل في أرض الأندلس ثروة هائلة من المعادن، استخرجها سكان تلك الأرض من المناجم، وأقاموا عليها العديد من الصناعات، واستغلوها في صناعات كثيرة[1]، في ظل توافر الاستقرار والسيادة الأمنية والقيادة الحكيمة.... مما كان له أكبر الأثر في مختلف مجالات الحياة، وكان من أشهر معادن تلك الثروة التي أدت إلى نشاط الحركة الصناعية والتجارية في مالقة بشكل كبير ما ورد ذِكره في القرآن الكريم من ذهب وفضة وحديد ونحاس وغيره في تفسير قول المولى عز من قائل: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾[2].

ويأتي في مقدمة هذه المعادن:

الحديد:

وهو معدن معروف صلب. ولأهميته وفائدته في الحياة وردت في القرآن الكريم سورة باسمه «سورة الحديد» جاء فيها قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[3]. ومن هذا القول قام أهل مالقة باستخراج الحديد من مناجمه، وإدخاله في العديد من الصناعات، وتصنيع الآلات الحديدية منه؛ كالسكاكين والمقصات والمفاتيح والمسامير وغيرها، التي برع فيها أهالي مالقة واختصت بها مدينتهم من بين مدن الأندلس[4].

ورغم أنه لم ترد إشارة صريحة عن صناعة الأسلحة من الحديد كالسيوف في مالقة، إلا أننا نرجِّح أن تلك الصناعة حازت على اهتمام صناعها، وكانت

(١) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٤٢، ١٤٣، ٢٠٠)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) سورة الرعد، آية رقم (١٧).

(٣) سورة الحديد، آية رقم (٢٥).

(٤) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٩، ٥٢، ٥٥، ٦٠، ٨٠، ٨٦)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩).

مجالاً خصباً للعمل والإنتاج. وأسباب ذلك كثيرة؛ منها:

(١) توافر الأسلحة وكثرة خوض أهل مالقة للحروب، خاصة مع النصارى في زمن بني الأحمر. والقارئ في سيرة تاريخهم يلحظ ذلك[١].

(٢) أن أهل مالقة برعوا في صناعة الجلود؛ كالأغشية والأجربة والسفن ذات الصلة المباشرة بالأسلحة الحربية كمقابض السيوف والأوعية التي تحفظها[٢].

(٣) موقع مالقة الجغرافي، وأهميتها السياسية، وكثرة جيوشها من رجال وخيل، وخاصة في زمن بني الأحمر، الذي ازداد فيه ضغط النصارى. وفي هذا يقول ابن الخطيب: «مالقة دار الملك في الروم ومشوى المصاعب والقروم، تشهد بذلك كتب الفتح المعلوم، وذات ملك في الإسلام عديد الجيوش خانق الأعلام غني بالشهرة عن الإعلام، سكنها ملوك الأدارسة الكرام والصناهجة الأعلام، ثم بنو نصر أنصار الإسلام وجيشها اليوم مشهور الإقدام متعدد المئين على مر الأيام، وتجارها تعقد لواءً خافقاً، وتقيم الجهاد سوقاً نافقاً، وتركض الخيول السابحة، وتعامل الله على الصفقة الرابحة، وكفاها أنها أم للعدة من الثغور والحصون، والمدن ذات الحمى المصون، وشجرة الفروع الكثيرة والغصون، وما منها إلا معقل سام، وبلد بالخيل والرجل مترام، وغيل حام، يحتوي بها ملك باذخ، وينسق فيها للسلطان فخر شادخ»[٣].

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٦) وما بعدها، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٩)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٥، ٤٢١، ٤٤٢)، وابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص١٩١) وما بعدها، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٢) وما بعدها.

(٢) الإصطخري: المسالك والممالك، (ص٣٥)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٢).

(٣) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦، ٣٥٧).

وفي العصر الحديث اكتشفت البعثة الأثرية الثانية عام ١٩٧٧م في موضع صخري من هضبة مالقة الشرقية مجموعة من الأطباق الحديدية[١] التي تدل على صلابة الحديد وجودته.

الذهب والفضة:

يعدُّ الذهب من أهم المعادن المستخرجة من باطن الأرض ومجاري بعض الأنهار في بلاد الأندلس[٢]. وقد وردت لفظته - هو والفضة - عدة مرات في القرآن الكريم[٣].

وقد قام أهل مالقة بإدخال الذهب والفضة بعدما استخرجوهما من المناجم في العديد من صناعاتهم، كصناعة بعض التحف وأدوات الزينة وتذهيب الأثاث والأواني والمنشآت، خاصة عند الطبقات الموسرة والحكام[٤].

كما أن صناع المنسوجات في مالقة استخدموا الذهب والفضة في صناعاتهم، فحلّوا أنواع الثياب المختلفة بخيوط الذهب والفضة، حتى إنه أطلق على بعضها - مما اشتهرت به مالقة - الحلل الموشية[٥] أي المحلاة بأنسجة تلك المعدنين.

وعن الصناعات التي اعتمدت على معدني الذهب والفضة بشكل رئيس، واشتهرت به مالقة وبلش صياغة الحلي الجميلة التي كانت تعرض في

---

(١) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٣).

(٢) الإصطخري: المسالك والممالك، (ص٣٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٠٥).

(٣) وردت لفظة الذهب والفضة عدة مرات في القرآن الكريم، بل إن الزخرف الذي تسمت باسمه سورة الزخرف يعني (الذهب). انظر سورة الزخرف، آية رقم (٣٣)، وآية رقم (٥٣)، وآية رقم (٧١).

(٤) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٠٧).

(٥) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٢٤)، الجغرافيا، (ص١٤٠)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

الأسواق وتتعرض للسرقة أحياناً ويلبسها النساء[1].

كما كانت تصنع من الفضة في مالقة ثريات المساجد؛ كالتي أمر بتعليقها والي مالقة تميم بن بلقين في المسجد الجامع على أيام المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري[2].

أما عن العملات النقدية المتداولة بين الناس من دنانير ودراهم، فقد سُكت من الذهب والفضة في دار الضَّرب الموجودة في داخل قصبة مالقة أيام بني حمود ومن تلاهم[3] بدليل أنه عثر في عصر الموحدين على مجموعة من الدراهم تحمل نقوشاً تشير إلى أنها ضربت في مالقة، وكان أحدها مصنوعاً من الفضة مضروباً باسم المهدي بن تومرت[4] بينما في زمن النصريين سُكت بمالقة النقود الذهبية التي اختلفت في الشكل والمحتوى، كما هو الحال في العصور السابقة[5]. ونتيجة لوفرة النقدين (الذهب والفضة) وإدراك الشعب المالقي لواجبهم الإنساني الوطني، وإيمانهم العميق بثمرة الصدقة في الإسلام تنافسوا في تقديم الكثير من أموال الذهب والفضة وأنواع الحلي للضعفاء والمحتاجين من أهل مدينتهم؛ رغبة في الأجر والمثوبة، وتخفيفاً على إخوانهم ومواساة لهم في محنتهم، سيما أيام الوباء الخطير الذي عصف بمدينة مالقة وكثير من مدن الأندلس في عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[6] فألحق الضرر بالوطن شعباً وحكومة، فهنيئاً للمنفقين ما صنعوا من خير جسَّد روح التكافل

---

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣)، الإحاطة، مج٣، (ص٤٦٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٣٦).

(٣) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٩)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٥٣).

(٤) محمد بن عبدالله تومرت من أهل سوس. قامت دعوته الموحدية في تينمل. انظر المراكشي: المعجب، (ص١٢٦).

(٥) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، والنبراوي: النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مكتبة زهراء الشرق. القاهرة، (ص٢٨٥، ٣٤٦).

(٦) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص ١٩٤).

الاجتماعي. وصدق المولى في كتابه؛ إذ يقول: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾(1).

ومن جهة ثانية فإن أهل مالقة كانوا يغنمون الكثير من الذهب والفضة ومصنوعاتها بعد انتصارهم في الحروب على أعدائهم(2) كانتصارهم على النصارى في معركة برجمة عام (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)(3) ومعركة الشرقية في عام (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)(4)، الأمر الذي أدى لوفرة المعدنين، حتى إن النصارى عندما احتلوا مالقة في عام (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م) طلبوا من الأسرى المسلمين فدية للنفس والمتاع تقدر (بثلاثين دوبلاً من الذهب الوازن ٢٢ قيراطاً) أو ما يوازيه من الذهب والفضة واللآلئ والحلي(5).

النحاس:

يعدُّ من المعادن كثيرة الاستخدام في الصناعات، وكان يصنع منه العديد من أدوات المنزل والتجارة؛ كصنوج الموازين وأكيال الوزن والأواني والقدور المختلفة، كالتي يُتخذ لها أغطية على ترابيع تشبه أغطية التوابيت وعليها أقفال ومن تحتها أغطية أخر لها مفاتيح(6)، كما كان يصنع من النحاس المهراس(7) والنافخ(8) والطناجير(9) والمقالي التي يستخدمها الطباخون وبائعو

(١) سورة المزمل، آية رقم (٢٠).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢٧٣)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٧٨).

(٣) المقريزي: السلوك، (ص٩٥٧) وما بعدها، والذهبي: دول الإسلام، جـ٢، (ص٢٥٩).

(٤) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة،(ص٦٢) وما بعدها، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٤).

(٥) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢١٧).

(٦) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٧، ٢٨، ٥٢) وما بعدها، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٦٩).

(٧) المهراس: الهاون الذي تسحق به المواد. انظر مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٤٨٨).

(٨) النافخ: الفرن الصغير الذي يمكن حمله ونقله. السقطي: المصدر السابق، الهامش، (ص٦٠).

(٩) الطناجير (جمع طنجير): وهي طواجن الأكل التي يطبخ فيها ويغلى الزيت. انظر السقطي: المصدر السابق، (ص٥٤).

الحلوى. وكان يجب عليهم تبييض المقلاة بسبب وجود الكبريت في النحاس(١).

وربما تكون الساعة الشمسية التي صنعها الحاج يعيش الرخَّام والمحفوظة في متحف الحمراء بغرناطة(٢) مصنوعة من معدن النحاس، وقد كانت من أبدع التحف الفنية التي تدل على عبقرية الصانع يعيش، وحرص المسلمين على الوقت.

وبلغ الصنَّاع في مالقة من الفن والتطور أن صنعوا من المعادن مجسمات مختلفة على أشكال الكائنات والجمادات للزينة وأداء العمل(٣).

فيذكر أنه في بستان أبي عمران المالقي ركبت في وسط حوض ماء صنوبرة مثقبة جوانبها يدخل فيها الماء ويخرج منها - أشبه بنافورة - كانت مصنوعة من معدن النحاس، قال فيها الشاعر:

وروض جلا صدأ العين به
نسيم تجاري على مشربه
صنوبرة ركبت ساقها
عليه فخاضت حشا مذنبه
فشبهتها وأنابيبها
بها الماء قد جد في مسكبه
بأرقم كعك من شخصه
وأفرخه يعلقن به(٤)

كما عثر في قصبة مالقة على طلسم فريد لا يزال محفوظاً، وهو قرص

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٣، ٦٠)، وكمال السيد: المصدر السابق، (ص٢٦٩).

(٢) الكحلاوي: دراسة للحياة الفنية في الأندلس من واقع توقيعات الصناع والفنانين الأندلسين على أعمالهم الفنية، ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، تقديم عبدالمحسن التركي، ١٤١٤هـ، (ص٥٧٦).

(٣) هذه إشارة إلى فن النحت وعمل التماثيل على أشكال ذوات الأرواح وهو محرم في شريعتنا الإسلامية وعقوبته عند الله شديدة.

(٤) الرصافي: ديوان الرصافي، (ص٤٩).

مستدير مزود بثقب حفرت فيه صورة رجل على رأسه عمامة، ويحمل على عاتقه راية مدببة، ويمتطي أسداً وأمامه علامات تحيط بها كتابات في صف متصل من الصعب جداً قراءتها[١].

وكان يستخرج من النحاس الذي تصنع منه الصفائح الدقيقة بواسطة الطَّرْق[٢] كالتي على أبواب قصبة مالقة[٣] ما يعرف باسم الصُّفر (النحاس الأصفر) وهو سبيكة أو خليط معدني من النحاس والزنك والبرنز[٤] اختصت مالقة ومرسية بصناعة آلاته[٥].

ومن الصناعات التي تقوم على معدن النحاس وغيره صناعة القناديل التي كانت عماد سكان مالقة في إضاءة المنازل والحوانيت وغيرها[٦]، وكان لها في السوق محلات تصنع فيها وتُباع، وقد يقوم صناعها بالعمل في خارج المحلات - كالمنازل - إذا وجدوا الفرصة المناسبة والوقت الملائم[٧]. وقد ظهر في مالقة أشخاص نسبوا أنفسهم إلى هذه الصناعة؛ كالشاعر محمد بن السراج[٨].

وفي العصر الحديث أسفر التنقيب في هضبة مالقة الشرقية عن وجود مجموعة من القناديل[٩]. وكان من وسائل الإضاءة في مالقة إلى جانب القناديل الشمع الذي يصنع من الشحم وغيره[١٠].

---

(١) مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٤٠١، ٤٠٢).

(٢) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٣)، ومانويل جومث: المرجع نفسه، (ص٤٠١).

(٣) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٤) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢١٠، ٢١١).

(٥) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٥٠).

(٦) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٠)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٢٠٤).

(٧) السقطي: المصدر السابق، (ص٦٤).

(٨) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٥٦)، والضبي: بغية الملتمس، (ص٧٠).

(٩) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٣).

(١٠) السقطي: المصدر السابق، (ص٢٨، ٥٧)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص٢٥٨).

الرصاص والكحل (الإثمد):

أدى وجود معدن الفضة في مالقة إلى وجود معدن الرصاص؛ إذ إنهما يستخرجان من منجم واحد في الغالب[1]، وقد صنع المسلمون من الرصاص - بعد فصله عن الفضة - صنوج الموازين والأنابيب التي تستخدم في توصيل المياه إلى القصور والمباني وغيرها[2]. كما أدخلوه في صناعة أوعية الوزن التي تباع فيها الفاكهة، وفي أقراص الأعمدة الضخمة[3].

أما الكحل، فلكونه في الأصل من حجارة الرصاص[4] فإنه قد توفر بشكل كبير في مالقة؛ بدليل أن باب مدينة مالقة المنفتح على سفح جبل فاره في شرق المدينة كان يطلق عليه باب الكحل[5] نسبة إلى مادته الطبيعية التي كانت تستخرج من المنجم وتدخل إلى المدينة من هذا الباب[6]، مما يدل أيضاً على وجود معدن الرصاص في مالقة بشكل قاطع، ويعد الكحل من المعادن المهمة التي تدخل في صناعة الأدوية، غير أن الصيادلة والعطارين قد يغشون فيه، فيلونونه بالأصباغ، أو يخلطون مسحوقه بالسنبل حتى يثقل في الوزن[7].

الصُّفْر والقار والمغرة:

استخدم أهل مالقة في كسوة الأواني الفخارية والخزفية التي اشتهرت بها مدينتهم مادة الصفر - أكسيد الكوبالت - ذات البريق المعدني متعدد الألوان كاللون الذهبي والأزرق وغيرها من المواد[8]، أما المغرة (بالأسبانية Almagre)

(١) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢١١).

(٢) الرصافي: ديوان الرصافي، (ص٤٩)، وكمال السيد: المرجع نفسه، (ص٢١١).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٤)، وابن الزبير: صلة الصلة، ق٥، (ص٢٨٦).

(٤) كمال السيد: المرجع السابق، الهامش، (ص٢١٤).

(٥) المراكشي: الذيل والتكملة، س.ف ١، ق١، (ص٢٠١).

(٦) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، (ص٦٧).

(٧) السقطي: المصدر السابق، (ص٥٧، ٦٠).

(٨) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، وابن فركون: ديوان ابن فركون، (ص٥٢، ٢٧٩)،=

وهي تراب حديدي أحمر اللون، فكانت تستخدم - هي والزاج بالأسبانية (Aceche) كبريتات النحاس والشب (Jebe) وهو ثاني سلفات الألمنيوم والبوتاسيوم - في الصباغة وتثبيت الألوان[1]، كما كان ماؤها يستعمل في صناعة الأطعمة، ولكن العطارين كانوا يغشون بها موادهم الطبية[2].

والقار (الزفت) الذي استخرجه المسلمون في الأندلس كان أكثر ما يستخدمونه في الحروب لحرق سفن الأعداء؛ أمثال ما وقع في الحرب المصيرية على مالقة في عام (٨٩٢هـ/١٤٨٧م)[3].

ومن المواد غير المعدنية التي استخدمت في مالقة: الملح[4]. ولعل وقوع مالقة على البحر يدفعنا إلى القول إن أهلها كانوا يستخرجون الملح من البحر، والله أعلم.

الأحجار الكريمة ومواد البناء:

على حسب المصادر والمراجع التي بين أيدينا، فإن مدينة مالقة لم تكن من مدن الأندلس الشهيرة بالأحجار الكريمة، سوى أنها عرفت بالياقوت[5] الأزرق الصغير[6] وفي حصن منت ميور المالقي تتركز مناجم الياقوت الأحمر الذي لا يصلح للاستعمال لدقته الشديدة وصغر حجمه[7]. وفي ساحل بلش كان

= وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٤)، وابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، (ص٦٨٢)، ومحمد عنان: الآثار الأندلسية، (ص٢٤٢)، وزكي حسن: فنون الإسلام، دار الفكر العربي، (ص٣٣٣، ٣٣٤).

(١) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢١٥، ٢١٦).

(٢) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٢، ٥٨).

(٣) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٣)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٢١٦).

(٤) السقطي: المصدر السابق، (ص٤٧).

(٥) الياقوت اسمه بالفارسية ياكنه. والياقوت معربه، وهو عدة أنواع: أصفر وأحمر وكحلي، وأجودها الأحمر. انظر ابن البيطار: الجامع، مج٢، (ص٥٠٩).

(٦) Levi-Provencal: Histore de L,espagne Musulmane.Tome. 3.p.296

(٧) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٤٢)، والبكري: جغرافية الأندلس وأوروبا، (ص١٢٨)، والأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (ص٢٤٤).

يستخرج المرجان (البسد)(١).

أما الرخام ومقاطع الأحجار اللازمة لأغراض البناء والتشييد، فإنها كانت متوفرة في مالقة، ودخلت في تشييد المباني من القصور والدور والأسوار والقصاب والحصون منذ القدم، والشاهد هو أن أكثر بناء مالقة كان من حجارة مبنية على جسر بناه القدماء من حجارة ضخمة على ساحل البحر المتوسط(٢)، الأمر الذي دعا إلى الدهشة والعجب، وشهد على مدى القدرة وحسن الكفاءة(٣)، هذا بالإضافة إلى أن قصبة مالقة المنيعة وحصنها القوي وسورها الحصين كانت مادة بنائها الأساسية هي الصخور(٤).

والحقيقة أن صناعة البناء تعد أقدم صناعات العمران المدني، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى في المدن(٥)، وكانت تختلف من مدينة إلى أخرى بل من جهة إلى أخرى، في المدينة الواحدة على حسب رغبة السكان ومستوى حالتهم الاقتصادية، وكانت أكثر ما تكون في الأقاليم المعتدلة وما حولها - كمنطقة مالقة - وهي أنواع كثيرة؛ منها البناء بالحجارة أو بالآجُرّ أو بالتراب وغير ذلك، وكثيراً ما كانت تزخرف وتزين الحيطان بالأشكال المجسمة من الجص(٦) أو قطع الرخام أو الآجر وغيره، وكل هذا يرجع إلى الحذق والبصيرة وأمور الهندسة التي يتعلمها الصانع(٧).

وحينما سكن المسلمون مدينة مالقة بعد الفتح الإسلامي عمروها

(١) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٢١).

(٢) الإصطخري: المسالك والممالك، (ص٣٥)، والزهري: الجغرافيا، (ص٩٣).

(٣) الزهري: المصدر نفسه، (ص٩٣).

(٤) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، وشكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ١، (ص١٢٩)، وفون شاك: الفن العربي في أسبانيا، (ص٨٥). انظر الملحق، (ص٤٢١)

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٣٢).

(٦) الجص: الحجارة ونحوها التي تدرك فتلمس في أرض المنازل. انظر الفاسي: الألفاظ المغربية، (ص٥٩).

(٧) ابن خلدون: المصدر السابق، مج١، (ص٤٣٣) وما بعدها.

وحصنوا أسوارها وشيدوا مساجدها[1] بمختلف مواد البناء السابقة الذكر، إضافة إلى الجبس[2] والقرميد[3] والجير وغيره.

وكان للمحتسب دور مهم في المحافظة على جودة المواد المستعملة في البناء، ومن توجيهاته التي تدخل في هذا الميدان: أنه ينبغي على الجيارين أن يقوموا بأعمالهم خارج النطاق العمراني لكي لا يسببوا الأذى للناس[4] و«أن يخلصوا الجير للكيل من الحجر، فإنهم يدلسون به، ويبقى على الأقرب كثير من الحجر لا فائدة فيه، وكذلك - على الجباصين - ألا يخلطوا فيه القطائف ولا التراب، فإنهم يدلسون بذلك ولا يخرجوه من الفرن نيئاً، ولا يتركوه حتى يفرط فيه الطبخ حتى يصير رماداً لا منفعة فيه. وعلامة النيئ منه يعقد لحين ما يعجن والطيب المطبوخ يبقى ساعة وحينئذ ينعقد»[5]. ومن الأمثلة التي تؤكد استخدام أهل مالقة لأحجار البناء والزينة - المذكورة سابقاً - أن حصن جبل فاره[6] كان يتألف من سياجين، أحدهما داخلي يصل بالقصبة، والآخر خارجي مبني من مادة الآجر التي لا يزال يحتفظ الحصن بلونها الأحمر حتى اليوم مع ما بقي من أجزائه الأثرية[7] ولله الحمد.

---

(١) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، (ص٢٢)، والزياني: الترجمانة الكبرى، (ص٨٧).

(٢) الجبس: والصواب كلس، وهي مادة تخلط بالماء، وتطلى بها الحيطان والسقوف. انظر الأهواني: ألفاظ مغربية، (ص١٥٢)، والفاسي: الألفاظ المغربية، (ص٥٩).

(٣) القرميد: جمع قرمود، وهو نوع من الآجر أو الفخار. انظر مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٤٩٦).

(٤) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٧٨).

(٥) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٨٠).

(٦) حصن بني على أسس قلعة فينيقية قديمة في رقعة واسعة في أعلى الجبل الواقع في شرق مالقة. انظر محمد عنان: الآثار الأندلسية، (ص٢٤٦، ٢٤٨).

(٧) محمد عنان: المرجع نفسه، (ص٢٤٨)، وعبدالعزيز سالم: العمارة الحربية في الأندلس، (ص١٥٩)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص٣٧) انظر الملحق (ص٤٣٩).

أما القصبة، فقد خرج من بين أنقاضها تاج كورنثي[(١)] جميل من الرخام يعود إلى عصر الخلافة وغيره كثير[(٢)].

ومن الأمثلة أيضاً: أن أهل مالقة طلَوْا دورهم وقصورهم في أيام بني الأحمر بمادة الرخام الأبيض[(٣)]، وفي هذا قيل: «أما المساكن، فحسبك ما بمالقة من قصور بيض وملك طويل عريض»[(٤)].

وفيما يتعلق بميدان الصناعة، فإنه كان يصنع من مادة الرخام الفنية الأحواض الرخامية التي تزود القصور بالمياه الصالحة للشرب، وقد تتخذ للزينة في الحدائق مع نافورة تنبثق منها المياه. والدليل أنه عثر في مالقة على قطعة من حوض رخامي تعود إلى عصر الخلافة الأموية بها سيقان منقسمة فرعين[(٥)].

ومن الصناعات المهمة التي كانت تقوم على الرخام أيضاً: صناعة التوابيت[(٦)] وشواهد القبور، وهي ألواح حجرية منحوتة بزخارف نباتية وحيوانية توضع على قبور الموتى وتسجل فيها أسماؤهم وتاريخ ولادتهم ووفاتهم ومجموعة من الأبيات الشعرية أو الآيات القرآنية للموعظة والاعتبار[(٧)]. ومن أمثلة ذلك: العالم محمد بن يوسف، المعروف بأعروس؛ حيث

---

(١) تاج كورنثي: رأس عمود يمتاز بزخرفة أوجهه بورقة نباتية ولفائف في أركانه. انظر مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٤٩٢).

(٢) مانويل جومث: المرجع نفسه، (ص٢٨٩، ٢٩٠). انظر الملحق (ص٤٤٠).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٤٤)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦، ٣٥٧)، وابن زمرك: ديوان ابن زمرك، (ص٩١).

(٤) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٨).

(٥) مانويل جومث: المرجع السابق، (ص٢٢٥)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤١). انظر الملحق (ص٤٤٠)

(٦) الضبي: بغية الملتمس، (ص١٩٤)، ابن الخطيب: المصدر السابق، مج٣، (ص٤١٧).

(٧) ابن الأبار: التكملة، جـ١، (ص٨٤)، الحلة السيراء، جـ٢، (ص٢٦٧)، ابن الخطيب: المصدر السابق، مج١، (ص٢٣٥)، مج٤، (ص٤٢٦)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص٥٨، ٧١).

عشر على شاهد قبره بمالقة - ربما يعود إلى القرن السادس الهجري[1] - منقوش عليه قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾[2].

كما أقيم على قبر السلطان محمد بن إسماعيل النصري بعد وفاته بزمن يسير لوح من الرخام مكتوب عليه:

يا قبر سلطان الشجاعة والندى
فرع الملوك الصِّيدِ أعلام الهدى[3]

أما الشاعر مالك بن المرحل المالقي[4] فقد كتب على شاهد قبره:

زر غريباً بمقبره
نازحاً ما له ولِ
تركوه موسداً
بين تُرب وجندلِ[5]

ومن أهم التحف الحجرية التي حفظها التراث الفني ومصنوعة من مادة الرخام بمالقة: وعاء لحفظ التوابل صنعه الحاج يعيش المالقي مكتوب عليه اسمه وتوقيعه بما نصه: «هذا من عمل يعيش الرخام للرئيس أبو جعفر»[6]، والوعاء يتكون من بلاطة مستطيلة الشكل بها تجويفات أربعة في أركانه. أما وسط البلاطة، فقد زينت بزخارف نباتية، ويحيط بحافة البلاطة نقش كتابي بالخط الكوفي، والنص يتضمن اسم الصانع واسم الشخص الذي

---

(١) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٥٨).

(٢) سورة آل عمران، آية رقم (١٨٥).

(٣) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٨٤)، الإحاطة، مج١، (ص٥٤١).

(٤) مالك بن عبدالرحمن المعروف بابن المرحل يكنى أبا الحكم، كان شاعراً سريع البديهة تولى القضاء عدة مرات. ولد عام ٦٠٤هـ، وتوفي عام ٦٩٩هـ. انظر: المراكشي: الذيل والتكملة، س.ف (٨)، ق٢، (ص٥٢٧).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٣٢٤).

(٦) عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية، (ص١٤٦).

صنعت من أجله[1]. هذا بالإضافة إلى قطع من لوحين رخاميين بهما زخرفة بارزة تؤلف أشكالاً سداسية ورباعية وانحناءات متثنية مع أزهار في الفراغات وأشرطة هندسية[2].

ونظراً إلى تعدد استخدامات الرخام، فإن الصيادلة والعطارين كانوا يجرون على قطعه اختبار مواد الطيب كالعنبر والكافور لمعرفة إذا ما كانت صالحة للاستعمال أو مغشوشة لا تصلح[3].

ومما تقدم يتضح أن الفن العمراني والصناعي تطور أيام المسلمين وخاصة في زمن الموحدين، الذي شهد نقلة نوعية وكمية في البناء على يد مهندسين بارعين امتازوا بحسن التخطيط والجودة والمهارة في العمل؛ كالفنان الحاج يعيش المالقي، الذي أوكل له الموحدون مهمة بناء الكثير من قصورهم ومدنهم في بلاد المغرب والأندلس[4]، وكذلك زمن بني الأحمر الذي شهد اتساعاً في ميدان العمران بمدينة مالقة أكثر من السابق[5] الأمر الذي رافقه - بلا شك - تطور في مختلف الصناعات التي يحتاجها ذلك الميدان. وما ذكره ابن الخطيب في ذلك يغني عن أي دليل آخر[6].

صناعة الفخار والخزف:

هناك اتفاق عجيب بين خلق الإنسان من خامة الطين - المادة الطبيعية التي منها أصله ولها يعود - وبين الفخار الذي تقوم صناعته على المادة

---

(١) الكحلاوي: دراسة للحياة الفنية، (ص٥٦٣).

(٢) مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٢١١).

(٣) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦١، ٦٢).

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، (ص٨٤) وما بعدها، وتوريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، (ص٨٢)، وعبدالعزيز سالم: العمارة المدنية في الأندلس، (ص١٣٢، ١٦٤).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٤٤)، معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦) وما بعدها، وابن زمرك: ديوان ابن زمرك، (ص٩١).

(٦) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥) وما بعدها.

نفسها[١]، وعليه تعد صناعة الفخار والخزف المصنوع من الطين أيضاً من أقدم الصناعات البشرية اليدوية التي شهدت أعظم رقي إنساني في بلاد المشرق والمغرب والأندلس خلال العصور الوسطى بصورة كشفت عن مهارة ونشاط الصانع وعبقرية وذوق الفنان المسلم[٢].

والثابت أن الفخار أقدم من الخزف الذي كان يزجّج بمادة الزجاج الذائب (طبقة زجاجية) ويعرف في هذه الحالة بالخزف المزجج[٣]. وقد دخل بلاد الأندلس في القرن الرابع الهجري نوع نفيس منه يسمى في العربية والأسبانية القديمة (بالخزف المذهب) وعلمياً بذي البريق المعدني[٤]، «وهو أجلُّ ابتداع في صناعة الخزف في العصور الوسطى، بل لعله أبرع ابتداع في الفنون الصناعية»[٥]، وكان يتكون من صوان (سيليكات) في شكل رمل المرو (الكوارتز) وقلويات مصهورة (صودا، بوتاس) وكميات ضئيلة من بعض المعادن (رصاص، قصدير) التي كانت توسّع درجات الألوان الممكنة، ويحسّنها الخزافون المسلمون بإضافة أكسيد النحاس أو الفضة عليها لتكتسب الآنية التي تطلى بها ألَقاً ذهبياً[٦].

(١) عبدالغني الشال: الفخار الشعبي في مصر، مجلة عالم الفكر، مج٦، ع٤، ١٩٧٦م، (ص١٢٨، ١٢٩).

(٢) مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٣٦٩)، ومحمد عبدالعزيز: الفنون الزخرفية الإسلامية، (ص٩٩).

(٣) محمد عبدالعزيز: الفنون الزخرفية الإسلامية، (ص١٠٠)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٢٥٩)، وبدور خيمنيث: الزجاج الإسلامي في مرسية، ترجمة عبدالله العمير، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ق الثالث، مطبوعات مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. الرياض، (ص٢٦١).

(٤) مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٣٨٢)، وخوان فيرنيت: فضل الأندلس على ثقافة الغرب، (ص٣٣١).

(٥) مانويل جومث: المرجع نفسه، (ص٣٨٢).

(٦) خوان فيرنيت: المرجع السابق، (ص٣٣٠، ٣٣١).

وكانت مدينة مالقة قد أحيت هذا النوع من الخزف الصقيل بألوانه المختلفة. الأصفر والبنفسجي والفيروزي وغيره أيام الحكم الإسلامي لا سيما في زمن النصريين[1] حتى إن بلدة منتيشة[2] استمدت وحي غضارها المذهب الذي تفوقت في إنتاجه من خزف مالقة في الحقبة الواقعة بين القرنين الثامن والعاشر الهجري، بل يغلب على الظن أنها ورثت مالقة في صناعة الخزف وتسلمت قيادته بعد سقوطها في أواخر القرن التاسع الهجريين وضعُف إنتاجها فيه[3] وليس كما يذكر أحد الباحثين أن مالقة انسحبت من هذا الميدان في القرن التاسع الهجري[4] أو أنها كانت متفردة في الإنتاج الخزفي إلى القرن السابع الهجري فقط[5].

هذا وقد أثبتت التحاليل المعدنية أن الخزف المزين المعروف باسم بتشيني - (bacini) السيراميك - الذي وجد بعضه الطريق نحو بيزا[6] وغيرها في إيطاليا، واستعمل في أبنيتها الكنائسية ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر، كان مصنوعاً من صلصال أندلسي مستخرج من منطقة مالقة غالباً، مما يوحي بانتشار خزفيات مالقة المزخرفة طوال العصر الوسيط[7]. وكان الصناع المالقيون يصنعون من فاخر الخزف - الذي ما زالت تشتهر به مالقة إلى اليوم - الأواني المختلفة[8] - كأواني الطعام - التي تبوأت

---

(١) مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٣٨٣)، وزكي محمد: فنون الإسلام، (ص٣٣٣).

(٢) منتيشه: بلدة من أعمال بلنسية تقع بالقرب منها. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص٣٢).

(٣) مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية، (ص١٠٨).

(٤) زكي محمد: فنون الإسلام، (ص٣٣٤).

(٥) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، الهامش، (ص٢٥٣).

(٦) بيزا أو بيش: مدينة كبيرة في إيطاليا تقع على أحد ضفاف الأنهار الكبيرة. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٧٥٠).

(٧) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٢٨٦، ٢٨٧).

(٨) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٧، ٥٠، ٥٢، ٥٣)، ومحمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص١٠٦)، عثر في مالقة على قطع من الخزف المزين التي حافظت=

في صناعتها مركز الصدارة بين مدن العالم شرقاً وغرباً[١].

ومن الأدلة على ذلك النص القائل عن أواني مالقة: (الأواني تلقى لها يد الغلب صنائع حلب)[٢]، ولا تزال بقايا هذه الصناعة الجميلة - صناعة الفخار - قائمة إلى اليوم في بلاد المغرب وبعض المدن الأسبانية كمالقة يتفنن فيها الصُّنَّاع بما لا شيء فوقه زخرفةً ورسماً ونحتاً ونقشاً وتلويناً وتزويقاً ما يشهد بالعراقة والأصالة[٣].

ولهذا، فإن صناعة الأواني الخزفية تحتاج إلى ما تحتاج له صناعة الفخار من طين ورمل يحتوي حديداً يُخلط مع الخزف ليكسبه صلابة أكثر، ودولاب تشكل عليه الأواني، أو قوالب تصب فيها، وفرن تشوى فيه بعد التجفيف، وزجاج سائل، وعمليات معقدة حتى يستقيم أمرها[٤] وتظهر في شكل لطيف.

ويغنينا لمعرفة مدى الجودة والقوة في إنتاج مالقة الخزفي ما أسفرت عنه الحفريات الحديثة في قصبة مالقة وهضبتها الشرقية عن بقايا خزفية وقطع زخرفية عليها كتابات عربية ومجموعة من الأواني الخزفية في متحف صغير بين أنقاض القصبة[٥].

= على سمعته وشهرته في القرن الخامس عشر الميلادي. انظر أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٢٨٧، ٣٢٩).

(١) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٤٤٧)، وكمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر، (ص٢١٤).

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٣) ليفي بروفنسال: حضارة العرب في أسبانيا، (ص٩٨)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٤٤٧)، كمال شبانة: الحالة الاقتصادية بالأندلس خلال القرن الثامن الهجري، مجلة البحث العلمي، (ص١٤٨)، والمغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة، (ص٧٥). انظر الملحق خزفيات وفخاريات حديثة، (ص٤٤١)

(٤) عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية، (ص١٠١)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٣٠٨).

(٥) محمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية، (ص٢٤٦)، وتوريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، (ص٥٤)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٣).

كما سنستشهد فيما يلي ببعض الأمثلة الرائعة عن أواني مالقة الخزفية ذات الألوان العجيبة، التي كان لها أبلغ التأثير على البلدان المجاورة وخاصة أقطار حوض البحر المتوسط كإيطاليا وبلاد الشام، وحفظت لنا بعضها المتاحف العالمية؛ ومنها:

(١) الصحون: عثر العالم الألماني (بود) في عام (١٩٠١م) في إحدى المدن الإيطالية على صحن من الغضار المذهَّب، مزين بزخارف نباتية ومكتوب في قعره من الخارج (مالقة) كلمة قرأها أحد تلاميذه بعدما أصبح الإناء في متحف برلين مما يقطع بأنه من صنع مدينة مالقة[١].

وفي بلاد الشام لا يزال إلى اليوم يضرب المثل بالأوعية المالقية؛ كالصحون والكؤوس التي تدعى (بالمالقي) - نسبة إلى مالقة - التسمية التي لا يزال مأخوذاً بها إلى اليوم في سائر أنحاء بلاد الشام تقريباً، وكانت صناعتها قد عرفت الطريق إلى تلك البلاد على يد أهل مالقة الذين حلوا فيها منذ عصر المرابطين[٢].

ويحفظ متحف برلين من منتجات مالقة صحوناً من الخزف ذي اللمعان المعدني، قوام زخارفها مناطق فيها رسوم نباتية متنوعة[٣].

(٢) القدور: من أبدع التحف الخزفية ذات البريق المعدني القدور المعروفة باسم (قدور الحمراء) التي يرجَّح أن صناعة المذهب منها خلال القرن الثامن

(١) عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية، (ص١١٥).

(٢) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، الهامش، (ص٣٦، ١٦١)، وعلي أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس الهجري إلى نهاية القرن التاسع الهجري، ط الأولى، ١٩٨٩م، دار طلاس. دمشق، (ص٢٤٦، ٣٠٩، ٣١٠)، وفاضل السباعي: مسابقة شعرية في الأندلس (القرن ٦هـ)، مجلة التراث العربي، عَ (٣٩، ٤٠)، (١٤١٠ - ١٤١١هـ)، س ١٠، إصدار اتحاد الكتاب العرب. دمشق، الهامش، (ص٧٣).

(٣) زكي محمد: فنون الإسلام، (ص٣٢٤). انظر الملحق (ص٤٤١).

الهجري كان في مدينة مالقة، وقد حفظ لنا متحف بلرمو مثالاً على ذلك(1).

وكانت عجينة هذه القدور البيضاوية الشكل تميل إلى الصفرة، وعليها قشرة بيضاء فوقها رسومات تشتمل على كتابات كوفية ونسخية وزخارف نباتية وحيوانات محورة عن الطبيعة(2).

ومن الأواني الخزفية ذات البريق المعدني قدور جرى الصناع في إنتاجها وفق أساليب مدرسة مالقة نسبت إلى القرن التاسع الهجري(3).

على أن أهم ما ورد في عصر بني الأحمر عن التحف المصنوعة من خزف مالقة المذهب الأقداح الحمر التي صنعت أيام السلطان يوسف الثالث النصري على يد الصانع الماهر يحيى بن عبدالدائم. وقد تتخلل بعضها زرقة، والبعض الآخر البياض(4)، مما يشهد بمدى الذوق الحضاري الرفيع للمسلمين، وقد قال فيها الشاعر في رجب عام (814هـ/ 1411م):

يوسف الأملاك قد أبدعني
حمرة معجبة في زرق
فتخال كلما أبصرتني
شفق الفجر بدا في الأفق(5)

وقال أيضاً:

أبدع حسني يوسف
لما تجلى وظهر

(1) زكي محمد: فنون الإسلام، (ص332).

(2) ديماند: الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد، مراجعة وتقديم أحمد فكري، ط الثالثة، 1982م، دار المعارف. القاهرة، (ص228)، وزكي محمد: المرجع نفسه، (ص333). انظر الملحق (ص441)

(3) ديماند: المرجع نفسه، (ص228). انظر الملحق (ص441)

(4) ابن فركون: ديوان ابن فركون، (ص279).

(5) ابن فركون: ديوان ابن فركون، (ص280).

فـــــحـــــمـــــرتـي فـي ذهـبـي
ورد بـــــــــه حـف الــزهــر[1]

كما يشير أحد الباحثين إلى عدة قطع فنية مصنوعة من خزف مالقة العجيب بألوان مختلفة، أشدها أصالة تلك القطعة التي تظهر فيها صورة امرأة في يدها زهرة وصور طيور تتهادى في مشيتها، بينما أشدها دقة تلك التي يظهر فيها اللون الأرجواني فوق طينة شاحبة، وهو ما يعرف بالتوشية المالقية محاكاة لتوشية الحلل[2].

ومن القدور التي كانت تنتجها مالقة - أيضاً - تلك الأواني المتأثرة بالفن المشرقي، ومحفوظ بعضها في متحف بلنيسة، حيث الزخارف البارزة التي تعمل بواسطة قوالب تشتمل على مجموعة من الأسود المتحركة بين توريقات من نفس النوع المعروف في القرن الخامس الهجري، أو عقود متقاطعة من نوع عقود القرن السادس الهجري[3].

ولا تزال بقايا آثار الخلافة الأموية تمدنا بأنواع من القطع الزخرفية الصفراء المصنوعة في مالقة وغيرها[4].

(٣) الجرار (الدوارق) وأزيار الماء:

يضم متحف الفن الإسلامي بالقاهرة قطعاً كثيرة من جرار أندلسية مالقيه الصنع اكتشفت في منطقة الفسطاط[5].

وفي المتاحف الأسبانية وجدت نماذج لقطع خزفية فريدة التصميم ذات لون أبيض مذهب مستوردة من مدينة مالقة تمتاز بخاصية البقاء الطويل؛ مثل

(١) ابن فركون: ديوان ابن فركون، (ص٢٨٠).
(٢) مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٣٨٣).
(٣) مانويل جومث: المرجع نفسه، (ص٣٨٤).
(٤) مانويل جومث: المرجع نفسه، (ص٣٨٤).
(٥) عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، الهامش، (ص١٧١).

الأطباق وأواني الشرب والدوارق الموجودة في معهد السيد خوان ببلنسية ذات اللون الأزرق والذهبي[1]، وفي متحف قصر الحمراء بغرناطة على وجه الخصوص بقيت نماذج رائعة لنوافير ودوارق مياه خزفية ذات أشكال مختلفة، تلتف حولها أحزمة وشرائط صنعت في مدينة مالقة أواخر أيام مملكة غرناطة الإسلامية[2].

هذا وتشير الرواية التاريخية إلى نوع من دوارق الشرب في مالقة يمثلها إبريق أخضر اللون له أنبوب ينزل منه الماء، كان أحد المالقيين يمتلكه، وقد انكسر أنبوبه فأصلحه بنفسه، وظل يعمل عنده لعدة سنوات[3].

أما أزيار الماء، فقد وصف الرحالة عبدالباسط المصري في عام (٨٧٠هـ/١٤٦٥م) أزيار الماء في قصبة مالقة، وقال: «بديعة الصنعة غريبة النقوش من العجائب والنوادر»[4]. وفي هذا النص ما يثبت أن صناعة الخزف في مالقة لازالت قائمة ومزدهرة طوال العصر الإسلامي، يتفنن فيها الخزافون المالقيون، وينتجون أشكالاً مزخرفة في غاية الجمال والإبداع رغم الأوضاع المتردية في أواخر القرن التاسع الهجري. ويوافق هذا الإثبات أن ظهور الميوليكا (Maiolica) - وهو نوع من الخزف أصبح شعبياً ومقلداً على نطاق واسع في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، طبقاً لما ذكره بعض العلماء، فإن اسمه مشتق من اسم مالقة، على الرغم من أنه كان يعاد إلى مالوركا (ميورقة) بصورة عامة[5].

(١) كمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر، (ص١٩٤).

(٢) كمال شبانة: المرجع نفسه، (ص١٩٣)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣٦). انظر الملحق (ص٤٤١)

(٣) الأزدي: تحفة المغترب ببلاد المغرب، (ص١٧٠).

(٤) محمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص١٠٦).

(٥) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٢٩).

(٤) البلاطات والسلاطين (مفردها سلطانية):

ذاع في مالقة خلال زمن بني الأحمر إنتاج البلاط والسلاطين ذات الرسوم الجميلة بالبريق المعدني المختلف الألوان[١]، ولا تذكرنا هذه الخزفيات سوى بشهرة مالقة في إنتاج الزليج المذهب الذي كان يستخدمه المسلمون في تزيين القصور وزخرفة الجدران أيام الخلافة الأموية[٢].

وقد أسفرت الحفائر الأثرية عن أنواع مختلفة من الخزف في بعض المدن الأندلسية كمالقة حيث عثر فيها على قطع من أوانٍ مصنوعة من الخزف المحزوز تعود إلى عصر الموحدين[٣]. أما الخزف ذو الفواصل الجافة[٤] الذي اختصت به بلاد الأندلس، فقد مثلته عن مالقة في عصر بني الأحمر قطع من قنينات صغيرة استكملت خصائصها الفنية، وقطع أخرى يتألف تزجيج القطعة الواحدة بين الفواصل الجافة بألوان بيضاء وصفراء وخضراء وبنفسجية[٥].

أما الفخار المالقي القائم على التعدين، فيبدو أن مالقة أصبحت تكثر من تصنيعه بعد خراب مدينة المرية في القرن السادس الهجري[٦] حيث عثر على قطع من الآنية الفخارية مزخرفة على نمط أسلوب عصر الخلافة الأموية يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن المذكور[٧].

---

(١) ديماند: الفنون الإسلامية، (ص٢٢٨)، وزكي محمد: فنون الإسلام، (ص٣٣٣).

(٢) عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية، (ص٩٥)، وكمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر، (ص٢١٤).

(٣) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، (ص٦١)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٦٢).

(٤) يعرف بالأسبانية (Secacuerda) وكان تزجج فيه المادة المصنوعة بعدة ألوان بعد تقسيمها عدة أقسام يفصل بين كل لون عن الآخر خطوط عميقة. انظر عبدالعزيز مرزوق: المرجع السابق، (ص١٠٥).

(٥) مانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٣٨٥).

(٦) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٥٣).

(٧) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، (ص٦١).

ومنذ القرن السابع الهجري وما بعده تشير النصوص التاريخية - كقول ابن الخطيب عن مالقة: «ومذهب فخارها له على الأماكن تبريز إلى مدينة تبريز»(١) - إلى أن هذه المدينة - بفضل براعة أهلها - حازت التميز في صناعة الفخار المذهب العجيب الذي لا يوجد له مثيل في أي مكان في العالم، ويحمل إلى مختلف جهاته(٢) كمدينة تبريز في إيران وإيطاليا في أوروبا، التي أولعت بصناعته، فظلت تستورده وتعمل على نسقه حتى راجت منتجاته الفخارية، وعمت معظم دول أوروبا(٣).

والحقيقة أن صناعة الفخار المالقي ازدهرت في مالقة، وأصبحت واسعة الانتشار، كثيرة الاستعمال في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وقد شاهد الرحالة ابن بطوطة عن قرب جمال تلك الصناعة، ولمس بنفسه مقدار ما كانت تتمتع به مالقة من شهرة في الداخل والخارج بسبب هذه الصناعة التي حملت على قطعها الفنية الطابع العربي (مليكة) علامة مسجلة(٤)، ثم لم تلبث هذه الصناعة أن تطورت في مالقة، حيث أخذت تنتج الفخار المذهب المزجَّج(٥)؛ أي المغطى بمادة الزجاج الذائب المزين بخطوط ذهبية(٦) وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أنه الخزف؛ لأن الفخار لا يكسى بطبقة زجاجية على الإطلاق(٧)، ومهما يكن من اختلاف، فإن القطع الفخارية التي أهداها السلطان الغرناطي

---

(١) انظر: معيار الاختيار، (ص٥٢)، تبريز: بلدة من بلاد المشرق الإسلامي لها مسجد جامع وأسواق عظيمة، انظر ابن بطوطة: الرحلة، (ص٢٤١، ٢٤٢).

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٤)، وابن بطوطة: المصدر نفسه، (ص٦٨٢)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩).

(٣) كمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر، (ص١٩٣، ١٩٤).

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق (٦٨٢)، وكمال شبانة: المرجع نفسه، (ص١٩٣).

(٥) المقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٠٢).

(٦) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٦٥).

(٧) كمال شبانة: المرجع السابق، (ص١٩٢)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٥٩).

محمد الأيسر إلى السلطان المملوكي جقمق في القرن التاسع الهجري، وظل سلطان مصر يطيل النظر فيها إعجاباً واستحساناً، ووزعها على من حوله من خدمه وأهل بيته، لم تكن سوى من فخار مالقة اللطيف[1].

وكان هذا الفخار مصدر رزق الكثير من الناس الذين يصنعون منه منتجاتهم الأساسية كأواني المطبخ من الطواجن والقدور[2]. ولعل دليلنا هو ما عُثر عليه من بقايا قدور إسلامية عند سور ربض قنتنالة المالقي[3] أو أقداح الوضوء والقلال التي ينبغي على صُنَّاعها من الفخارين أن يوسعوا أفواهها وقيعانها لكي يتمكن المستخدم لها من اغتراف الماء ووقوف الإناء وثباته لئلا يسقط وينكسر[4].

وفي العصر الحديث عُثر في موضع من هضبة مالقة على أنابيب فخارية[5] يبدو أنها كانت تستخدم في توصيل المياه، كما كان يصنع من الفخار المالقي الألواح الضريحية. ومن ذلك لوحة ضريحية مصنوعة من الفخار الذهبي اللون عُثر عليها بمالقة، وهي الآن معروضة في المتحف الوطني للآثار بمدريد[6]. وليس ثمة شك في أن الألواح الخزفية تكون موجودة في المدن التي تطورت فيها الصناعات الفخارية كمالقة[7] التي لا تزال إلى اليوم تشتهر بتلك الصناعة؛ حيث يقول أحد الرحالة المعاصرين إنه دخل متجراً، فوجد صناعة الفخار بأنواعها معروضة فيه[8].

---

(١) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص١٦١).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٣٠).

(٣) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، الهامش، (ص٢٦٠).

(٤) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٨٢).

(٥) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٣).

(٦) تورس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٣٧٣).

(٧) توريس بالباس: المرجع نفسه، (ص٣٧٢).

(٨) عبدالعزيز المسند: الأندلس تاريخ وعبرة، جامعة الملك سعود. الرياض، (ص٨٤). انظر الملحق (ص ٤٤١)

ولمعرفة موقع عمل الفخار، فإنه كان يطبخ وهو نيئ في دهليز يسمى دهليز الفخارة[1]. والملحوظ ورود كلمة الفخارين بكثرة في طبوغرافية المدن الأندلسية، ويقصد بذلك حي تخصّص أهله في صناعة الفخار بعيداً عن قلب المدينة بحكم طبيعة عمل صناعه التي تحتاج إلى مكان فسيح يتوافر فيه الماء كما في مالقة وغيرها[2].

صناعة الزجاج:

أدخل المسلمون صناعة الزجاج إلى بلاد الأندلس[3]، وكانت تقوم في خارج المدن لكي لا يلحق الضرر بالناس[4]، وكان يصنع في مالقة الكريستال والزجاج الغريب العجيب من مادة السيلكا[5] الذي اشتهرت به وتقدمت في صناعته بعد سقوط مدينة المرية في يد النصارى عام (٥٤٢هـ/١١٤٧م)[6]. وطريقة صناعته هي: أنه كان يحرق على صفيحة حديد مكشوفة للهواء، وتوقد تحته النار لمدة ثلاث ساعات، ثم يحرك ويسحق مرة ثانية بقوة، فيكون جاهزاً للاستخدام في

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٢٩)، والعبادي: مقامة العيد للأزدي (صورة من صور الحياة الشعبية في غرناطة)، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، ١٣٧٣هـ، مدريد، مج٢، (ص١٧١).

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ق١، (ص٣٠٦)، ق٢، (ص٣٤)، وابن الأبار: التكملة، جـ٢، (ص٤٢٤)، وليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، (ص٦٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٦٦).

(٣) محمد عنان: دولة الإسلام، ع (١)، ق١، (ص٦٩٠)، ومنى محمود: العلاقات بين دولة الفرنجة والمسلمين في الأندلس، ١٩٨٠م، جامعة القاهرة، (ص٢٣٦).

(٤) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٧٨).

(٥) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٤)، والمقري: نفح الطيب، جـ١، (ص٢٠٢)، السيلكا: نوع من الرمل. كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٧٠).
Levi Provencal :Histoire de L'Espagne Musulmane .Tome3, p. 312

(٦) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، (ص١٨١)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٥٤).

عمل الأواني؛ كأواني الشراب والتحف والأقداح ذات الأشكال الجذابة الجميلة[١].

ومن الواجبات على الزجاجين عدم إخراج الزجاج من فرن التبريد إلا بعد مرور يوم وليلة حتى لا يتعرض للشرخ والتهشم[٢].

بعض التنظيمات الصناعية في مالقة:

مثل أي مدينة إسلامية كانت الصنائع والحرف المختلفة بمدينة مالقة تتجمع في أسواق خاصة، وتتركز في شوارع معينة تسمى باسمها؛ كشارع النجارين، وسوق العطارين، وغير ذلك[٣].

وظل هذا النظام معمولاً به حتى بعد سقوط الحكم الإسلامي في المدينة، وقيام حكم النصارى الأسبان؛ إذ أصدر الملكان الكاثوليكيان قراراً ينص على تطبيق النظام الإسلامي واحترامه بإنشاء شوارع وطرق مقسمة جيداً يستقر فيها أصحاب المهنة الواحدة، ولكن بعض المواطنين احتجوا قائلين: إن في هذا النظام إهانة لهم، فتم بحث الموضوع، وألغي القرار السابق، وصدر مرسوم ملكي في عام (٩٠٧هـ/١٥٠١م) حُددت فيه الشوارع التي يمكن أن تستقر فيها المهن المختلفة[٤].

والجدير قوله أن لكل حرفة أو سوق رئيساً أو شيخاً يسمى العريف أو الأمين، وهما لقبان ظلا راسخين في اللغة الأسبانية حتى يومنا هذا (Al Amin)[٥]. وكان هذا الأمين مسؤولاً عن أهل الحرفة وكل مل يتعلق بهم (مشكلاتهم

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٢، ٨٦)، وابن البيطار: الجامع، مج١، (ص٤٦١)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٢٠٤)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٨، ٤٩)، وبدور خيمنيث: الزجاج الإسلامي في مرسيه، (ص٢٦١).

(٢) السقطي: المصدر نفسه، (ص٨٣).

(٣) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٩)، والعبادي: الحياة الاقتصادية، (ص١٥٧).

(٤) توريس بالباس: المرجع نفسه، (ص٤٤٦).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٣٨، ٤٠، ٤٨، ٥٥، ٥٨، ٧٥)، ابن الخطيب: الإحاطة،=

وضرائبهم... إلخ) أمام معينه المحتسب الذي يمثل الحكومة[1]، ومثاله من مالقة أمين العطارين من بيت بني حجاج[2].

أما العمال مختلفو الأجناس والأديان، الذين يمارسون عملهم في مهنة واحدة بالسوق، فقد كان يطلق عليهم لفظ (صناع)[3]. وكان يساعدهم في أعمالهم أبناؤهم وغيرهم من الصبيان والعمال. أما النساء فكنَّ يعملن بشكل كبير في مهنة الغزْل[4].

ومن هنا غلبت الوراثة على الصنائع بين الأسر المسلمة[5]، وقد ظهر من بينهم في مالقة أفراد مهرة نبغوا في صناعاتهم؛ كالحاج يعيش المالقي، المعروف بالأحوص، الذي برع في الهندسة الميكانيكية والمساحة، والصانع عبدالله بن إبراهيم الأزدي، المعروف بابن المرابع[6].

وجرت العادة أن يتدرج الفرد في الحرفة من صبي صغير إلى صانع متدرب إلى عريف وهكذا؛ لأن كل مهنة يوجد فيها المعلم والعامل والمتعلم[7]، كما كانت كل صناعة تتميز بلباس خاص بها في المدينة الواحدة كمالقة[8].

= مج٣، (ص٤٣٠)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٧٣، ٢٧٤)، والعبادي: الحياة الاقتصادية، (ص١٣٦)، وحسين مؤنس: فجر الأندلس، (ص٤٦٤).

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص١٧، ١٨، ٢٠)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٣٠)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص٨٩).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٣٤).

(٣) السقطي: المصدر السابق، (ص٦٤، ٧٨).

(٤) السقطي: المصدر السابق، (ص٢٤، ٢٥)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٣٢٥).

(٥) المراكشي: الذيل والتكملة، س.ف (٥)، ق١، (ص١٩٨، ٢٢٩، ٢٣٠)، وابن سعيد: الغصون اليانعة، (ص٢١٦)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٨٨)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص ١٩٣).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٢١)، والمقري: نفح الطيب، مج٢، (ص٢١٣)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢١٢).

(٧) السقطي: المصدر السابق (ص٣٨، ٣٩، ٤١).

(٨) السقطي: المصدر السابق (٣٩، ٦٤)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٤٢٧).

الفصل الثالث
التجارة

دعا ديننا الإسلامي الحنيف الإنسان المسلم إلى العمل في التجارة بكل صدق وأمانة في جميع الأماكن والأزمنة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾(٢).

وجاء في الحديث النبوي ما يوضح أن أكثر رزق الإنسان في التجارة حيث قال النبي ﷺ: «تسعة أعشار الرزق في التجارة»(٣).

ولأهمية التجارة ومكانتها كوسيلة من وسائل السعي في الأرض طلباً للكسب الحلال فقد وضعها الإسلام في مرتبة الجهاد، قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٤).

وكانت التجارة في بلاد الأندلس من أهم الحرف الاقتصادية التي مارسها أهلها بكثرة منذ القدم، وخصوصاً التجارة الخارجية(٥) التي عادت على تجارها بالثروة السريعة والمردود المادي الوفير أكثر من التجارة الداخلية.

ومن أسباب ذلك: بعد المسافة في البر والبحر، وندرة البضائع التي يجلبها

---

(١) سورة الجمعة، آية رقم (١٠).

(٢) سورة النحل، آية رقم (١٤).

(٣) الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتصحيح الشيخ بكري والشيخ صفوت السقا، ١٨ جزء، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت، جـ٤، (ص٣٠) حديث مرسل.

(٤) سورة المزمل، آية رقم (٢٠).

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، (ص٣٣٦).

التاجر الركاض[1]. وقد شجّع ميدان الملاحة أهل الأندلس على تنظيم التجارة وركوب البحار بكل جرأة، وزيادة نشاطهم البحري الذي لم يضاهِهم فيه سوى أهل الجزيرة العربية[2].

وعلى صعيد التجارة الداخلية، فإن تميز بلاد الأندلس بكثرة المدن والقرى والحصون، ووفرة المياه والخيرات والطعام في الأودية والجبال وسائر مناكبها أدى إلى نشاط الحركة التجارية في داخلها على طول طرق المواصلات التي تربط بين مدنها المختلفة[3].

وكانت مدينة مالقة إحدى هذه المدن المهمة التي برعت في حقل التجارة أيام تاريخها الإسلامي؛ إذ اكتظت أسواقها المتعددة بالتجار والباعة والبضاعة المتنوعة؛ سواء كانت زراعية أو صناعية. وساعدها في ذلك بدرجة كبيرة ما منحه الرب لمنطقتها من ثروات طبيعية ومياه غزيرة وفواكه كثيرة وخيرات وفيرة وأرض خصبة واسعة المساحة آهلة السكان[4].

وبسبب هذا الانتعاش التجاري الذي أصابته مالقة في الداخل، فإن حركتها التجارية نشطت وتقدمت في الخارج على أيدي أهلها الذين حصلوا على علامات التفوق والنجاح في هذا الميدان وليس كثرة تغرب أهل مالقة في

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٥).

(٢) حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، (ص٢٩٣).

(٣) البكري: المسالك والممالك، مج٢، (ص٣٨٨) وما بعدها، وابن حوقل: صورة الأرض، (ص١١٠، ١١١)، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٣٦) وما بعدها، والزهري: الجغرافيا، (ص٨٠ وما بعدها)، والمقري: نفح الطيب، جـ١، (ص١٣٠، ٢٢٦).

(٤) الحموي: معجم البلدان، جـ٣، (ص١٣١)، وابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس، (ص٢٩٤)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣، ٥٤)، والحميري: الروض المعطار، (ص٣٧، ١٧٨)، ومحمود مقديش: نزهة الأنظار، (ص١٦١، ١٦٢).

الخارج وإقامتهم علاقات تجارية مع أهل كثير من البلدان[١] - كالتاجر علي دردوق الذي كانت له عدة سفن تبحر بالتجارة في البحر المتوسط بين ميناء مالقة وموانئ الشرق الإسلامي، سوى أكبر مثال على ذلك[٢].

والواقع أن خبرة مالقة في مزاولة العمل التجاري قديمة؛ بدليل أن الفينيقيين بنوها على أساس تجاري محض لجعلها واحدة من أهم محطاتهم التجارية التي أنشأوها على خطوط تجارتهم العالمية، واشتغلوا مع أهلها في التجارة. وفي عهد أعقابهم من الإغريق وغيرهم تحسنت مالقة وميناؤها، وبلغت شأواً عظيماً في التقدم التجاري وممارسة أعمال البحر حتى فاقت غيرها من مدن الأندلس وثغوره[٣].

وبعدما فتحها المسلمون في أواخر القرن الهجري الأول أوْلى أمراء بني أمية مالقة جُلّ عنايتهم، فاتخذها الأمير عبدالرحمن الأوسط مركزاً للأسطول الحربي يواجه به الأعداء، ويضمن سلامة حركة التجارة على طول ساحل البحر المتوسط[٤]، فسيطرت مالقة - مع كثير من مدن الساحل - على الجانب الأكبر من النشاط التجاري في غرب هذا البحر، وانتشرت جالياتهم في موانئه الجنوبية على الساحل المقابل رغم الأخطار المحيطة ببلاد الأندلس[٥].

---

(١) المراكشي: الذيل والتكملة، س.ف (٥)، ق٢، (ص٤٩٥، ٤٩٦)، وابن الزبير: صلة الصلة، ق٣، (ص١٤٢)، ق٥، (ص٣٧٤)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص١٩١، ١٩٢، ٣٠٤)، والمقري: نفح الطيب، مج٢، (ص٢١٢، ٢١٣)، التنبكتي: نيل الابتهاج، (ص١٦٧).

(٢) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦).

(٣) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، (ص٢٤)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص١٢٧، ١٢٨). G. Robles : Malaga Musulmana, Tomo2, p.434.

(٤) حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، جـ١، (ص٧٨).

(٥) الحميري: الروض المعطار، (ص٣٧)، وحسين مؤنس: عالم الإسلام، دار المعارف. مصر، (ص٣٤٤)، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط (٢)، ١٤١٣هـ، الدار المصرية اللبنانية. القاهرة، (ص٩٧، ٩٨، ٣٤٤).

أما في زمن الخلافة الأموية - الذي تميز بقوة السلطة والإنتاج، واستقرار الاقتصاد، وتشجيع التجارة الدولية - فقد برزت مالقة بوصفها مركزاً تجارياً مرموقاً تقصده السفن الإسلامية وغيرها من كل مكان لحمل السلع والبضائع إلى أماكن بعيدة، وهذا أيضاً أثَّر في تحسن الحالة العمرانية والاقتصادية لها[(١)].

وفي زمن ملوك الطوائف كانت مالقة عاصمة بني حمود، وأهم مدن إمارة غرناطة التي انطلقت تجارتها إلى كل مكان على جانب البحر المتوسط كغيرها من الموانئ الأندلسية؛ الأمر الذي أسهم في ثراء المدينة، واستقرار أحوالها، وتطورها في مختلف المجالات[(٢)] وتبعهم في ذلك باديس بن حبوس الذي اهتم بالمدينة، وأنفق عليها الأموال الطائلة، وشيد عمرانها أكثر من أحفاده تميم وعبدالله حكام مالقة وغرناطة، الذين كانوا على درجة أقل منه بسبب الأحداث التي وقعت في زمانهم[(٣)].

وفي عصر المرابطين والموحدين أصبحت مالقة إحدى محطات التجارة الإسلامية الكبيرة التي نشطت مبادلاتها التجارية مع مختلف بلدان العالم أكثر مما كانت عليه في السابق، خاصة في زمن الموحدين[(٤)] وباتت سفن

---

(١) الحموي: معجم البلدان، جـ٥، (ص٥٢)، والأنصاري: نخبة الدهر، (ص٢٤٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (١)، ق١، (ص٦٩٠)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٧، ١٣٧، ١٨١).

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٤٤، ٥١، ٥٩، ٩٤، ٩٥)، ومحمد عنان: المرجع نفسه، ع (٢)، (ص٤٤٢)، وأوليفيا: المرجع نفسه، (٦٢، ٦٣، ١٤٢)، ورجب محمد: دولة بني حمود في مالقة بالأندلس، رسالة ماجستير، إشراف أحمد راج، ١٩٧٦م، جامعة القاهرة. مصر، (ص٩).

(٣) الأمير عبدالله: المصدر نفسه، (ص٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٩).

(٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، (ص٤٩٥)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٤٣٩)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٨)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٢١).

المسلمين والنصارى تغدو وتروح على مينائها في طرق بحرية آمنة محملة بأنواع السلع والبضائع[1]. أما في الداخل، فكانت أسواق المدينة عامرة بحركة البيع والشراء وكثرة التجار والباعة ومنتجاتها الفائضة التي ترسلها إلى داخل الأندلس وخارجها[2].

وفي عصر مملكة غرناطة مثّلت مالقة - العاصمة الثانية لبني الأحمر وميناء الأندلس الأعظم[3] - النموذج الحقيقي للمدينة التجارية التي بلغت الذروة في نشاطها التجاري وتوثيق صلاتها مع البلدان المجاورة والبعيدة، خاصة النصرانية؛ منها كمملكة أرغون، وجمهورية جنوة[4] وغيرها، عن طريق تصدير منتجاتها واستيراد ما تحتاجه من السلع، لتصعد مالقة بهذا أعلى درجات السلم التجاري بين مدن العالم في تلك الحقبة رغم توتر العلاقات السياسية لمملكة غرناطة مع ما حولها، وتوالي الفتن الداخلية عليها في أكثر أوقاتها[5].

---

(١) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧، ٥٨)، وابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٣)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٥١).

(٢) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٣) وما بعدها، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥).

(٣) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٣).

(٤) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، وشكيب أرسلان: المرجع نفسه، (ص٢٣، ٧٥)، الحلل السندسية، جـ٢، (ص٢٢٩، ٢٨٧)، وعبدالعزيز سالم والعبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، (ص٣٤١).

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٦١) وما بعدها، وابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢)، جـ٢، (ص٢٨٦، ٢٨٧)، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٢، ٩٣)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٩٣، ٩٤)، ومحمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص١٠٥، ١٠٦)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٩١، ٢٩٢).

أما بالنسبة إلى النشاط التجاري الداخلي، فقد كانت مالقة هي سوق التصريف والتوزيع الرئيس لمملكة غرناطة، التي ازدحمت بالتجار والمحلات التجارية والسلع الفائضة، التي تفننت كل مدينة من مدن المملكة في إنتاجها وتبادلها مع الأخرى حتى نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس(١)، وهذا ينفي قول أحد الباحثين: إن مالقة استمرت في حركتها التجارية حتى نهاية القرن الثامن الهجري فقط(٢).

وصفوة القول: فإن مدينة مالقة كان لها أثر مهم في تفعيل تجارة الأندلس خلال المدة الطويلة التي قضتها في ممارسة هذه الحرفة؛ مما أكسبها زعامة تجارية وشهرة عالمية، خصوصاً في أواخر أيامها. كيف ومنتجات مالقة المتنوعة التي اكتشفتها الحفائر الأثرية والدراسات العلمية، وأشارت إليها الأقوال التاريخية قد غزت أسواق العالم عن طريق التجارة، ولا تزال تحتفظ بها بعض المتاحف الدولية حتى اليوم(٣). هذا بالإضافة إلى أن مالقة قد تمتعت بنشاط تجاري مكثف، وصفه المؤرخون والجغرافيون وغيرهم بإسهاب؛ فهي «مدينة حسنة عامرة، آهلة كثير الديار، متسعة الأقطار، بهية كاملة سنية، أسواقها عامرة، ومتاجرها دائرة، ونعمها كثيرة»(٤). ووصفها ابن الخطيب؛ فقال: «وما دار عليه السور متراكب منتسجة مبانيه، كما تفعل العناكب، فناديقه كثيرة، ومساجده أثيرة، وأسواقه بالدكاكين متراصة»(٥).

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢) وما بعدها، وريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧)، وطافور: الرحلة، (ص٥، ٦)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٤٧).

(٢) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣٦).

(٣) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧، ٥٨)، وابن الخطيب: المصدر السابق، (ص٥٢)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٥)، مالقة الإسلامية، (ص٤٢، ٤٣)، وعبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية، (ص١١٥)، وعلي أحمد: الأندلسيون المغاربة، (ص٣٠٩، ٣١٠).

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥).

(٥) انظر: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).

ومما سبق تبرز أهمية مالقة بوصفها مدينة اقتصادية يستحيل تجاهل دورها التجاري في منطقة حوض البحر المتوسط، سيما وأنها قطعة حيوية مثَّلت بلاد الأندلس في ساحة الاقتصاد على مستوى الدول والمدن خلال العصر الوسيط.

أهم مقومات التجارة:

ارتكزت التجارة في مالقة على عدة عوامل طبيعية وبشرية؛ أهمها:

(١) السلعة أو البضاعة: يعد وجود السلعة - أياً كان نوعها: زراعية أو صناعية أو معدنية أو حيوانية - مطلباً أساسياً في العملية التجارية. ومن دونها لا يمكن قيام أي عملية للبيع والشراء. وبمعنى آخر، فإن التجارة في مالقة قامت على أنواع المواد الناتجة عن عمليات الصناعة والزراعة واستخراج المعادن ومنتجات الحيوانات التي أمدتها بأسباب التفوق الحضاري؛ كالجلود واللحوم والتين والعنب والأواني بأنواعها(١).

(٢) رأس المال: يعد وجود المال في السوق التجارية أحد الأسس المهمة التي يقف عليها أي مشروع تجاري صغيراً كان أو كبيراً، وقد غلب على أهل مالقة وفرة الأموال التي وظفوها في ممارسة الأعمال التجارية؛ فالتاجر اليهودي إسماعيل ابن نغريلة ساعدته أمواله وبيئة مالقة التجارية على فتح محل تجاري مارس فيه التجارة، فازدادت ثرواته(٢)، والشاعر الرصافي مكَّنته أمواله من فتح محل تجاري في سوق مالقة الكبير، زاول فيه مهنة خياطة الأقمشة(٣). أما التاجر علي دردوق، فقد ساعدته أمواله في شراء عدة سفن

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٧، ٥٠، ٥٥، ٦٠، ٦١)، والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥) وما بعدها، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩).

(٢) هشام فوزي: يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، مجلة دراسات أندلسية، ١٤١٦هـ، عَ (١٥)، مطبعة المغاربية، (ص٩٩).

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٥٠٦، ٥٠٧).

تجارية تقوم بتصدير البضائع واستيرادها من ميناء مالقة وإليه حتى أصبح أشهر التجار المستثمرين في أواخر الحكم الإسلامي(١).

(٣) الأيدي العاملة: كانت التجارة في مالقة من أكثر الحرف مزاولة بين سكانها على اختلاف أجناسهم ومستوياتهم وأديانهم سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين؛ إذ تميزوا بالنشاط والحيوية والحزم والعمل والمعرفة الواسعة بشؤون البر والبحر، والخبرة الطويلة المتوارثة، والجرأة والصبر والإقدام والمهارة في الحساب، وغير ذلك من صفات التاجر الناجح، التي دفعتهم إلى نزول ميدان التجارة وتحقيق فوائد كبيرة، انعكست آثارها على حياة الشعب والمدينة في مختلف المجالات فنشط هذا الميدان، وخصوصاً في الفترة الأخيرة من الحكم الإسلامي في الأندلس(٢).

وكان نشاط السوق التجاري يعتمد على مدى سعي الناس في الكسب والعمل؛ فإذا قعدوا عن ذلك كسدت الأسواق وتعطلت الأعمال واختلت الأحوال والعكس صحيح(٣)، ومثالنا على ذلك: العالم محمد بن إبراهيم الأموي، أحد سكان مالقة، وكان من أهل الفاقة والحاجة، ثم ما لبث أن اشتغل كاتباً فشاهداً فمحاسباً، ثم مديراً في التجارة، فأصبح من الأثرياء الذين تحسنت أحوالهم ونمت أموالهم(٤)، ومثله عبدالله بن محمد الباهلي من أهل مالقة(٥).

ورغم هذا إلا أن كثيراً من تجار مالقة كانوا يتصفون بعوارض هذه الحرفة

---

(١) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٤١، ٢٤٢)، والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٢١)، وشكيب ارسلان: المرجع نفسه، (ص٢١٦).

(٣) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج١، (ص٣٠٢).

(٤) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج٢، (ص٣٣٨).

(٥) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، جـ٢، (ص٩٠٢).

من غش وخداع وكذب ومماطلة أثرت في ميدان التجارة، وظل مراقبو الأسواق يحاربونها على قدم وساق[1]، ومن هذا نستطيع القول: إن العامل البشري يعدٌّ من الركائز الأساسية المهمة في دعم النشاط التجاري أو ترديه.

(٤) الأسواق: يعدُّ السوق أحد الأسس المهمة التي يقوم عليها النشاط التجاري، وهي لا تدل على موضع ثابت محدد، وإنما يقصد بها الأماكن التي تتجمع فيها المتاجر والمحلات الدائمة والمؤقتة على حد سواء في الشوارع والميادين (وتعني بالأسبانية الرحاب) وفي الأرباض وقرب أبواب المدينة، ويمارس فيها التجار والباعة عملية البيع والشراء باستمرار[2]، وقد كان في مالقة أيام الحكم الإسلامي العديد من الأسواق الصغيرة والكبيرة المنتشرة في داخل المدينة وخارجها[3]، التي ما يزال نظامها معمولاً به في الأقطار الإسلامية حتى اليوم؛ كبلاد المغرب مثلاً[4]. وسنستعرض هذه الأسواق بالتفصيل في الصفحات اللاحقة إن شاء الله.

أهم العوامل المساعدة على ازدهار التجارة الداخلية والخارجية والمؤثرة فيها:

يوجد عدد كثير من الأسباب التي شجعت على العمل في القطاع التجاري بمدينة مالقة، مثلما هو الحال في قطاع الزراعة والصناعة التي تناولناها سابقاً. ومن أبرز هذه الأسباب:

(١) موقع مالقة الجغرافي على طرق المواصلات البحرية في منطقة

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٣٥، ٤١، ٦١، ٦٣، ٧٣)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج١، (ص٤٢٢، ٤٢٥).

(٢) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٤٤٠)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٩٦).

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥)، ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، وطافور: الرحلة، (ص٦)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص٦٥، ٩٩)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٧).

(٤) كمال شبانة: الحالة الاقتصادية، (ص١٤٩).

حوض غرب البحر المتوسط مقابل العدوة المغربية كعاصمة جمعت بين خدمات البر والبحر[1] في نقطة يلتقي فيها تراب الأندلس بمياه البحر المتوسط - وهي ميزة فريدة فقدتها كثير من مدن الأندلس - الأمر الذي سهّل حركة التبادل التجاري، وبيّن أهمية مالقة وأثرها الكبير في ميدان التجارة[2].

(٢) ضرب عملات نقدية - خاصة في دار السكة بمالقة - منذ عصر الطوائف أدى إلى نشاط حركة البيع والشراء، وتبادل التجار سلعهم على أساس تلك العملات المعدنية التي فرضتها الحاجة الملحة من أجل استخدامها في التجارة[3].

(٣) نمو البحرية الأندلسية وسيطرة المسلمين على حوض غرب البحر المتوسط؛ إذ أنشؤوا أسطولاً حربياً قوياً، مهّد سبل حركة النقل البحري، وحمى طرق سفنها التجارية من خطر الأعداء، ومكّنها من توسيع حركة التجارة الخارجية بين ميناء مالقة والموانئ العالمية وسيرها بكل أمن وطمأنينة[4].

(٤) كثرة المراسي التابعة لمالقة - كمرسى بزليانة وسهيل ومربلة وغيرها - أفسح المجال لنمو الحركة التجارية في مدن ساحل البحر المتوسط - بما فيها مالقة - مع بر الأندلس وأقطار حوض ذلك البحر[5].

---

(١) الحموي: معجم البلدان، جـ٣، (ص١٣١)، والإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٦٤)، وابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١٢٢)، معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥) وما بعدها، وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٢).

(٢) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٧، ٨، ٩).

(٣) الأمير عبدالله: التبيان، (ص١٦٢)، كمال السيد: المرجع نفسه، (ص٤٩)، والنبراوي: النقود الإسلامية، (ص٢٨٥، ٣٦٧).

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، (ص١٠٥)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٦٧، ٢٦٨)، مج٧، (ص٢٢٠)، والعبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، (ص٣٢١)، وحسن محمود: قيام دولة المرابطين، (ص٤٠١)، عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٦٦).

(٥) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١) وما بعدها، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥) وما=

(٥) تعدد وسائل وطرق المواصلات البرية والبحرية المؤدية من مالقة وإليها، ترتب عليه ازدهار حركة التجارة الداخلية والخارجية، فأصبحت قوافل مالقة تجوب البلاد وسفنها تمخر عباب البحار[١].

(٦) كان لحرفتي الزراعة والصناعة أثر مهم في تجارة مالقة؛ إذ من الطبيعي أن تتأثر - كأي تجارة - بتقدم تلك الحرفتين أو تعثرهما مثلما تؤثر فيهما، فالتجارة هي التي تنمي الزراعة وتدفع عجلة الصناعة[٢]. وبمعنى آخر، فالعلاقة بين الزراعة والصناعة والتجارة علاقة طردية، متى تأثر أحدهما سلباً أو إيجاباً تأثر الآخر وبالعكس.

(٧) تميزت مدينة مالقة بخصوبة التربة واعتدال المناخ ووفرة المياه وكثرة الخيرات والمنتجات زراعية كانت أو صناعية، التي نقصت في كثير من مدن الأندلس الأخرى، وزادت عن حاجة الاستهلاك المحلي فيها، وهذا أيضاً أثَّر في تحسن مستوى المعيشة، ونشاط تجارة مالقة، وتوثيق علاقاتها مع مختلف المدن والبلدان[٣].

= بعدها، والعبادي وعبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، (ص٤٤)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٨١).

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٤١، ٤٩، ٨٣)، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٣، ٥٦٤، ٥٧٠، ٥٨١)، والضبي: بغية الملتمس، (ص١٥٠)، وابن الخطيب: مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، (ص٣٣٤)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥، ٣٥٦)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، (ص٦٣٨).

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، (ص١٢٠)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٦٣)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٩٠)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٦).

(٣) الإدريسي: المصدر السابق، مج٢، (ص٥٦٤، ٥٦٥)، وابن الخراط: اقتباس الأنوار، (ص١٤٤)، والمراكشي: المعجب، (ص٨٠، ٨١)، والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن غالب: فرحة الأنفس، (ص٢٩٤)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، والطوخي: المرجع السابق، (ص٢٨١)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٧، ٨).

(٨) ازدياد الكثافة السكانية والتوسع العمراني جراء الأمراض والفتن والحروب الداخلية في الأندلس؛ كفتنة البربر في عصر ملوك الطوائف، أو الحروب النصرانية ضد المسلمين أو وباء الطاعون الذي تفشى في غرناطة عام (٨٤٤هـ/١٤٤٠-١٤٤١م) نتج عنها هجرة كثير من أهل الأندلس وغرناطة وفرارهم باتجاه مالقة، والعمل في مختلف الميادين كميدان التجارة، وهذا أسهم في رفع سقف الإنتاجية، وكسب الأرباح، وازدهار الحركة العمرانية، والاعتماد على مالقة في النشاط التجاري؛ خاصة وأن كثيراً من المدن المنتجة فقدها المسلمون في عصر بني الأحمر[١]، ولكن الغريب المدهش أن أحد الباحثين يشير - في تناقض عجيب - إلى أن ابن الخطيب يصف مالقة بتفاؤل قليل، فيقول: «بدأت المدينة بالانحطاط، وبدأ العديد من منازلها بالفناء، وهي التي كثرت في فترة سابقة في الوقت نفسه الذي تركها سكانها ونزلاؤها وأصبحت الأماكن مهجورة بعد رخاء ورفاهية في الوقت الماضي»[٢]، وربما نوافق الباحث هذا القول إذا كان يقصد بذلك الزمن الذي عصف فيه وباء الطاعون بمالقة، وأدى إلى فرار الكثير من أهلها وموت الآخرين في منتصف القرن الثامن الهجري[٣].

(٩) وجود مرافق القطاع البحري التي خدمت التجارة في مالقة، كدار الصناعة التي تصنع السفن بوصفها وسيلة بحرية تنقل الجنود والسلع من بلد إلى آخر، والجسر الضخم على الساحل لرسو السفن وأبراجه الشاهقة

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٢٢)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٠٠) وما بعدها، وابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص٢٠)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٣٨٥، ٥١٠)، وأزهار الرياض، جـ١، (ص١٣٢)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٣، ٥٤، ٥٧، ٧٢، ٧٥)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٣٣)، وإميليو غرسيه: الشعر الأندلسي، (ص٧١)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص١٠٤).

(٢) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٢٧).

(٣) يوسف فرحات: المرجع السابق، (ص١١٣).

والقلاع والأبراج الممتدة على طول ساحل البحر المتوسط لحراسة الشواطئ وحماية البلاد من خطر لصوص البحار، كقلاع حصن جبل فارة والبرج الواقع في أعلاه، وفيه منار يرسل الضوء للبحر كي تسترشد السفن إلى ميناء مالقة، وكذلك قلاع وأبراج قصبة مالقة وأبراج دار الصناعة التي تضرب أمواج البحر المتوسط تحت أقدامها، جميع هذه المنشآت أنعشت تجارة مالقة الخارجية، وسهّلت اتصالها بالعالم الخارجي[1].

(١٠) اهتمام أهل مالقة وحكامها ببناء كل ما يخدم التجارة في داخل مالقة وخارجها من مرافق تجارية في البر؛ كالأسواق والفنادق والقناطر والآبار والاستراحات والأبراج على طول الطرق البرية الممتدة؛ كبرج الناظور في ساحل سهيل. وهذه ساعدت على انتعاش حركة البيع والشراء في مالقة، وحماية طرق القوافل من اللصوص، وتنقل السفار من التجار وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وبضاعتهم[2].

(١١) إلغاء الضرائب غير الشرعية التي فرضها حكام مالقة على الشعب - بما فيهم التجار - كان عاملاً مهماً في ازدهار ألوان النشاط التجاري في مالقة،

(١) الزهري: الجغرافية، (ص٩٣)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص١١٩)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص١٢٨)، ومحمد عنان: الآثار الأندلسية، (ص٢٤٦، ٢٤٨)، وفون شاك: الفن العربي في أسبانيا، (ص٨٥)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٢٠، ٣٨)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٤٥).

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٥، (ص٥٦٥، ٥٧٠)، وابن الزبير: صلة الصلة، ق٥، (ص٢٨٥، ٢٨٦) وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١١٧)، ابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٢٤)، وابن عذاري: البيان المغرب، القسم الموحدي، (ص٨٢، ٩٥، ١٤٤)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥، ٣٥٧)، وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨١)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦، ٢٢٢)، وفون شاك: المرجع نفسه، (ص٨٥)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص١٠٧، ٢٩٠، ٣٠٣، ٣٠٨).

وتحسُّن مستوى المعيشة وإقبال الناس على التجارة. فالضرائب التي دفعها أو وضعها حكام الطوائف - وعلى رأسهم عبدالله بن بلقين نيابة عن أخيه تميم والي مالقة، والذي فرض هو أيضاً على شعبه مغارم باهظة رغم ثرائه وغناه - كانت من أهم الأسباب التي دفعت التجار الفقهاء استدعاء المرابطين الذين قطعوها، أما الضرائب التي أقرها القاضي بن حسون في أواخر زمن المرابطين، فقد كانت سبباً رئيساً في ثورة أهل مالقة عليه ثم مقتله(١).

(١٢) خضوع مالقة تحت حكم دول إسلامية قوية مدت أراضيها على رقعة شاسعة في المغرب والأندلس، فرضت فيها الأمن والاستقرار، وطبقت العدالة والنظام كدولة المرابطين والموحدين، أتاح الفرصة لتجار مالقة ووسائل تجارتها البرية والبحرية التنقل بين مناطق البلاد وموانيها بكل يسر وسهولة وحرية وأمان دون الخوف من إرهاق أو ظلم(٢).

(١٣) حرص حكام مالقة على تنمية حقل التجارة وتطويره مثلما حرصوا على الزراعة والصناعة. وهدفهم من ذلك النهوض بمالقة في كافة المجالات التي تقف عليها حضارتها، ولهذا كان دعمهم المادي والمعنوي مستمراً، وتشجيعهم على العمل في التجارة متواصلاً. ومثال ذلك ولاة المرابطين والموحدين وسلاطين بني الأحمر، ومنهم محمد المؤسس، الذي حث أهل

---

(١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٤، ٩٥، ١٠١، ١٠٩)، والحميدي: جذوة المقتبس، (ص٢٤٢)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٥٤، ٢٥٥)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٩٦)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢٤٩)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٢)، (ص٣٤٢).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، القسم الموحدي، (ص٨٢، ٩٥، ١٤٤)، جـ٤، (ص٤٦، ٦٣، ٦٤)، وابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، (ص٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٧، ٣٦٨)، وحسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في الأندلس، (ص٢٦٦، ٢٧٠)، وحسن محمود: قيام دولة المرابطين، (ص٤٠١، ٤٠٢)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٢٩٠، ٢٧٧)، مالقة الإسلامية، (ص١٨).

مملكته جميعاً - بما فيهم أهل مالقة - على إحياء التجارة والعمل في ميدانها.

أما السلطان أبو سعيد فرج حاكم مالقة، فقد اعتنى بتجارتها ما لم يعتن بها غيره من الحكام؛ إذ نافس ابن عمه محمداً الفقيه حاكم غرناطة في تطوير التجارة ودعمها، وامتلاك العديد من المحلات التجارية، والعمل في العقار وبناء السفن الكبار حتى أصبحت حاشيته تتقلب في النعيم وشعب مالقة في رغد من العيش والرفاهية والرخاء الاقتصادي ما لم يعشه شعب العاصمة غرناطة نفسها[١] إن لم نبالغ. فكيف إذن بحياة السلطان نفسه؟.

وعلى العموم، فإن مالقة في ظل سياسة سلاطين بني الأحمر واهتماماتهم ارتفعت تجارتها إلى حد بعيد، وأصبحت أهم وأعظم قاعدة تجارية في الأندلس[٢].

(١٤) أهمية مالقة السياسية كان لها أثر مهم في نهضة التجارة وتقدمها قبل الإسلام وأيام انتشاره. فاتخاذ بني حمود القادمين من المغرب مالقة عاصمة رئيسة لدولتهم في القرن الخامس الهجري فتح أسواقها أمام تجارة بلاد المغرب والعكس، خاصة وأن بني حمود فرضوا نفوذهم على جزء من شمال تلك البلاد[٣]، أما بنو الأحمر، فاتخاذهم مالقة عاصمة ثانية لمدة تزيد على قرنين ونصف من الزمان تشاطر غرناطة بناء النظام السياسي والاقتصادي للدولة نتج عنه ازدياد نشاط مالقة التجاري أكثر من ذي قبل، حتى إنه ليرجح أن إنشاء باب البحر الثاني في عهد بني الأحمر كان بسبب

(١) المراكشي: المعجب، (ص٢٦٣، ٢٣٧)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٤٩، ١٥٠)، وابن لخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٢٤٢، ٢٤٣)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٧٢، ٧٥)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٨).

(٢) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، جـ٢، (ص٣٥٧)، وكمال السيد: المرجع نفسه، (ص٢٣).

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦)، والحميدي: جذوة المقتبس، (ص٢٩)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٨٩، ١٩٩، ٢٨٩)، والمراكشي: المصدر السابق، (ص٤٧، ٤٨)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

ارتفاع معدل الحركة التجارية لمينائها[1].

كما أن تجارة مالقة ازدهرت للأسباب الآنفة الذكر، فقد تعرضت في بعض الأحيان إلى حالة من الضعف والانكماش بسبب بعض العوامل الطبيعية والبشرية؛ منها:

١- الضرائب غير الشرعية التي فرضها ولاة مالقة على التجار والأهالي؛ كالضرائب التي دفعها أهل مالقة لإنقاذ مدينتهم من عبث البربر وتخريبهم، أو الضرائب التي أقرها تميم بن بلقين على شعب مالقة في زمن ملوك الطوائف، أو الضرائب التي دفعها القاضي ابن حسون للنصارى في أواخر زمن المرابطين على حساب الشعب المالقي. وغير ذلك من المغارم[2]، كما يعدُّ إلغاؤها حافزاً قوياً على نمو التجارة وتحسنها، فإن إلزام الشعب بها يعد من أشنع العوامل التي ألحقت الضرر بجوانب الحياة في مالقة فالمواصلات تعرقلت بسبب كثرة حوادث قطع الطرق، والمعيشة تدنى مستواها وازداد غلاؤها، وحركة البيع والشراء انخفضت بسبب امتناع التجار عن الإقبال على الأسواق لشعورهم بالظلم وانعدام الأمن على النفس والمال في البر والبحر، كما ظهر الغش والتلاعب بالأسعار رغم وجود المحتسبين، فاشتكى الناس إلى حكامهم، كالشكوى التي تقدم بها أهل مالقة إلى حكام المرابطين، ولقيت كل قبول ودعم[3].

٢- الحصار العسكري: يعدُّ حصار الجيوش العسكرية من أكثر الأساليب

---

(١) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٤)، (ص٥٥)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص٢٣، ٣٦)، والعبادي وعبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، (ص٣٤١).

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٥٩، ٩٤، ٩٥، ١٢٠)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٠٢)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٥٤، ٢٥٥).

(٣) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٤)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص١٦، ٢٤، ٣٥، ٥٦)، ومؤلف مجهول: وثائق تاريخية جديدة، (ص١٧١)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٦٧).

استخداماً ضد مدينة مالقة سواء من البر أو البحر، وكان يلجأ إليه في حالة امتناع مالقة عن الخضوع وصمودها وتعذر السيطرة عليها[١]. وكيفما كانت النتيجة المرجوة من وراء ذلك الحصار - تحققت أو لم تتحقق - فإنه دائماً في مثل تلك الظروف كانت تتعطل أوجه النشاط الاقتصادي، وتتوقف تجارة ميناء مالقة وأسواقها الداخلية والخارجية، فيعم الفقر المدينة، ويشتد بأهلها الضيق والكرب، وتستباح الحرمات، وتتعرض الممتلكات لكثير من أعمال النهب والتخريب التي تصاحب عادة حصار المدن[٢].

وخير شاهد يصور لنا هذا القول حصار ابن عباد لمالقة من البر والبحر في زمن الطوائف، وحصار النصارى لها في أواخر القرن التاسع الهجري[٣].

٢- الحصار الاقتصادي: يعدُّ هذا الحصار أقوى المؤثرات ضرباً، وأشدها وقعاً على الحياة الاقتصادية عن غيره من الحصارات، والحقيقة أننا لا نقصد به ذلك النوع من الحصار الذي يفرضه الحصار السياسي، ويلازمه، وإن كان لا شك لهذا تأثيره في تحقيق الهدف المطلوب، ولكننا نقصد به ذلك الحصار الذي قطع فيه السلطان عبدالمؤمن الموحدي - فقط - العلاقات الاقتصادية مع مدينة مالقة، وأدى إلى دخولها في طاعة الموحدين من غير قتال على ما يبدو[٤] - بعدما أثبت الحصار العسكري لها إخفاقه وعدم جدواه - وهو

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٦)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٦٢)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٣٨٢، ٣٨٣).

(٢) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨، ١٧٩)، وضياء باشا: الأندلس الذاهبة، جـ٣، (ص٢٦٨، ٢٧٦، ٢٧٩)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢٢٠) وما بعدها، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص١٧).

(٣) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٥٧، ٥٨)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢٧٣)، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٣، ٩٤)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥٢٠، ٥٢١).

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٢٣، ٣٢٤).

رسالة أرسلها السلطان إلى الهيئة الإدراية العليا بمدينة سبتة يأمرهم فيها بمنع التجار من التعامل مع أهل مالقة، وينذرهم بأشد ألوان العقاب في حالة مخالفة أمره؛ إذ السيف الجزاء، والقتل من تلك العادة هو الدواء[1].

ومن هنا تتبين أهمية مالقة التجارية وأثرها في التبادل الاقتصادي مع المغرب.

٣- القحط والأوبئة الفتاكة: ليس من شك في أن قلة الأمطار والمياه في مالقة مثلما حصل في عام (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م)[2]، وانتشار الأمراض المستعصية كوباء الطاعون الذي أصاب مالقة في عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[3] تعد من الأسباب التي أصابت النشاط التجاري لمالقة بالشلل والكساد، ولكن لكوننا قد تناولنا هذين العاملين في ميدان الزراعة بما فيه الكفاية، فليس لنا حاجة من إعادتها في هذا الموضع.

٤- الحروب المحلية والخارجية: شهدت مدينة مالقة في تاريخها الإسلامي صراعاً دموياً عنيفاً كان له أكبر الأثر السيئ على كافة جوانب الحياة فيها، وعلى الأخص الجانب الاقتصادي، مثلها مثل أي مدينة تتعرض للحروب والنزاعات المسلحة[4]. فغارات النصارى التخريبية - كحملة ألفونسو الثامن في زمن الموحدين - والفتن المتصلة بين بني إشقيلولة والسلطان الفقيه[5] وغيرها من الحروب التي ذكرناها في فصل الزراعة، ترتب عليها تعذر أهل مالقة في قضاء حوائجهم وممارسة حياتهم بشكل طبيعي، حيث

(١) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، (ص٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١٢٢).

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٩٤).

(٤) سعيد عبدالفتاح: الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، (ص١٠٧)، ومحمد عبدالستار: المدينة الإسلامية، (ص٣٠٦).

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، (ص١٤٥، ١٤٦)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٨٧، ٣٨٣)، الإحاطة، مج٣، (ص٣٨٢).

توقف العمال عن العمل، فقل الإنتاج، وشلت حركة التجارة في الأسواق، فأصاب المدينة الكساد والفساد، وعمَّ الوباء والغلاء، واشتدت المجاعة، وشاعت البطالة، وتوقف النشاط التجاري للمدينة بشكل عام[1].

خطر القرصنة: ومن الأهمية بمكان أن نتطرق إلى عامل مهم وثيق الصلة بالحروب الخارجية وله أبلغ الأثر في إضعاف النشاط التجاري وعرقلة حركة السلع والبضائع بين المدن والأقطار المختلفة وهذا العامل خطر القرصنة، - ونقصد به تلك الاعتداءات البحرية من الأفراد والجماعات المنظمة وغير المنظمة على الوطن حكومة وشعباً في أوقات مفاجئة[2]. ونظراً إلى تمتع مالقة بموقع مهم على البحر المتوسط، فإنها تعرضت لهجمات القراصنة التي كان يقوم بها المسلمون والنصارى وغيرهم في ظل تنافسهم للسيطرة على حركة الملاحة في هذا البحر[3]. ولذلك قام حكام مالقة وأهلها بالعديد من الأعمال الدفاعية ضد تلك الهجمات البشعة بهدف فرض السيطرة الأمنية، ومراقبة سواحل البحر المتوسط لحماية أنفسهم، وضمان سير حركة النقل البحري في جو يتسم بالرخاء والطمأنينة. ومن أول تلك الأعمال:

أ- اتخاذ مالقة قاعدة للأسطول الأندلسي في البحر المتوسط لحماية سواحله وخطوط مواصلاته وثرواته من غزوات الأعداء، وخصوصاً أيام بني أمية وبني الأحمر[4].

---

(١) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١٢٢)، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٩٣، ٩٤)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، (ص١٠٢، ١٠٣)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٩٦).

(٢) حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، (ص١٠١) وما بعدها، والعبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، (ص٢٤٩).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٤، (ص٦٦، ٦٧)، والعبادي: المرجع نفسه، (ص٢٥١).

(٤) ابن حيان: المقتبس، جـ٥، (ص٨٧، ١٣٨، ٢٣١، ٢٣٢)، وحسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، جـ١، (ص٧٨).

ب- بناء الرباطات على طول ساحل مالقة وما حولها، وتزويدها بالمنائر (الطوالع) وإقامة المجاهدين فيها للحراسة وكشف سفن الأعداء من مسافة بعيدة(١).

ومن الأمثلة على ذلك: رباط حصن جبل فارة ورباط الغبار والسعداء والسودان في خارج مالقة(٢) ومرية بلّش، أي: بلّش مالقة؛ لأن كلمة مرية عند العرب تعني البرج الذي توقد فيه النار إذا أقبل العدو(٣) وطالع سبتة الذي بناه المرابطون، وكان يشرف على أرض الأندلس والمغرب في وقت واحد من مالقة شرقاً إلى ما وراء طريف غرباً(٤)، وتجديد حصن جبل فارة المشرف على مرسى مالقة إعانة للمسافرين وإنجاداً للكافرين(٥).

جـ- إقامة القلاع العظيمة والأبراج المتنوعة - سابقة الذكر - لمراقبة المراكب وحراسة الشاطئ المالقي من غزوات البحر(٦).

د- إسناد القوة البحرية في مالقة إلى مجاهدين أصحاب خبرة ونشاط وقيادة حكيمة ومهارة عالية مكَّنتهم من التغلب على خصومهم في البحر، مثل أسرة بني الرنداحي وغيرهم(٧).

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨١) وما بعدها، والعبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، (ص٢٩٠، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٩٣)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٤٦).

(٢) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٤)، (ص١٩١) وما بعدها، س. ف (٥)، (ص١٢١)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٤٢٧، ٤٢٨)، والمقري: نفح الطيب، مج٣، (ص٤٠٣).

(٣) شكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ١، (ص١٢٣).

(٤) العبادي: المرجع السابق، (ص٣٢٨).

(٥) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٦٠، ٦١).

(٦) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، والقيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٣٨٩)، وفون شاك: الفن العربي في أسبانيا، (ص٨٥).

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٧٠)، مج٧، (ص٢٢٠)، والمقري: نفح الطيب، مج٦، (ص١٩٣)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦) وما بعدها.

أما عن أعمال القرصنة، فقد كان أولها هجوم للنورمان على مالقة في عام (٢٤٧هـ/٨٦١م) ولكن أهلها تصدوا لهم، وانتصروا عليهم، فعادوا خاسئين[١].

وفي عهد المرابطين هاجم جماعة من الثائرين في حصن منت ميور التابع لمالقة مركباً عسكرياً في مرسى الشجرة على مقربة من الحصن، واستولوا على كل ما فيه من معدات وطعام[٢].

وفي عصر بني الأحمر أصبحت مالقة مركز الانفتاح الاقتصادي الذي نشطت مبادلاته التجارية والمقر الرئيسي لقوات غرناطة البحرية التي كافحت الأعداء في البحر المتوسط، ودافعت عن مملكة غرناطة شعباً وحكومة[٣].

ولهذا ازداد نشاط القرصنة النصراني الوحشي ضد سكان مالقة وممتلكاتها أكثر من السابق، وركزوا على ضربها اقتصادياً كهدف تبنته سياستهم العمياء من أجل القضاء على نظام الحكومة الغرناطية في الأندلس، وأصدق دليل على هذا النشاط ما تضمنته بعض المراسلات الملوكية بين سلطان غرناطة يوسف الأول بن الأحمر وبين ملك أرغون بيدرو الرابع[٤] إذ جاء في رسالة بتاريخ ١٥ رجب عام (٧٣٩هـ/١٣٣٩م) أن جماعة من القراصنة النصارى اعتدوا على تجار من أهل مالقة والمرية وغيرهم على مقربة من ساحل المرية أثناء توجههم إلى بلاد المغرب وأخذوهم أسرى[٥].

---

(١) حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، جـ١، (ص٧٨).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٦٣)، والمقري: نفح الطيب، جـ٤، (ص٢١٧).

(٣) ابن الخطيب: ديوان ابن الخطيب، مج٢، (ص٤٨٣)، وريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، وشكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٢٢، ٢١٣)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٤).

(٤) بيدرو الرابع بن ألفونسو الرابع: تولى الحكم عقب والده في عام ١٣٣٦م، وظل يحكم حتى وفاته في عام ١٣٨٧م، وكان ملكاً وافر الحزم سفاكاً للدماء أطلق عليه لقب الخنجري. انظر شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص١٣٠).

(٥) محمد كمال: يوسف الأول، (ص٥٦٠، ٥٦١).

وفي رسالة غير مؤرخة في عهد السلطان يوسف أن الحاج السقاء من أهل مالقة أُخذ مالُه، وأُسر في باخرة برنفيل لادور من برشلونة[1] مع بعض إخوانه[2].

وفي رسالة مؤرخة ٢٨ رجب عام (٧٤٥هـ/١٣٤٤م) يطلب السلطان يوسف من بيدرو الرابع رد علي بن بكرون الصائغ وسعيد بن أحمد من أهل المرية، اللذين أخذهما قراصنة النصارى وهما خارجان من مالقة ووصل بهم نصراني من بلنسية إلى المرية في منتصف شهر صفر الفائت، ودفع أقرباؤهما الفدية (٥٢ ديناراً من الذهب) إلى النصراني بغير وجه حق؛ إذ الصلح معقود بين المملكتين[3].

وفي رسالة مؤرخة أول شعبان عام (٧٤٥هـ/١٣٤٤م) اشتكى مجموعة من التجار للسلطان يوسف أن جفناً خرج من مالقة متوجهاً إلى العدوة، فأخذه النصراني جيل باو من أهل بلنسية، وكان فيه المسافر محمد الشناوي ومحمد السواحي، فوجه السلطان رسالته إلى بيدرو يطلب فيها البحث عنهما وردهما إلى بلادهم[4].

وفي العاشر من شعبان عام (٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) بعث السلطان يوسف إلى بيدرو الرابع رسالة يذكر له فيها أن تجاراً من أهل مالقة سفّروا لهم من المغرب في شهر ربيع الأول الماضي قمحاً في جفن النصراني دون ناط بشك من أهل بلنسية، واشترطوا عليه أن يوصله إلى مالقة، فاعترض الجفن المذكور

(١) برشلونة: كانت عاصمة الروم، تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في شمال شرق الأندلس. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص٤٢).

(٢) محمد كمال: يوسف الأول، (ص٥٦٥).

(٣) شكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ٢، (ص٥٣٢)، ومحمد كمال: المرجع السابق، (ص٥٧٠).

(٤) محمد كمال: المرجع السابق، (ص٥٧٤).

على مقربة من ميناء مالقة ثلاثة أجفان للنصراني (قليم قجاله) واستولى على الجفن بكل ما فيه من طعام وسُفّار من أهل مالقة، والمطلوب هو إرجاع كل ما أخذه اللص النصراني من طعام أو دفع قيمته لأصحابه(١).

وفي التاريخ نفسه بعث السلطان برسالة إلى بيدرو الرابع يطلب فيها رد القمح المسروق، ومقداره يتجاوز آلاف الأقداح على متن البواخر الأرجوانية لتجار مالقة، وهم: علي بن إبراهيم، وقاسم السقاء، وموسى الكواب، وغيرهم(٢).

وفي أواسط شعبان عام (٧٤٥هـ/١٣٤٤م) جاء في رسالة السلطان يوسف أن طائفة من تجار مالقة والمرية وغرناطة الأغنياء تحركوا من بلاد المغرب في جفن برنقيل لدون من برجلونة باتجاه الأندلس، ولحظة ما اقتربوا من المرية غرق مركبهم، فأخذ منهم صاحب الجفن جميع ما كان لهم من الأموال والأمتعة، وإذا بثلاثة أجفان لقراصنة النصارى تعترضهم وهم لافر نسيشك من أهل بلنسية ومرتين بازاقوه من أهل أوريوله(٣) فمكنهم النصراني من التجار، فأسروهم ففدى بعضهم نفسه بالمال، وبقي البعض الآخر في الأسر(٤).

وفي عهد السلطان يوسف - أيضاً - أغارت أربعة مراكب نصرانية بعد نزولها على ساحل سهيل على اثني عشر فارساً من المسلمين أثناء توجههم إلى مالقة، ولم يكن مراقب برج حصن سهيل موجوداً في تلك اللحظة، فاستطاع القراصنة أسر عشرة من الفرسان وقتل واحد وهروب آخر. وعلى وجه السرعة بادر أهل مالقة من الفقهاء والقضاة وغيرهم بجمع الأموال في المسجد الجامع

---

(١) محمد كمال: يوسف الأول، (ص٥٧٥، ٥٧٦).

(٢) محمد كمال: المرجع السابق، (ص٥٧٧).

(٣) أوريوله: مدينة قديمة البناء حصينة تقع في كورة تدمير. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص٣٤).

(٤) محمد كمال: المرجع السابق، (ص٥٧٩).

لفك أسراهم[١]. وكانت طريقة النزول على الساحل بالقوة والتحرز في موضع حصين غالباً ما يتّبعها القراصنة في عملياتهم الإجرامية[٢].

وفي المقابل كان بعض البحارة المسلمين يقومون بأعمال القرصنة النكراء ضد أعدائهم؛ فالبحار ابن الحسين أخذ للنصارى جفنين - أحدهما استقر في مالقة - وكان فيهما (١٧) أسيراً وسلع تجارية، تمكن السلطان ابن الأحمر من إعادتها إلى أصحابها مع رسالة مكتوبة أواخر عام (٧٣٥هـ/١١٣٥م)[٣].

كما يذكر طافور أنه قضى في مالقة مع زملائه الجنويين تسعة أيام ثم أعدوا سفنهم للإبحار، وجهزوها بالسلاح خوفاً من هجمات القراصنة[٤].

واستناداً على الأمثلة السابقة برزت النتائج التالية:

١- أن حل مشكلات القرصنة كانت تتم بين مملكة غرناطة ومملكة أرغون بالوسائل الدبلوماسية عن طريق الرسائل السلمية بعيداً عن لغة الحرب وسلاحه.

٢- أن النصارى سيطروا على حركة النقل التجاري في البحر المتوسط في عصر بني الأحمر، بل قبل عصرهم[٥].

٣- ظهور روح التعاون المشترك وصدق المعاملة الواضحة بين المسلمين والنصارى في الحقل التجاري رغم توتر العلاقات السياسية[٦].

٤- شهرة مدينة مالقة في فكاك الأسرى. وفي هذا قيل: «وأي خلق أسرى من استخلاص الأسرى تبرز منهم المخدرة حسرى»[٧].

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣).

(٢) حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، (ص١٠٤).

(٣) شكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ٢، (ص٢٤١).

(٤) انظر: الرحلة، (ص٦، ٧).

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٦٩، ٢٧٠)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٤٧)، ومحمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص٩٥، ١٠٥).

(٦) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص١٢٢) وما بعدها.

(٧) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣).

وكان يطلق على من يهتم بالوساطة في إطلاق سراح الأسرى من المسلمين أو النصارى اسم الفكّاك، وفي أواخر عصر بني الأحمر علا شأن الفكاكين (Alhaqueques) في عمليات الافتداء التي تتطلّب منهم الاستقامة والصدق والثقة، ومعرفة النصارى منهم باللغة العربية(١).

ويذكر أنه كان بين المسلمين والنصارى عهود ومواثيق - بعضها مكتوبة في مالقة - تقتضي شراء الأسير نفسه من سيده وإطلاق سراح النصارى وعتق آخرين(٢).

الأسواق:

تعدُّ الأسواق جوهر الحياة الحضارية وعنوانها وجزءاً من النواة المركزية للمدينة الإسلامية، ومرآة حياتها التي تعكس نشاطها الزراعي والصناعي بصفة خاصة(٣).

ولوفرة المنتجات الزراعية والصناعية في مدينة مالقة، فإن ذلك أدى إلى كثرة أسواقها العامرة ومتاجرها الزاهرة، التي غصت بأرباب الحرف والصناعات والباعة والتجار، وفاضت بمعروضاتها النفيسة والرخيصة حول ساحة مسجدها الجامع - المركز الحقيقي للمدينة - وبالقرب من أبوابها الرئيسة، وفي داخل أرباضها الواقعة خارج الأسوار، وفي ملتقى الحارات والدروب(٤). وفي هذا قيل عن مالقة: «أسواقها عامرة ومتاجرها دائرة»(٥)،

---

(١) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٩٦)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص١٤٢).

(٢) الونشريسي: المعيار المغرب، جـ٢، (ص١٥٨، ١٧٩، ١٩١).

(٣) العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، (ص١٥٧)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص٩٨).

(٤) عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، (ص٢١٧، ٢١٨)، وليفي بروفنسال: المرجع نفسه، (ص٩٩، ١٠٠)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٧)، ومحمود عبدالعزيز: التخطيط ومظاهر العمران، (ص٥٥).

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥).

كما قيل: «إن بها أسواقاً جامعة كثيرة في الربض والمدينة»[١]، وقيل كذلك: «وأسواقه بالدكاكين متراصة»[٢]، ويقول طافور: «وهي تفيض بشتى أنواع المتاجر»[٣]، ومنطقة بحرها «غاصة بالأهالي الذين تتألف غالبيتهم من طبقة التجار»[٤].

وبالتالي، فإن كثرة النشاط التجاري في مالقة يدفعنا إلى استعراض أهم أسواقها وأنواعها ومبيعاتها؛ وهي:

(أ) القيسارية في اللغة القشتالية (Alcaceria)[٥] تعد قيسارية مالقة المركز الرئيس للتجارة، وأهم معالم أسواقها وأكبرها، وكانت تقع بجوار مسجدها الجامع - القلب النابض للحياة الاقتصادية في أي مدينة إسلامية - لا يفصل بينهما سوى شارع واحد بالقرب من باب البحر وباب الوادي، ربما عند الشارع المسمى أباديس (Abades) في آخر شارع (المخازن) الماثينش (Almacenes) في اتجاه ما يسمى اليوم بالكونبتيكو (Conventico) وضواحيه (الدير وما حوله)[٦].

وكانت تلك القيسارية - مثل الأسواق الشرقية - تمثل مؤسسة تجارية ضخمة مستطيلة الشكل، تتألف من ممرات أو شبكة من الطرق الضيقة المسقوفة الممتلئة بالدكاكين الصغيرة المتلاصقة المنخفضة السقف التي تتوزع

---

(١) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨).

(٢) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).

(٣) انظر: الرحلة، (ص٦).

(٤) طافور: رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر، (ص٦).

(٥) كلمة قيسارية يبدو أن أصلها يعود إلى الحضارة اليونانية، فهي تعريب للكلمة اللاتينية (Kaisareie). وتعني السوق القيصري التابع للدولة، ومن مميزاتها أنها ملك للحاكم. انظر عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، (ص٢١٨).

(٦) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٨)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٥١٣)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص٩٨)، وعبدالعزيز سالم المرجع السابق، (ص٢١٩).

على جوانب تلك الممرات، ويبيع فيها التجار السلع والمنتجات النفيسة التي اشتهرت بها مالقة؛ مثل الفخار المذهب والتحف الزجاجية والحرير الموشى والنسيج المزركش، وما شابه ذلك[1].

وقد ألمحت وثائق التقسيم عند حركة الاحتلال النصراني إلى وجود عدد من الشوارع المسقوفة بسقف تحمله أعمدة وأقواس، وتنفتح عليها الحوانيت؛ كالتي كانت لبعض علماء مالقة في العصر الإسلامي على الأرجح[2].

وفي عام (٨٩٣هـ/ ١٤٨٩م) «كان طوق قيصرية تلك المدينة - أي مالقة - مكوناً من المتاجر فقط؛ منها المهدم ومنها ما لم يتم إصلاحه بصورة جيدة؛ إذ ليس هناك من يستطيع أن يقوم بإصلاحها، وإذا أضيفت تلك المتاجر إلى عدد متاجر المدينة كان العدد كبيراً لدرجة الإفراط في المتاجر. وإننا سوف نقدم خدمة كبرى إن خصصنا تلك الأماكن للسكنى بدلاً من انتظارنا لانقراضها. ولهذا السبب، فقد أمرنا الموزعين بالقيام بتوزيع القيصرية السابق ذكرها لصالح من يستطيع القيام ببناء المنازل على نحو أسرع وأفضل»[3]. وهذا أمر من الملكين الكاثوليكيين بتوسيع مالقة وتوزيع إدارتها.

وفي حدود عام (٨٩٦هـ/١٤٩٠م) كان لقيسارية مالقة عدة أبواب؛ أحدها يفتح على شارع النجارين (Call de los Carpinteros)، والآخر يفتح على شارع السرو (ثيبرس Cipres) والثالث شارع نرانخو (Naranjo)، يمتد من موقع بعض المتاجر الواقعة تحت المسجد الجامع حتى أحد مداخل القيسارية. أما شارع القوس (Calle de lArco) فهو مدخل يتكون من باب معقود بقوس عرف به اسم الشارع الذي تطل عليه القيسارية، وكان قائماً عند سقوط الحكم الإسلامي

(١) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٨، ٤٩)، تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٥٠٦، ٥٠٧)، كمال السيد: مالقة الإسلامية، الهامش، (ص٤٩).

(٣) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٥١٣).

في أواخر القرن التاسع الهجري كما تذكر وثائق التقسيم[1].

وظلت قيسارية مالقة تحتفظ بعد الاحتلال النصراني بنفس الموضع الذي قامت فيه أيام العصر الإسلامي، ويبدو أنها استمرت حتى عام (٩٠٧هـ/١٥٠١م) مؤسسة منتظمة في مكانها الأصلي[2]، واليوم ربما هي السوق القديم الذي مازال يحتل موضعه منذ العصر الإسلامي في وسط المدينة ويحتفظ ببابه الأندلسي المرتفع ذي العقدين ويتخلل زخارفه وكتاباته العربية في جوانبه العليا شعار بني نصر «ولا غالب إلا الله». والسوق ساحة مربعة واسعة مخصصة لبيع البقول والأسماك والطيور وغيرها[3].

ب- أسواق اختصت بتجارة أو سلعة معينة في شوارع مخصصة لها سميت باسمها؛ ومن ذلك سوق الغزّل، وهو السوق الذي تخصص في صناعة الصوف من غزّل ونسج وما إلى ذلك. وكان ممن يتاجر فيه من سكان مالقة إبراهيم بن يوسف الأوسي[4]. وسوق آخر كبير للخُوص من الأطباق[5]، وسوق للعطارين بقي في مالقة عدة قرون في شارع بالاسم نفسه، وكان يقود إلى الميدان (بالأسبانية الرحبة Rahba) المعروفة برحبة الشوارع الأربعة[6]، وهو السوق

---

(١) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٥١٣، ٥١٤)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٠٥)، مالقة الإسلامية، (ص٤٩).

(٢) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٩)، وتوريس بالباس: المرجع نفسه، (ص٥١٤).

(٣) محمد عنان: الآثار الأندلسية، (ص٢٥٠).

(٤) إبراهيم بن يوسف الأوسي يكنى أبا إسحاق ويعرف بابن المرأة. سكن مالقة زمناً طويلاً، ثم انتقل منها إلى مرسية، وكانت وفاته بها عام ٦١١هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٣٢٥، ٣٢٦).

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩).

(٦) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٦)، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق١، (ص٢٦٠)، وتوريس بالباس: المرجع السابق، (ص٤٤٩).

المتخصص في بيع التوابل والطيب والعقاقير وأنواع العطور من نباتات وأزهار وأحجار ومستخلصات، وغير ذلك من أنواع الأعشاب والنباتات الجافة التي يعرف الناس أسماءها وفوائدها، متوارثة خلفاً عن سلف. ولا يزال المغرب يحتفظ بهذه الأسواق في مدنه التاريخية العريقة حتى اليوم(١). وكان بمالقة مسجد يسمى مسجد العطارين(٢) نرجح أنه في وسط سوقهم، ومن أهل مالقة الذين احترفوا تجارة العطور: العالم أحمد بن عبد المجيد الحجري(٣). ومن الأسواق في مالقة أيضاً: سوق السقاطين من السَّقْط - ولعل تسمية المحتسب محمد المالقي (بالسقطي)(٤) جاءت نسبة إلى عمل أسرته في تجارة السقط بذلك السوق، وهي الأشياء التي تسقط فلا يعتد بها لتفاهتها، ويقال لخُرثي المتاع؛ لأنه ساقط عن رفيع المتاع غالي الثمن، وهي من التجارات الرائجة ببلاد المغرب إلى اليوم(٥).

ويمدنا السقطي المالقي بصورة واضحة عن أسواق أخر بمدينته مالقة؛ من أهمها سوق الرقيق (العبيد)، ويطلق عليه أيضاً اسم (المعرض)(٦)، وكان يجلب له الرقيق الأبيض والأسود من أنحاء المعمورة - كبلاد الروم - على اختلاف أشكالهم وأخلاقهم وأجناسهم؛ فهناك الهندية والرومية والبربرية والحجازية

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٨، ٥٩)، والمغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية، (ص٧٥، ٧٦).

(٢) ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ط (١)، ١٤٢٠هـ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (ص٥٣).

(٣) أحمد بن عبد المجيد الحجري، يكنى بأبي جعفر. كان من أهل الحديث، ولد في عام ٥٤٨هـ، وتوفي في عام ٦٢٤هـ. انظر المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق١، (ص٢٥٨، ٢٦١).

(٤) السقطي: المصدر السابق، (ص١٤، ١٥، ١٦).

(٥) المغراوي: المرجع السابق، (ص٧٥).

(٦) السقطي: المصدر السابق، (ص٦٤)، ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٢١٧)، والأهواني: ألفاظ مغربية، (ص٦٢).

والعراقية والزنجية وغيرها[١]. وبالتالي لم يكن أمام راغبي الشراء سوى البحث عن الصنف والنوع والشكل - إذ لكل منهم سعر مختلف - وصور ومزايا متعددة «فالخادم البربرية للذة، والرومية للمحافظة على المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع، والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب والانكسار. أما الذكور فالهند، والنوبة لحفظ النفوس والأموال، والزنج والأرمن للكدّ والخدمة ومعها العطاء، والترك والصقالبة للحرب والشجاعة»[٢].

وكان بعض أهل مالقة يتاجرون في هؤلاء الجواري والخدم بالبيع والشراء، ولهم في ذلك مكر وحيل؛ كتنصيبهم في السوق لامرأة يسمونها الأمينة توافق في النُّكر مذهبهم، تشهد ببراءة الخدم وإخفاء عيوبهم[٣]. «وشأن المحتسب مع هؤلاء أن يقدم أمينة من ثقات المسلمين الخيار أهل الدين والمروآت يؤمن عليها مكر ذلك الصنف من النخاسين وخدعهم»[٤].

ويذكر في مالقة أن العبيد من النصارى وغيرهم كانوا يشتغلون في مختلف الأعمال عند أسيادهم الذين يملكونهم؛ لأن أسعارهم في الأساس عند الشراء تكون على حسب إتقانهم للمهن والفنون، كحال الجارية أزهر عند سيدها العالم الشاعر غانم بن وليد المخزومي[٥]، وكذلك العالم محمد الجذامي، كان يتخذ جارية رومية مملوكة له لا يشتمل منزله على سواها[٦].

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٥، ٦٩، ٧٠)، الزنجية: نسبة إلى الزنج، وهم قوم يسكنون في غرب نهر النيل، لا يفصل بينهم وبين النوبة سوى جبال الأردكان. انظر الزهري: الجغرافية، (ص١٢٢، ١٢٣).

(٢) السقطي: المصدر نفسه، (ص٦٥).

(٣) السقطي: المصدر السابق (ص ٦٣، ٦٤، ٧٠)، وكمال السيد : مالقة الإسلامية، (ص٧٤).

(٤) السقطي: المصدر السابق (ص٧١، ٧٢).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٦٣)، وابن بسام: الذخيرة، مج٢. ق١، (ص٨٧٢)، والونشريسي: المعيار المغرب، جـ٢، (ص١٥٨، ١٧٩، ١٩١).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٩٢).

أما سوق الدواب، الذي لا يزال اسمه شائعا في مالقة بكلمة (Zocodove)، فقد كان يقع في الزمن الأخير من الحكم الإسلامي بالقرب من باب غرناطة (باب الملعب) أحد أبواب شمال مالقة الذي يؤدي إلى تلك المدينة[1]، وكان أهل مالقة النخاسون يقومون فيه ببيع دوابهم وغنائم حروبهم كالخيول[2]. بالإضافة إلى موضع رحب يطلق عليه فندق الماشية (Corralde los ganados) كان يوجد أسفل أسوار قصبة مالقة، ولعله سوق آخر للدواب[3] الواردة إلى مالقة من المناطق المجاورة ومن بلاد المغرب عن طريق البحر.

جـ- الأسواق الأسبوعية: كان يعقد بمالقة - إلى جانب الأسواق اليومية آنفة الذكر - أسواق أسبوعية في الداخل وعلى مقربة من الأبواب وفي الأرباض ينتجعها المزارعون وأهل القرى المحيطة بالمدينة لبيع منتجاتهم المختلفة وشراء ما يحتاجونه من أسواقها المتخصصة في صنع حاجياتهم[4] كسوق الخميس الموجود في الساحة الواقعة أمام باب غرناطة في أحد أرباض مالقة خارج أسوارها، وكان يحتفل فيه الناس أسبوعياً كل يوم خميس بالسوق الحرة التقليدية، ومنح هذا الامتياز بمرسوم ملكي صادر من المملكة الكاثوليكية في عام (٨٩٣هـ/١٤٨٩م)[5].

ومن المهم الإشارة إلى سوق ولّدته الظروف السياسية في مالقة، وهو سوق ممتلكات الأمير تميم بن بلقين، الذي أقيم في موضع معسكره بعد زوال ملكه على يد المرابطين[6].

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج ٢، (ص٥٦٤)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٢٣، ٤٨)، ومحمود عبد العزيز: التخطيط ومظاهر العمران، (ص٥٧). انظر الملحق (ص٤٢٩).

(٢) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٨١)، وابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٣، (ص٤٥٧)، وكمال السيد: المرجع نفسه، (ص٤٨).

(٣) كمال السيد: المرجع السابق، (ص٤٨).

(٤) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٤٦٤)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص٤٨).

(٥) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٠٣)، وتوريس بالباس: المرجع نفسه، (ص٤٤٣).

(٦) الأمير عبد الله: التبيان، (ص١٦٢، ١٦٣).

الفنادق[١]:

تعدُّ الفنادق من أهم المؤسسات الاجتماعية والتجارية التي لها أثر كبير في اقتصاد المدينة الإسلامية؛ ففيها ينزل المسافرون والتجار الغرباء للسكنى، وعقد الصفقات التجارية، وتخزين بضائعهم قبل بيعها بالجملة على تجار المدينة[٢].

وتورد المصادر الإسلامية في بطونها عن توفر عدد كبير من الفنادق في داخل مدينة مالقة وأرباضها والمناطق التابعة لها كبزليانه[٣]، مما يوحي بازدهار التجارة الداخلية والخارجية، وزيادة التجار المترددين على مالقة في عصر بني الأحمر على وجه الخصوص.

والراجح أن تلك المنشآت مبنية بجوار المسجد الجامع والقيسارية وعلى مقربة من البحر لتحقيق أهدافها[٤].

وكانت الفنادق - في العادة - تسمى بأسماء السلع التي تبتاع فيها؛ كفندق الماشية في أسفل قصبة مالقة[٥]، أو باسم صاحبه؛ كفندق ابن سالم ومحمد

---

(١) الفنادق: جمع فندق، ويعرف في المشرق باسم (الخان) - وهو الأصل - وفي أسبانيا النصرانية (Alhondiga) أو (Alfondiga). ومنها اشتقت اليوم كلمة (Fonda) وتعني بالأسبانية فندقاً، وكان الفندق الأندلسي يتألف غالباً من صحن مستطيل تحفُّ به أربعة أروقة تشتمل على مجموعة من الغرف، يحتوي الطابق الأرضي منها على دكاكين وإصطبلات للدواب، ثم طابق علوي يشتمل على حجرات للنزلاء. انظر عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢١٦)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١١٨).

(٢) ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص١٠٠)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٠٧).

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥، ٥٧٠)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧)، والحميري: الروض المعطار، (ص٤٤، ١٧٨).

(٤) طافور: الرحلة، (ص٦)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٥٠).

(٥) كمال السيد: المرجع نفسه، (ص٤٨).

ابن زنون[١]، أو تسمى باسم الجالية الأجنبية التي تقيم فيها؛ كفندق الجنوية في مالقة[٢].

وعند حركة الاحتلال النصراني وجد بمالقة في شارع الفرسان فرن وفندق يؤمُّه فلاحو القرى لبيع القمح وسائر منتجاتهم[٣].

الأسعار ومستوى المعيشة:

عرف عن بلاد الأندلس - بصورة عامة - الرخص في المعيشة، والسعة في الأحوال[٤]. ومنذ عصر الخلافة الأموية بدأت مالقة - وهي إحدى مدن الأندلس - بالنمو العمراني والسكاني الذي كان من أكبر الأسباب في تغير أوضاعها الاقتصادية نحو الأفضل استناداً على قول ابن خلدون: «اعلم أن ما توافر عمرانه من الأقطار، وتعددت الأمم في جهاته، وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله، وكثرت أموالهم وأمصارهم...»[٥]، كما يقول: «واعلم أن اتساع الأحوال، وكثرة النعم في العمران تابع لكثرته»[٦]، حتى إنه - على ما يبدو لنا - كانت إحدى المعطيات التي دفعت بني حمود لاختيار مالقة عاصمة لهم في عصر الطوائف[٧] العصر الذي اعتصرته آلام الفرقة والعصبية والمصلحة، فتهتكت أنسجته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأصبحت طوائفه تتكون من عدة طبقات تعيش فوارق اقتصادية عالية، وتتمايز بشكل واضح في حالتها

---

(١) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٦٣)، والقيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٢٥٣).

(٢) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٢٧)، تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٠٨).

(٣) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٢٤).

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، (ص٢٣٦)، وابن حوقل: صورة الأرض، (ص١٠٤، ١٠٩).

(٥) انظر: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٨٩).

(٦) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج١، (ص٣٨٦).

(٧) رجب عبد الحليم: دولة بني حمود، (ص٥).

المعيشية وعائداتها المالية، ولم تكن مالقة ببعيدة عن ذلك الواقع[1].

وفي عصر المرابطين والموحدين تحسن الوضع الاقتصادي لأهل مالقة بشكل عام[2] ورخصت أسعار المعيشة حتى إن قنطاراً[3] من الطحين وسعره المعتاد ثلاثون درهماً في السوق لكي يصنع منه في المحل خبزاً، فلابد من دفع أجور العاملين - وهي ثلاثة دراهم - ثلاثة عجانين بدرهم ونصف وعامل يساعدهم بـ ٨/٣ درهم والوقاد بنصف درهم والملح والماء بـ ١/١٦ درهم والخشب بـ ٨/٥ درهم، ثم يباع خبزاً بمقدار (٣٦) درهماً. وبهذا يكون الربح (٣) دراهم[4].

وأيضاً نصف ربع دقيق بستة دراهم وربع الجبن بـ ١٦ درهم، والعاملين في تسوية الفحم ونافخ الفرن (الكيار) بثلاثة دراهم وأجرة المعلم على عمله درهمان[5]، وفي هذا دلالة على انخفاض مؤشر سوق الاقتصاد في مالقة.

وكان تحديد أسعار بيع وشراء المنتجات الاستهلاكية مع التجار في الأسواق (التسعير) من سلطة المحتسب وواجباته المفروضة عليه لكي لا يكون هناك غبن للتاجر أو إرهاق للمستهلك. ومثال ذلك: أن اللحم لا تسجل تسعيرته سوى بعد معرفة ثمن الذبيحة ووزنها بعد استخراج العظم منها[6].

---

(١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص١٨، ١٠١، ١٠٩)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٢، ٥٩)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٤٤، ١٤٢، ٢١٣).

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٩١)، وأوليفيا: المرجع نفسه، (ص٢١٣)، وكمال السيد: المرجع نفسه، (ص١٨).

(٣) القنطار: لفظ يطلق على المال الكثير، ويساوي مئة رطل في العادة، واليوم يساوي (٤٠ كجم). انظر الحريري: المقاييس والمقادير، (ص٥٩، ٦٠).

(٤) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٤٣)، وعصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، (ص٢٨٢).

(٥) السقطي: المصدر نفسه، (ص٤٦، ٨٨).

(٦) السقطي: المصدر نفسه، (ص٢٦، ٤٩).

وبحلول عصر بني الأحمر أجبر النصارى المسلمين على الهجرة إلى غرناطة ومالقة بشكل كبير، فكثر العمران، وتنوعت أعمال النشاط البشري؛ مما أدى إلى تغير أحوال المعيشة وازدياد الغلاء وارتفاع الأسعار في تلك المدن[1]. والشاهد قول ابن خلدون: «اختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها»[2]، ومثال ذلك: أنه في عام (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) اشتد الغلاء في الغذاء الرئيس بالأندلس - والغالب أنه الزيت والذرة[3] - خاصة في مالقة، ربما لازدياد الطلب عليه، وقلة وفْرَته، بينما بيعت سائر المواد الغالية الثمن بثمن بخس[4]، كما كان ابن الخطيب يشتكي من زيادة قيمة المواد الغذائية - كاللحم والزيت والدقيق - على أيامه في رسالة موجهة لمحتسب مالقة[5] رغم أنه من المعروف «إذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه، وغلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه وما يتبعها، وإذا قلَّ ساكن المصر ضعف عمرانه كان الأمر بالعكس من ذلك»[6]، ولكن ربما يكون السبب هو كثرة الإنفاق وحاجة بني الأحمر للأموال من أجل إعمار الأرض[7].

ويميل القاضي البلفيقي[8] الذي عاش في زمانهم إلى القول بتفضيل الغني على الفقير، وبالخصوص في البلاد الأندلسية؛ لضيق حالها، واتساع

---

(١) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٥٨).

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٨٨).

(٣) ابن خلدون: المصدر نفسه، مج١، (ص٩٦).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، (ص٤٣٥).

(٥) انظر: الإحاطة، مج٣، (ص١٩٧، ١٩٨).

(٦) ابن خلدون: المصدر السابق، مج١، (ص٣٨٧).

(٧) ابن الخطيب: اللمحة البدرية: (ص٣١، ٣٨)، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج١، (ص٣٠٦، ٣١٣، ٣٨٨).

(٨) محمد بن محمد بن إبراهيم يكنى أبا البركات واشتهر بالبلفيقي؛ لأن أصله من بلدة بلفيق التابعة للمرية. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص١٤٣).

نطاق مدنها، ولا سيما في حق القضاة؛ فقد شرط كثير من العلماء في القاضي أن يكون غنياً ليس بمِديان، ولا محتاج إلى أن يقول: «من اقتصر على التعيش من مرافق الملوك ضاع هو ومن له وشمله القل وخامره الذل»[١].

ومن ناحية أخرى شهد سوق مالقة ارتفاعاً ملحوظاً في أسعار الثياب، حتى إن ثمن الحلة الواحدة تجاوز آلاف الدنانير[٢] وكذلك أثاث العروس كان يقدر بآلاف الدنانير[٣]. أما القيمة الاقتصادية للعقارات والأراضي، فقد كانت تختلف باختلاف الموقع وخصوبة الأرض؛ فبلّش مالقة امتازت بارتفاع قيمة العقار لتمتعها بجودة التربة ووفرة العناية والأمن، على عكس مربلة التي قلَّ الأمان في مرساها[٤].

وبالإضافة إلى هذا، فإن هناك عدداً من الاعتبارات التي أثرت في أسعار معيشة سكان مالقة؛ ومن ذلك الفتن والحروب والمجاعات[٥] التي تؤدي إلى نقص المؤن والغذاء. فيذكر أن السلطان محمد الخامس أيام قدومه من المغرب بعد الثورة عليه في الأندلس لقي أهل مالقة «يئنون من الجوع والخوف أنين المرضى، ويجهشون بالبكاء، ويعلنون لله ولنا بالشكوى»[٦]، كما أن كثرة الطلب على المشتريات في المواسم الإسلامية كالأعياد شكلت عبئاً ثقيلاً على كاهل رب الأسرة المالقية، وخاصة أصحاب الطبقة الدنيا؛ ومثال ذلك الأديب ابن المرابع[٧] الذي لم يستطع دفع قيمة أضحية العيد البالغة عشرين ديناراً، فأخذ

---

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص٢٠٢).

(٢) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧).

(٣) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦).

(٤) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٣، ٥٤).

(٥) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٣)، تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٩٦)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع ٣، ق٢، (ص١٠٢).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٧١).

(٧) عبدالله بن إبراهيم الأزدي، من أهل بلش يكنى أبا محمد. توفي في عام ٧٥٠هـ، وكان من أهل الأدب والبلاغة. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٢١).

يستجدي السلطان أبا سعيد فرجاً كي يعطيه ثمن الأضحية[١].

ومن المؤثرات أيضاً حركة السوق والضرائب على السلع[٢] وفي هذا يقول ابن خلدون: «وقد كنا قدَّمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته، ثم تزيدها المكوس غلاءً... والمكوس تعود على البياعات بالغلاء؛ لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤونة أنفسهم، فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها»[٣].

ورغم ما سبق فإن بعض منتجات مالقة سجلت انخفاضاً ملموساً في أسعارها وذلك لكثرتها؛ فيذكر أن ثمانية أرطال من العنب بيعت في السوق بسعر درهم صغير[٤]، أما التين المالقي، فلوفرته يشير ابن الخطيب أنه بالإمكان الحصول عليه في ساحل مالقة مقابل بيضة دجاجة أو كسرة خبز، بل بغير ثمن[٥]، كما أن مادة السكر التي كانت تنتجها مالقة وتصدرها إلى أسواق البحر المتوسط أرخص سعراً من سكر شرق الأندلس[٦].

وناتج ما تقدم هو أن مستوى المعيشة بين سكان مالقة غير ثابت قد اختلف من زمن إلى آخر على حسب سياسة كل دولة والظروف التي تشهدها.

الواردات والصادرات:

كانت تجارة البضائع الاستهلاكية والمنتجات الزراعية والصناعية والأشياء الفاخرة تشكل جزءاً مهماً من الدورة التجارية بين مالقة وسائر بلدان البحر المتوسط، فإلى جانب تبادل السلع التجارية مع سائر نواحي الأندلس براً

(١) ابن الخطيب: الإحاطة مج٣، (ص٤٢٥) وما بعدها.

(٢) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص١٤).

(٣) انظر: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٩٦).

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٢).

(٥) انظر: أعمال الأعلام، (ص٧٩).

(٦) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٩٠).

بواسطة قوافل التجار، كانت الأساطيل التجارية الواردة إلى مالقة والذاهبة عنها تنقل مختلف محاصيلها الزراعية ومنتجات معاملها الصناعية مع محاصيل الأندلس ومنتجاتها إلى موانئ البحر المتوسط، لتعود محملة بأهم الصادرات المشرقية والمغربية والأوربية، التي تفتقر لها هي وبلاد الأندلس(1).

وكانت تجارة مالقة تسير في عصرها الإسلامي والمُعاصر دون توقف عند أي حد جغرافي، ونرجِّح أن وارداتها أقل من صادراتها - باستثناء ما كانت تورده لبلاد الأندلس - لأن إنتاجها الكبير في الغالب كان يفي بمتطلبات سكانها ويفيض عن حاجتهم، بل كانت مقصودة من الآخرين(2).

وأهم تلك الواردات من تونس وطرابلس وسائر بلاد المغرب التي استوجبتها حالة الحرب بين مالقة وأعدائها هي الخيول والأسلحة والجنود والأموال(3)، أما أنواع الطعام كالقمح، فقد كانت توسق منه إلى مالقة وسواحل الأندلس كميات كبيرة من موانئ المغرب كسلا وأنفا، وكان أهل مالقة يعاونون المغاربة في عمليات الشحن التجاري من تلك الموانئ(4).

ومن الواردات التي ترد إلى مالقة من قارات العالم القديم الرقيق الأبيض والأسود من الجواري والغلمان، وكانت مالقة أحد أسواقهم الرئيسة في بلاد الأندلس(5).

---

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، (ص239)، والقلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، (ص219)، وليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، (ص59)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص354، 355)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص34، 35، 118).

(2) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج2، (ص35، 357)، والحموي: معجم البلدان: مج5، (ص43)، وابن غالب: فرحة الأنفس، (ص294).

(3) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص213).

(4) ابن حوقل: صورة الأرض، (ص82)، والإدريسي: المصدر السابق، جـ1، (ص239، 240)، ومحمد كمال: يوسف الأول، (ص575، 577).

(5) ابن حوقل: المصدر السابق، (106، 110)، والإصطخري: المسالك والممالك، (ص34، 35)،=

ويقيناً أنه عن طريق مالقة كانت تدخل إلى تلك البلاد ما تحتاجه من مواد الترف، كأفاوية آسيا القصوى وتوابلها ومنتجات أوروبا وأفريقيا السوداء؛ كالذهب وبعض الحيوانات والأطعمة والأقمشة النادرة والأدوية، مما أعطى مالقة أهمية عظمى كقناة اتصال ربطت بين بلاد الأندلس والبلدان الأخرى(١)، وأبرز واردات مالقة اليوم النفط وبعض مواد البناء(٢).

أما الصادرات، فقد تعددت وتنوعت منذ العصر الإسلامي ويأتي في مقدمتها الفواكه المصبرة؛ كالتين الفاخر واللوز الجميل والجوز الجاف - والرمان والزيتون - والزبيب، كزبيب قرية شاط الذي يتجهز منه إلى جميع الأندلس والعنب الحلال ذي الحجم والشحم الممتاز - وربما الحرام (النبيذ) - الذي ذاعت شهرته في المشرق الإسلامي، وغير ذلك من الحاصلات التي جادت زراعتها في منطقة مالقة(٣).

ويعدُّ تين مالقة المجفف بالشمس المصفوف في السلال الحمر من أجَلِّ النقل - إن صح لنا القول - أكثر هذه الثمار تصديراً من مينائها طوال العصر

= والزهري: الجغرافيا، (ص١١٨، ١١٩)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٣٠) وما بعدها، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٤٥)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٠٨)، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٧٤).

(١) السقطي: المصدر نفسه، (ص٥٧، ٦٠)، الزهري: المصدر نفسه، (ص٧٦، ١١٣، ١١٤، ١١٧، ١١٨)، والمراكشي: المعجب، (ص٢٦١)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٩٠)، والمقري: المصدر نفسه، مج١، (ص١٤٤، ١٩٩)، وطافور: الرحلة، (ص٦)، ومحمد عنان: رواية مصرية، (ص١٠٥)، وأوليفيا: المرجع نفسه، (ص٣٥، ٤٠).

(٢) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٧).

(٣) الأنصاري: نخبة الدهر، (ص٢٤٤)، والسقطي: المصدر السابق، (ص٣٤)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١) وما بعدها، وريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦، ٣٥٧)، والإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٦٥)، ومحمد عنان: الآثار الأندلسية، (ص٢٤٢)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨).

الإسلامي، وأكثر منذ عصر المرابطين؛ إذ كان يجلب منه هو واللوز والزبيب على ظهور القوافل البرية والبحرية كميات ضخمة إلى (أقطار الأرض) أفريقيا والهند والصين وبلاد أوروبا شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً(١) حتى مدينة بروجس(٢) في إنجلترا وما وراءها منذ منتصف القرن (١٣م). فقد وصل في عام ١٣٥٠م أربعون مركباً أسبانياً محملة بالفواكه المجففة إلى بروجس، حيث وضعت التعرفة على الزبيب والتين، وكان هو وسائر الفواكه المجففة إحدى الصادرات القليلة المنتظمة والرائجة من منطقة غرناطة إلى أوروبا(٣).

وكان العاملون في ميناء مالقة يشحنون منه بحيث لا يمكنهم إحصاؤه والمتابعة في شحنه على وسائل النقل المسلمة والكافرة المستمرة في حمله لشدة الطلب عليه عند مستهلكيه في جميع الجهات(٤). ويصادق هذا القول قول الشاعر:

مالقة حييت ياتينها
فالفُلْكُ من أجلك ياتينها
نهى طبيبي عنك في علة
ما لطبيبي عن حياتي نهى(٥)

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٦٥)، وابن سعيد: الجغرافيا، (ص١٤٠)، والزهري: الجغرافيا، (ص٩٣)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٥١)، والزياني: الترجمانة الكبرى، (ص٨٧)، ومحمود مقديش: نزهة الأنظار، (ص١٦١)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣١٥، ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) بروجس: ميناء إنجليزي يقع قريباً من ميناء سوين. اكتسب شهرة عالمية في أواخر العصور الوسطى. انظر أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٦٥).

(٣) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٢٨).

(٤) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٢٣).

(٥) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٩)، معنى البيتين هو حياك الله يا تين مالقة، فإن السفن تقصدها من كل مكان لأجلك وقد نهاني الطبيب عن أكلك لمرضي، فلماذا نهاني طبيبي عنك وأنت حياتي. ابن بطوطة: الرحلة، الهامش، (ص٦٨٢).

كما رأى العالم الحنفي بأم عينه في اندهاش عجيب ما كان يسفّر منه يابساً مع اللوز والزيت بمقادير هائلة إلى البلدان النائية في الشرق والغرب(١).

وقد كان تين مالقة محتفظاً بسمعته العالية كونه لذيذاً ووفيراً ومرغوباً في الأوساط المسلمة والنصرانية، وأصبحت أرباح تجارته وغيره من الثمار اليابسة ذات قيمة زائدة وحاسمة في أهميتها لاقتصاد مملكة غرناطة خلال القرن الثامن الهجري، خصوصاً وأن حركة تجارة الحرير الغرناطي قد هبطت(٢).

ومن الصادرات الفائضة عن مالقة إلى الأسواق الاستهلاكية من منتجات المعادن: الرصاص الذي اشتهرت باستخراجه والحديد ومصنوعاته(٣)، ومن منتجات الحيوان الجلود وصناعاتها، وأنسجة الحرير الخام ومنسوجاتها كالوشي المذهَّب والحلل الديباجية التي ذاع صيتها في البلاد النصرانية والإسلامي، واشتد الطلب عليها بمدينة حلب في الشام وصنعاء في اليمن والإسكندرية في مصر وبلاد الهند(٤)، وأصبحت أهم صادرات مالقة في العصر الوسيط.

ومن الأطعمة التي تفوقت في منطقة مالقة صناعتها، وكان يشتريها جيرانها القريبون والبعيدون: الأسماك المجففة والطازجة(٥).

أما منتجات الزراعة والنباتات، فقد كان يُسفّن إلى الخارج من مصنوعاتها الورق السميك، وزيت الزيتون المذكور آنفاً، والسكر الذي كان يغلّف ويوضع

---

(١) محمد عنان: رواية مصرية، (ص١٠٦).

(٢) أوليفيا: التجارة والتجار في الأندلس، (ص٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٩)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٢٨٢).

(٤) الزهري: الجغرافيا، الهامش، (ص٩٣)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٠١)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٤٤)، توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣٦)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٢٨٧).

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، (ص٥٦٥)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١).

داخل صناديق قبل تصديره على أيدي الجنوبيين[(١)]. ويذكر أنه بيع في حوالي عام (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) بمدينة بروجس الأوروبية، كما وثقت محفوظات دانتي انتقال سكر مالقة إلى أسواق غرب المتوسط[(٢)].

وربما كانت تصدِّر مالقة مواد الطيب التي اشتهرت بها، والتمور التي يُسفر من سعف نخيلها الصناعات المختلفة مع ما كانت تسفره من زعفران مدينة بسطة وبيغو[(٣)].

وكانت أهم مبيعات مالقة - التي انساحت في أرض المسلمين والنصارى بشكل واسع في القرن التاسع الهجري - أواني الفخار المذهَّب الظريف، والخزف الملون من القدور والصحون والدوارق وغيرها[(٤)] التي احتفظت بسمعتها، وبقيت رمزاً ناصعاً يمثل حضارة مالقة الإسلامية ومكانتها الصناعية بين مدن العالم اليوم.

وفي وقتنا الحاضر أصبحت مالقة مركزاً صناعياً وتجارياً مهماً يُبحر منه إلى العالم الخارجي الكثير من فائضاته أيام العصر الإسلامي، كالورق والقصدير والحديد والرصاص والنسيج، والفواكه من اللوز والعنب ونبيذه

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، (ص٢١٨)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٩٠)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٧)، وحسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٤، (ص٣٨٨)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٢٩١، ٢٩٢).

(٢) أوليفيا: المرجع نفسه، (ص٣٤٢).

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ٢، (ص٢٦٦)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٥٠) وما بعدها، والزهري: الجغرافيا، الهامش، (ص٩٣)، والطوخي: المصدر السابق، (ص٢٩٠)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٣٤٣) بيغو: مدينة تابعة لغرناطة. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص٦٠).

(٤) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، جـ٢، (ص٣٥٦)، والزهري: المصدر نفسه، الهامش، (ص٩٣)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٠٢)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٢٨٧، ٣٢٩).

والزيتون وزيته والبرتقال، الذي ربما شق طريقه خارج مالقة في زمن الحكم الإسلامي لكثرة زراعته[١].

طرق المواصلات التجارية:

اقتصرت طرق التجارة من مالقة وإليها على الطرق البرية التي كانت هي الأكثر استخداماً في بلاد الأندلس[٢]، وعلى الطرق البحرية التي فقدتها أكثر مدنها، وهي ميزة اختصت بها مالقة ومدن السواحل فقط، أما الطرق النهرية، فقد كان يأتيها من جهة الشمال نهر صالح للملاحة يمر بمنطقة الحمة وترفده مياه حصن صالحة، ثم يصب في البحر المتوسط على يمين بلّش مالقة[٣] كشريان تجاري صغير، على عكس نهر مالقة الكبير الذي لم تشر المصادر إلى صلاحيته للملاحة. ولعل العلة في ذلك عدم جريانه بشكل مستمر على مدار العام[٤]، ولذلك ضُرب على ظهره بقنطرة أيام الموحدين[٥] يسير عليها العابرون لكي لا يشكل عائقاً أمام تجارة مالقة البرية في أيام جريانه، وهذا في الحقيقة ينم عن مدى اهتمام سلطة مالقة بالعمران ومصالح الشعب وخدماتهم التجارية.

وكان يسلك هذه الطرق إلى جانب التجار والقوافل التجارية والسفن البحرية السفراء والسفار والحكام والجيوش الإسلامية والأساطيل وغيرها[٦]،

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٣)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٢٣١)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٣)، ومحمد عنان: الآثار الأندلسية، (ص٢٤٢)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٢٧٤، ٢٩٣).

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، (ص٢٣٧، ٢٣٨)، وابن حوقل: صورة الأرض، (ص١١٠، ١١١)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٢٨١، ٢٨٧).

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٦٥).

(٤) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧).

(٥) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٧١).

(٦) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ١، (ص١١٢، ٢٠٧)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣،=

أما مسألة أي هذه الطرق أكثر استخداماً من الآخر، فإن ذلك يتوقف على حالة الاستقرار الأمني ودرجة الإنتاج وكمية الاستهلاك(١) والجهة التي يُيمِّمُ شطرها التاجر وطولِ المسافة، وبشكل خاص فإن طرق تجارة مالقة الداخلية والخارجية ازدادت حركتها في عصر بني الأحمر(٢). وتكمن أهمية هذه الطرق في حاجة مالقة والأندلس إلى تصريف بضائعها ومنتجاتها المختلفة الزائدة عن حاجة الاستهلاك اليومي إما إلى داخل بلاد الأندلس أو تصديرها خارجياً إلى بلدان البحر المتوسط وما وراءها على حسب حاجة كل بلد إلى سلعة من السلع، في الوقت الذي كانت فيه مالقة بحاجة إلى منتجات البلدان الأخرى غير المتوفرة لديها لتغطية النقص الاقتصادي المطلوب(٣). وهذه الطرق هي:

(١) الطرق البرية:

ارتبطت مالقة منذ القدم بشبكة من الطرق البرية المبنية جيداً مع القرى والحصون والمدن التابعة لها وبعض بلاد الأندلس رغم صعوبة الطبيعة الجغرافية لتلك البلاد(٤).

ومن أهم هذه الطرق التي كان لها أثر مهم في تنشيط تجارة مالقة الداخلية

= (ص٢١٦، ٢١٧)، وقسم الموحدين، (ص٥٥، ٢٤٧، ٢٤٨)، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (١)، ق١، (ص٢٥٨، ٢٦١)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٣٨٥، ٣٨٦)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٠، ٢٧١).

(١) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٣١٥).

(٢) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، جـ٢، (ص٣٥٥) وما بعدها، معيار الاختيار، (ص٥٢)، وطافور: الرحلة، (ص٦).

(٣) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٢٥٧، ٣٣٥، ٣٥٤، ٣٥٧). انظر الملحق (ص٤٤٢).

(٤) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٢) وما بعدها، وابن غالب: فرحة الأنفس، (ص٣٠٧)، والحميدي: جذوة المقتبس، (ص٣٠)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، (ص١١)، وابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦٢، ٧٠، ١١٧)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٣٠، ١٣٢، ٢٢٦)، وأوليفيا: المرجع نفسه، (ص١٩٧).

وتوثيق التبادل التجاري مع سائر نواحي الأندلس بصورة أكبر من خارجها :

أ- الطريق الممتد بمحاذاة ساحل البحر المتوسط على طول الحدود الشرقية لبلاد الأندلس من الجزيرة الخضراء في الجنوب حتى مدخل الأبواب المؤدي إلى الأرض الكبيرة (فرنسا) في أقصى الشمال الشرقي(١)، ويمثل هذا الطريق أحد الطرق الرئيسة بالنسبة إلى مالقة التي تعد من أكبر المحطات التجارية عليه، وكان يمر بالعديد من المدن والحصون والقرى التابعة لها وغير التابعة التي يستريح فيها المسافر من وعثاء السفر، ويجد كل ما يحتاجه من وسائل الراحة والخدمات وأصناف الطعام والفواكه والمياه المسكوبة والظلال الممتدة والمناظر الزاهية والطبيعة الجذابة والأسواق النشطة والفنادق الكثيرة لغرض النوم أو المتاجرة بالبضائع دون أن يلحقه كبير عناء(٢)، وكانت مسافة هذا الطريق تتجاوز مئات الكيلو مترات؛ إذ تبلغ المسافة من الجزيرة الخضراء حتى مالقة مئة ميل وهي خمس مراحل، وقيل ثلاث للمجدّ يجتازها المسافر في (٤) أيام(٣)، وتقع بينهما مربلة، وتبعد عن مالقة أربعين ميلاً، ثم سهيل وتقع تقريباً في منتصف الطريق بين مالقة ومربلة(٤)، ومن مالقة حتى مدينة

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، (ص١) وما بعدها، وابن الشباط: وصف الأندلس، (ص٩٩، ١٠٣)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٣٠)، والإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٥٥، ٧٣٩).

(٢) ابن غالب: فرحة الأنفس، (ص٢٩٤، ٢٩٥)، وابن حوقل: صورة الأرض، (ص١٠٥)، والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥١) وما بعدها، وابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤٤٢)، ومقديش: نزهة الأنظار، (ص١٦١)، والمراكشي: المعجب، (ص٢٦٦) وما بعدها، والحميري: الروض المعطار، (ص٣٧، ٤٤، ١٧٨، ١٨٠)، والإدريسي: المصدر نفسه، مج٢، (ص٥٧٠).

(٣) الإصطخري: المسالك والممالك، (ص٣٨)، وابن سعيد: الجغرافيا، (ص٣٨)، والمراكشي: المصدر نفسه، (ص٢٦٨)، والإدريسي: المصدر السابق، جـ٢، (ص٥٤٠).

(٤) الإدريسي: المصدر السابق، جـ٢، (ص٥٧٠)، والحميري: المصدر السابق، (ص١٨٠).

المرية يصبح هذا الطريق جبلياً وعراً أكثر من سابقه، إذ فيه المنعطفات والمنخفضات والمرتفعات، ويقطعه المسافر في سبعة أيام(١)، وتقع عليه بزليانة، وبينها وبين مالقة ثمانية أميال، ثم قرية الصيرة (إحدى قرى مالقة الصغيرة) وتبعد عن بزليانة سبعة أميال، ومثلها عن بلّش التي تبعد عن مالقة أربعة وعشرين ميلاً(٢) وعن سهيل مقدار ثلاثة أيام(٣)، ثم نارجه، ثم طرش وتبعد عن بلّش اثني عشر ميلاً، ثم قرية شاط وبينها وبين سابقتها اثنا عشر ميلاً، ثم المنكّب وبينها وبين مالقة ثمانون ميلاً(٤)، وهكذا تتعدد القرى والمدن حتى تصل إلى المرية في اليوم السابع، ثم مرسية بعدها في اليوم العاشر(٥) والغريب أن هذا الطريق مازال حتى اليوم هو الطريق الوحيد الذي يسلكه المسافر إذا أراد مالقة من الجزيرة الخضراء(٦).

ويعد هذا الطريق من أكثر الطرق حركة في الحقبة الممتدة من القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، وكان من أشهر العلماء الذين سلكوه العالم ابن بطوطة والشقندي(٧).

ب- عدة طرق برية تتميز بتقاطعها مع عدد من طرق الأندلس الأخرى؛ منها:

١- الطريق الواصل بين مالقة وقرطبة في شمالها، وطوله مائة ميل

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٦٣)، والإصطخري: المسالك والممالك، (ص٣٨).

(٢) الإدريسي: المصدر نفسه، (ص٥٦٤، ٥٦٥)، وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٣).

(٣) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧).

(٤) قيل: إن المسافة بين مالقة والمنكب ثلاث مراحل. انظر المركشي: المعجب، (ص٢٦٨).

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، (ص٢٤٨)، والإدريسي: المصدر السابق ، جـ٢، (ص٥٦٢، ٥٦٥)، والحميري: الروض المعطار، (ص٤٤).

(٦) كمال السيد : تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٢٨٣).

(٧) الشقندي: المصدر السابق، (ص٥٧). ابن بطوطة: المصدر السابق، (ص٦٨٢). الشقندي: هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد وشقندة نسبة إلى قرية مطلة على نهر قرطبة. انظر المقري: نفح الطيب، مج٣، (ص٢٢٣).

ويقطعه المسافر في أربعة أيام[(١)]، وكان يمر بعدد من الحصون والمدن العامرة، مثل أرشدونة، وتبعد عن مالقة ثمانية وعشرين ميلاً[(٢)] وأنتقيرة وبينها وبين مالقة خمسة وثلاثون ميلاً، وعن أرشدونة ستة أميال[(٣)] وإستجة تصلها في سبعة أيام[(٤)] ثم منها إلى قرطبة تقطع مسافة قدرها ثلاثون ميلاً[(٥)] وقيل: خمس وثلاثون ميلاً؛ أي: مرحلة[(٦)]، وهو من أقدم الطرق التجارية الرئيسة التي سلكته بعثة طارق بن زياد العسكرية لفتح مالقة[(٧)]، وأهم الطرق التي ضجت بالحركة والنشاط أيام دولة بني أمية[(٨)].

٢-الطريق الرابط بين مالقة وغرناطة، وتقدر مسافته بثمانين ميلاً[(٩)]، ويعدُّ من أهم الطرق الاقتصادية الرئيسة في أيام دولة بني الأحمر، وشريان مملكتها النابض بالحركة.

٣-الخط الواصل بين مالقة وإشبيلية، ومسافته خمس مراحل[(١٠)]، وكان دائب الحركة في عصر ملوك الطوائف.

٤- شبكة من الخطوط تربط بين مالقة وحصونها المتعددة؛ كذكوان والحمة وقمارش التي تبعد عن مالقة ثمانية عشر ميلاً[(١١)]، وكانت تقع على

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق ، جـ٢، (ص٥٧٠).

(٢) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، (ص٢٢٦)، الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٩).

(٣) المقريزي: السلوك، جـ٤، ق١، (ص١٦٧).

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، (ص٢٤٨)، والإدريسي: المصدر السابق، جـ٢، (ص٥٧٠).

(٥) ابن غالب: فرحة الأنفس، (ص٢٩٥).

(٦) الإدريسي: المصدر السابق، مج٢، (ص٥٧٢، ٥٧٣).

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، (ص١١)، وحسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين، (ص٢٨٧، ٢٨٨).

(٨) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٠) وما بعدها.

(٩) الإدريسي: المصدر السابق، مج٢، (ص٥٧٠).

(١٠) الإدريسي: المصدر نفسه، مج٢، (ص٥٧٠).

(١١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٢) وما بعدها، والحميدي: جذوة المقتبس، (ص٣٠)، وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨٥).

خطوط هذه الشبكة منازل مخصصة للضيوف من أبناء السبيل؛ كدار علي المذحجي في حصن منتماس[1].

(٢) الطرق البحرية:

اعتمد التجار والحجاج وغيرهم من أهل مالقة في أسفارهم واستيراد البضائع وتصديرها للبلدان الخارجية على طرق مواصلات البحر المتوسط أكثر من غيره بواسطة السفن التي تسير في تلك الطرق[2]. ولعل من أسباب ذلك:

١- موقع مالقة الجغرافي وارتباطها مع بلدان البحر المتوسط بخطوط بحرية مباشرة.

٢- عدم وجود طريق بري مباشر يربط الأندلس مع ما حولها - لإحاطتها بالمياه من أغلب جهاتها[3] - سوى الطريق المؤدي إلى فرنسا وسائر بلاد أوروبا في شمالها الشرقي عبر المدخل المعروف بالأبواب[4]، وهو طريق طويل بالنسبة إلى أهل مالقة، أما الطريق المؤدي إلى بلاد المشرق عبر شمال القارة الأفريقية، فلا بد للمسافر فيه عبور مضيق جبل طارق بالسفن البحرية[5].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص٨٨).

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، (ص٢٩٢)، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٥)، ق٢، (ص٤٩٣)، س. ف (٦)، ص١١٦، وابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق عزت العطار، ط (٢)، ١٤١٤هـ، مكتبة الخانجي. القاهرة، ق٢، (ص٦٢٠)، ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٣، (ص١٩٢)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٥٨)، والمقري: نفح الطيب، مج٢، (ص٥٢)، (ص١٦١)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٥٤).

(٣) ابن الشباط: وصف الأندلس، (ص١٠٢)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٢، (ص١).

(٤) ابن الشباط: المصدر السابق، (ص٩٩، ١٠٣)، وابن عذاري: المصدر السابق، جـ٢، (ص١)، والمقري: المصدر السابق، جـ١، (ص١٢٨، ١٣٣).

(٥) الأزدي: تحفة المغترب ببلاد المغرب، (ص٨٢)، وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٦٨) وما بعدها.

٣- أهمية مالقة التجارية بوصفها أحد المنافذ الرئيسة التي تنطلق منها تجارة الأندلس إلى عالم البحر المتوسط - وبالعكس - في عهد دولها المختلفة حتى إنها أصبحت في عهد دولة بني الأحمر مدينة التجارة الأولى في التصدير والاستيراد[١].

٤- أن أغلب التجارة الخارجية لمالقة ومراسيها التابعة لها - كمرسى بزليانة وبلش وشاط وسهيل ومربلة - كانت تصل عبر طرق البحر المتوسط إلى ثغور منطقته التي تبادلت معها التجارة بكثرة[٢].

٥- كثرة تصنيع مالقة لوسيلة البحر الرئيسة (السفن) في دار صناعتها[٣].

٦- تعدد مخاطر الطرق البرية لكثرة الحروب الداخلية في الأندلس والمغرب، وخصوصاً أيام مملكة غرناطة[٤]، ساعدت على زيادة حركة الطرق البحرية.

٧- سهولة ويسر الملاحة في البحر المتوسط وللرياح أثر كبير في ذلك[٥].

٨- طبيعة ميناء مالقة وصلاحيته لرسو السفن التجارية وشحنها وتفريغها، وحمايته لها من الرياح، وإصلاح ما يتعرض منها للخراب؛ إذ تقصده بكثرة

---

(١) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، وطافور: الرحلة، (ص٦).

(٢) ابن حيان: المقتبس، تحقيق عبد الرحمن حجي، (ص٤١)، البكري: المسالك والممالك، جـ٢، (ص٢٨٢)، والحميري: المصدر نفسه، (ص١٨٠)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، المصدر نفسه، جـ٢، (ص٣٥٦).

(٣) ابن الخطيب: الصيِّب والجهام، (ص٥٦١)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦٢، ٦٩، ٧٠)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٢١١، ٢١٢)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٠، ٥١١).

(٥) البكري: المسالك والممالك، جـ٢، (ص٢٨٢)، وابن جبير: رحلة ابن جبير، إشراف لجنة تحقيق التراث، ط الثانية، ١٩٨٦م، دار مكتبة الهلال. بيروت، (ص٢٥٦)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، جـ٢، (ص٣٥٦)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٣١٨).

في فصل الصيف عن الشتاء بسبب سوء الأحوال الجوية في الأخير(١).

أما أهم طرق مالقة البحرية التي تعددت اتجاهاتها مثل الطرق البرية، فهي:

أ- طريق البحر المتوسط الممتد على طول حدود الأندلس الشرقية والجنوبية قُبالة طريق بر الساحل المذكور سابقاً حتى فرنسا في شمال ذلك البحر، وكان يمر بموانئ الأندلس من تلك الناحية كمالقة والمرية، وطول مسافته فقط بين هاتين المدينتين (١٨٠ ميلاً)(٢)، وهو من أكثر الطرق حركة سيما في عصر مملكة غرناطة؛ إذ قد سلكته جيوش المسلمين والنصارى البحرية ومراكبهم التجارية، ومن الرحالة العلماء طافور الجنوي(٣). ومن أراد قادس وإشبيلية وشمال أوروبا من هذا الطريق، فإن عليه تحيّن الفرصة المناسبة لحركة الرياح لينطلق من مالقة على ظهور المراكب الشراعية باتجاه جبل طارق وشواطئ الأندلس الغربية، التي ازداد نشاط طريقها في أواخر العصور الوسطى(٤). أما من أراد المغرب من طريق البحر المتوسط، فإنه يقصد سبتة أو غيرها من الموانئ كأنفا (الدار البيضاء) على ساحل المحيط الأطلسي(٥). ومن أراد أقاصي بلاد المشرق، فله طريقان: الأول ينطلق من موانئ شرق الأندلس كدانية إلى جزر البحر المتوسط، ثم إلى إيطاليا لمن أرادها(٦) أو إلى مدن ساحل الشام - كمدينة عكا(٧) - أو الإسكندرية على

(١) الحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨، ١٧٩)، وابن جبير: رحلة ابن جبير، (ص٢٦١، ٢٧٩)، وطافور: الرحلة، (ص٦).

(٢) الإصطخري: المسالك، (ص٣٨)، والإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٦٣).

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٦٨)، وطافور: المصدر السابق، (ص٦).

(٤) طافور: المصدر السابق، (ص٥، ٦)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٥١، ٣٥٢) وما بعدها.

(٥) المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٨)، ق١، (ص٢٤٣)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص١١٧)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٥٢٣).

(٦) طافور: المصدر السابق، (ص٧)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٥٨، ٦٠).

(٧) المراكشي: المصدر السابق، س. ف (٥)، ق٢، (ص٦٨٩، ٦٩٠).

ساحل مصر. وكان في هذا الطريق خطورة بالغة(١).

والطريق الآخر يبدأ من موانئ المغرب، ثم يسير بمحاذاة ساحل الشمال الإفريقي، ماراً في طريقه بثغور البحر المتوسط الجنوبية حتى يصل إلى مصر، ثم إلى بلاد الحرمين واليمن وغيرها عن طريق البر الذي يوصله بأقاصي بلاد المشرق أو عن طريق البحر الأحمر.

ومن أراد بلاد الهند والصين من هناك سلك طريق المحيط الهندي الذي عبرته بضائع الأندلس والمغرب إلى تلك البلاد كمنتجات مالقة وبالعكس(٢).

ب- الخط البحري المنتظم الذي يربط بين مالقة ووهران مرسى تلمسان. وقد سار فيه التاجر عبدالباسط الحنفي، واجتازه في ثمانية أيام على ظهر مركب من مراكب الجنوية الكبيرة بغرض التجارة في الأندلس(٣).

جـ- الخط الملاحي المنتظم بين مالقة الأندلسية ومدينة المزمة المغربية(٤)، وقيل: مدينة باديس؛ لأن المزمة تقابل ميناء المنكب، وعرض البحر بينهما (درجة واحدة)(٥) أي مجرى يوم بالريح الطيبة المعتدلة والمجرى يساوي (١٠٠ ميل)(٦).

---

(١) ابن جبير: الرحلة، (ص٨) وما بعدها.

(٢) الخشني: أخبار المحدثين والفقهاء، (ص١٧٧)، والمراكشي: المعجب، (ص٢٤٩) وما بعدها، المراكشي: المصدر السابق، س. ف (٤)، (ص١٦)، وابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، جـ٢، (ص٥٨٥)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٢٧٣)، والحميري: الروض المعطار، (ص١٧٨)، والسخاوي: الضوء اللامع، جـ١، (ص٣٠٥)، جـ٩ (ص٢٠٠)، والمقري: نفح الطيب، مج٢، (ص٢١٤، ٦٣٢)، والزياني: الترجمانة الكبرى، (ص٨٧)، وابن جبير: المصدر نفسه، (ص٨).

(٣) محمد عنان: رواية مصرية، (ص١٠٥).

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، (ص٩٠). المزمة: مدينة مغربية كبيرة، أسسها سعيد بن إدريس الحميري فوق جبل صغير على مقربة من البحر المتوسط، وهي نفسها بلدة نكور. انظر البكري: المسالك والممالك، مج٢، (ص٢٧٤، ٢٨٢). ويرى الفاسي أنها بلدة الحسيمة حالياً. انظر الفاسي: وصف أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، جـ٢، دار الغرب الإسلامي. بيروت، جـ١، (ص٣٢٨).

(٥) ابن سعيد: بسط الأرض، (ص٧٤).

(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٨١، ٥٨٢).

وقيل: إن طول المسافة بين المدينتين لا يتجاوز (٨٠) ميلاً[١]. ويذكر الزهري أن قياس الطريق البحري بينهما يعادل (٣٠) فرسخاً[٢]، وقد أبحر في هذا الطريق ذهاباً وإياباً ذرية سعيد بن صالح؛ وهم إدريس والمعتصم وصالح، الذي قطعه في ليلة واحدة[٣].

وجميع الطرق البحرية السابقة تؤدي إلى بلدان العالم المختلفة، وخصوصاً بلاد المشرق الإسلامي. وكان يسلكها التجار والحجاج وطلبة العلم المغاربة والأندلسيون من أهل مالقة وغيرهم؛ كمحمد بن الحسن المعروف بابن صاحب الصلاة، ويوسف بن محمد البلوي، وابن البيطار المالقي، ومحمد الساحلي المعروف بالمعمم، وقد سافر إلى المشرق مرتين[٤].

ورغم احتياطات الكثير من الرحالة في أسفارهم، إلا أنهم كانوا يتعرضون في طرق البحر المتوسط للمخاطر والصعاب؛ كهبوب العواصف، وهيجان البحر، واعتداءات القراصنة، وغير ذلك من الكوارث التي تؤدي إلى تحطم السفن، وغرق ركابها، وتكبُّدهم الخسائر الكبيرة[٥]. وأقرب مثال يصور لنا ذلك الأديب محمد بن مقاتل المالقي[٦]، فقد سافر في طريق البحر المتوسط مع جماعة من الرحالة، فهاج عليهم البحر، فتحطمت سفينتهم، وماتوا

---

(١) الفاسي: وصف أفريقيا، جـ١، (ص٣٢٩).

(٢) انظر: الجغرافيا، (ص١٢٨).

(٣) البكري: المسالك والممالك، مج٢، (ص٢٧٩، ٢٨٠).

(٤) ابن الأبار: التكملة، جـ٢، (ص٥٨٥)، وابن الزبير: صلة الصلة، ق٣، (ص١٤٢)، والمراكشي: الذيل والتكملة، س.ف (٥)، ق٢، (ص٦٨٩، ٦٩٠)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص١٩١)، والمقري: نفح الطيب، مج٢، (ص٦٩١، ٦٩٢).

(٥) ابن جبير: الرحلة (ص٢٥٧، ٢٥٩)، والسخاوي: الضوء اللامع، جـ١، (ص٣٠٥)، وطافور: الرحلة، (ص٧)، والمقري: نفح الطيب، جـ٤، (ص١٦١).

(٦) محمد بن محمد بن عبدالله المالقي يكنى أبا بكر، توفي في أواخر عام ٧٣٩ هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٣٧٩، ٣٨١).

جميعاً(١). ومثله توفي غريقاً في جهة مالقة العالم علي الغافقي(٢). ولذلك فإن بعض السفار دعوا ركاب الفلك في المؤلفات التي ألَّفوها في الرحلات إلى توخي الحذر، والتماس طرق النجاة والسلامة(٣) في حوض البحر المتوسط؛ ومن هؤلاء محمد بن عبد ربه المالقي، فقد ألف رسالة في صقلية حذر فيها من الأسفار بسبب ما واجهه من الأخطار في سفر البحر وقاساه(٤). أما ابن جبير(٥) فقد قام برحلة إلى بلاد المشرق دوّن فيها عن قرب ما شاهده من الأهوال والمصاعب في ذلك البحر الواسع(٦).

العلاقات التجارية الخارجية بين مالقة وبلدان البحر المتوسط:

نشأت بين مدينة مالقة وبلدان البحر المتوسط علاقات تجارية قوية في عصرها الإسلامي، غدت مالقة بسببها حاضرةً من أعظم وأنشط حواضر البحر المتوسط، وخصوصاً في زمن بني الأحمر، الذي تفردت في معظمه بالنشاط الملاحي لمملكة غرناطة كما خدمت تجارة ذلك البحر كنقطة عبور امتدت من خلالها الاتصالات والمصالح بين مناطق التجارة(٧)؛ إذ تؤكد المصادر والمراجع أن مالقة في عصرها الإسلامي كانت مسرحاً للتجار المسلمين

---

(١) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٧٨ و٣٨٠).

(٢) علي الغافقي: سبتي الأصل، ولد في سبتة عام ٥٧١هـ، وتوفي بمالقة في عام ٦٤٩هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٤، (ص١٩٠).

(٣) ابن جبير: الرحلة، (ص٢٦١، ٢٧٩)، وطافور: الرحلة، (ص٦، ٧).

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ١، (ص٤٢٧).

(٥) محمد بن أحمد بن جبير الكناني. استوطن عدة مدن؛ مثل غرناطة ومالقة. وله ثلاث رحلات من الأندلس إلى المشرق، ولد ببلنسية في عام (٥٣٩هـ)، وتوفي بالإسكندرية في عام (٦١٤هـ). انظر المراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٥)، ق٢، (ص٥٩٥، ٥٩٦، ٦٢١).

(٦) ابن جبير: المصدر السابق، (ص٩) وما بعدها.

(٧) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠).

والأجانب والسفن والسلع الصادرة منها والواردة إليها من بلاد المشرق والمغرب وأوروبا - كتجارة الرقيق - تصديقاً لعلاقاتها التجارية الواسعة[1].

وكان أبرز ما يمثل تلك العلاقات الاتفاقات المنظمة (المعاهدات) والهدايا والمكاتبات وتنقُّل التجار والبضائع، واستخدام العملة النقدية والمراكب البحرية، وإلزامية الضرائب، وإقامة المنشآت كالفنادق.

أولاً: العلاقة بين مالقة وبلاد المغرب الإسلامي:

كانت علاقة مالقة التجارية مع بلاد المغرب من أقوى العلاقات وأنشطها أيام تاريخها المسلم؛ وذلك يرجع إلى التقارب الجغرافي بين الجهتين، والتلاحم الاجتماعي، والدور التاريخي، والخضوع السياسي[2]؛ إذ ورد في عصر الخلافة الأموية أن عبدالرحمن الناصر تمكَّن من الاستيلاء على بعض موانئ الشاطئ الإفريقي لاستخدامها محطات ومنافذ لتجارة دولته[3]، فكان الاتصال البحري وثيقاً بين نكور[4] ومالقة القريبة منها على شاطئ الأندلس المقابل، وظلت السفن التجارية تتردد بينهما في ذلك العصر كما هو الحال مع سائر الشاطئ المغربي بعد ذلك[5]، والراجح أن الصِّلات التجارية بين مالقة وبلاد المغرب في عصر الطوائف تحسنت عن سابقها؛ إذ أصبحت مالقة عاصمة السياسة والاقتصاد لإقليم بني حمود، الذين مدوا نفوذهم على جزء من شمال تلك البلاد التي

(١) الحموي: معجم البلدان، مج٥، (ص٥٢)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٦٥، ٦٩)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٤).

(٢) البكري: المسالك والممالك، جـ٢، (ص٢٧٣، ٢٨٢)، وابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٤، ٢٠٦)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢١٦، ٢١٧).

(٣) ابن عذاري: المصدر السابق، جـ٢، (ص٢٠٤) وما بعدها، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٧).

(٤) كانت بادس والمزمة ميناءين يتبعان بلد نكور التي أزيلت اليوم. انظر البكري: المسالك والممالك، جـ٢، الهامش، (ص٢٧٣).

(٥) البكري: المصدر نفسه، جـ٢، (ص٢٨٠)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٦٢)، وعبدالعزيز سالم والعبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، (ص٦١)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٤).

انطلقوا منها نحو مالقة[١] مما أدى إلى كثافة الحركة التجارية بين الناحيتين.

ولعل اختفاء الحاكم الحمودي إدريس (السامي) في بلاد المغرب بزي تاجر[٢] يوحي بكثافة الوجود التجاري وحركته التبادلية، وأن التجار كانوا يلبسون زياً خاصاً بهم.

وكان من تجار مالقة في ذلك العصر تاجرها الوزير السطيفي[٣].

وفي عصر المرابطين والموحدين استمر تدفق الأفكار التجارية والمواد الاستهلاكية والتجار بين مالقة وموانئ المغرب في ظل تشجيع حكامهم لحرية التجارة الداخلية والدولية[٤]، فالتاجر محمد العبدري من أهل المغرب كان يتردد بيسير من بضاعته على مالقة وغرناطة حتى وفاته[٥]. أما الخليفة عبدالمؤمن الموحدي، فقد قطع العلاقة الاقتصادية الحميمة بين سبتة ومالقة عندما امتنعت الأخيرة عن الدخول في طاعته[٦].

وربما كان العثور على قطعة نقدية مالقية في أودغشُت[٧] بين عامي (١١٠٧م و ١١١٦م)[٨] ينم عن اتصال تجاري بين مالقة وأهل ما وراء الداخل الصحراوي في القارة الإفريقية، وبشكل خاص فقد ترتب على الضغط

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٢٩، ٣١، ٣٢).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص١٤٢).

(٣) المراكشي: المعجب، (ص٤٨).

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ١، (ص٢٣٩، ٢٤٠)، والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧)، والحموي: معجم البلدان، مج٥، (ص٥٢)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص١٠٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٢)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٧٥، ١٢٠).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص١٥٥).

(٦) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، (ص٢٨٦).

(٧) أودغشت: مدينة رملية كبيرة كانت من أكبر المراكز التجارية خلف بلاد المغرب. انظر البكري: المسالك والممالك، جـ٢، (ص٣٤٤). وهي اليوم تقع ضمن خارطة دولة غانا الجغرافية.

(٨) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٧٦).

السياسي النصراني في شبه الجزيرة الإيبيرية وتحول البحر المتوسط إلى بحيرة نصرانية أيام بني الأحمر إلى توثق الصلات بين التجار المالقيين وإخوانهم المغاربة، حتى إنهم كانوا يميرون أهلهم جنباً إلى جنب مع تجار الموانئ المغربية[1]، كما كانت الأساطيل الجنوية من أوروبا - على وجه التحديد - تزجي بضائع موانئ المغرب وتجارها - كسبتة ووهران - نحو مالقة من أجل البيع والشراء[2]، وبعد سقوط مالقة في يد النصارى لم يكن أمام أهلها - الذين كان غالبيتهم من التجار - سوى الرحيل إلى بلاد إخوانهم في المغرب - بادس - التي تواصلت حركتها البحرية مع مالقة لعدة قرون بعد ذلك[3].

ثانياً: العلاقة بين مالقة وبلاد المشرق الإسلامي:

كانت الرحلة في طلب العلم وأداء فريضة الحج، والارتباط البحري المباشر، وجودة الإنتاج وغزارته، وربما أصول أهل مالقة العربية في ظل حرية التنقل، ووفرة الأساطيل التجارية من أكبر الحوافز المشجعة على رواج التجارة بين مدن العالم الإسلامي كمالقة وبلاد المشرق[4]. ومع تقدم الزمن قويت روابط هذه التجارة، وارتقت ارتقاءً مدهشاً على أيدي التجار والرحالة المشارقة والمالقيين الذين - ويالـلأسف - لم تسعفنا المصادر والمراجع بمعلومات

---

(١) ابن جبير: الرحلة، (ص٧، ٨، ٩، ١٠، ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٧٩، ٢٨٢)، والسخاوي: الضوء اللامع، جـ١، (ص٣٠٥)، ومحمد كمال: يوسف الأول، (ص٥٧٥، ٥٧٧)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٤٥، ٤٦).

(٢) طافور: الرحلة، (ص٥، ٦، ٧)، ومحمد عنان: رواية مصرية، (ص١٠٤، ١٠٥).

(٣) طافور: المصدر نفسه، (ص٦)، ومؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص١٣٧)، الزياني: الترجمانة الكبرى، (ص٨٧، ٩٦).

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، (ص٤٤)، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٥)، ق٢، (ص٥٩٥)، وابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، وليفي بروفنسال: حضارة العرب، (ص٥٩)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٤٠، ٣٤١، ٣٥٠، ٣٥٤)، وعلي أحمد: الأندلسيون والمغاربة، (ص٨١، ٨٢، ١١٩)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٦٢).

مفصلة عن تجاراتهم البعيدة سوى أن أحد التجار المالقيين تجول بتجارته في بلاد الإسلام[١]، وأن التاجر علي دردوق كان له عدة سفن تزجي البضائع من مالقة إلى المشرق وبالعكس[٢]، كما أن التاجر مبارك من مالقة كان يعمل في حسابات الشحنات التجارية المرسلة من الهند، جاء ذلك في الرسالة المبعوثة إلى مصر، والمكتوبة في عدن اليمنية عام (٥٣٢هـ/١١٣٧م)[٣].

أما التاجر عبدالباسط المصري، فقد أبحر من تلمسان المغربية بعد أن حمل هو ومجموعة من التجار المغاربة والأندلسيين البضائع إلى مالقة[٤] في ظل حرية التجارة التي وثّقتها المعاهدات السلمية، كمعاهدة السلطان محمد الخامس النصري، التي عقدها مع أهل المشرق الإسلامي، فتوارد على مملكته بسببها التجار المشرقيون، وأقاموا علاقات تجارية طيبة مع أهلها[٥].

كما أن عرض المنتجات المالقية وتسويقها في بلاد المشرق البعيدة والقريبة والمحافظة على بعض مسمياتها؛ كالكؤوس المسماة (بالمالقي) المستخدمة في معظم أنحاء بلاد الشام تقريباً حتى اليوم[٦] لهو مما يثمن قيمة الروابط الاقتصادية، ويزيد في توثيق عراها بين المالقيين والشاميين.

وبشكل خاص، فإن العلاقات الاقتصادية السابقة كانت دائمة الاتصال مع بلاد مصر - وبالذات الإسكندرية[٧]- التي أخذ تأثيرها على الأندلس يزداد

(١) أوليفيا: التجارة والتجار، الهامش، (ص١٧٦).

(٢) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٧).

(٣) أوليفيا: المرجع السابق، (ص١٥٦).

(٤) محمد عنان: رواية مصرية، (ص١٠٥).

(٥) شكيب أرسلان: المرجع السابق، (ص٧٥)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٤١).

(٦) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧)، وعلي أحمد: الأندلسيون والمغاربة، (ص٢٤٦، ٣١٠).

(٧) كمال السيد: شخصيات سكندرية فيما بين القرن الثالث والسادس الهجري، بحوث ندوة الأندلس، (ص٤٠٩). الإسكندرية: مدينة ساحلية عظيمة على ضفة البحر المتوسط، بناها الإسكندر فيلبوس، فسميت باسمه. انظر الزهري: الجغرافيا، (ص٤٦).

فاعلية منذ القرن الخامس الهجري[1]، وليس الهدية المقدمة إلى ملك مصر من فخار مالقة في أواخر عصر بني الأحمر وشحن خزفها إلى الإسكندرية عن طريق البحر المتوسط دواليك، واكتشاف العديد من قطعه - في حفائر كوم الدكة - وحفظ بعض القطع في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة في الوقت الحاضر[2] سوى صورة واضحة على تشابك المصالح التجارية وقوة الارتباط الحضاري بين مالقة وبلاد مصر.

ولعل كثرة عقد المكاتبات بين أهل مالقة وأهل المشرق الإسلامي وتطواف المالقيين في بلادهم والإقامة بين ظهرانيهم ومزاولتهم لبعض الأعمال[3] تفصح عن قيام علائق أخوية بين الطرفين.

ثالثاً: العلاقات بين مالقة وجهات أوروبا:

١- مع جنوب أوروبا:

في حقبة البحث المعنية بالدراسة ارتبطت مالقة مع جنوب أوروبا بروابط اقتصادية متينة، وخاصة مع ممالك أسبانيا النصرانية والمدن الإيطالية التي استحوذت على تجارة الموانئ الأندلسية في أواخر العصور الوسطى[4].

(أ) مع الممالك النصرانية[5]:

تدفق التجار النصارى من شمال أسبانيا (الممالك النصرانية) وسائر بلاد

---

(١) ليفي بروفنسال: حضارة العرب، (ص٥٩)، وعبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢٥١)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٨٠).

(٢) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص١٦١)، وعبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، الهامش، (ص١٧١)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٥).

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٢٩٨)، وابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، (ص٢٩٢)، والمراكشي: الذيل والتكملة، س. ف (٥)، ق٢، (ص٤٩٥، ٤٩٦)، س. ف ٦، (ص١٩١)، والسخاوي: الضوء اللامع، جـ٩، (ص٢٠)، والمقري: نفح الطيب، جـ٢، (ص٢٧٢)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، الهامش، (ص٣٢١).

(٤) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٦٣، ٣٧١).

(٥) تشتمل الممالك النصرانية على مملكة قشتالة ومملكة أرجون التي انضمت لها في أواخر=

أوروبا على أسواق الأندلس - بشكل عام - في بواكير القرن الرابع الهجري[١] فنشأت بين بلدانهم وبلاد الأندلس علاقات اقتصادية متأرجحة أيام الخلافة الأموية ودولة المرابطين والموحدين. أما في أيام النصريين، فتميزت تلك العلاقات بالتبدل والتبعية مع تلك الممالك[٢]؛ إذ أصبحت تجارة غرناطة على طول شواطئها تحت سيطرة التجار النصارى وقليل من المسلمين واليهود[٣].

وكان أولئك النصارى يقيمون في المدن الساحلية المهمة كمالقة والمرية، ويقومون بعمليات التصدير والاستيراد وعقد الصفقات التجارية، ويقدمون للجمارك الأعشار على بضائعهم المستوردة[٤].

وكانت توجد في مالقة قنصليات لمملكتي أرغون وقشتالة وفنادق لمملكة قطلونيا (كتلونيا) في بداية القرن (٨هـ) وقنصل لها في عام (٧٢٨هـ/١٣٢٨م). مهمتهم خدمة تجار بلادهم، وتسهيل أعمالهم، والاهتمام بشؤونهم الاقتصادية في مالقة[٥]. وهذا يوحي بكثافة الوجود النصراني وحركة التبادل التجاري بين مناطق الاقتصاد في شبه جزيرة أيبريا. وفي المقابل كان هناك تجار من مالقة يشتغلون في حقل التجارة بمدن النصارى، كمدينة إشبيلية في عام (١٣٢٤م وعام ١٣٣٢م)[٦].

وعلى الرغم من انتشار العداء السياسي وتوتر الأجواء بين مملكة غرناطة والممالك النصرانية، إلا أنهم عقدوا معاهدات تجارية متنوعة أشارت إلى حرية

= عصر المرابطين إمارة قطلونيا. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٢١٤، ٢٢٠).

(١) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص١١٨، ١٧١).

(٢) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٥٨).

(٣) الونشريسي: المعيار المعرب، جـ٢، (ص١٥٨، ١٧٩، ١٩١)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٧٥).

(٤) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٨٥)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٧٥).

(٥) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٩٣)، والطوخي: المرجع السابق، (ص٢٨٦)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٦٢).

(٦) أوليفيا: المرجع السابق، الهامش، (ص٣٦٤).

ممارسة النشاط التجاري، وتبادل البضائع، وفتح الحدود بين البلدان للتنقل بشرط عدم التعرض للأنفس والأموال ودفع الضرائب المقررة كالضريبة التي كان يدفعها تجار كتلونيا وقشتالة، وتتجاوز أكثر من (٨٪)، ومع ذلك فإن بعض التجار لم يلتزموا بنصوص تلك المعاهدات(١).

وخلال القرنين السابع والثامن الهجريين تعامل التجار الأرغوانيون والكتلانيون مع ميناء مالقة، وتوقفت سفنهم فيه بشكل خاص بين عامي (١٣٢٧م و ١٣٢٨م)، وإن كانت مسالكهم اختلفت عن مسالك التجار الجنويين قبل ذلك بقرنين(٢)؛ إذ في عام (٧٢٧هـ/١٣٢٧م) استقل فريق من التجار التونسيين مركباً كتلونياً من تونس في طريقهم إلى مالقة للتجارة في ظل تنافسهم المحموم مع الأوربيين على حركة النقل والتجارة في حوض البحر المتوسط(٣)، أما البواخر الأرجوانية، فقد ظل تجار مالقة يستخدمونها في شحن بضائعهم وأموالهم التجارية من موانئ المغرب في عصر بني الأحمر(٤).

(ب) مع إيطاليا:

أدى نمو دول المدنية الأوروبية الجنوبية وتشجيع المرابطين إلى ظهور لاعبين جدد على مسرح التجارة المتوسطية كأهل جنوة من إيطاليا وغيرهم، الذين تبادلوا المنافع التجارية مع أهل مالقة في أوائل حكم المرابطين على الأندلس، حيث رسا أول مركب جنوي لهم في مالقة(٥).

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري وقع الانفجار التجاري

---

(١) شكيب أرسلان: الحلل السندسية، جـ٢، (ص٢٢٩، ٢٤١، ٢٨٩)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٩٣، ١٢٦)، وكمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر، (ص٥٧٤) وما بعدها، ومحمد عنان: وثيقة أندلسية قشتالية، (ص٣٨) وما بعدها.

(٢) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٨٦)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٥٢، ٣٦١).

(٣) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٦٧).

(٤) كمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر، (ص٥٧٥) وما بعدها.

(٥) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، (ص٢٨٧)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٤٥، ٨٨، ١٨١).

الأوروبي والمنافسة النصرانية والتطور السريع، فانقلب ميزان القوى التجارية لصالح الأوروبيين - وخاصة أهل إيطاليا - في البحر المتوسط على حساب تراجع التفوق التجاري الإسلامي واليهودي الأقدم في موانئ الأندلس(١).

ومنحت سلالة الموحدين التجار الطليان - كما جاء في الوثائق الدبلوماسية - امتيازات اقتصادية خوَّلت لهم حق النقل وممارسة النشاط التجاري في موانئهم المغربية والأندلسية، وضمان سلامة ملاحتهم البحرية مع خفض التعرفة الجمركية(٢)، فأصبحت مالقة بسبب تلك المعاهدات التي شجعت على الانفتاح والتبادل التجاري مع أوروبا ملتقى لجمهور التجار مختلفي الأجناس ووسائلهم المتنوعة وبضائعهم الصادرة والواردة(٣)، وفي الوقت ذاته فإن مدينة بيزا الإيطالية فرضت في عام (٥٥٦هـ/١١٥٦م) مكوساً على السفن القادمة عليها من مالقة وسائر مدن الأندلس مثلما كان يفرض عليها في تلك المدن(٤).

وفي القرن السابع الهجري احتكر التجار الجنويون الأجانب بصورة خاصة طرق شحن البحر المتوسط وحوَّلوها من شواطئه الجنوبية إلى شواطئه الشمالية بوساطة وسائل مواصلاتهم السيارة، وأصبحت تجارة مالقة منذ منتصف ذلك القرن في أيديهم(٥) فيذكر أنه في عام (٦٥١هـ/١٢٥٣م) توقف تاجر جنوي في مالقة أثناء رحلته إلى شمال أفريقيا، ربما للحصول على

---

(١) ابن جبير: الرحلة، (ص٨، ٢٧٩، ٢٨٢)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٤٥، ٤٧، ١٣٦، ١٥٨، ١٦٠).

(٢) ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص١٠٩)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٧٦، ٢٧٧، ٢٩١)، وحسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، (ص٢٨٨)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٣٣٨، ٣٣٩)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص١٢٠، ١٣٦، ١٨١).

(٣) الشقندي: فضائل الأندلس وأهلها، (ص٥٧، ٥٨)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص١٥١).

(٤) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٢٠٥، ٢٠٧).

(٥) أوليفيا: المرجع نفسه، (ص١٩٦، ٣٦٣، ٣٧١).

معلومات عن التجارة هناك[1]، وفي عام (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) عقد السلطان محمد الثاني مع سفير جنوة في غرناطة اتفاقاً تجارياً تعهَّد بموجبه حماية الجنويين والسماح لهم بالمتاجرة في بعض السلع والصيد، وبناء ما يحتاجونه من منشآت عمرانية[2]، فاستقر الجنويون في ميناء مالقة وسائر موانئ غرناطة، والتحمت مصالحهم التجارية مع المسلمين واليهود الذين تعاملوا معهم كثيراً في هذا الميناء النشط في جو يتسم بالألفة والتعاون، ومضوا في بسط نشاطهم الاقتصادي وممارسة أعمالهم حتى غدت لهم مالقة - بل مملكة غرناطة بأسرها - موطناً للاستعمار والاستثمار التجاري الكبير[3].

وبمجرد التفاوض بين الجنويين وحكام غرناطة في السماح لتجارهم بتصدير الفواكه المجففة من مالقة والمرية المستمرة معهما حركة النقل منذ وقت طويل، قام أولئك التجار بشحن السكر المالقي والحرير الغرناطي والثمار اليابسة من اللوز والعنب والتين في السفن لبيعها في أسواق البحر المتوسط[4]، وكانت عائلة سينبولا الجنوية ممن حصلت على امتياز تصدير تلك الفواكه من موانئ غرناطة في أوائل القرن التاسع الهجري، وصارت جنوة - في العصر الوسيط - أهم سوق إيطالية لحرير مملكة غرناطة الخام، الذي كانت تحمله القوافل البحرية من مدنها إلى موانئ إيطاليا[5].

(١) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص١٢٢).

(٢) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٧)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٨٨).

(٣) الطوخي: المرجع نفسه، (ص٢٨٩)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص١٢١، ١٢٢، ٣٦١، ٣٦٨، ٣٦٩).

(٤) الطوخي: المرجع السابق، (ص٢٩٠)، ويوسف فرحات: المرجع السابق، (ص١٢٦)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٦٣).

(٥) يوسف فرحات: المرجع نفسه، (ص١٢٧)، والطوخي: المرجع نفسه، (ص٢٩٠)، وأوليفيا: المرجع نفسه، (ص٢٢٦، ٢٢٧، ٣٣٠).

وكان التجار الإيطاليون يقدرون حرير مالقة المسمى (الأسباني أو المالقي) الذي يوزع بعد تصديره إلى الموانئ الأوروبية كما ورد في الوثائق الإيطالية[١].

والحقيقة أن عمليات الشحن والتنزيل والتعامل التجاري مع أهل مالقة لم تقف على تجار جنوة وحدهم، وإنما شاركهم في عصر بني الأحمر سائر التجار من الأوروبيين الأسبان أو الفرنسيين أو الإيطاليين؛ كالبنادقة[٢] والبيزائيين والميلانيين واللومبارديين وغيرهم[٣]؛ إذ يذكر أن الفلورنسيين[٤] والبلنسيين قاموا بتصدير فواكه مالقة إلى البلدان المستهلكة[٥]. وفي القرن التاسع الهجري بالتحديد نمت العلاقات التجارية بين مالقة وجنوة نمواً ملحوظاً عن غيرها من جمهوريات إيطاليا وأوروبا[٦]، ففي عام (٨٠٥هـ/١٤٠٢م) وصف (Tucciode Gennaio) أحد عمال النشاط التجاري في رسالة (مالقة)، وقال: إنها واحدة من الأسواق الرئيسة على طريق التجارة في البحر المتوسط[٧]، كما قدِم من جنوة عدد من رجال الأعمال الذين انشؤوا لهم مراكز تجارية في مالقة والمنكّب للاستثمار التجاري[٨]. فيذكر أنه في عام (٨٤٧هـ/١٤٤٣م) كان لأربعين تاجراً من الأسر الجنوية الكبيرة التي أقامت في

---

(١) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٨٩).

(٢) البنادقة: نسبة إلى مدينة البندقية وهي قديمة البناء على ساحل البحر المتوسط. انظر الزهري: الجغرافيا، (ص٧٤).

(٣) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٣٥٤)، أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٦٣، ٣٧١). ينتسب الميلانيون إلى ميلانو، واللومبارديون إلى لومبارديا، وهما مقاطعتان تقعان في أقصى شمال إيطاليا. انظر حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، (ص٢٧٩، ٢٨١).

(٤) الفلورنسيون: نسبة إلى فلورنسا، وهي مدينة عامرة بالتجارة تقع على سفح جبل بمقربة من نهر بيش في إيطاليا. انظر الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٧٥٤).

(٥) الطوخي: المرجع السابق، (ص٢٩٠).

(٦) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٩٣)، وأوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٦٢).

(٧) الطوخي: المرجع السابق، (ص٢٨٩).

(٨) يوسف فرحات: المرجع نفسه، (ص٩٣).

مالقة ستة محلات تجارية[1]، وفي عام (٨٥٦هـ/١٤٥٢م) اختار الجنويون في مالقة قنصلاً وأربعة مستشارين لتسهيل إجراءاتهم في نقل أرباحهم التي تصل إلى جنوة بموافقة غرناطة وغيرها[2].

وكان الجنويون في القرن التاسع الهجري يسيطرون على طرق حوض البحر المتوسط، ويقومون بنقل التجار والمسافرين، ومنهم الرحالة الأجانب والمسلمين؛ فهذا العالم عبدالباسط الحنفي جاء مع جماعة من التجار إلى مالقة على ظهر سفينة جنوية كبيرة[3]، وفي عام (٨٦٩هـ/١٤٦٤م) انطلق مركب جنوي مستأجر من جنوة في رحلة سلكت طريق البحر المتوسط الجنوبي حتى انتهت في مالقة[4].

وكان موقع ميناء مالقة قد أعطاها أهمية مزدوجة؛ إذ جعل منها سوقاً وموقفاً تجارياً كبيراً على الطريق البحري في القرن التاسع الهجري، حيث ظل التجار الجنويون يتوقفون فيها باستمرار أثناء رحلاتهم التجارية في حوض البحر المتوسط. فها هو الرحالة طافور الجنوي توقف بمالقة لمدة تسعة أيام، أنزل فيها هو ورفاقه التجار بضاعتهم، وتزودوا ببضاعة جديدة، ثم أبحروا بمحاذاة الشواطئ الغرناطية صوب جنوة[5]. وكان مما قاله في مالقة: إنها «تفيض بشتى أنواع المتاجر، ولو كانت تابعة لنا لكانت أحسن مما هي عليه، غير أن جميع أنواع التجارة كان لابد لها من أن تذهب إليها من قطرنا الذي لا يخاف قط من أي مكان في حوزة المسلمين»[6].

---

(١) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٩١).

(٢) الطوخي: المرجع السابق، (ص٩٣).

(٣) محمد عنان: رواية مصرية، (ص١٠٥).

(٤) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٥٣).

(٥) طافور: الرحلة، (ص٦، ٧)، وأوليفيا: المرجع نفسه، (ص٥٩، ٣٦٠).

(٦) طافور: الرحلة، (ص٦).

وفي هذا النص دلالة على قوة الجنويين، وسيطرتهم على أكثر البحر المتوسط، وفوزهم الكامل بحصة تجارة مالقة الكبرى، واتصالهم التجاري العميق مع مالقة التي تصلها المنتجات الإيطالية المنافسة والمطلوبة رغم وجود مختلف التجارات فيها[١]، ويوحي النص أيضاً بتدهور حالة مالقة في ذلك القرن، وربما كان السبب في ذلك الفتن والثورات التي أصابت مالقة وغرناطة في تلك المدة.

ومما يبين أهمية مالقة التجارية وكثرة المصالح بينها وبين جنوة - أيضاً -: امتداد نشاط الجنويين وتدخلهم في البناء العمراني لمالقة - حتى بعد سقوطها - لحماية أنفسهم وتأدية أعمالهم بكل يسر وطمأنينة؛ فقد أقاموا فندقاً رحباً للتجار الغرباء والمسافرين، وقلعةً شيدوها بعد سقوط مالقة في يد الأسبان النصارى محاطة بسور عليه أبراج، سُمّيت بقلعة الجنوية في حيهم التجاري الحصين (حي الجنوية) الواقع بجوار الميناء على مقربة من البحر في أواخر القرن التاسع الهجري[٢]، وربما هو الحي القديم الذي يطلق عليه الأسبان اليوم اسم قصر الجنويين (El Castillo De Los Genoveses)[٣].

ويقال: إن الجنويين طوقوا مدينة مالقة بسور عريض[٤]، نرجّح أن بناءه كان بعد سقوطها وتهدم أسوارها على يد النصارى أثناء الحرب المصيرية بينهم وبين المسلمين.

وبعد سقوط غرناطة عاصمة الإسلام الأخيرة في الأندلس رغب الجنويون في استمرار العلاقات التجارية مع مالقة، وطلب كثير من تجارهم الإذن من

(١) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٢٢٠، ٣١٤).

(٢) فون شاك: الفن العربي في أسبانيا، (ص٨٤)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٤)، مالقة الإسلامية، (ص٢٧).

(٣) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٩٣، ٩٤).

(٤) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٦٠).

الحكومة القشتالية في السماح لهم بممارسة نشاطهم كما كان متبعاً في أيام بني نصر، فمُنحوا مكاناً خارج الأسوار على مقربة من الميناء[1].

ويذكر تاجران جنويان استقرا في مالقة منذ زمن طويل - وهما (Agustin Ltaliano) و(Martin centurion) - أنهما تركا جنسيتهما الأصلية وأصبحا قشتاليين، ليتمكنا من متابعة ممارسة نشاطهما، وخاصة في تجارة الحرير[2].

وتشير الوثائق الخاصة بتقسيم مالقة إلى جنوة باسم (Bartolome de Abarze)[3] دلالة على مكانتها التجارية ودورها الواسع في اقتصاد مالقة.

٢- مع شمال أوروبا:

توسعت علاقة مالقة التجارية مع الأوروبيين، فامتدت في عصر بني الأحمر إلى شمالهم الأقصى؛ ذلك أنه بعد الانتصار العسكري النصراني في شبه الجزيرة الإيبيرية خلال القرن السابع الهجري وفتح الطريق البحري عبر مضيق جبل طارق والمحيط الأطلنطي للملاحة والشحن التجاري نحو الشمال، ظهر نظام أوروبي تجاري جديد أعاد تنظيم شبكة التجارة الأيبيرية بعد اختفاء محور التجارة المتوسطية المسلمة[4]، وهذا غيّر في وظيفة مالقة الاقتصادية من تجارة التخزين والتوزيع إلى تجارة التصدير وشحن العبور بشكل مركز منذ بداية القرن الثامن الهجري، وصارت هي وموانئ غرناطة تمثل قمة النظام التجاري التابع لاقتصاد أوروبا على نطاق واسع بعيداً عن عالم الإسلام[5].

(١) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٩١).

(٢) الطوخي: المرجع نفسه، (ص٢٩١).

(٣) الطوخي: المرجع نفسه، (ص٢٩١).

(٤) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٥٠، ٥١، ١٧٨، ٣٥١، ٣٦٣، ٣٧١).

(٥) أوليفيا: المرجع نفسه، (ص٣٥، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٥٨).

ومثلما كانت تستخدم مالقة محطة توقف للرحلات السائرة بين جنوب أوروبا وشمال أفريقيا لالتقاط المعلومات عن شروط السوق عبر البحر، فإنها أصبحت في الوقت ذاته تعمل محطة نقل بحري بين جنوب أوروبا وشمالها تحت سيطرة التجار الأجانب الذين استخدموها - كما في عصورها الماضية - ميناءً للشحن والتفريغ، وسوقاً لبيع وشراء السلع المستوردة أثناء العبور، واستراحة للمراكب المتأهبة للرحلة في آفاق البحر المتوسط، أو لتلك المتجهة نحو الغرب عبر المضائق باتجاه إشبيلية وشمال أوروبا - وبالعكس - كالمراكب الأرجوانية الثلاثة التي توقفت في مالقة أثناء طريقها من برشلونة إلى إشبيلية في عام (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)[١]، كما توقف طافور الجنوي بمالقة أيام رحلته التجارية في حوض البحر المتوسط فقدم مركبان جنويان من قادس عبر مضيق جبل طارق، وفرّغا حمولتهما في مينائها، ثم تزودا ببضائع جديدة، وعادا مع الطريق نفسه باتجاه المحيط الأطلنطي مروراً بقادس[٢] قاصدين هولندا في شمال أوروبا[٣].

والواقع أن التبادل التجاري ظل متصلاً بين مالقة والشمال الأوروبي حتى أواخر أيامها، فكانت شحنات اللوز والزبيب والجوز والحرير تذهب من ميناء مالقة إلى موانئ أوروبا الشمالية[٤]، وكان التجار الإيطاليون والكتلانيون يتوقفون في مالقة وموانئ غرناطة لشراء زيت الزيتون والسكر، واختيار الفواكه المجففة وهم في طريقهم إلى ساوث أمبتون[٥] وبورجس في شمال

(١) طافور: الرحلة، (ص٣، ٤، ٥، ٦، ٧)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص٣٥، ٥٨، ٣٥٧، ٣٥٩).

(٢) قادس: مدينة تقع في جنوب إشبيلية على ساحل المحيط الأطلنطي، وفي شرقها وادي لكة العظيم. انظر الزهري: الجغرافيا، (ص٨٩).

(٣) طافور: المصدر السابق، (ص٤، ٥، ٦).

(٤) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٢٧، ٣٣١).

(٥) ساوث أمبتون: ميناء إنجليزي نشط في العصور الوسطى. انظر أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣١٨، ٣٤٢).

أوروبا على ظهور مراكبهم ليعودوا بسلسلة واسعة من المستوردات الأجنبية التي يتم بيعها في مالقة[1].

وعلى هذا، فإن مالقة قد خدمت المسافرين بين مناطق التجارة النصرانية خدمة واسعة بينت مدى التحول العميق في بنية اقتصادها وطرقها التجارية وأثرها الفريد في نهضة أوروبا الاقتصادية بوصفها إحدى مدنها المركزية في الجنوب.

النظام المالي في مالقة:

إذا كان من الصعب على الباحث إيجاد صورة وافية عن النظام المالي لدولة ما، فمن الأصعب عليه تكوين صورة متكاملة لأي مدينة - مثل مالقة - ولكن يمكن القول: إن النظام المالي بكل ما تضمَّنه من إدارة وسياسة مالية حكيمة توازن بين أوجه الصرف والدخل المختلفة، وإصدار العملات النقدية كان لها أثر كبير في ثبات الوضع الاقتصادي للدولة؛ إذ إن تنظيم العلاقة المالية بين ولاة الأمر والشعب، ومعرفة الإنسان لحقوقه وواجباته المفروضة عليه تدفعه إلى العمل والإنتاج وفق مبادئ وقوانين تطبق على الجميع، وتستمد شرعيتها من أحكام الإسلام[2].

(أ) الوظائف المالية:

لا يمكن لأي نظام مالي في أي دولة أو مدينة أن يحقق هدفه المنشود، ويدفع عجلة الاقتصاد نحو الأمام دون وجود إدارة مالية ناجحة ينظم شؤونها، ويتولى النظر في دواوينها مسؤولون وموظفون من ذوي الخبرة والنشاط - كالكتَّاب والوزراء - يتعاونون فيما بينهم، ويخضعون لنظام مراقبة شديد[3] منعاً لأكل أموال الناس بالباطل.

---

(١) أوليفيا: التجارة والتجار، (ص٢٥٧، ٢٥٨، ٣٥٩).

(٢) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، (ص١٨٤).

(٣) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٩) وما بعدها.

ولاعتبار مدينة مالقة إحدى المخازن الكبرى للشؤون المالية والدواوين المختلفة والضرائب وتخزين البضائع التجارية في بلاد الأندلس(١) فقد تعددت فيها الوظائف المتعلقة بأموال الحكومة والشعب والمشتغلين فيها، وحظيت إدارتها المالية بكل عناية واهتمام من حكوماتها طوال العصر الإسلامي، وخصوصاً حكومة بني الأحمر؛ إذ يذكر أن السلطان أبا سعيد فرجاً النصري عندما أراد نقل السلطة لابنه إسماعيل رتب له الألقاب ودوَّن الدواوين، فزادت موارد جبايته(٢) وانتظمت إدارته المالية، واستقرت الأحوال الاقتصادية في مالقة بشكل عام.

١- وظيفة المجابي:

كانت مهمة صاحب هذه الوظيفة (متولي المجابي) تحصيل الضرائب والجزية على مختلف أنواعها، وقد قام بها أيام الخليفة المستنصر بن عبدالرحمن الأموي أصبغ بن فطيس(٣)، وفي عهد الطوائف رئيس يهود مالقة إسماعيل بن نعزيلة؛ لأن باديس بن حبوس الصنهاجي وأعقابه جعلوا اليهود مسؤولين عن جباية الضرائب في إماراتهم. وهذا يدل على مدى توسع النفوذ اليهودي التجاري في الإدارة المالية - كما هو حالهم في كل زمان- بخلاف سلاطين بني الأحمر الذين أبعدوهم عن هذه الوظيفة(٤) تنفيذاً لما جاء به دين الإسلام والتزاماً بأحكامه.

---

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص٥٣، النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٤٧)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣٦، ٥١٨)، وأوليفيا ريمي: التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، مج٢، (ص١٠٦٣).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص٣٨٥، مج ٤، ص٢٤٣.

(٣) هشام فوزي: يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، (ص٩٩).

(٤) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٣٢، ٣٦ وما بعدها، (٥٠، ٥١)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٤٣٨)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٦٧). وهشام فوزي: المصدر نفسه، (ص٩٩).

وفي زمن الموحدين ظهرت وظيفة جديدة لم توجد في نظم الدول التي سبقت دولتهم في المشرق أو المغرب أو الأندلس[1] وهذه الوظيفة هي:

٢- ولاية الأشغال:

وكان يتم تعيين متوليها (صاحب الأشغال) من قبل السلطان. ومهمته هي الإشراف على استخراج الأموال وجمعها وضبطها وصرفها في أوقاتها ومحاسبة العمال والولاة في ذلك بأمر الخليفة[2]. وقد تولى هذه الوظيفة من أهل مالقة محمد بن أحمد الكناني، الذي تكسب منها ثم اعتزل[3]، ومحمد بن عبدالله الأنصاري[4] الذي لقي نصباً بسببها، ومحمد بن التجيبي الذي وليها مدة طويلة[5].

٣- وظيفة ديوان الأعمال:

يقول ابن خلدون: «اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات، وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم، وصرف أعطياتهم... إلى أن يقول: وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال، وقد يُفرد كل صنف منها بناظر»[6].

وصاحب الأعمال متولي هذه الوظيفة يذكر أحد الباحثين أنه هو (العامل)

---

(١) عز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص١٦٨.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج١، ص٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص١٣٨.

(٤) محمد بن علي عبدالله التجيبي الأنصاري يكنى أبا القاسم، ويعرف بالهنا. كان من أهل القضاء، ولد في عام ٦٨٣هـ، وتوفي في عام ٧٥٠هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، ص٢٢٦، ٢٢٧.

(٥) محمد بن علي التجيبي، من أهل مالقة، يكنى أبا عمرو. كان بارع الأدب، له رحلة. توفي في عام ٦٠٢هـ. انظر ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٣، ص٢٢٨.

(٦) ابن خلدون: المصدر السابق، مج١، ص٢٥٥، ٢٥٦.

صاحب المخزن (بيت المال) في الولاية الذي يتولى إشراف جبايتها، ويخضع مباشرة للإدارة المالية في العاصمة، ويقوم بتعيين المشرفين والعمال، ومراقبتهم ومحاسبتهم في دار الإشراف(1).

وقد اشتغل بهذه الوظيفة في مالقة أبو علي بن يبقى، وأبو القاسم بن السقاط المالقي؛ إذ يقول ابن سعيد عن كلٍّ منهما: «ولي أعمال مالقة»(2). وفي زمن بني الأحمر تقلَّد هذا المنصب الوزير محمد بن إبراهيم الحميري؛ إذ يقول عنه ابن الخطيب: «ونظر على ألقاب جبايتها»(3).

وكان يعاون صاحب الأعمال في الإدارة المالية لولايته وكلاؤه المشرفون (جمع مشرف بالأسبانية Almojarife) ومهمته - كما يذكر بعض الباحثين - الإشراف على العوائد والمكوس، وجباية الخراج، والقيام بكل الواجبات والحقوق اللازمة عن الإيراد والإصدار للسلع، ومحاسبة العمال القائمين عليها(4). وكان منهم في مالقة على زمن الموحدين أبو جعفر بن ملحان(5)، ومحمد بن علي الكلبي الذي مكث طويلاً في هذه الوظيفة(6)، وربما يكون السبب في ذلك حسن سيرته وسلوكه وسمو أخلاقه وخبرته الطويلة. وعلى أيام بني الأحمر محمد بن عبدالله وغيره(7).

ونتمم حديثنا عن الوظائف المالية في مالقة ما يختص بخزانة الدولة، أو ما يختص ببيت المال. فقد تقلّب في شهادته المخزنية من أهل مالقة محمد بن

---

(1) عز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص١٧٠، ١٧١.

(2) انظر: المغرب، جـ١، ص٤٢٩.

(3) انظر: الإحاطة، مج٢، ص٣٧١.

(4) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص١٨٨، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص١٧٤، وعز الدين موسى: المرجع السابق، ص١٧٠، ١٧١.

(5) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، ص٢٢٣.

(6) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، ص١٤٩، ١٥٠، وابن الزبير، صلة الصلة، ق ٣، ص١٣٣.

(7) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج٢، ص٢٢٨.

عبدالله المالقي[1]. وربما يُقصد بذلك تخصصه في تسجيل وتوثيق ما يدخل إلى المخزن من الأموال وغيرها.

(ب) السياسة المالية:

إن وقوع مالقة تحت حكم عدة دول قامت في أزمنة متعاقبة وعاشت في ظروف مختلفة، لتحقيق أهداف متنوعة، أدى إلى اختلاف سياستها المالية تبعاً لسياسة كل دولة، ففي عصر بني حمود استطاعت حكومتهم تنظيم الإدارة المالية وتنشيط الجباية، حتى إنهم حققوا إيرادات خصبة لبيت المال أعلى بكثير من حكومة قرطبة المنهوكة[2]، كما يلحظ أن باديس بن حبوس الصنهاجي - بعد استيلائه على مالقة في منتصف القرن الخامس الهجري - زادت موارد دخله، وكثرت أمواله التي امتلأت بها خزانة دولته لسنين عديدة، فأحسن إلى أهل مالقة؛ واستقرت أحواله، وساد الرخاء والأمن في أرجاء بلاده[3]. إلا أنه عكف على ملذّاته وشهواته، وسيطر على ملكه من هو دونه، فسلّم أهل مالقة مدينتهم للعباديين، فسارع باديس لمحاربتهم، وأعاد مالقة لطاعته، وغيّر سياسته المالية تجاه أهلها وعلمائها؛ إذ زاد في رواتبهم وأصلح أحوالهم، فزادت الجبايات والأموال، وتوطدت الدولة[4]. وعقب وفاته خلّف باديس ثروة مالية ضخمة لم يحسن أحفاده عبدالله وتميم بالأخص حكام غرناطة ومالقة سياستهم فيها، فولدت المشكلات والحروب بينهم، حتى إنها

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٢٢٨).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢٩٠، ٢٩٢)، ولويس سيكودي لوثينا: الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة عدنان آل طعمة، ط (١)، ١٩٩٢م، دار سعد الدين، دمشق، (ص٣١، ٤٥).

(٣) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٤٣، ٤٤).

(٤) الأمير عبدالله: المصدر نفسه، (ص٥٨، ٥٩)، وابن خاقان: قلائد العقيان، (ص٢٠، ٢١)، وابن عذاري: المصدر السابق، جـ٣، (ص٢٧٣).

كانت يقيناً أحد الأسباب التي دفعت تميماً لطلب المرابطين من بلاد المغرب[1]، في الوقت الذي لم يوازن فيه تميم بصورة معتدلة بين ما اكتنزه من الأموال عن طريق موارد دخله وبين ما أنفقه على مالقة وشعبها الذي اعترض على حكمه بسبب سوء سياسته وسيرته، وفرضه المغارم الباهظة بغير وجه حق، مما أدى إلى نزعه من بين حكام الطوائف[2].

وبشكل عام، فإن إلزامية الضرائب وأكل أموال الناس ظلماً هي السياسة المالية الهوجاء التي اتبعها ملوك الطوائف تجاه شعوبهم وأوطانهم؛ مما نتج عنه كرههم ومحاربتهم، وتسلط أعدائهم عليهم، واعتداء بعضهم على البعض الآخر[3]، وفي هذا يقول ابن خلدون: «واعلم أن الأموال إذا اكتُنزت وادُّخرت في الخزائن لا تنمو، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم، نمت وزكت، وصلحت بها العامة، وترتبت بها الولاية، وطاب بها الزمان، واعتقد فيها العز والمنفعة»[4]. ونستثني من ذلك - تبياناً للحقيقة - أن هناك بعضاً من سلاطين بني حمود كانوا مثالاً في العدل وحسن السيرة والسياسة وطيب التعامل مع الشعب، والقيام بشؤون البلاد كما هو واجب عليهم؛ كالسلطان إدريس بن علي، وابنه المهدي محمد بن إدريس، وعقبهم يحيى بن إدريس الذي سار في رعيته السيرة الطيبة[5].

---

(١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص١٠٢، ١٠٦).

(٢) الأمير عبدالله: المصدر نفسه، (ص٩٤، ١٦٣)، ومؤلف مجهول: الحلل الموشية، (ص٧١)، وابن عذاري: البيان المغرب، جـ٤، (ص١٤٣)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٣٦).

(٣) الأمير عبدالله: المصدر السابق، (ص١٠٩) وما بعدها، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص١١٠)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٩٦).

(٤) انظر: المصدر السابق، مج١، (ص٣٢٥).

(٥) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٣٢)، وابن عذاري: المصدر السابق، مج ٣، (ص٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢).

وفي أيام دولة المرابطين والموحدين سلك الحكام في أكثر أوقاتهم سياسة مالية حازمة أدت إلى نمو مصادر دخلهم المالي، وفيضان الأموال والخيرات، وكثرة الإنفاق على كافة أرجاء البلاد والشعب؛ إذ لم يكن هناك كثير عجز في ميزانية الدولة، فنعمت مالقة من جراء تلك السياسة بالتقدم والتطور الحضاري في مختلف الميادين(١).

وفي عصر مملكة غرناطة أثرت طبيعة البيئة والظروف التي أحاطت بها - كالهجرات الجماعية وهجمات النصارى ودفع المبالغ لهم - بشكل كبير في رسم السياسة المالية التي أقرّها سلاطين بني الأحمر، ورضي بها الشعب كثيراً، وانعكست آثارها وفوائدها على أرجاء مملكتهم، وبالأخص مالقة - مركز الثقل الاقتصادي - التي أوْلى ولاتها بيتَ المال عناية فائقة، فنمت موارده، وامتلأت خزينته بالأموال الطائلة أكثر من السابق، فأصبح هناك فائض مادي أحسن الولاة سياسته في تطوير المدينة وخدمة الشعب، فتحسن مستوى المعيشة، وعاش الأهالي حياة الرفاهية والترف، وأصبحت مالقة من أكثر مدن العالم ثروة ونهضة في ذلك العصر(٢). وأقرب مثال يصور لنا هذه الحالة ولاية أبي سعيد فرج النصري على مالقة؛ إذ اتبع في عهده سياسة

(١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص١٢٠، ١٢١)، والرشاطي: الأندلس في اقتباس الأنوار، (ص٥٦)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٤٩، ١٥٠)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٤١١). وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٩١، ٣٩٥)، وحسن محمود: قيام دولة المرابطين، (ص٤٨٠)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٦١، ٣٦٣)، مالقة الإسلامية، (ص١٨).

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢، ٥٣)، ريحانة الكتاب، جـ٢، (ص٣٥٦)، أعمال الأعلام، (ص٢٨٨)، اللمحة البدرية، (ص٣١، ٩٦)، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج ١، (ص٣٨٨، ٣٨٩)، مج٤، (ص٢٠٩)، وشكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٧٥)، البتنوني: رحلة الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة، (ص١٨٩).
Levi- Provncal: Histore de Lespagne musulmane,Tome 3.p 149.

مالية ناجحة ربما كانت أحد أسباب طول بقائه في ولايته. فبقدر ما قوي دخله المالي وامتلأت به خزينة الدولة، وخاصة بعد اتساع ولايته وضم الجزيرة الخضراء ومدينة سبتة المغربية، بقدر ما كثرت نفقاته وصرف أمواله في توطيد حكمه، وإصلاح مالقة وازدهارها. وهذا أيضاً أدى إلى النمو العمراني، وتحسن الأوضاع الاقتصادية للسكان، وسيادة الرخاء والطمأنينة في أرجاء بلاده[1]. ويوافق ابن خلدون هذه السياسة، ويقول: «وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثّت فيهم، ورجعت إليه ثم إليهم منه، فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج، وعائدة عليهم في العطاء. فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا أيضاً وكثرتهم يكون مال الدولة»[2].

(جـ) موارد بيت المال:

تعددت قنوات الدخل المادي ومصارف المال في مالقة وفق ما تقتضيه الشريعة الإسلامية وحاجة كل دولة ومصلحتها. وقد اعتمد بيت مالها بشكل كبير على الضرائب الشرعية وغير الشرعية التي كان يجمعها الجباة في العادة من المدن الإسلامية وما حولها بصفة عامة - كإقليم مالقة - نقداً أو عيناً، ومعظمها تُفرض على الفلاحة والتجارة[3]. وهذه الضرائب هي:

١- الزكاة: وردت في المصادر الأسبانية باسم (Acaque)[4]، وتمثل الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة التي أمر الله بها عباده؛ قال تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[5]،

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٣٨٥)، مج٤، (ص٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون، مج١، (ص٣٩٥).

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، مج ١، (ص٢٩٧)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص٨٣)، والعبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، (ص١٢٨).

(٤) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٦٦).

(٥) سورة المزمل، آية رقم (٢٠).

ولذلك فإن مسلمي مالقة التزموا بأداء هذه الفريضة[1]، وكان مقدار الزكاة يختلف في الأموال المزكاة من الزروع والثمار والمواشي والذهب والفضة وغير ذلك على نحو ما هو مفصل في الشريعة الإسلامية[2].

٢- الجزية: هي مقدار معين من المال يفرض على أهل الذمة ومن في حكمهم، الذين يعيشون في أراضي الدولة الإسلامية، ويتمتعون بكامل الحرية والحماية. ويدفعونها مرة واحدة في السنة[3]، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[4]، وكان يقيم في مالقة وحصونها - كحصن ريينة وجطرون[5] - عدد كبير من النصارى واليهود الذين اشتغلوا في الأعمال المختلفة كالتجارة والإدارة المالية، والتزموا بدفع الضريبة المقررة عليهم في السجلات المخصصة لذلك، وإن كان البعض منهم حاول التهرُّب وإجهاد الجباة، إلا أن رؤساءهم حرصوا على تسجيلهم في سجلات الضريبة لكي لا يفقدوا مكانتهم، وتعزز قوة جاليتهم النصرانية في المجتمع الإسلامي، وقد ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغة العربية[6]، وكان من

(١) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، جـ٢، (ص٦٠).

(٢) العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، (ص١٢٩).

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ط الأولى، ١٩٦٠م، مطبعة الحلبي. القاهرة، (ص١٤٢)، وحسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، (ص١٩٩)، والعبادي: المرجع السابق، (ص١٢٩).

(٤) سورة التوبة، آية رقم (٢٩).

(٥) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٤).

(٦) الونشريسي: المعيار المعرب، جـ٢، (ص١٧٩)، ويوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٩٠) وما بعدها، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص١٤٥) وما بعدها، وكمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٢٧)، ورجب محمد: دولة بني حمود في=

المسؤولين عن أدائها مسؤولية كاملة في مالقة حاضرة وبادية أيام بلقين بن باديس: القاضي الوزير محمد بن الحسن الجذامي النباهي[1].

ومما يؤسفنا قوله في المقابل هو أن حكام مالقة وغرناطة دفعوا أموالاً جمّة بغير وجه حق لأعدائهم الكفار من أهل الحرب، وبالأخص في عصر الطوائف وعصر بني الأحمر اتقاءً لشر هؤلاء الأعداء وتجنُّباً للصدام معهم[2].

(٣) الخراج: يقصد به الضريبة المفروضة على الأرض الزراعية الخراجية المُستغلة تبعاً للكيفية التي تروى بها، وعلى حسب طبيعة الثمار والقرب والبعد عن الأسواق؛ فإن كانت تُسقى بغير مشقة، فنسبة الضريبة في العادة عشر قيمة المحصول أو الثمار، وإن كانت تسقى بمشقة وجهد، فالضريبة لا تتجاوز نصف العشر[3].

وكان يتولى الإشراف على هذه الضريبة - التي تمثل أحد أهم موارد الخزينة المالية - ديوان يسمى (ديوان الخرص)[4] يقوم فيه الخارص بتقدير المحصول المنتظر أثناء الزرع أو بعد الحصاد[5]؛ وممّن تولى هذا العمل عبدالله بن إبراهيم الأزدي، أحد سكان بلش مالقة[6].

= مالقة، (ص١٧٨)، وبدور شلميطا: صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي، ندوة الحضارة العربية في الأندلس، ج٢، (ص١٠٥٠)، وميكيل دي إيبالزا: المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس، ندوة الحضارة العربية في الأندلس، ج١، (ص٢٤٥).

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٢٢).

(٢) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٤، ١٠١)، وابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٦١)، الإحاطة، مج٢، (ص١١٠)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٤، (ص٢٠٩)، والطوخي: المرجع السابق، (ص٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٢٠ وما بعدها، ومحمد كمال: الحالة الاقتصادية بالأندلس، (ص١٣٦).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، ص١٢٤، ريحانة الكتاب، مج ٢، ص٦٠.

(٥) العبادي: الحياة الاقتصادية، ص١٢٩، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص٨٣).

(٦) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٢١).

أما الذين يقومون بقبض هذه الضريبة من أصحاب المزارع الصالحة أرضهم لزراعة جميع أنواع الثمار والأشجار النباتية في مالقة، فهم العمال الجباة (القُبَّاض)[١].

وكانت أكثر الثمار والفواكه والحبوب التي تعتمد عليها مالقة اعتماداً كبيراً في الدخل القومي هي الحاصلات التي تجود زراعتها في منطقة حوض البحر المتوسط من القمح والشعير والأرز والبقول والموالح والزيتون والعنب، الذي ارتفعت ضريبته أيام بني الأحمر، وعلى وجه الخصوص في إقليم مالقة[٢].

٤- الغنائم: جمع غنيمة، وهي المال المأخوذ من الكفار بالقتال، ولها أربعة أصناف مألوفة: الأسرى والسبي والأراضي والأموال المنقولة[٣]. وتمثل ضريبة الخمس على الغنائم في مالقة أهم مصادر الدخل الشرعي غير الدائمة التي زادت في أموالها، وأكثر ما كانت في عصر بني الأحمر بسبب الصراع العسكري القوي بين المسلمين والنصارى، وموقع مالقة الحدودي، ودورها السياسي والاقتصادي في قوة الدولة النصرية[٤]. وأول مثال على ذلك: أن المجاهدين المغاربة حققوا - بمشاركة إخوانهم المالقيين - نصراً عظيماً على النصارى في عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، وغنموا مغانم كثيرة[٥].

وفي معركة برجمة عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) استولى أهل مالقة على غنائم وفيرة بعد هزيمتهم النصارى[٦]، وفي عام (٧٦٧هـ/١٣٦٦م) تحرك أهل مالقة

(١) ابن بصال: الفلاحة، (ص٤١)، والماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢١٦، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٧٠).

(٢) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٦٧). هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط (١٠)، ١٩٨٦م، دار المعارف. القاهرة، (ص٢١).

(٣) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص٣٤.

(٤) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥) ما بعدها.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢).

(٦) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (ص٩٥٧).

صوب حصن برغة، واستولوا عليه، فامتلأت أيديهم أثاثاً وسلاحاً ورياشاً وآلة[١].

وفي موقعة الخزائن بين مريلة وأسطبونة هزم المالقيون عدوهم واستولوا على ما كان معهم[٢]، وآخر مثال ما غنمه المجاهدون من أهل مالقة في لقاء الشرقية بعد نصرهم المؤزر على الكفار مما خف وزنه وغلا ثمنه من الأموال والذهب والفضة والأمتعة والدواب والمعدات العسكرية[٣].

٥- العشور (باللغة الأسبانية Alixases): هي المال الذي يؤخذ على بضائع الحربيين المستأمنين والذمِّيِّين إذا دخلوا بلاد المسلمين[٤]، ولذلك تعدُّ التجارة أهم موارد الثروة الاقتصادية ومصدر ثراء العالم الإسلامي في العصر الوسيط، وخصوصاً التجارة الخارجية[٥]. ونظراً إلى تميز مالقة بموقع مهم على طريق البحر المتوسط بوصفه أحد الموانئ الرئيسة التي تستقبل السفن المحملة بمختلف البضائع، فإن نشاطها التجاري الخارجي مع التجار غير المسلمين - وخصوصاً في القرون الأخيرة من الحكم الإسلامي في الأندلس[٦] - أدى إلى فعالية ضريبة العشور، وزيادة دخلها في ميزانية مالقة. وكان تجار أهل الذمة يدفعون نصف العشر على تجارتهم، أما التجار المستأمنون إذا قدموا على مالقة، فكانوا يدفعون عشر القيمة على منتجاتهم التي قامت عليها تجارتهم منذ زمن بعيد، مثل الضريبة الجمركية على

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٧٨).

(٢) ابن عاصم: جنة الرضا، جـ٢، (ص٢٧٧، ٢٧٨).

(٣) مؤلف مجهول: آخر أيام غرناطة، (ص٦٤، ٦٥)، والمقري: نفح الطيب، مج٤، (ص٥١٤).

(٤) العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، ص١٢٩.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٩٥، ٤٢٢)، وسعد زغلول: الحياة الدينية في المدينة الإسلامية، (ص٤٠).

(٦) محمد عنان: رواية مصرية عن المغرب والأندلس، (ص١٠٥، ١٠٦)، وطافور: الرحلة، (ص٥، ٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٥٤).

المستوردات في الوقت الحاضر(١).

٦- الأحباس أو الوقف: هو نظام إسلامي يُوقف فيه الإنسان الحر ما يملكه من أراضٍ أو عقار أو غير ذلك من المؤسسات وقفاً مؤبداً - يتنازل فيه عن دخلها - على جهات البر والإحسان تقرباً إلى الله بوصفها من الصدقات الجارية، ويسمى الوقف في هذه الحالة الوقف الخيري، وإذا كان على الأسرة والذرية سُمِّيَ بالوقف الأهلي(٢).

وكيفما كان، فإن الأوقاف في بلاد الأندلس كان لها أثر اقتصادي جليل رفعت به عن بيت المال حملاً ثقيلاً جرَّاء تغذيته بالأموال اللازمة، وتوفير الخدمات الاجتماعية والعلمية والصحية العامة التي يحتاجها المجتمع الإسلامي في المدينة - كمالقة - ولا تستطيع الدولة توفيرها، والتكفُّل بمصاريفها، وتلبية كل متطلباتها لمواجهة الفقر والبؤس والجهل والمرض(٣).

وكانت من أهم الأحباس التي اضطلعت بتلك الوظيفة المهمة - على وجه الاختصار - في مدينة مالقة وما يتبعها كبلّش: الضياع والبساتين والدُّور ومعاصر الزيتون والموانئ والعقارات وغيرها(٤).

---

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص٣٩، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٨٥)، والعبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، (ص١٢٩).

(٢) الأحباس: لفظ استعمل في المغرب والأندلس، وكان يطلق عليه كثيراً في المشرق مصطلح (الوقف)، انظر كمال السيد: الأحباس في الأندلس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس، ١٩٩٣م، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ص١٦٠، والعبادي: المرجع السابق، (ص١٣١، ١٣٢).

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص ١٩٤)، وكمال السيد: المرجع نفسه، ص٢٠٣، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص٨٣).

(٤) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، (ص٢٨٣، ٢٨٨)، وابن الزبير: صلة الصلة، ق٣، (ص٢٢، ٢٣)، ق٤، (ص٣٥، ١٩٥) وما بعدها، وابن عياض: التعريف بالقاضي عياض، (ص١٠، ١١، ١٢)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٧٨) وما بعدها، والونشريسي: المعيار المغرب، جـ٧، (ص١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٨).

وقد لقيت هذه الأحباس في بلاد الأندلس عناية بالغة وإشرافاً متواصلاً من الحكومات الإسلامية التي عيَّنت على متابعتها والنظر فيها موظفاً يسمى (ناظر الحبس)(١). وكان منهم في مالقة على أيام دولة المرابطين القاضي عبدالله بن عمر الوحيدي، الذي تولى قضاء مالقة عام (٥٣١هـ/١١٣٦م)، فأخذ في تجديد ما كان قد درس من رسم الأحباس(٢).

وفي أواخر دولة الموحدين نجد القاضي محمد بن الحسن النباهي الذي ولاه ابن هود قضاء مالقة أيام استقلاله بحكمها متفرداً «بالقضاء والنظر في الأحباس، فصانها واسترجع ما كان منها قد ضاع أيام دول الموحدين إلى الألقاب المخزنية، وقدم لضبطها والشهادة فيها، ووضعها في أماكنها الفقيه المقرئ الورع أبو محمد عبدالعظيم بن الشيخ، وأجراها على منهاج السداد»(٣). ومن هذا يتضح أن أموال الأحباس قد ضمّت إلى بيت المال بسبب ضعف الدولة الموحدية وتدهور أوضاعها في أواخر أيامها.

ومن نظار الأحباس في مالقة أيام دولة بني الأحمر القاضي محمد بن أحمد الطنجالي، الذي أخذ بعدما خف وباء الطاعون القاتل في عام (٧٥٠هـ/١٣٤٩م) «بالجد التام في صرف الأوقاف إلى أماكنها، ووضع العهود في مسمياتها، فانقشع بذلك الفل، وذهب على أكثرهم القل»(٤).

ومن الذين تولوا النظر في أحباس مالقة وكثيرٍ من مهماتها أيضاً القاضي أحمد بن عبدالحق الجذلي(٥).

---

(١) كمال السيد: الأحباس في الأندلس، (ص١٧٦) وما بعدها، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٦٧).

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص ١٣٦).

(٣) النباهي: المصدر نفسه، (ص ١٤٧).

(٤) النباهي: المصدر نفسه، (ص ١٩٥).

(٥) أحمد بن عبدالحق الجذلي: من أهل مالقة، يكنى أبا جعفر. كان من علماء بلده، تولى=

أما الضرائب غير الشرعية، فهي مغارم إضافية نشأت عن ظروف جديدة في الدولة؛ كزيادة النفقات، وارتفاع المرتبات، وتواصل العجز في بيت المال. وتُسمَّى أيضاً بالمال الهلالي؛ لأنها تجمع مع هلال كل شهر عربي، بخلاف المال الخراجي، الذي كان يجمع كل سنة(١).

ولا شك أن هذه الضرائب المتنوعة وغير الثابتة مثَّلت مورداً مالياً خصباً لخزانة بيت المال(٢).

وبسبب كثافة النشاط التجاري والصناعي لمالقة، فقد فرضت أنواع القبالات(٣) والمكوس على منتجات أهل الحرف والصناعات، أو بائعي السلع الرئيسية(٤). وقيل: إن هذه الضرائب واجبة على كل شيء يباع صغيراً كان أو كبيراً، أو على أغلب السلع التي تباع وتشترى في الأسواق ورحاب المساجد وأماكن العبور، وعلى الطوائف المارين بقوافلهم في البلاد للتجارة، وعلى الصادرات والواردات القادمة من الخارج، وغيرها من مختلف الأنشطة التجارية(٥). ومثال ذلك: أنه كان يدفع على إنتاج الحرير وشراء لفاته رسم تارطيل (Tartil) في عهد بني نصر والملكين الكاثولكيين، وكانت تدوّن كميات

= القضاء والإقراء في أماكن مختلفة، ولد عام ٦٩٨هـ. وتوفي في عام ٧٦٥هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص١٨٠، ١٨١).

(١) العبادي: الحياة الاقتصادية، (ص١٣٠).

(٢) العبادي: المرجع نفسه، (ص١٣٠).

(٣) القبالات: جمع قبالة، وهي ضريبة تعطى التزاماً لجابيها المتقبل. وقد انتقلت إلى اللغة الأسبانية لفظاً ومعنى (Al cabala). انظر ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة، (ص٨٢). ويشير أحد الباحثين بقوله: إن القبالة كانت تستعمل استعمالاً يختلف باختلاف المناطق والعصور. انظر عز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، (ص٢٨٠).

(٤) ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق: محمود مكي، ١٩٦٥م. تطوان، (ص١٥٦، ١٥٧).

(٥) العبادي: المرجع السابق، (ص١٣٠)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٦٩)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص١٣١).

محصوله السنوي ثم تُسدَّد ضريبته في قيصرية مالقة، التي أصبحت من أحسن القيصريات وأوفرها إيراداً لبيت مال الدولة النصرية، وقد حافظ على تنظيمها الملكان الكاثوليكيان بسبب دخلها القيم الملموس(١)، كما فُرضت ضرائب أكبر قيمة على التجار الطليان في مالقة؛ فالبيزيون دفعوا ما يزيد على (٢٥ ٪ إلى ٣٠٪)(٢)، وجاء في لوائح تعرفة سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) من طرطوشة(٣) مكساً بقيمة ثلاثة دنانير مخصصة على كل سلة تين آتية من مالقة(٤).

كما فرض أيضاً رسم القبالة على المغادرين من مدنهم والقادمين إليها، وكان يُدفع للقابض عند القناطر والأبواب، حتى إننا لنرجِّح أن تسمية باب قبالة في مالقة(٥) قد جاءت من هذا الرسم.

أما التجارة البحرية وصيد الأسماك في شواطئ البحر المتوسط الشرقية ما بين مالقة والمرية على أيام مملكة غرناطة قد وجب عليها ضريبة تسمى (Tigual)، وقد انحصرت على وجه الخصوص في مرفأ مالقة ومربلة(٦).

ومن الضرائب الجائرة التي استلزمها هجوم النصارى الصليبيين، ولم تسلم منه أراضي مالقة في عهد المرابطين، ضريبة المعونة (مفرد معاون)، وتسمى أحياناً المعتب أو التعتيب(٧)، وقد ظهرت مراراً في الوثائق الأسبانية

(١) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٦٨)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٥١٨).

(٢) أوليفيا: التجارة والتجار، الهامش، (ص٢٠٢).

(٣) طُرْطُوشة: مدينة تقع في سفح جبل على ساحل البحر المتوسط، ولها سور حصين وأسواق. انظر الحميري: الروض المعطار، (ص١٢٤).

(٤) أوليفيا: المرجع السابق، (ص٣٢٧).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص١٦١).

(٦) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٦٩). يقال: إن هذه الضريبة مشتقة من الكلمة العربية ثقل، وقيل: من تكاليف مفرد تكليف. انظر الطوخي: المرجع السابق، (ص٢٦٨).

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٤، (ص٧٣)، ومحمد عنان: دولة الإسلام، ع (٣)، (ص١١٥).

باسم (Aimaguona) أو(Almagana)[(١)]، وكان دخلها مخصصاً لإصلاح الحصون، وتقوية الاستحكامات، وترميم أسوار المدن الرئيسة لحمايتها من هجمات الأعداء[(٢)]. ويبدو أنها استمرت حتى أواخر الحكم الإسلامي في الأندلس[(٣)]؛ إذ نجد السلطان محمداً الخامس - على سبيل المثال - يدعو شعب مالقة وغيرهم من سكان الحدود إلى أداء هذه الضريبة اليسيرة لتجديد بناء حصن جبل فارة المطل على البحر والبر[(٤)].

وكان أهل مالقة يدفعون - أيضاً - في عصر بني نصر وأعقابهم من النصارى ضريبة تسمى الفرضة (Farda) للإنفاق على المراقبة الساحلية[(٥)].

وعلى العموم، فإن الضرائب في مملكة غرناطة ارتفعت نسبتها عما سواها في الدول الإسلامية الأخرى[(٦)].

(د) أوجه الإنفاق في مالقة:

كما تعددت طرق دخل المال في مالقة تعددت كذلك مصارف الإنفاق، ومن الطبيعي أنهما يرتبطان بروابط قوية طردية؛ فإذا زادت مصادر الدخل زاد الإنفاق، والعكس صحيح[(٧)].

ولكن هذا في الحقيقة عائد إلى سياسة كل حكومة إسلامية وميزانيتها المالية، وأول أوجه الإنفاق في مالقة الزكاة، وكانت تصرف على أهلها الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

---

(١) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٦٨).

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٢، (ص٥١).

(٣) العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، (ص١٣٠).

(٤) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، جـ٢، (ص٦٠).

(٥) الطوخي: المرجع السابق، (ص٢٦٨، ٢٦٩).

(٦) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص١١٧)، والطوخي: المرجع السابق، (ص٢٦٥).

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٣٨٦).

وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١]. أما الغنائم، فالنظام المتبع في توزيعها هو أن يؤول الخُمس إلى بيت المال، ثم تقسم الأخماس الأربعة الباقية على المجاهدين الغانمين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ...﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ الآية[٣].

أما ريع (دخل) الأحباس في مالقة، فكان يعود على المحبِّس وفقراء أسرته وذريته، وعلى صيانة وخدمة المؤسسات المختلفة كالمساجد والأربطة والحصون، وإعانة طلبة العلم المعوزين ومرضى الجُذام والمحتاجين والأيتام، وتجهيز وتكفين الموتى من فقراء المسلمين، واستخلاص الأسرى، وإطعام المساكين والجائعين كابن الزبير[٤] الذي كان يقصد بيت مال مالقة في أواخر عمره ويأخذ من وقفه[٥].

أهم مصارف بيت المال المركزي في مالقة:

أ- الإنفاق على الموظفين والعلماء: كانت المرتبات والأرزاق تعطى شهرياً للموظفين في المؤسسات الإدارية والمالية؛ كالوزراء والفقهاء والكتاب والجنود والقضاة والمشرفين والعمال والشعراء وغيرهم، ومثال ذلك: يحيى بن علي الحمودي، الذي عامل رعيته برفق، ودفع مرتبات أعوانه وأتباعه[٦]. ومثله

(١) سورة التوبة، آية رقم (٦٠).
(٢) سورة الأنفال، آية رقم (١).
(٣) سورة الأنفال، آية رقم (٤١).
(٤) محمد بن أحمد بن إبراهيم، يكنى أبا عمرو. رحل إلى المشرق، ثم عاد إلى الأندلس. كانت وفاته عام ٧٦٥هـ. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص١٥٦، ١٥٨).
(٥) ابن الزبير: صلة الصلة، ق٤، (ص٣٧، ١٨٨)، وابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٣، (ص٧٨، ٨١، ١٥٦) معيار الاختيار، (ص٥٣)، والونشريسي: المعيار المغرب، جـ٧، (ص١٤٥، ١٤٨، ١٤٩)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٩٤).
(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٣٢).

السلطان باديس الصنهاجي، فقد كان يصرف على أهل مالقة المرتبات الكثيرة من الأموال، وزاد على وجه الخصوص في رواتب الفقهاء والقرّاء، فتحسنت أحوالهم، وأصبحت أفضل بكثير عما كانت عليه في الماضي وأيام حفيده تميم بن بلقين[1].

وأحياناً كان الموظف يمتنع عن أخذ الراتب المعتاد، ويطلب الإعفاء من عمله؛ كالقاضي عبدالله الوحيدي، الذي قام بعمله على أكمل وجه لمدة (١٨ سنة) ثم «استشعر من نفسه قصور ملالة، وفتور شاخه، فآلى إلى الزهادة، وقبض يده عن أخذ الجراية المعتادة لأمثاله من القضاة، وأكثر من الإفصاح بالاستعفاء، فترك لشأنه»[2].

وكان هناك من القضاة من يرفض أخذ مصروف شهري مقابل العمل؛ بسبب كثرة ماله وسعة رزقه؛ فها هو القاضي محمد بن الحسن الجذامي عرض عليه باديس الصنهاجي قضاء غرناطة، «ورام نقلته من عادته في ترك الجراية المتعارفة لأمثاله من القضاة، فثبت على حالته، ولم يأخذ على القضاء رزقاً من بيت المال مدة حياته، وكان عن التعالي بالمرتب في غناء لكثرة ماله..»[3].

وفي زمن الموحدين أقام السلطان عبدالمؤمن بجبل طارق عدة أشهر، فأتته وفود أهل الأندلس من العلماء والشعراء والفقهاء والرؤساء من مختلف المدن، بما فيهم وفد مدينة مالقة، وكان من ضمنهم الشاعر محمد بن غالب الرصافي، فأمر السلطان للوافدين بالبركات والإكرام[4]، «ونال جميع الناس معه الإنعام الذي عوده وسلكه، وأجاز الشعراء، وأنال خيراته الفقهاء والكبراء والموحدين والأولياء الطهراء... وكذلك أنال الفَعَلَة والبنّائين والصُّنّاع - ومنهم

(١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٥٨).

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٣٦، ١٣٧).

(٣) النباهي: المصدر نفسه، (ص١٢٢).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، القسم الموحدي، (ص٦٩، ٧٠)، وابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، (ص٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥).

المهندس يعيش المالقي - بركات وخيرات حين استحسن ما صنعوه ووضعوه»[١].

هذا بالإضافة إلى أن نفقة الطلبة[٢] - ومنهم الشيخ أبو محمد المالقي - وسائر مؤنتهم كانت تصرف لهم من بيت مال الدولة، وكانت سبباً في غناهم؛ إذ أحس عبدالمؤمن بضعف طلبة حضرته، فأجرى عليهم الأرزاق الواسعة، وأقرضهم من خزينة المال ألف دينار لكل واحد، على أن يتاجر بها - كسُلْفة - ثم يردونها له، فأخذوها وتكسَّبوا منها، وامتنع السلطان عن أخذها منهم فيما بعد[٣].

أما والي مالقة علي بن يحيى الحشمي، فقد كان صاحبَ فضل وإنعام على من يقصده في قضاء حاجة، وأكثر منه في الإحسان محمد بن علي الكلبي، الذي كان يعطي عطاءً غير مجذوذ[٤]، هذا فضلاً عن ابن زنون الذي كان رغم شدته وغلظته من أهل الكرم والإحسان يحسن إلى الشعراء ويبالغ في إكرامهم[٥].

وفي عصر مملكة غرناطة ظل محمد مؤسس المملكة ينفق على أبناء ابنته من بني إشقيلولة حكام مالقة الرواتب، ويعطيهم الهدايا بحكم القرابة سنين طويلة حتى أبطرتهم النعمة، فأثاروا المشكلات والفتن ضد دولته[٦].

ويرى القاضي أبو البركات محمد بن الحاج البلفيقي أحد سكان مالقة في عصر بني الأحمر أن مرتب العمل الحكومي لا يكفي لمتطلبات الحياة

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، (ص١١٠).

(٢) الطلبة: هم أبناء القبائل الذين جمعهم الخليفة عبدالمؤمن، وأعدهم إعداداً خاصاً ليكونوا الطبقة الإدارية في البلاد. انظر محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ع (٣)، (ص٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، (ص١٦٥، ١٦٨)، والمراكشي: المعجب، (ص١٤٢)، وابن القطان: نظم الجمان، (ص١٣٧).

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقه، (ص١٤٩، ٣٠٥).

(٥) ابن عسكر وابن خميس: المصدر نفسه، (ص٢٤٨).

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٨٧)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٣٨٢).

بسبب ارتفاع مستوى المعيشة في ذلك العصر(١).

ب- الإنفاق على الفقراء والمساكين: إلى جانب منح الهبات والأعطيات علم سكان مالقة فضلَ الصدقة في الإسلام وأثرها في تحقيق التكافل الاجتماعي بين المسلمين، فبادروا إلى بذلها للفقراء والمحتاجين من أهل مدينتهم إعانة ومواساة لهم، ورغبة في الثواب والمغفرة من الله قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

ومن حكام مالقة الذين كانوا يتصدقون: السلطان العالي بالله الحمودي، فقد كان يتصدق كل يوم جمعة بخمسمائة قطعة ذهبية (دينار)(٣)، وعلى عصر الموحدين كان والي مالقة محمد بن علي الكلبي يحسن إلى فقراء مالقة وأهلها الإحسان الجزيل، ورأوا معه من السرور والأفراح ما لم يروه مع أحد غيره(٤).

وفي عصر بني الأحمر وجّه السلطان الغني بالله أيام نزوله بفحص مالقة ضروباً من الأطعمة إلى الضعفاء لا توجد في دار غيره من الملوك(٥).

وفي أيام الشدائد والأزمات كان أهل مالقة يتسابقون في تفريق أموال الغوث والنجدة على إخوانهم المتضررين، «وإطعام الجائع، والمساهمة في الفجائع»(٦). ومثال ذلك ما كان أيام الوباء القاتل الذي عصف بمنطقة حوض البحر المتوسط في منتصف القرن الثامن الهجري، فقد تنافس المتصدقون من

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص٢٠٣).

(٢) سورة الأحزاب، آية رقم (٣٥).

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٣٢)، والنباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٢٠).

(٤) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١٥٠).

(٥) ابن زمرك: ديوان ابن زمرك، (ص١٠١).

(٦) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

أهل مالقة في إعطاء صدقاتهم من حلي وذخيرة وغير ذلك للقاضي محمد الطنجالي، حتى اجتمعت عنده ما تضيق عنه بيوت أموال الملوك، فأعطى جملةً من طلبة العلم الضعفاء وفقراء مالقة من تلك الصدقات(١). ويقول العالم أحمد ابن الحسن الكلاعي(٢) من أهل بلش مالقة: «لو كان لي بيت مال لأنفقته على طلاب العلم؛ لأنهم قدوتنا وسادتنا...»(٣)، قال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾(٤).

جـ - النفقات الحربية: كانت مالقة مركزاً من مراكز الإمداد والمعونة في بلاد الأندلس. ولذلك يبدو أن الاهتمام والإنفاق على الجيش ومعداته ولباسه وسكنه ومؤنته احتل النصيب الأوفى من حصيلة الرصيد المالي المركزي في مالقة، سواء في البر أو البحر، وخاصة أيام بني حمود وبني الأحمر. وأقرب مثال نستدل به معركة أنتقيرة(٥)، ولعل من أسباب ذلك:

١- تأهب جيش مالقة على الدوام، ومرابطته للجهاد في سبيل الله لصد خطر الأعداء بسبب موقع مالقة الإستراتيجي على الحدود - كقاعدة عسكرية - وأهميتها السياسية بوصفها عاصمةً لبني حمود وميناءَ مملكة غرناطة الأول(٦).

٢- كثرة جنود مالقة وتغلب روح الجهاد عليهم، حتى إنه في أواخر عصر بني

---

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٩٤)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٢٤٢).

(٢) أحمد بن الحسن أبو جعفر، ويعرف بالزيات من أهل بلش مالقة. ولد في عام (٦٤٩هـ)، وتوفي في عام (٧٢٨هـ) ببلده. انظر ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٢٨٧، ٢٩٥، ٢٩٦).

(٣) الشاطبي: فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجفان، ط (٤)، ١٤٢١هـ، مكتبة العبيكان. الرياض، (ص٥١).

(٤) سورة البقرة، آية رقم (٢٧٢).

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص٢٩٠، ٢٩٢)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٣٨٦)، مج٤، (ص٢٤٢)، والمقريزي: السلوك، جـ٤، ق١، (ص١٦٧).

(٦) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٢١)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧).

الأحمر كان أكثر أهلها - بل جميعهم - من الجنود البارعين في فنون القتال[١].

٣- موقع مالقة على شاطئ البحر المتوسط نتج عنه إنشاء دار صناعة السفن لتأمين ساحلها من خطر أعداء البحر وقراصنته[٢].

كل هذه الأسباب دفعت حكام مالقة إلى الاهتمام بالجيش، والإنفاق عليه، وتوفير ما يحتاجه من طعام وسلاح وبناء السفن، وتجهيزها بكل ما يلزم من الجنود والعدة والآلات[٣]، حتى أصبح ميناء مالقة يغص بالأنواع المختلفة منها في عصر بني الأحمر[٤]، ومن ذلك: أن السلطان أبا سعيد فرجاً المالقي قام بمنافسة السلطان الفقيه في صناعة السفن الكبيرة وتفوق عليه[٥]، كما جهز أسطوله من مالقة بكل ما يحتاجه من الجنود والأقوات عندما غزا سبتة[٦]. ومثله السلطان أبو الحجاج يوسف، الذي جهز أسطوله البحري من مالقة - أيضاً - لإنقاذ الجزيرة الخضراء من حصار النصارى في عام (٧٤٣هـ/١٣٤٢م)[٧]. والواقع أنه قبل ذلك في عصر الخلافة الأموية كانت الأطعمة تشحن من رية لتجهيز الأساطيل[٨].

ومن جانب آخر، فإن نفقات حكام مالقة لم تقتصر على جيوشهم، وإنما

(١) ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٧)، وطافور: الرحلة، (ص٦).

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٤، (ص٦٦، ٦٧)، وابن بطوطة: الرحلة، (ص٦٨١، ٦٨٢)، والقلقشندي: صبح الأعشى، مج٥، (ص٢١٩).

(٣) ابن الخطيب: ديوان ابن الخطيب، مج٢، (ص٤٨٥)، الصيب والجهام، (ص٥٦١)، الإحاطة، مج٤، (ص٢٤٢)، الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٢٤٢).

(٦) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٢، (ص٣٠٣)، مج٧، (ص٢٧٠، ٢٧١).

(٧) ابن الخطيب: ديوان ابن الخطيب، مج٢، (ص٤٨٣)، وابن خلدون: المصدر نفسه، مج٧، (ص٣١٢).

(٨) ابن حيان: المقتبس، تحقيق عبدالرحمن حجي، (ص٢٧).

امتد عطاؤهم إلى جيوش النصارى المرتزقة، الذين كانوا يشاركونهم في الحروب بشرط الحصول على الأرزاق. ومثال ذلك: حاكم مالقة ابن حسون الذي كان يدفع الأموال للنصارى على حساب شعبه من أجل الوقوف معه ضد هجمات المرابطين[1]، وجرى على نفس طريقته بعض سلاطين بني الأحمر وبني إشقيلولة[2]. والأدهى من ذلك أنه في موقعة طريف تحالف السلطان ابن الأحمر مع النصارى ضد المسلمين، فظل يمدهم من مالقة بالغذاء والمال والسلاح حتى سقطت المدينة في يد أعداء الدين[3]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن أهل مالقة دفعوا أموالاً جمة لشراء الأمن والأمان على أنفسهم وممتلكاتهم؛ إذ يذكر أنهم في مطلع القرن الخامس الهجري أعطوا الخليفة سليمان المستعين (٧٠,٠٠٠ دينار) عندما عاث في مدينتهم فساداً وتخريباً[4].

ومن الرواتب المنتظمة التي أنعمت بها الحكومة على أهل مالقة: البركة؛ وهي راتب الجندي وعطاؤه، وكانت تصرف له في القصبة[5]، والمواساة وكان لمالقة فيها صيت ذائع بين مدن الأندلس[6] وهي العلوفات والمؤن (الغلة) من قمح وشعير وغيره التي يفرقها الحكام على الجنود من أجل دوابهم على حسب أقدارهم عند تحصيل الغلال التي في المخازن أيام الحروب[7].

أما الإحسان، فهو مبلغ من المال كان يفرّق على الجند كل عام على حسب

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق، (ص٢٨٧)، وابن عاصم: جنة الرضا، جـ١، (ص١٧).

(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق، (ص٢٩١)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٧، (ص٢٨٥).

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٠٢).

(٥) ابن عذاري: المصدر السابق، القسم الموحدي، (ص٩٢، ١٥٦، ١٦٤)، وعز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، (ص٢٨٨، ٢٩٠).

(٦) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).

(٧) ابن عذاري: المصدر السابق، القسم الموحدي، (ص١٤١، ١٦٤)، وابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، (ص٢١٣) وما بعدها، (ص٢١٨).

مكانتهم، وخاصة أيام الغزو والاحتفالات والأعياد[1]، والمثال على ذلك: أن جيش الموحدين الذي بعثه السلطان عبدالمؤمن الموحدي بقيادة ابنه يوسف للقضاء على ابن همشك مرَّ في طريقه بمالقة وتموَّن بكل ما يحتاجه «من الدقيق والعلوفات وأدرار النعم عليهم بالبركات ومعونتهم على غزوهم بأكمل الخيرات»[2].

النفقات العمرانية:

اعتنى ولاة الأمر بعمران مالقة عناية كبيرة، فصرفوا الأموال الباهظة في بناء ما يحتاجونه من منشآت عسكرية ودينية واقتصادية... إلخ، وتطوير وإصلاح ما خربته الفتن وعفا عليه الزمن، إلى جانب تضحيتهم بأوقاتهم وجهدهم المبذول لتطوير بلادهم[3]، حتى إن مالقة أصبحت - من وراء ذلك - إحدى المدن الكبيرة المتقدمة التي يقصدها الناس للسكنى، ومحل إعجاب الكثير من الزوار والرحالة ومطمعاً لأعداء الرسالة الإسلامية في الأندلس[4]، ولذلك فإن السلطان باديس الصنهاجي في عصر الطوائف أنفق على تحصينها وتعميرها ما لم ينفقه أي سلطان، وجدَّد قصبتها على أجمل طراز وهيئة ما لم يفعله أحد في زمانه[5]. ثم اهتم بها ابن زنون وسلاطين بني نصر لدورها الفعال بوصفها مركزاً للحكم في مالقة[6]. أما حصن جبل فارة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، القسم الموحدي، (ص٩٢، ١١٤، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٧١)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٧٥).

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، (ص١٣٠، ١٣١).

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ٢، (ص٥٦٥، ٥٧٠)، ومؤلف مجهول: الحلل الوشية (ص١٦٤)، وابن الخطيب: ريحانة الكتاب، جـ٢، (ص٣٥٥).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٨٨)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٣٥٥)، وطافور: الرحلة، (ص٦)، وفون شاك: الفن العربي في أسبانيا، (ص٨٤، ٨٥).

(٥) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٤٣).

(٦) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٢٤٧)، وابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٩٦)، وريحانة الكتاب، مج٢، (ص٦١)، والحميدي: جذوة المقتبس، (ص٢٩).

الواقع في أعلى المدينة، فقد تحملت مصادر بيت المال - كقيصرية مالقة - الكثير من النفقات عليه في عصر بني الأحمر(١).

ومن أوجه الإنفاق على المباني العسكرية - أيضاً - ما أنفقه والي مالقة ابن زنون على تشييد أسوار مالقة، وإصلاح ما تعرض للفساد من سائر نواحيها بقصد حمايتها والدفاع عنها، كما طور والي مالقة محمد بن يعقوب الموحدي عمرانها، وأنفق أمواله للاهتمام بميدان السياحة فيها(٢).

وإضافة إلى ما سبق، فقد لقيت القصور في مالقة عظيم الإنفاق من ولاتها؛ فقصر بني حمود لا تزال آثاره الخالدة باقية إلى اليوم(٣) دلالة على قوة بنائه وروعة جماله وكثرة نفقاته. وقصر السيد الذي بناه المأمون الموحدي على ضفة نهر مالقة وقصور السلطان أبي سعيد فرج في خارجها وقصر الغني بالله المسمى (محدث مالقة)(٤)، من المؤكد أنها صُرفت عليها مبالغ ضخمة من الأموال الواردة لبيت المال في - مالقة وبالأخص من القيسارية - لإنشائها والاهتمام بتطويرها(٥).

هـ - **نفقات متنوعة:** شمل الإنفاق في مالقة أوجه أخرى غير ما ذكرنا. ومن ذلك:

أ- النفقات على حكام مالقة أثناء خلعهم من الحكم:

إنّ خير ما يصور لنا هذا الإكرام تميم بن بلقين والي مالقة، الذي خلعه يوسف بن تاشفين المرابطي، وبعثه إلى المغرب، ووصى به ولاتها خيراً، فبالغوا

---

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص٩٦)، ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٦٠، ٦١)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٥١٨).

(٢) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص١١٧، ٢٤٧).

(٣) عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، (ص٢٠٠، ٢٠١)، ومانويل جومث: الفن الإسلامي في أسبانيا، (ص٢٩٥).

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، مج١، (ص٤١٠، ٤١١)، مج٤، (ص٢٤٤)، وابن زمرك: ديوان ابن زمرك، (ص٩١).

(٥) توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٥١٨).

في إكرامه، وصرفوا له المرتب، فعاش معهم في عافية ورغد من العيش حتى وفاته[١]، وفي عصر بني الأحمر أعطى السلطان الفقيه مدينة شلوبانية وأموالاً وفيرة لوالي مالقة عمر بن محلى مقابل تنحيه عن الحكم فوافق[٢].

ب- النفقات على الاحتفالات والمناسبات:

كان حكام مالقة ينفقون المبالغ الطائلة في المواسم والحفلات المختلفة على الشعب جماعات وأفراداً على اختلاف درجاتهم العلمية؛ فالاحتفال بتنصيب الخلفاء، والزيارات الرسمية لمالقة نال فيها الشعراء الأموال الجزيلة لإلقائهم قصائد المديح والتهنئة لسلاطينهم؛ كبني حمود وبني الأحمر[٣].

وفي مناسبة انتهاء السلطان محمد الغني بالله من بناء قصره الجديد (محدث مالقة) أقام فيه حفلاً كبيراً استدعى فيه أشراف دولته وخواصهم[٤]، وفي شهر شعبان من عام (٨١١هـ/١٤٠٨م) زار السلطان يوسف الثالث مالقة لأول مرة، فاطلع على جندها في عرض رسمي، ثم زارها في عيد الفطر وعيد الأضحى لسنوات متفرقة، فأتاه رجال دولته من الفقهاء والشيوخ والشعراء، فأطعمهم وأكرمهم، واحتفل بذلك كما جرت العادة في مثل تلك المناسبات[٥].

جـ- نفقات الصدقات والأعطيات:

اتصف أهل مالقة بقيم الإسلام العالية مثل الكرم[٦]، فتسابقوا في فعل

---

(١) الأمير عبدالله: التبيان، (ص١٦٣)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٣٨١)، والناصري: الاستقصا، جـ٢، (ص٥٣).

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج٤، (ص٦٢).

(٣) ابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٦٢)، وابن زمرك: ديوان ابن زمرك، (ص٧٦، ٧٧، ١٠١)، وابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١٢٥، ١٣٦).

(٤) ابن زمرك: المصدر نفسه، (ص٩١).

(٥) ابن فركون: ديوان ابن فركون، (ص١٦، ١٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤٢، ٢٧٥).

(٦) ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٠١، ٣٦٧)، والقيسي: ديوان عبدالكريم القيسي، (ص٣٨٩)، والمقري: نفح الطيب، مج٥، (ص٢٢).

الخيرات وتفريق أموالهم على الوافدين عليهم من مختلف طبقات الناس وأجناسهم، خصوصاً العلماء والشعراء؛ طلباً لمرضاة الله وأجره العظيم، وجلْباً لمحبة الناس والتودد إليهم.

فيحيى بن علي الحمودي كان من أكرم حكام مالقة، يتحبب إلى الناس، ويقَرِّب منازلهم، ويرفع مكانتهم، ويجزل العطاء لهم ولمن وفد عليه من غيرهم أو مدحه بشعر(١). وسار على سنته أخوه إدريس، الذي اتصف بالكرم والسخاء الواسع على رعيته(٢). أما إدريس العالي بالله، فقد اشتهر بكثرة بذله وعطائه، وخصوصاً على شعرائه؛ كالوليد بن غانم، وعبدالرحمن الأشبوني. وربما لأغراض سياسية كان يعطي حصونه لجيرانه من البربر، الأمر الذي نتج عنه انقلاب شعبه عليه(٣)، ولنفس الغرض استطاع باديس الصنهاجي - عن طريق الإغراء بالأموال - أن يستميل رجال المستعلي آخر حكام مالقة من الحموديين، حتى تمكَّن من أخْذ مالقة(٤)، وبأسلوب مشابه أكرم عبدُالله بن بلقين أهلَ جهات مالقة أيام الحرب بينه وبين أخيه تميم(٥). وفي زمن المرابطين سلك علي بن الحسين الكلبي أخو القاضي حسين بن حسون - وشتان بينهما - نهج سلفه من الحموديين في منح الأموال؛ إذ كان ربد اليدين، سباقاً في المكرمات إلى أبعد الغايات، تتولى أياديه الحسان على الخاص والعام(٦).

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٣، (ص١٣٣)، وابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٦١).

(٢) ابن عذاري: المصدر نفسه، جـ٣، (ص٢٨٩).

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، جـ٢، (ص٢٠٧)، وابن سعيد: المغرب، جـ١، (ص٤١٤)، وابن بسام: الذخيرة، مج٢، ق١، (ص٨٥٣) وما بعدها، والمقري: نفح الطيب، جـ١، (ص٤٣٥).

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٢١).

(٥) الأمير عبدالله: التبيان، (ص٩٢).

(٦) ابن عسكر وابن خميس: المصدر السابق، (ص٣٠١).

النظام النقدي في مالقة:

أ- دار السكة[1]:

تعد دار سكة مالقة من أهم المراكز المعمارية بين منشآتها العمرانية التي حظيت بإشراف الحكومة واهتمامها[2] طوال تاريخها، وذلك بسبب دورها العظيم في ضرب العملات النقدية، وتيسير المعاملات الاقتصادية، وكانت هذه الدار تقع على الأرجح داخل قصبة مالقة[3]، وكان بنو حمود أول من بنى دار السكة. ومماَّ يرجح ذلك:

١- عدم ورود إشارات عن سك عملات نقدية أو العثور عليها قبل عصر بني حمود.

٢- لم تكن لمالقة أهمية سياسية ومالية كبيرة تستدعي ضرب عملات نقدية خاصة قبل القرن الخامس الهجري.

٣- أن أول من اتخذ (مالقة) عاصمة لدولتهم هم بنو حمود.

ومن الأمثلة على العملات العديدة المضروبة في عصرهم: دنانير علي بن

---

(١) انتقلت كلمة السكة العربية إلى اللغة الأسبانية في شكل (Seca و Zeca و Ceca) انظر الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، الهامش، (ص٢٧١)، وتعريفها هو: «الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه، فيكون التعامل بها عدداً، وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً... وهي وظيفة ضرورية للملك؛ إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات، ويتّقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة». انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) كمال السيد: مالقة الإسلامية، (ص٤٩).

(٣) كمال السيد: المرجع نفسه، الهامش، (ص٤٩)، ولويس سيكو: الحموديون سادة مالقة، الهامش، (ص٢٣).

حمود التي تحمل اسم مالقة ومنقوش عليها «ولي العهد الإمام يحيى المعتلي بالله أمير المؤمنين»[١]، ومسكوكات للقاسم بن حمود سكت في عام (٤١٣هـ) ورد فيها اسم ابنه محمد ولي للعهد، كما سكت نقود ليحيى بن علي تحمل اسم إدريس ولي للعهد، ومسكوكات أخرى تحمل اسم إدريس والحسن بن يحيى ولي عهده[٢]، وفي عهد إدريس العالي بالله عثر على درهم مضروب في مالقة[٣]، وعلى نفس النمط الحمودي قام حكام غرناطة ومالقة من بني زيري بسك عملاتهم؛ من ذلك درهم سك في مدينة مالقة سنة (٤٥٠هـ) نقش عليه: «الدرهم بمدينة مالقة سنة خمسين وأربعمائة، الإمام إدريس العالي بالله أمير المؤمنين»[٤]. وفي هذا دلالة على تفوق النظام النقدي الحمودي وقوة اقتصاد مالقة في عصر ملوك الطوائف.

وفي زمن المرابطين كان تميم بن بلقين والي مالقة المتوفى في عام (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) هو أول من ضرب الدراهم المرابطية، فقدمه يوسف بن تاشفين على سائر حكام الأندلس[٥]، ولذلك يبدو أن أحد الباحثين قد جانب الصواب في قوله: إن أقدم درهم ضرب في مالقة كان بين سنتي (٥٠٠ و٥٢٢هـ/١١٠٧ و١١٢٨م)، وأقدم دينار من الذهب للمرابطين ضرب في عام (٤٩٤هـ/١١٠١م)[٦] كما يذكر هذا الباحث في سنوات مختلفة من أوائل القرن

(١) كمال السيد: مالقة الإسلامية، الهامش، (ص٤٩)، ولويس سيكو: الحموديون سادة مالقة، الهامش، (ص٢٣)

(٢) لويس سيكو: المرجع نفسه، الهامش، (ص٢٧، ٣٣، ٣٤).

(٣) كمال السيد: المرجع السابق، الهامش، (ص٤٩).

(٤) كمال السيد: المرجع السابق، الهامش، (ص٥٠).

(٥) الأمير عبدالله: التبيان، (ص١٦٢)، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص٢٣٦).

(٦) عبدالنبي محمد: مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقيا والأندلس، ١٣٩٩هـ، رسالة ماجستير، إشراف عبدالرحمن فهمي، جامعة الملك عبدالعزيز. جدة، (ص٦٨، ٩٨، ١٠٢، ١٦٤).

الخامس الهجري دراهم من الذهب مضروبة في دار سكة مالقة[١].

وفي عصر الموحدين كانت أقدم الدراهم الموحدية التي ضربت بمالقة قد نقشت بين عامي (٥٤٨ و٥٥٨هـ)[٢]، وقد عثر على مجموعة من الدراهم تحمل نقوشاً تشير إلى أنها ضربت في مالقة، كان أحدها من الفضة مضروباً باسم المهدي بن تومرت[٣]، وآخر غيره كان منقوشاً في وجهه الأول «المتوكل على الله أمير المؤمنين محمد بن يوسف بن هود»، والوجه الآخر «لا إله إلا الله محمد رسول الله العباسي إمام الأمة ومالقة». ويبدو أن هذا الدرهم ضرب بين عامي (٦٢٥-٦٣٥هـ/١٢٢٧م-١٢٣٧م)[٤]. ومن هذا نرجح قولنا في الفصل الأول أن ابن هود اتخذ مالقة مقراً لحكمه.

وفي زمن النصريين حكام غرناطة سكت بمالقة النقود الذهبية الخالصة[٥] «وديوانها ذهب إبريز»[٦]. والملحوظ - دون أدنى شك - أن عملات مالقة اختلفت - مثل أي عملة - في الشكل والقيمة والنوع على حسب سياسة كل دولة حكمتها، بينما اتفقت في دورها الرائع الذي قدمته لنمو الحياة الاقتصادية.

ب- الأكيال والموازين والمقاييس:

حض الإسلام العباد على الإيفاء بالكيل والوزن لتنظيم المعاملات التجارية في البيع والشراء وحماية المستهلك من أصحاب الغش والتلاعب؛ وقد ورد الأمر بذلك في كثير من الآيات القرآنية؛ قال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

(١) عبدالنبي: مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال افريقيا والأندلس، (ص١١٨).
(٢) عبدالنبي: المرجع السابق، (ص٦٨).
(٣) النبراوي: النقود الإسلامية، (ص٢٨٥). انظر الملحق، (ص٤٤٣)
(٤) كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٢١، ٣٢٢).
(٥) النبراوي: المرجع السابق، (ص٣٦٧).
(٦) ابن الخطيب: معيار الاختيار، (ص٥٢).
(٧) سورة الأعراف، آية رقم (٨٥).

الْمُسْتَقِيمِ﴾[1]، بل جاء في القرآن الكريم سورة كاملة باسم المطففين، يتوعد الله فيها بالويل ويحذر من التطفيف في الوزن والكيل، فيقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[2].

وقد أمدنا محتسب مالقة بمواصفات الجودة والضمان في صناعة المكاييل والموازيين والصنوج[3]، وكيفية استعمالها الاستعمال السليم منعاً لأساليب المكر والخداع. ومن ذلك أن تطبع تلك الوسائل بطابع رسمي معلوم لدى المحتسب[4].

ومن تلك المكاييل والموازيين التي استخدمها سكان مالقة في تعاملاتهم اليومية: الأوقية[5] والرطل[6] والقدح[7] والثمن[8] والربع[9] والكيل[10] والعدل[11] ونستعرض منها ما يلي:

---

(١) سورة الإسراء، آية رقم (٣٥).

(٢) سورة المطففين، آية رقم (١، ٢، ٣).

(٣) الصنوج: جمع صنجة. وهي معيار للكيل يوضع في إحدى كفتي الميزان ليعادل به الشيء المطلوب وزنه. انظر نسيبة الحريري: المقاييس والمقادير عند العرب، (ص٤٢).

(٤) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٣، ٣٤).

(٥) الأوقية: جمعها أواق، وتعادل ٣٧ جراماً أو أكثر من ٣٣ جرام. وحالياً هي وحدة النقد في موريتانيا. انظر الحريري: المرجع السابق، (ص١٨).

(٦) الرطل: هو معيار يوزن به. انظر الفيروزآبادي: القاموس، جـ٢، (ص١٣٣٠).

(٧) القدح: يساوي ثمن الكيلة من الحبوب. والكيلة (٨ أقداح). انظر الحريري: المرجع السابق، (ص٥٦).

(٨) الثمن: تعددت معانيه في العربية؛ منها (واحد على ثمانية) من الدرهم الفضة أو الدينار الذهب وكان يزن ١٢ حبة شعير. انظر كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٢٧).

(٩) الربع: جمع أرباع، ويطلق على مكيال يسع (٤) أقداح. انظر الحريري: المرجع السابق، (ص٣٠).

(١٠) الكيل: تعني في الأندلس مكيالاً أو معياراً معيناً. انظر كمال السيد: المرجع السابق، (ص٣٢٥).

(١١) السقطي: المصدر السابق، (ص٢٨، ٣٢، ٣٧، ٥٤). العدل: نصف الحمل يكون على جنبي الدابة. انظر الحريري: المرجع السابق، (ص٤٧).

١-الأوقية والرطل (بالأسبانية Arrate أو Arrelde):

والرطل مرادف للمد النبوي الشرعي، وهو الوحدة الأكثر استخداماً في الوزن، وكان يزن (١٦ أوقية)، والأوقية عشرون درهماً فضة إمامية؛ أي: نحو (٥٠٤ جرامات) ويستخدم في وزن الأشربة والأطعمة كاللحم والمواد الصلبة كالمسمار ما عدا الحبوب[١]. ومثال ذلك: رطل من اللحم يساوي (٦٤ أوقية)، وخمسون مسمار حديد تساوي رطلاً واحداً، وعدد أواقي عجينة الخباز (٢٠٤٢ أوقية)، وما لم يكن كذلك، فسرقة وغش[٢].

٢-الربع والثمن (بالأسبانية Azumbre):

هما من الموازين التي تستخدم في مالقة لوزن السوائل كالزيت والعسل، أو لوزن دقيق الحبوب، أو لوزن المواد الصلبة من الحديد كالمسمار[٣]. ويعادل الربع من الحديد (٢٤) رطلاً، والقدح من الشعير والشنتيه يزن ربعاً واحداً، ومنه ما يقصر عن ذلك. وثمن الزيت يعادل رطلين وربع الرطل[٤]، «وثمن الربع الجاري بمالقة في الكيل من العسل الطيب الأندلسي في الغالب ثلاثة أرطال ونصف، ومن الطيب العدوي ثلاثة أرطال وست أواق إلى ثلاثة أرطال وربع من الزبيب رطلين وربع، ومن الخل ثلاثة أرطال غير ربع إلى رطلين ونصف، ومن اللبن الغنمي ثلاثة أرطال وربع، ومن المعزى ثلاثة أرطال وثلاث أواق»[٥]. وينبغي أن تكون أكيال الأرباع منشورة الأفواه، مبرودة الحواشي من الخارج، ولا يحتمل حافاتها الزائد بوجه، وتتعاهد النحاسية بالإصلاح والاعتدال، وتتفقد أجوافها[٦].

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٨، ٤٦، ٤٧)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي، (ص٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) السقطي: المصدر نفسه، (ص٥٢، ٨٠، ٨٥).

(٣) السقطي: المصدر نفسه، (ص٤٦، ٥٤).

(٤) السقطي: المصدر نفسه، (ص٢٨، ٥٤).

(٥) السقطي: المصدر نفسه، (ص٢٨).

(٦) السقطي: المصدر نفسه، (ص٢٨).

٣-الكيل (بالأسبانية Alguer) والقدح (بالأسبانية La Cantara):

كانت تستعمل في مالقة لوزن السوائل وكيل الحبوب وسائر المواد الجافة؛ كالكزبرة اليابسة التي كان يساوي القدح منها في مالقة (١١ رطلاً)، أما القمح والذرة، فالقدح منها يقدر بثلاثين رطلاً أو أكثر من ذلك[١]، وظل القدح مستعملاً حتى عصر بني الأحمر[٢]، والمعروف أن المكاييل والموازيين مقادير اصطلاحية تقوم على العرف، وتختلف من بلد إلى آخر[٣].

أما المقاييس في مالقة، فقد استخدم فيها - مثل بقية مدن الأندلس - الذراع باليد[٤] كقياس للطول في أسواق الأقمشة وغيرها[٥] ومن أجزائه الشبر[٦]، ومثال ذلك: أن الطول في الثوب العادي (١٦) ذراعاً و (٤) أشبار في العرض وخيوطه (٤١٦٠) خيطاً ووزنه (١٦) أوقية. وما نقص عن (٣٣٦٠) في النسيج و(١١) أوقية في الوزن، فهو فاسد[٧].

ومن وحدات الطول التي استخدمت في مالقة لقياس حبال السفن مثلاً الباع[٨] وكان يساوي (٤) أذرع[٩]. وكانت الأراضي الزراعية في مالقة تقاس

---

(١) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٦، ٢٧، ٢٨، ٤٦)، وكمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي (ص٣٢٥).

(٢) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص١٢٥).

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨)، وعز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، (ص٢٩٧).

(٤) الذراع: هي اليد من كل حيوان وفي الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى وتعادل قياساً اليوم (٤٥-٤٨ سم). انظر الحريري: المقاييس والمقادير، (ص٢٨).

(٥) السقطي: المصدر السابق، (ص٧٦).

(٦) الشبر: وحدة قياس بدائية، وهي - في العادة - المسافة ما بين طرفي الخنصر والإبهام وجمعها أشبار. انظر الحريري: المرجع السابق، (ص٣٧).

(٧) السقطي: المصدر السابق، (ص٧٧).

(٨) الباع: المسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً. انظر الحريري: المرجع السابق، (ص١٨).

(٩) السقطي: المصدر السابق، (ص٨٧)، وكمال السيد: المرجع السابق، (ص٣٢٣).

بالمرجع (بالأسبانية Marjal) ويساوي حوالي (٥٠٠م٢)[١]. ومن وحدات قياس المسافات الفرسخ، ويعادل (٣) أميال[٢]. ويذكر أن وادي مالقة كان يبعد عنها ثلث فرسخ (ميل واحد)[٣]. والميل عبارة عن مسافة من الأرض ليس لها حد معلوم، وتساوي أكثر من (١,٥ كم)[٤]. وقد استعمل في قياس الأبعاد عن مدن الأندلس الأخرى[٥] كالمرحلة، وهي مسيرة يوم للمسافر، وتقدر بـ (٢٤) ميلاً[٦] (حوالي ٥٠ كلم).

أهم النظم المتعلقة بالتجارة في مالقة:

كانت إدارة الأسواق في المدن الأندلسية - كمالقة - تعرف باسم ولاية السوق أو أحكام السوق، ومتوليها يدعى صاحب السوق، ومنذ عصر الموحدين اشتهرت باسم ولاية الحسبة، والمشرف عليها المحتسب[٧].

ويعد المحتسب هو المنظمَ الحقيقي للحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، لتوليه العديد من المهام التجارية؛ كالإشراف على التجار والصناع، وتتبع مخالفاتهم التجارية، والنظر في جودة البضائع ووفرتها ومطابقتها

---

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، (ص١٤)، والإحاطة، مج١، (ص١٣٢)، والطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٨٠).

(٢) الزهري: الجغرافية، (ص١٣٨)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، (ص٤٨).

(٣) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١١٩).

(٤) الحريري: المقاييس والمقادير، (ص٦٦، ٦٨).

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، (ص٢٤٨). الحميدي: جذوة المقتبس، (ص٣٠). الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، (ص٥٦٥).

(٦) الحريري: المرجع السابق، (ص٦٥).

(٧) ابن حيان: المقتبس، تحقيق محمود مكي، (ص٨٦)، وابن عمر: أحكام السوق، نشر محمود مكي، مجلة المعهد المصري، مج٤، ١٩٥٦م. مدريد، (ص١٠٠، ١٠١)، وابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص٤٣٠)، اللمحة البدرية، (ص٤٠)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص١٨).

للأوصاف المطلوبة[1] وغير ذلك من المهام التي ذكرناها في ثنايا هذا الفصل.

ولهذا يجب أن يكون المحتسب «فقيهاً في الدين، قائماً مع الحق، نزيه النفس، عالي الهمة، معلوم العدالة، ذا أناة وحلم وتيقظ وفهم، عارفاً بجزئيات الأمور وسياسات الجمهور، لا يستنفره طمع، ولا تلحقه هوادة، ولا تأخذه في الله لومة لائم»[2].

وكان من الشخصيات الشهيرة في حقل الحسبة بمالقة: العالم الفقيه محمد السقطي المالقي، صاحب كتاب: «في آداب الحسبة»[3]، والعالم محمد ابن علي الزهري، الذي تسلم مدينة مالقة في عام (٧٣٠هـ/١٣٣٠م)[4].

وقد استمر نظام الحسبة بمالقة طوال العصر الوسيط دون انقطاع، وبعد سقوطها في يد النصارى الأسبان طبقت الحكومة الأسبانية نظام الحسبة الإسلامي، وعين الملكان الكاثوليكيان اثنين من المحتسبين في مالقة، وأصبح لفظ (المحتسب) ينطق في الأسبانية (Almotaacen)، أو(Almotasaf) شهادة على مكانته وأهمية وظيفته في الحياة[5].

ومن الأنظمة التجارية التي تظهر بوضوح في تجارة مالقة العالمية: روابط التعاون والشراكة بين التجار المسلمين وغيرهم ممن يخالفونهم في العنصر واللغة والدين خارج حدود الوطن، فالتاجر مبارك المالقي قدّم

---

(١) ابن عمر: أحكام السوق، (ص١٠٠، ١٠٣)، والسقطي: في آداب الحسبة، (ص٢٤)، والمقري: نفح الطيب، مج١، (ص٢٠٣، ٢٠٤)، والعبادي: الحياة الاقتصادية، (ص١٥٩).

(٢) السقطي: المصدر السابق، (ص٢٠).

(٣) السقطي: المصدر السابق، (ص١٦).

(٤) يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، (ص٨٧).

(٥) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، (ص٢٠٥، ٢٠٦)، وليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة (ص٨٨)، والعبادي: الحياة الاقتصادية، (ص١٥٩)، وتوريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، (ص٤٦٦).

حسابات عن شحنات تجارية من الهند لشريكه التاجر اليهودي هلفون[1] في مصر في رسالة بعثها له عام (٥٣٢هـ/١١٣٧م)[2] لمعرفة الأرباح وتيسير معاملاتهم التجارية.

وبجوار هذا دفعت سيطرة الأوروبيين على طرق مواصلات البحر المتوسط تجار مالقة وغيرهم إلى عقد الصفقات التجارية معهم، واستئجار مراكبهم لنقل السلع والمعلومات[3]. ومثال ذلك: كان بعض تجار مالقة يتنقلون بأنفسهم، ويمولون مدينتهم بالمواد الغذائية اللازمة على ظهور الفلك الأرجوانية من بلاد المغرب بعد الاتفاق مع بحارتها وكتابة عقد بذلك[4].

أما فيما يتعلق بنظم التجارة الداخلية في مالقة، فقد كان من المشتغلين في أسواقها الدلالون الذين ينادون على السلع بطريقة الصياح، والجلاسون، وهم قوم أكثرهم يستبيح ما نهى الشرع عنه، وكانوا يتخذون لأنفسهم محلات تجارية ودلالين (سماسرة) يتقاسمون معهم ربح ما يبيعون، فإذا نزل عليهم التجار الغرباء أخذوا سلعهم، ومحوا سعرها الثابت، وزادوا عليه ثم باعوها[5]. وبالتالي، فالواجب على المحتسب أن يمنع التجار من التعامل مع هؤلاء؛ لأنهم يبيعون بالنجش المنهي عنه في شريعة الإسلام[6].

أثر التجارة على مالقة:

إن مما أوردته بعض المصادر والمراجع عن أثر تجارة مالقة هو ما عاد به

(١) هلفون بن ناتانئيل: كان أحد التجار اليهود الجوالين في العالم في القرن الحادي عشر الميلادي، وقد استطاع الوصول إلى المغرب والأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية. انظر أوليفيا: التجارة والتجار، (ص١٥٥).

(٢) أوليفيا: المرجع نفسه، (ص٩).

(٣) ابن جبير: الرحلة، (ص٩)، ومحمد عنان: رواية مصرية، (ص١٠٦).

(٤) محمد كمال: يوسف الأول، (ص٥٦٥، ٥٧٥).

(٥) السقطي: في آداب الحسبة، (ص٧٣، ٧٤).

(٦) السقطي: المصدر نفسه، (ص٧٥).

مزاولة ذلك النشاط والاستثمار فيه على أهلها من ألوان الخير والنعمة والثراء، التي حسَّنت من أحوالهم المعيشية ومستوى دخلهم المالي؛ فالعالم محمد الكرسوطي نزيل مالقة كان من رجال الأعمال الذين مارسوا التجارة وتملكوا بعض المحلات، فدَرَّت عليهم غلة مفيدة[١]، والتاجر علي دردوق أصبح من كبار الأغنياء في مالقة بسبب اشتغاله بالتجارة الخارجية[٢]، ومثلهما ابن نغريلة اليهودي، الذي قصد مالقة للعمل التجاري، ففتح محلاً لبيع التوابل كسب من ورائه أموالاً طائلة[٣]، أما العالم محمد بن إبراهيم الأموي، فقد صار من أثرياء مالقة جراء العمل التجاري، مما كان له أبلغ الأثر في تحسن معيشته[٤].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، مج٣، (ص١٣١).

(٢) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، (ص٢١٦).

(٣) هشام فوزي: يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، (ص٩٩)، وأوليفيا: التجارة والتجار، (ص١٤٨).

(٤) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج٢، (ص٣٣٨).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

فقياساً على «العبرة بخواتيم الأعمال»، فإنني اختتمت رسالتي بخاتمة احتوت على عدد كبير من النتائج التي وضّحت الأهمية التاريخية والحضارية لمدينة مالقة في عصرها الإسلامي؛ ومنها:

- أن مدينة مالقة كانت من أولى المدن الأندلسية التي دخلت في ظل الإسلام أواخر القرن الهجري الأول، مما أكسب أهلها من المسلمين فضل هذا القرن وخيرها.
- فتح المسلمون مالقة مرتين: الأولى في عهد طارق بن زياد والثانية في عهد عبدالعزيز بن موسى.
- أن مدينة مالقة أصبحت أهم مدن كورة رية منذ عهد الخلافة الأموية، وليس في القرن الخامس الهجري.
- أضحت مالقة ميدان تنافس وصراع بين ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري، لا سيما بين البربر والعرب.
- اتساع دولة بني حمود وقوتها، ورغبتها في ربط العَدْوَة الأندلسية بالعَدْوَة المغربية وقيام خلافة علوية.
- الصراع الداخلي بين الحموديين على منصب الخلافة الأندلسية والصراع الخارجي بينهم وبين العباديين على المنصب نفسه أيضاً.
- إن الدور الكبير في إنشاء مظاهر مالقة بوصفها مدينة إسلامية ذات طابع حيوي مستقل يعود إلى سلاطين بني حمود.
- شكلت مدينة مالقة وحدة رئيسية في منظومة البناء السياسي والحضاري للأندلس خلال الفترة التي قضتها في زمن الحكم الإسلامي.

- كان لأهل الذمة أثر فعّال في إشعال نار الفتنة بين المسلمين، وتحريك سياسة الدول الإسلامية، وإلحاق الخسائر المادية والمعنوية بحكام مالقة وغرناطة في القرنين الخامس والسادس الهجري على وجه الخصوص.
- أدت فتنة القاضي ابن حسون إلى مقتل الكثير من أهل مالقة، وفرار البعض منهم طلباً للأمن والأمان.
- كان للموحدين أثر في انقلاب أهل مالقة على حاكمهم ابن حسون، فخضعت لهم مالقة طواعيةً من غير قتال.
- تشابه طبيعة مالقة ومدينة غرناطة في جغرافيتها وفي الدور التاريخي الذي قامت به كلٌّ من المدينتين لخضوعهما لسلطة إسلامية واحدة في عصر الطوائف تحت حكم بني زيري، وكذلك في أوائل حكم الموحدين وعصر بني الأحمر.
- تشرفت مالقة في عهد الموحدين بخلاف عهد المرابطين بولاية الموحدين أنفسهم أو أقربائهم أو أصهارهم، وفي أول عهدهم كانت هي وغرناطة تحت نظر والٍ واحد.
- شكلت تجارة مالقة أحد المعابر المهمة التي انتقلت عبرها ديانة الإسلام وحضارته وأخلاقه وعادات أهله إلى الشعوب المختلفة في العصور الوسطى.
- تفوق مالقة في صناعة الحرير على الكثير من مراكز نشأته في الشرق الإسلامي.
- تنافس صنّاع مالقة في صناعاتهم على كمية الإنتاج والجودة والتصدير.
- تقدم مالقة على كثير من مدن الأندلس في الإنتاج الصناعي الذي كان له أثر كبير في ازدهار دولة الإسلام في الأندلس، وخاصة في عصر بني الأحمر.
- كان لمالقة أثر كبير في دفع عجلة الاقتصاد الأوربي ونهضته في أواخر العصور الوسطى.
- دلت كثرة الحروب بين المسلمين وغزو النصارى لمالقة من أجل إسقاطها قبل العاصمة غرناطة على أهمية مالقة السياسية ومكانتها الاقتصادية العالية.

- تمازج الحياة العمرانية بالحياة الزراعية في مالقة من خلال زرع الأشجار وغرسها في داخل المباني وبناء القصور وغيرها في داخل الرياض والبساتين.
- وفرة المياه العذبة والنباتات الطبيعية كبعض الأزهار والأعشاب في مالقة.
- احتلت مالقة المراكز الأولى في الميدان الزراعي، وتصدرت المدن الأندلسية في إنتاج العنب والتين.
- اتساع تجارة مالقة في عصر بني الأحمر، حيث تبادلت بضائعها التجارية مع رقعة جغرافية أكبر من السابق وجمهور مختلف كثيراً هو خليط من التجار الأوربيين.
- توثق الروابط التجارية بين مالقة والعالم الأوروبي في عصر بني الأحمر أكثر من عصورها السابقة.
- أصبحت مالقة في عصر بني الأحمر المركز الرئيس لتجارة الأندلس البحرية.
- إن أقوى العلاقات التجارية وأكثرها بين مالقة وأوربا في عصر بني الأحمر كانت مع إيطاليا، وتحديداً جمهورية جنوة، التي أسهمت في ازدهار الحركة التجارية لمالقة.
- تفوق مالقة في حقل التجارة على كثير من مدن العالم في العصر الوسيط.
- إن سير حركة النشاط التجاري لمالقة كانت في تصاعد مستمر طوال الحكم الإسلامي في الأندلس حتى وصلت الذروة في عصر بني الأحمر.
- إن أكثر أوجه النشاط الاقتصادي التي كان يمارسها أهل مالقة هي التجارة.
- دخلت منتجات مالقة في منافسة جديدة مع غزو المنتجات الأوروبية للأسواق العالمية في عصر بني الأحمر.
- كانت مالقة أحد الأسباب التي أدت إلى النزاع والحرب بين بني عباد والصنهاجيين، وبين بني مرين وبني الأحمر.

- تأثُّر الأوروبيين - وخاصة النصارى الأسبان - بحياة المسلمين من أهل مالقة في مختلف مجالات الحياة كالتحدث باللغة العربية، وذلك بحكم موقع مالقة ونوع عمل النصارى، واستيطان نسبة كبيرة منهم في هذه المدينة.
- أصبحت مدينة مالقة في عصر بني الأحمر على وجه الخصوص من أكثر مدن الأندلس مالاً وازدهاراً.
- أدت الحروب النصرانية الإسلامية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري إلى ازدياد سكان مالقة، ونمو النشاط الاقتصادي فيها من خلال هجرة المسلمين إليها من أنحاء البلاد.
- اتضح من خلال عمل العلماء في مختلف الفنون الاقتصادية إلى كثرة العلم في مالقة، وكثرة رحلات أهلها من أجله هو والتجارة.
- إن حضارة مالقة الإسلامية لم تمت بعدما فقدت سيادة الحكم الإسلامي في الأندلس، وإنما ظلت تعمل في بناء الحضارة الأندلسية لفترة طويلة.
- تعدُّ آثار مالقة المتبقية مدخلاً من مداخل التراث الأندلسي الحضاري والسياسي في دولة أسبانيا اليوم.
- إن أول مدينة تدخل في طاعة بني الأحمر حتى قبل عاصمتهم غرناطة هي مالقة.
- تعدُّ ثورة بني إشقيلولة الشرارة الأولى التي انطلقت منها الخلافات السياسية في الدولة النصرية.
- تعد ثورة أسرة بني إشقيلولة في بداية العهد النصري وأسرة بني سراج في أواخر العصر النصري من أكبر الأسباب التي عجّلت بسقوط مملكة غرناطة، سيما أنهما استعانتا بالنصارى ضد أبناء دينهم ووطنهم.
- كانت مدينة مالقة في عصر بني نصر قاعدة للثائرين على الحكم والهاربين منه والطامعين فيه.
- أدى الصراع بين الأقرباء من أسرة بني نصر وبني إشقيلولة إلى ذهاب مالقة إلى حكام بني مرين في المغرب.

- كان بنو الأحمر يلجؤون إلى مالقة وجعلها عاصمة ثانية يديرون منها أعمال الدولة في أيام الشقاق والنفاق على طول فترة حكمهم، وليس في أواخر القرن التاسع الهجري فقط.
- كان موقف مالقة من الفتن في عهد بني الأحمر ثابتاً على الولاء والطاعة للسلطان ما لم تتعرض للظلم والاضطهاد.
- يعد عصر بني الأحمر أقوى العصور وأكثرها تطوراً وحضارة لمالقة على الرغم أن أكثر ثوراتها كانت فيه، وإخفاق أكثر المحاصرين لها في تحقيق أهدافهم، بسبب حصانتها وقوتها.
- إن من آثار تجارة مالقة انتشار العلم وتبادل الخبرات المتنوعة ومعرفة أهلها بالبلدان الأخرى.
- تغير طرق المواصلات التجارية ونسبة استخدامها والمركبات البحرية لمالقة في عصر بني الأحمر.
- تأثر البلدان المجاورة بأهل مالقة الذين هاجروا إليها، واستقروا يعملون فيها في مختلف الوظائف.
- اتصاف أهل مالقة بالكرم والشجاعة، وقوة الصبر، وحب الوطن.

الملاحق

مكتوب من بلقين بن باديس
إلى القاضي محمد بن الحسن الجذامي

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما التزمتُه، وأعتقدُ العمل والوفاء به، بلقين بن باديس، للوزير القاضي أبي عبدالله محمد بن الحسن - سلمه الله - واعتقد به إقراره على خطة القضاء والوزارة في جميع كورة ريَّة، وأن يجري من الترفيع به والإكرام له إلى أقصى غاية، وأن يجري على الجزية في جميع أملاكه بكورة رية حاضرتها وباديتها، الموروثة منها، والمكتسبة القديمة الاكتساب والحديثة، وما ابتاع منها العالي - رحمه الله - وغيره، لا يلزمها وظيف بوجه، ولا يكلف عنها كلفة على حال، وأن يجري في قرابته، وخَوَله، وحاشيته، وعامري ضياعه، على المحافظة والبر والحرية. وأقسم على ذلك كله بلقين بن باديس، بالله العظيم، وبالقرآن الحكيم. وأشهد الله على نفسه، وعلى التزامه له، وكفى بالله شهيداً ! وكتب بخط يده في مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٩. والله المستعان».

نقلاً عن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، (ص١٢١)

نص رسالة القائد عمر بن يحيى الهنتاني
إلى أهل مالقة

أما بعد، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله، ونسترضيه للإمام المعصوم، المهدي المعلوم، ونستديمه عادة النصر المكين، لسيدنا أمير المؤمنين كتابنا من مضرب المحلة المباركة بفجٍّ قامرة. وقد كان كتابكم الأثير وصل صحبة جماعتكم الكريمة، من

أهل البلد والجند، حفظهم الله، فأدى الكتاب، والجماعة، ما سناه الله تعالى لكم، ويسَّره بفضله عليكم من القيام على النصارى وحزبهم، أخزاهم الله، وكيف أخذتهم صيحة واحدة قطعت دابرهم، وأعدمت صاغرهم وكابرهم، ولم ينْجُ منهم إلا من يحدث عن المَثُلات، ويندب نجماً تظلّل بالأثلات. بركة من بركات هذا الأمر، عمتكم وأنقذتكم من ظلمات وضلال، طالما عمتكم وصدقت موعدكم الحسنى ومحفله منا قصدتكم بمنونها الجميلة وأمنتكم، فاشكروا الله كثيراً على ما هداكم إليه، وأعانكم - بحسن معتقدكم لهذا الأمر العزيز - عليه، فهذا (هدى) من الله تعالى، من استعصم به عُصم، ومن ناواه قُصم، ومن آثره جلَّ، ومن كاثره قلَّ وذلَّ، وكانت عاقبتُه في الدنيا عاقبة الذين عذبهم الله بأيديكم، وشفى صدوركم منهم. وكيف لا يدرك الله من بني حسون وأمثالهم ثأر إسلام البلاد لأعداء الإسلام، أو كيف تسوّف العقوبة من رضي بالتثليث من التوحيد بدلاً. لشدَّ ما عميت أبصارُهم، وصار إليه صائرُهم. ورأينا في كتابكم الأثير شدة الرغبة في ألا نستنيب في الوصول إليكم لتطهر بذلك قلوبكم، وتستقر أنفسكم. فما تركنا لإسعافكم غير ما وجّه من وجوه البر. والله ينفعكم بما نويناه لكم وأتيتموه من أبواب الخير، ويجعلنا وإياكم من الذين يتمسكون بالكتاب وعروة هذا الأمر، وأنتم كافة مؤمنون وجندكم وغيرهم بتأمين الله تعالى وبفعلكم المشكور المرضي. والله يعينكم على طاعته ويوفقكم لمرضاته، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب ظهر السابع عشر من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وخمسمائة. فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وبصفتكم الرابحة. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. وكتب في التاريخ المذكور وبالله التوفيق.

نقلاً عن ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، (ص٣٢٣)

مرسوم تعيين شيخ الغزاة
أبي العلاء إدريس بمدينة مالقة

«هذا ظهير كريم أطلع الرضا والقبول صباحاً، وأنشأ للعناية في جو الوجود من بعد الركود رياحاً، وأوسع العيون قُرَّة والصدور انشراحاً، وهيَّأ للمعتمد به مغدأ في السعادة ومراحاً. وهز منه سيفاً عتيقاً يفوق اختياراً، ويروق التماحاً، وولاه رياسة الجهاد بالقُطر الذي تقدمت الولاية فيه لسَلَفه، فنال عزّاً شهيراً، وازداد مجداً صراحاً، وكان ذلك له إلى أبواب السعادة مفتاحاً، أمر به وأمضاه، وأوجب العمل بحسبه ومقتضاه الأمير فلان، لوليه في الله، الذي كساه من جميل اعتقاده حُللاً، وأورده من عذب رضاه منهلاً، وعرَّفه عوارف قبوله مفصَّلاً خطابها ومجملاً، الشيخ الكذا أبو العلي إدريس بن الشيخ الكذا أبي سعيد عثمان بن أبي العلي، وصل الله له أسباب سعادته، وحرس أكناف مجادته، وأجراه من ترفيع المكانة لديه على أجمل عادة سلفه وعادته. لمَّا كان له القدر الجليل، والمجد الأثيل، والذكر الجميل، والفضائل التي كرم منها الإجمال والتفصيل، وأحرز قصب السبق بذاته، إذا ذكر المجد الطويل العريض، وكان قد أعمل الرحلة إليه، يحدوه خدمته التأميل، ويبوء به الحب الذي وضح عنه السبيل، وعافه عنه الواقع الذي تبين في عذره الجميل، ثم خلصه الله من مَلَكة الكفر الذي قام به على عنايته الدليل، قابله بالقبول والإقبال، وفسح له ميدان الرضا رَحْب المجال، وصرف إليه وجه الاعتداد بمضائه رائق الجمال، سافراً عن بلوغ الآمال، وآواه من خدمته إلى ربوة منيعة الأرجاء وارفة الظلال، وقطع عنه الأطماع بمقتضى همَّته البعيدة المنال، ثم رأى - والله ينجح رأيه، ويشكر في سبيل الله عن الجهاد سعيه - أن يستظهر بمضائه، ويصل لديه عوارف آلائه، ويعمر به رتب آبائه - فقدَّمه أعلى الله

قَدَمه، وشكر آلاءه ونعمه - شيخ الغزاة المجاهدين، وكبير أولي الدفاع عن الدين، بمدينة مالقة حرسها الله، أخت حضرة مُلكه، وثانية الدرة الثمينة من سلكه ودار سَلَفه، وقرارة مجده، والأفق الذي تألق منه نور سعده، راجعاً إليه نظر القواعد الغربية، رندة وذكوان وما إليها، رجوع الاستقلال والاستبداد والعز الفسيح المجال، البعيد الآماد، يقود جميعها إلى الجهاد، عاملاً على شاكلة مجده في الإصدار والإيراد، حتى يظهر على تلك الجهات المباركة آثار الحماية والبسالة، ويعود لها عهد المجادة والجلالة، وتتزين ملابس الإيالة، وهو يعمل في ذلك الأعمال التي تليق بالمجد الكريم، والحسب الصميم، حتى ينمو عدد الحُماة، ويعظم آثار الأبطال الكماة، وتظهر ثمرة الاختبار، ويشمل الأمنُ جميع الأقطار، وتنسحم عنها أطماع الكفّار، وعلى من يقف عليه من الفرسان، وفّرَ الله أعدادهم، وأعزّ جهادهم، أن يكونوا ممتثلين في الجهاد لأمره، عارفين بقدره، ممضين فيما ذكر بحكمه، واقفين عند حدّه ورسمه، وعلى سواهم من الرعايا والخدم، والولاة والحكام، أن يعرفوا قدر هذا الاعتنا الواضح الأحكام، والبر المشرق القسام، فيعاملوه بمقتضى الإجلال والإكرام، والترفيع والإعظام، على هذا يعتمد، وبحسبه يُعمل».

نقلاً عن ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج٢، (ص٦٩)

رسالة من السلطان محمد النصري
إلى ولده الأمير أبي الحجاج يوسف

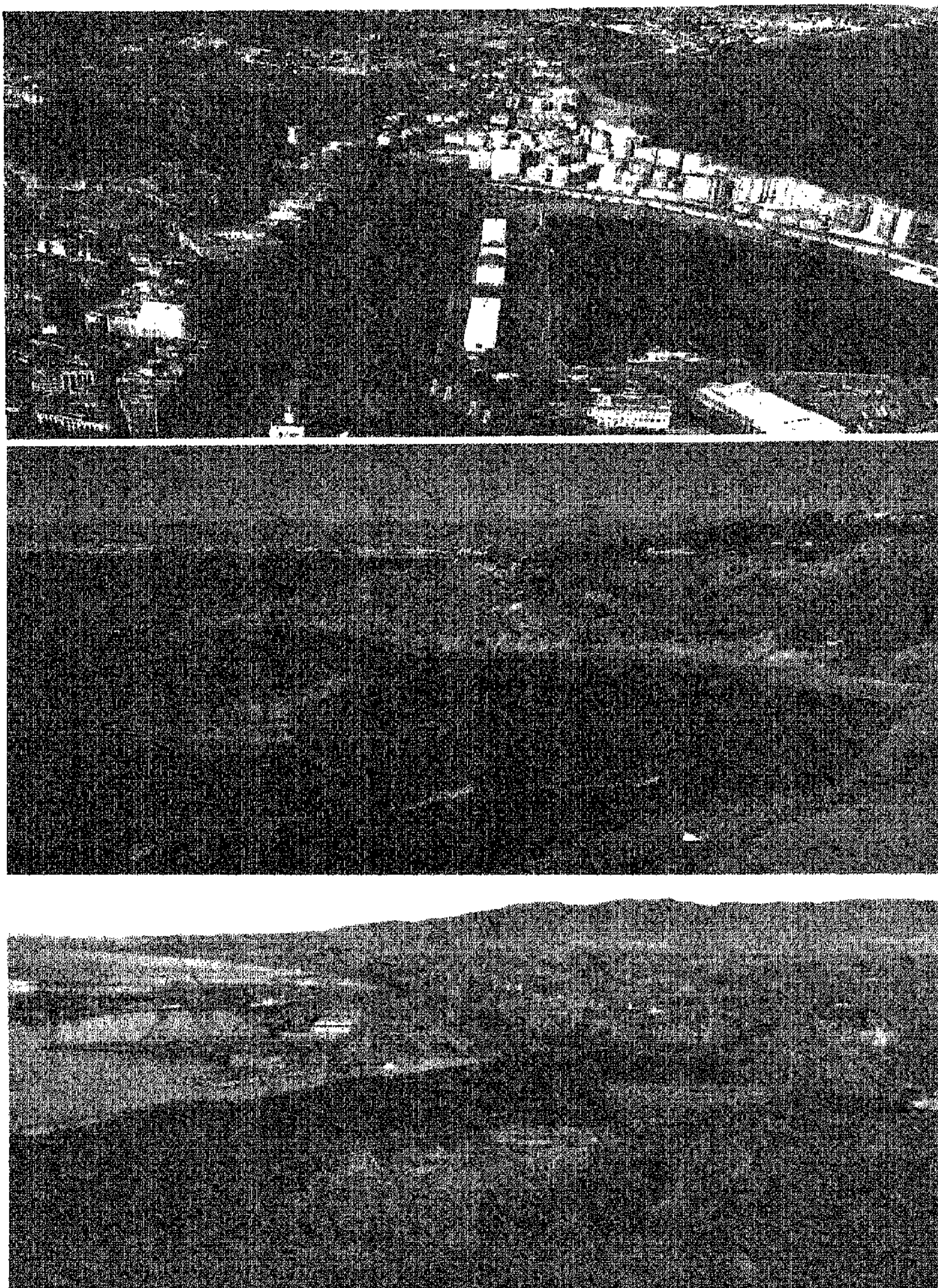
من الأمير عبدالله محمد بن مولانا أمير المسلمين، أبي الحجاج بن مولانا أمير المسلمين، أبي الوليد بن نصر، وصل الله سعده، ووالى عضده، إلى ولدنا الأمير الأسعد، الأرضى الأرشد، الأهدى البر الأكمل، أبي الحجاج يوسف، وصل الله سعادته، ووالى هدايته. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أقرَّ بأتييد أوامرنا وتخليد مفاخرنا عينَ الإيمان، ومدَّ على المسلمين بإعلاء دعوتنا وتمهيد دولتنا ظلال الدَّعة والأمان، والصلاة على سيدنا محمد نخبة الأكوان، وحبيب الرحمن، وعلى آله وصحبه شموس المحاسن وغيوث الإحسان. وصله الدعاء لأمرنا العلي باتصال العز المديد الميدان، والنصر الرائق الخبر والعيان. فإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بقصبة «مالقة» المحروسة، وعناية الله - سبحانه - تعذب لنا موارد الصنع الجميل، وتعرفنا عوارف التسيير والتسهيل. وإلى هذا، فإنا نقص عليكم أنباء الفتح المبين، ونطالعكم بما منَحنا اللهُ من النصر والتمكين، وذلك أننا لما استخرنا الله تعالى وأسلمنا نفسنا في صلاح المسلمين، وخرجنا لقرية «مالقة»، فيسّر الله - تعالى - وتلقَّانا جميعُ مَنْ بها على أميال مِنَ البلد مستبشرين بدعوتنا، وراغبين في طاعتنا، وكان يوماً مشهوداً، وميقاتاً اتخذه الناس عيداً، وتمنَّعت القصبة ساعةً من النهار، ثم فتحناها وأمَّنَّا جميعَ مَنْ كان بها وبغيرها من القصب، وعفونا عن جميعهم، ثم وردت علينا بيعات «بلش» «والحمة» «وأنتقيرة»، وعن قريب - إن شاء الله - يصلكم فتح «غرناطة». فقد صدّق ظننا في «مالقة»، فما زلنا نقول لكم: لمالقة يكون قدومكم - إن شاء الله - يصدِّقُ ظننا، ويقر عيننا، وتردون غرناطة على ما فيه قرّة العين

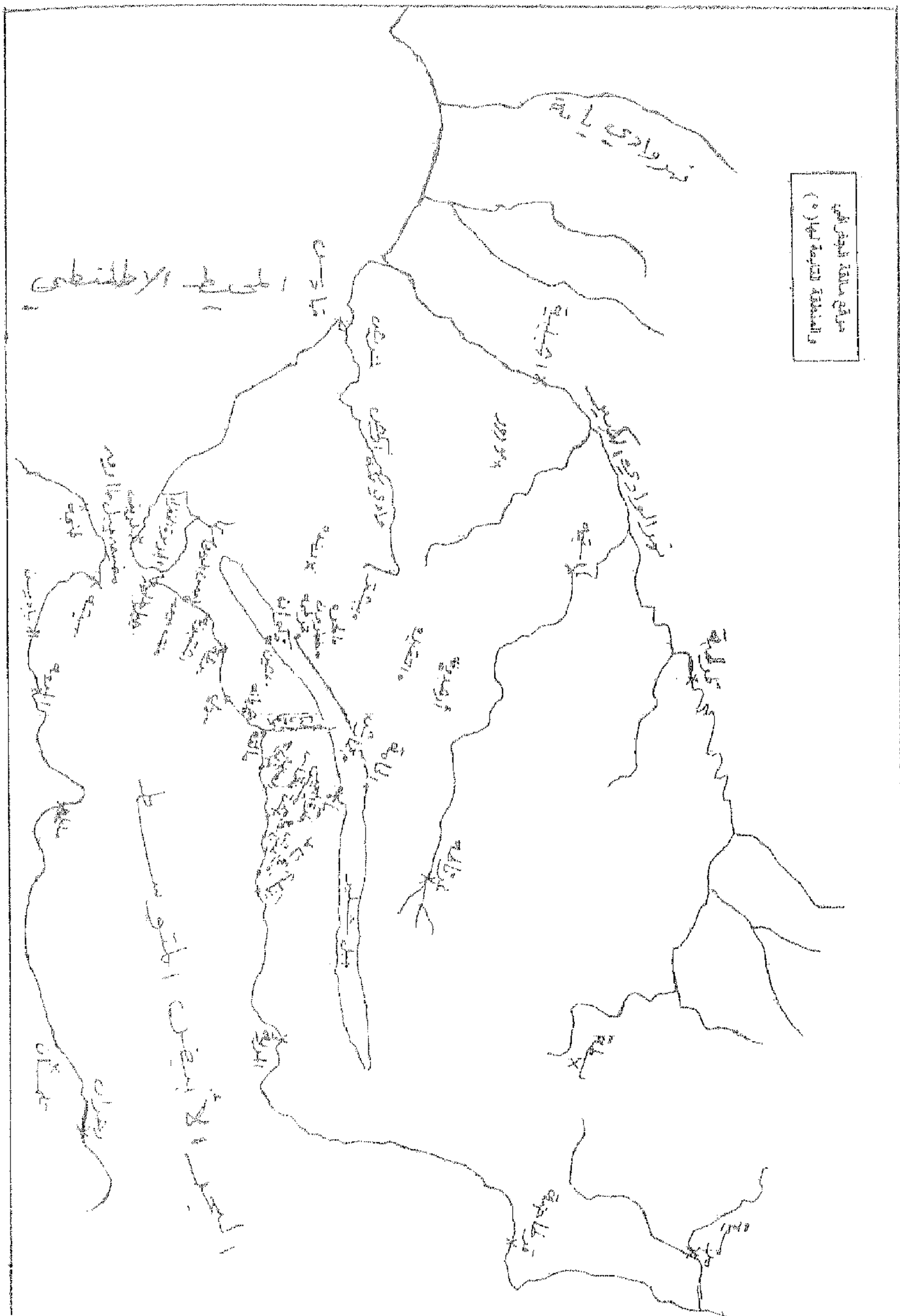
للجميع فهو - سبحانه - لا يخيِّبُ من توكَّل عليه، وفوَّض الأمور إليه، وأعلمنا بهذا الفتح الجسيم، واليسر الوسيم، لتأخذوا بحظِّكم من السرور، وتحمدوا الله على تيسير الأمور، والله يصل سعادتكم، ويسنِّي من نصر لوائنا وقهر أعدائنا إرادتكم.

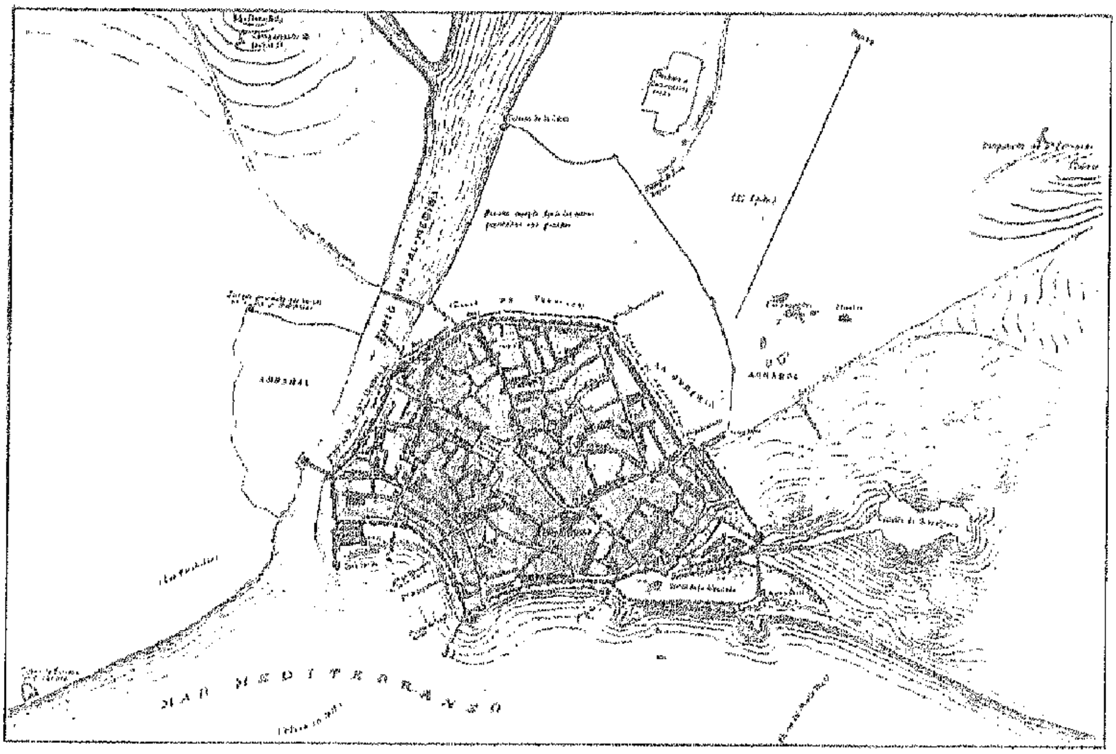
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. في السابع عشر لجمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

نقلاً عن ابن الخطيب: نفاضة الجراب، جـ٣، (ص١١٨)

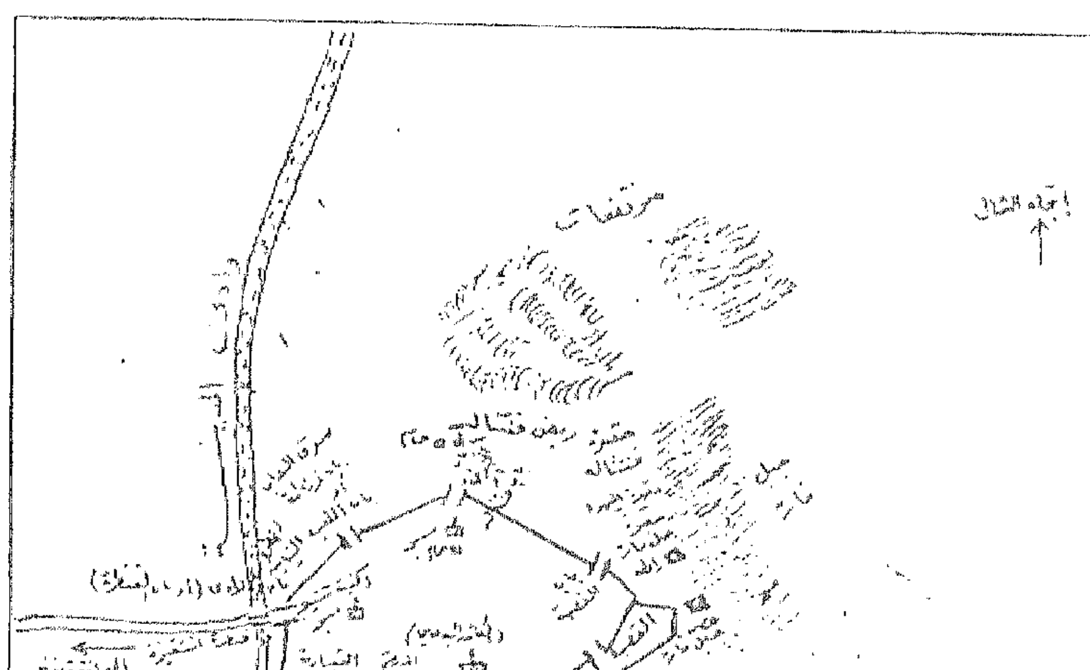


موقع مالقة على البحر المتوسط

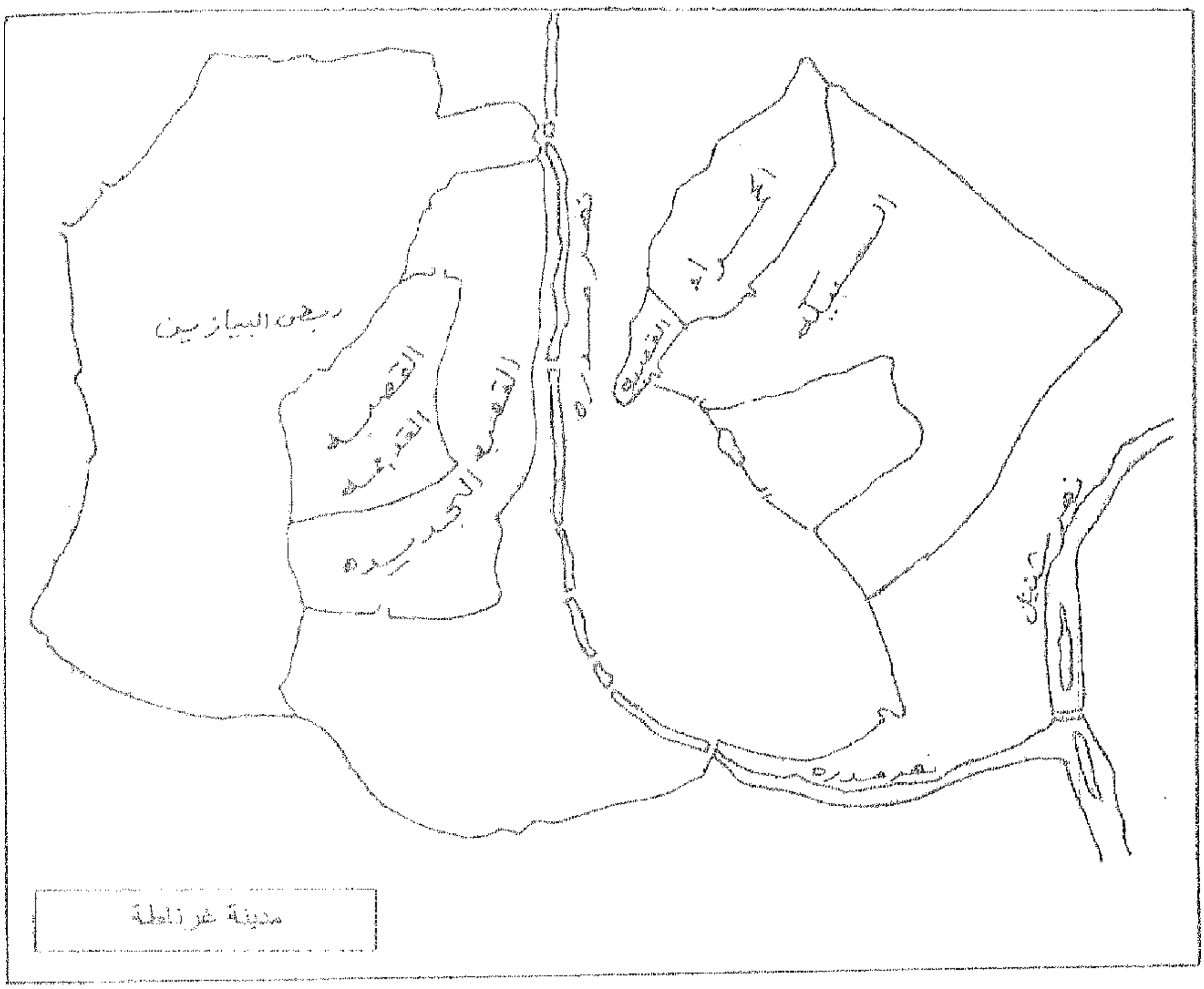

المحيط الأطلنطي
نهر وادي آنة

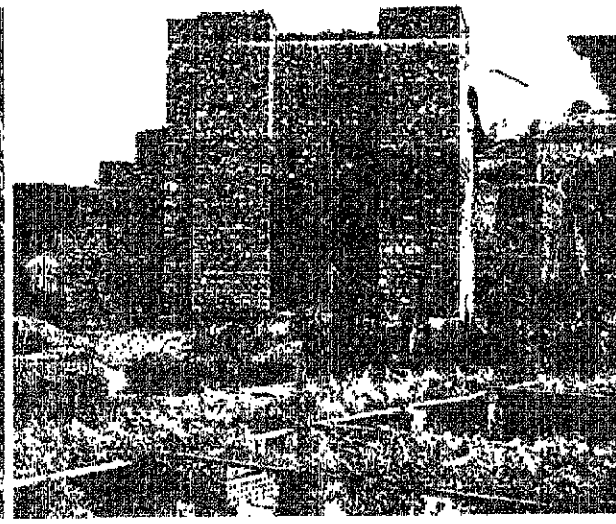


G. Robles:Malaga Musulmana, Tomo2, P.492

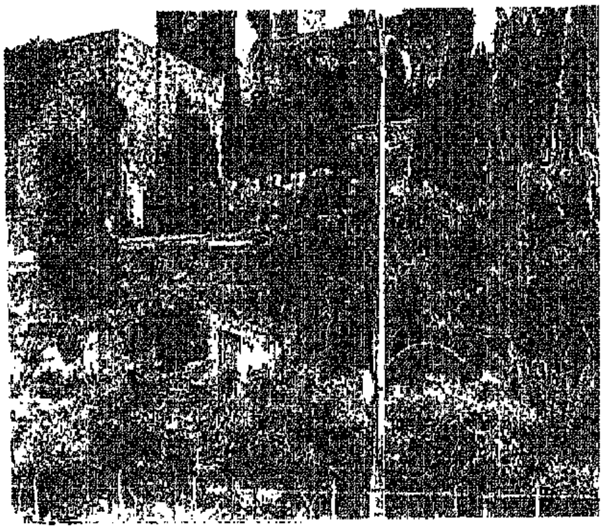


تخطيط مدينة مالقة في العصر الإسلامي ، نقلاً عن كمال السيد : مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف ، ص ١٠٧

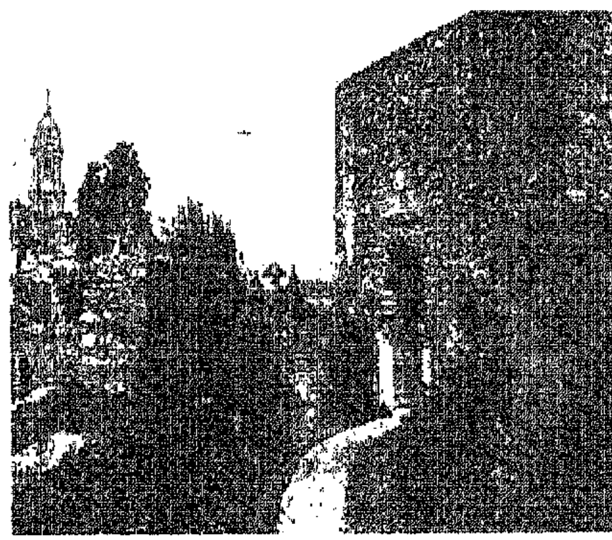

ربض البيازين
القصبة القديمة
القصبة الجديدة
نهر حدرة
الحمراء
السبيكة
نهر شنيل
مدينة غرناطة



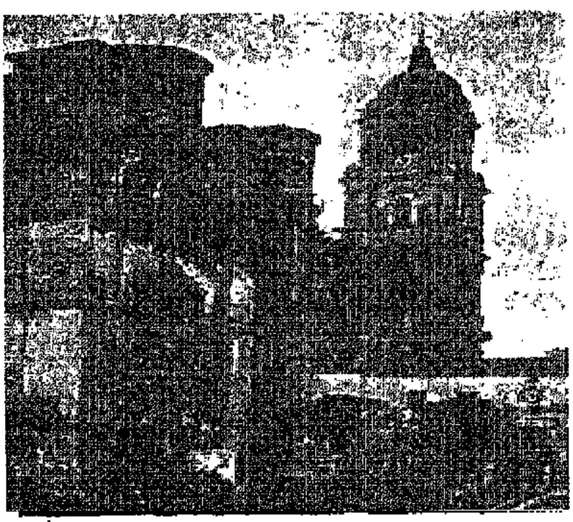
مدخل قصبة مالقة



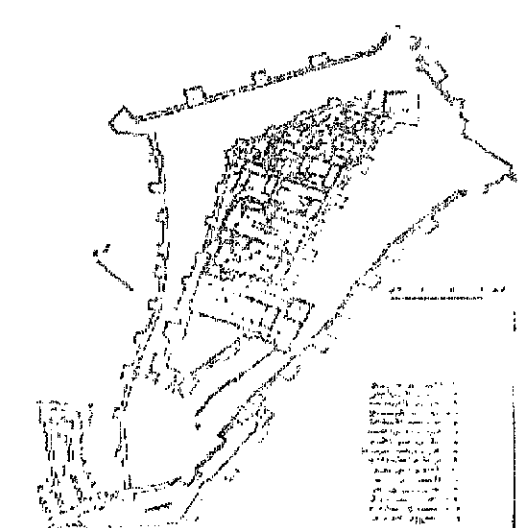
منظر جانبي لقصبة مالقة



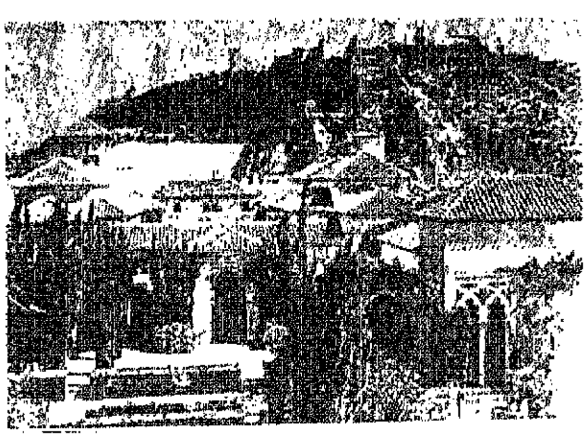
مالقة ، واجهة القصبة ، وقد ظهرت قبالتها الكنيسة العظمى



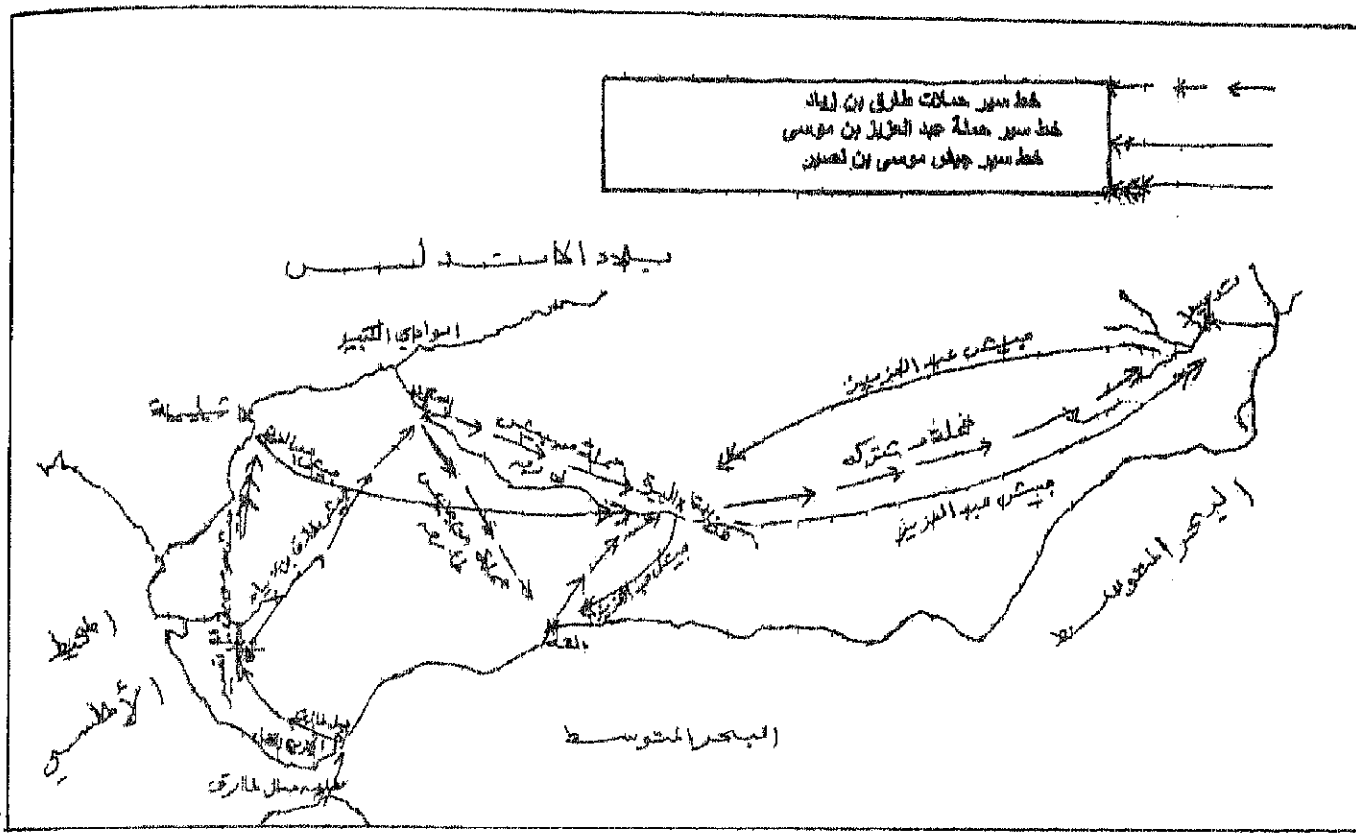
مالقة ، الكنيسة العظمى

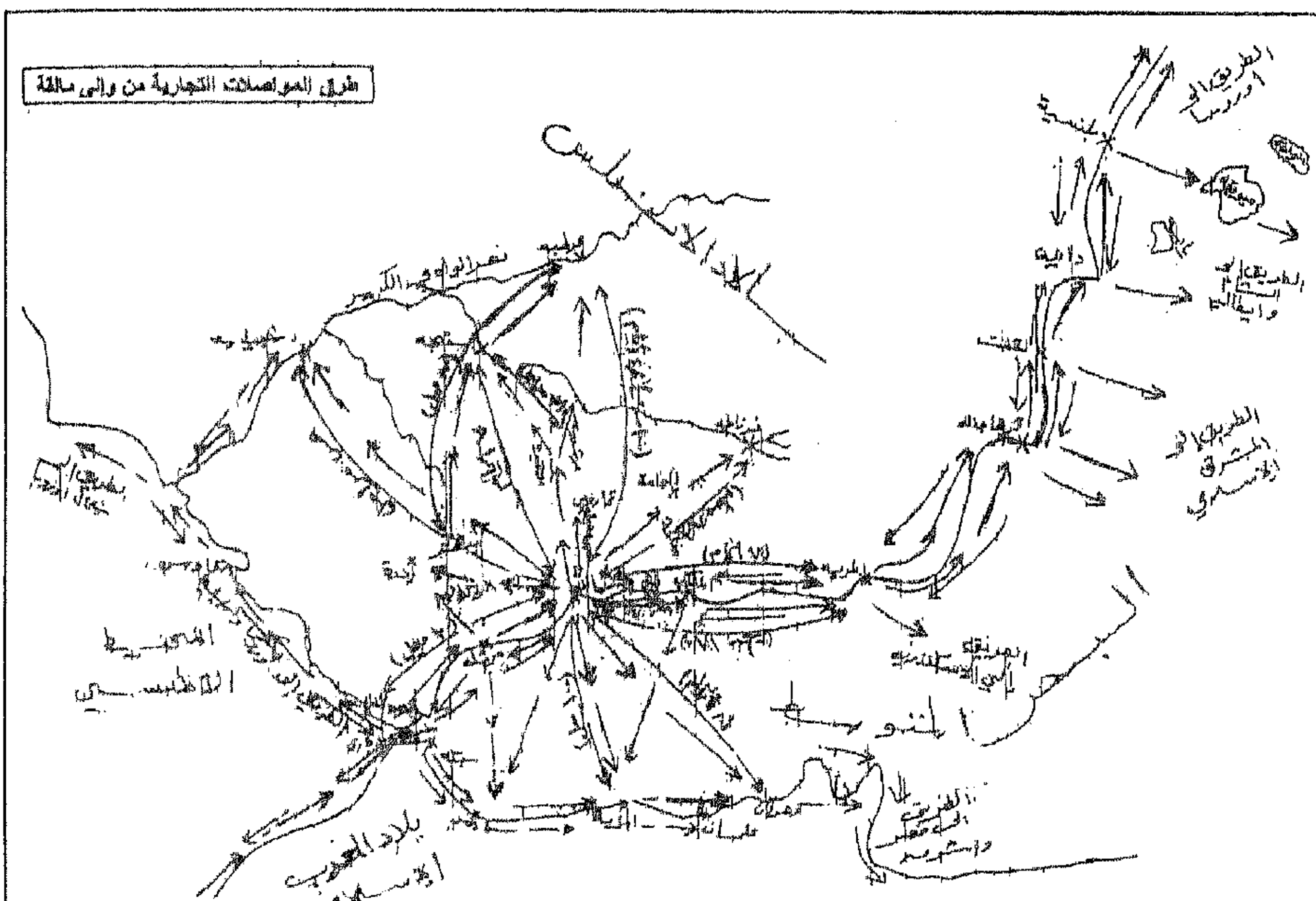


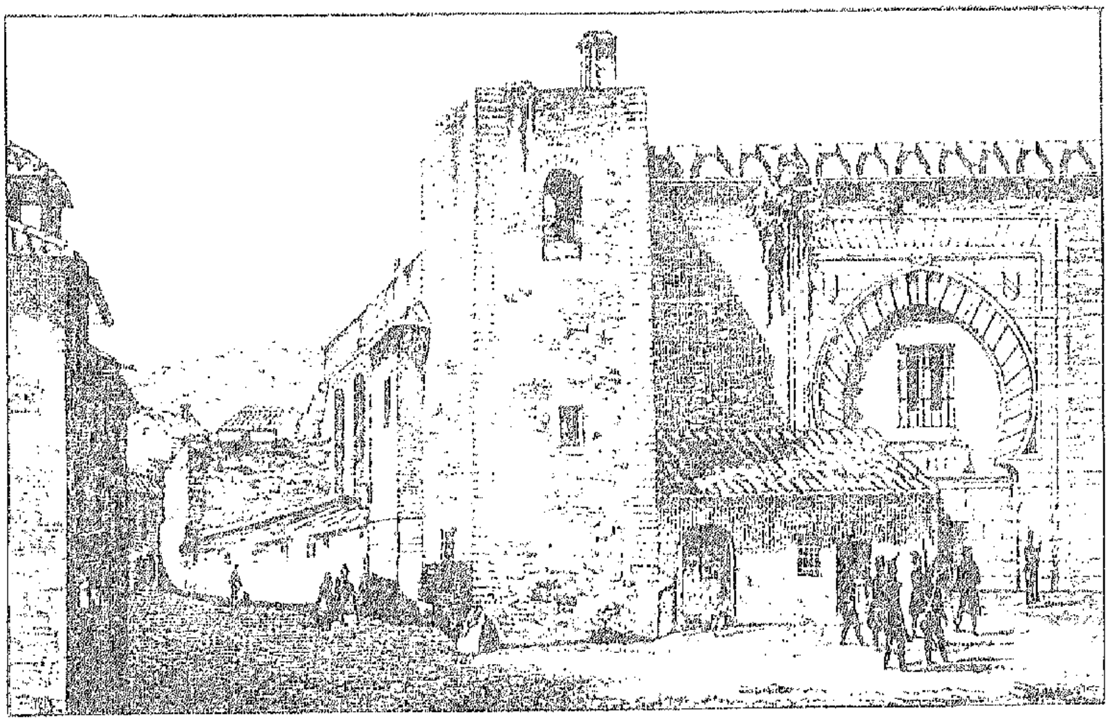
تخطيط لقصبة مالقة



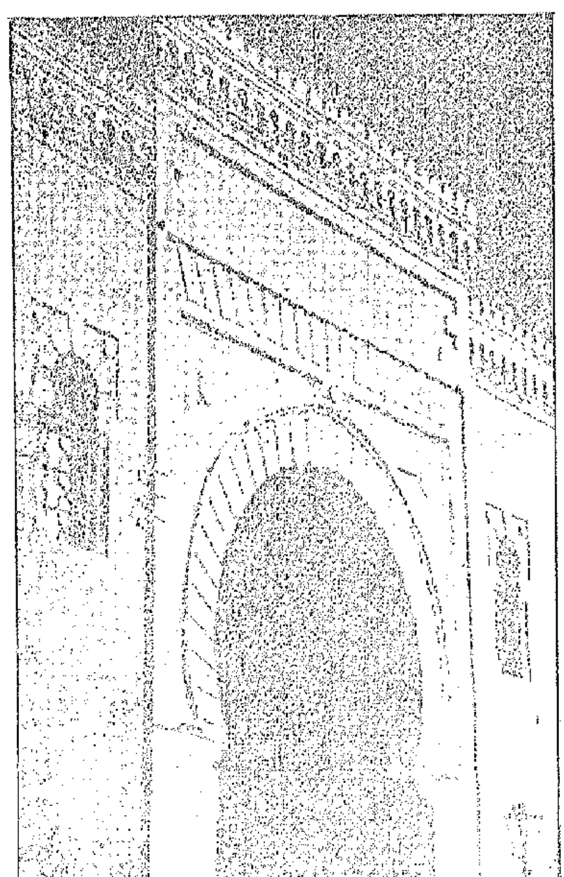
مالقة ، منظر عام لواجهة المباني الداخلية وفي أيسرها عقود ترجع إلى عصر بني حمود


خط سير حملات طارق بن زياد
خط سير حملة عبد العزيز بن موسى
خط سير جيوش موسى بن نصير
بلاد الأندلس
البحر المتوسط
المحيط الأطلسي


طرق المواصلات التجارية من وإلى مالقة



منظر دار صناعة مالقة في عام ١٨٣٩ م (عن ويتس)



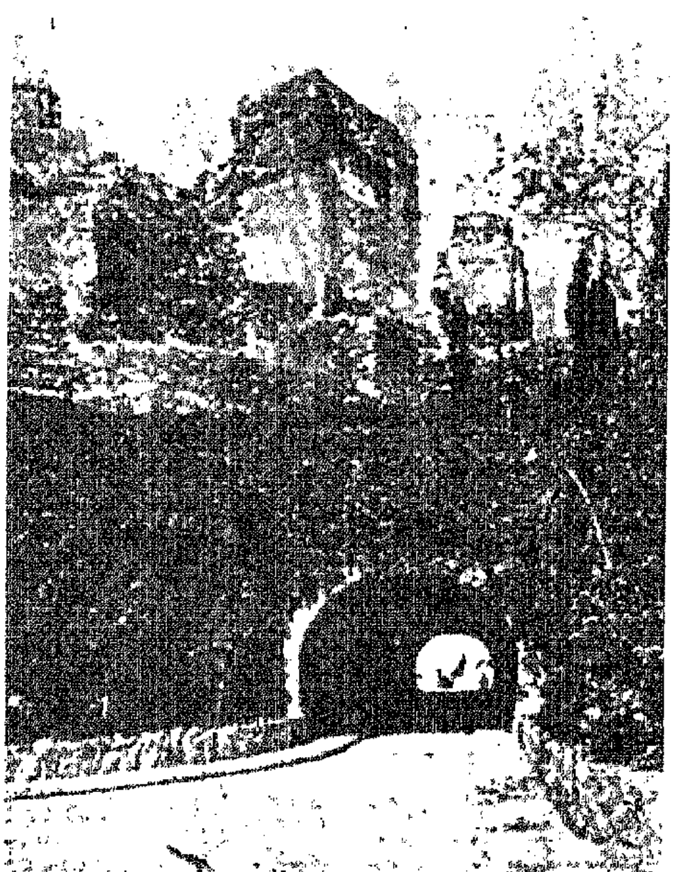
الباب الرئيسي لدار الصناعة بمالقة



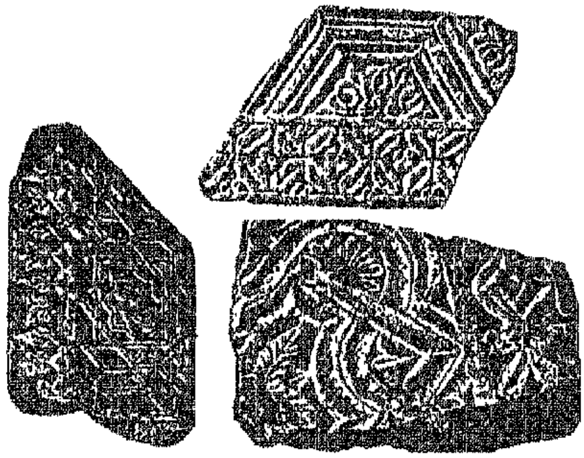
حصن جبل فاره



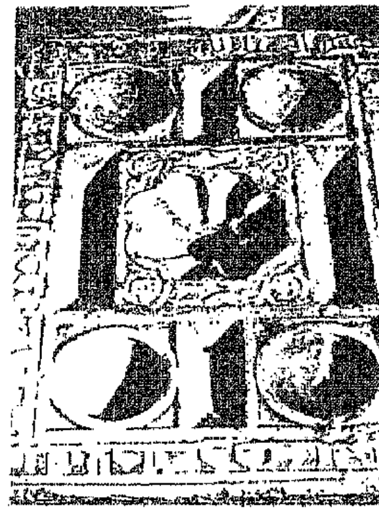
مالقة ، جبل فاره وفي أعلاه أطلال الحصن



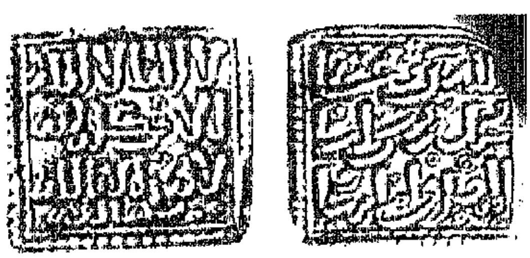
مالقة ، أطلال حصن جبل فاره



قطع لألواح رخامية في مالقة



حوض رخامي عليه توقيع باسم " عمل يعيش " المالقي



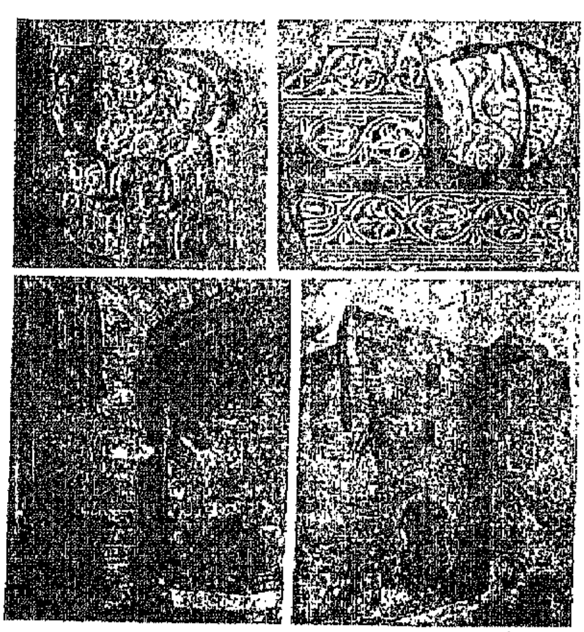
درهم فضي مربع سك في مالقة أيام الموحدين



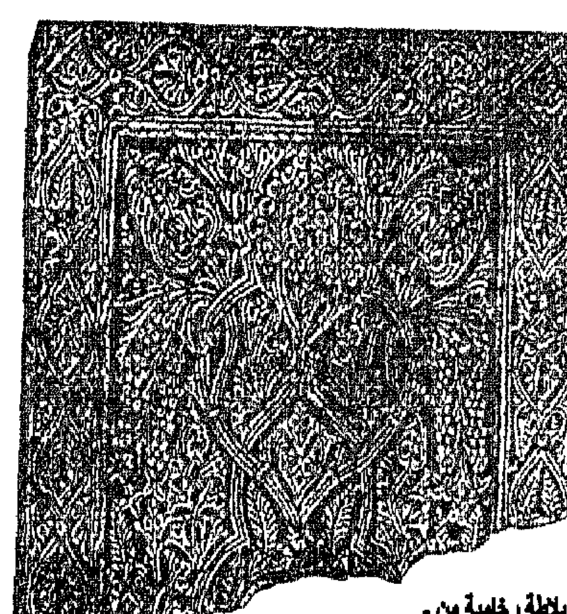
قطعة لحوض رخامي في مالقة على عصر الخلافة



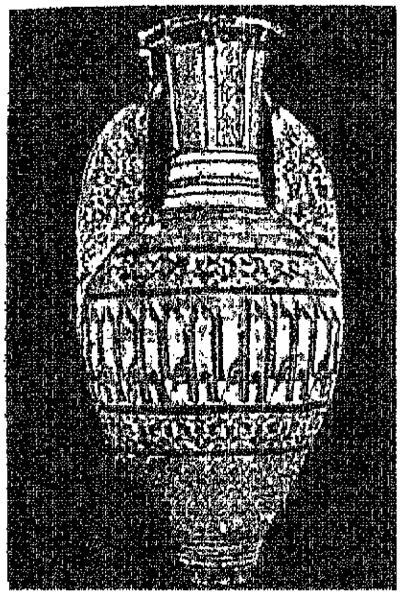
لوح رخامي من قصبة مالقة



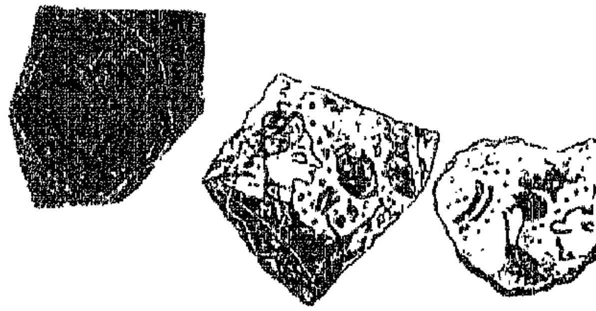
قصبة مالقة : قطع من الرخام اكتشفت فيها الباب الرئيسي للسور الداخلي ؛
عقود غرناطة وفقاً لرسم يرجع تاريخه إلى سنة ١٨٣٩



بلاطة رخامية من مالقة في زمن الخلافة



قدر من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة مالقة في القرن الثامن الهجري (١٤ م) ومحفوظة في متحف بالرمو



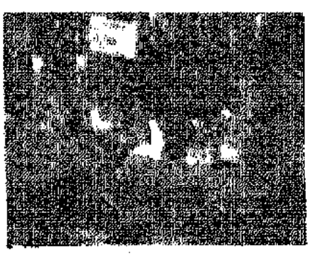
قطع من الخزف المذهب عثر عليها في مدينة مالقة



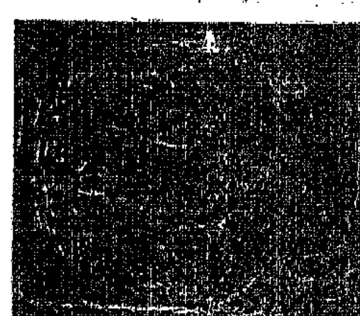
جرة من الخزف المالقي في متحف غرناطة



جرة من الخزف المالقي في متحف غرناطة



فخاريات حديثة



إناء (قدر) من الخزف في مالقة محفوظ بمتحف بلنسية دي دون خوان بمدريد



قدر من الخزف ذي البريق المعدني من الطراز المالقي (القرن ٩ هـ)



خزفيات حديثة



صحن من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة مالقة من القرن ٧ — ٨ هـ (١٣ — ١٤ م) ، وكان محفوظا في القسم الإسلامي من متاحف يرلين

المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم.

(٢) ابن الأبار، محمد بن عبدالله القضاعي:

- تحفة القادم، تعليق إحسان عباس، ط (١) ١٤٠٦هـ، دار الغرب الإسلامي. بيروت.
- الحلة السيراء، جـ (٢)، تحقيق حسين مؤنس، نشر الشركة العربية. القاهرة.
- التكملة لكتاب الصلة، جـ (٢)، اعتناء عزت العطار.
- المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ط (١)، ١٤٢٠هـ، نشر مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.

(٣) ابن الأثير، أبو الحسن علي الجزري:

- الكامل في التاريخ، جـ (٤، ٥، ٧، ٩، ١٢)، ١٣٦٨هـ، ١٣٨٥هـ، دار صادر. بيروت.

(٤) ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف:

- النفحة النسرينية واللمحة المرينية، تحقيق عدنان محمد، ١٩٩٣م، مطبعة الشام. دمشق.
- بيوتات فاس الكبرى، ١٩٧٢م، دار المنصور. الرباط.

(٥) الإدريسي، أبو عبدالله محمد السبتي:

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدان، ط (١)، ١٤٠٩هـ، عالم الكتب. بيروت.

(٦) الأزدي، أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي:

- تحفة المغترب ببلاد المغرب، نشر فرناندودي لاجرانخا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مج (١٧)، ١٩٧٢م.

(٧) الأزدي، أبو محمد عبدالله:

- مقامة العيد، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، نشر العبادي، مج (٢)، ١٣٧٢هـ.

(٨) الإشبيلي، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني:
- برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق إبراهيم شبوح، ١٣٨١هـ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم. دمشق.
(٩) الإشبيلي، أبو عمرو بكر بن إبراهيم:
- التيسير في صناعة التسفير، تحقيق عبدالله كنون، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مج (٧، ٨) ١٩٥٩م-١٩٦٠م.
(١٠) الإشبيلي، أبو الوليد إسماعيل الحميري:
- البديع في وصف الربيع، تحقيق عبدالله عسيلان، ط (١)، ١٤٠٧هـ، دار المدني. جدة.
(١١) الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد:
- المسالك والممالك، تحقيق جابر عبدالعال، مراجعة محمد شفيق، ١٣٨١هـ. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. الجمهورية العربية المتحدة.
(١٢) الأمير عبدالله، عبدالله بن بلقين الصنهاجي:
- مذكرات الأمير عبدالله (التبيان)، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف. مصر.
(١٣) الأنصاري، شمس الدين أبو عبدالله محمد:
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.
(١٤) البخاري:
- صحيح البخاري، شرح وتخريج مصطفى ديب، ٦ مج، ط (٥)، ١٤١٤هـ، دار ابن كثير. دمشق.
(١٥) ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني:
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، (٤) أقسام، ١٣٩٥هـ، ١٣٩٨، ١٣٩٩هـ، دار العربية. بيروت.
(١٦) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك:
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق عزت العطار، ط (٢)، ١٤١٤هـ، مكتبة الخانجي. القاهرة.

(١٧) ابن بصال، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم:

- الفلاحة، ترجمة وتعليق خوسي ماريه ومحمد عزيمان، ١٩٥٥م، معهد مولاي الحسن. تطوان.

(١٨) ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد الطنجي:

- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) تحقيق محمد العريان، مراجعة مصطفى القصاص، ط (٢)، ١٤١٢هـ، جزآن، دار إحياء العلوم. بيروت.

(١٩) البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق:

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي البجاوي، جـ (٣)، ١٩٥٥م، دار إحياء الكتب العربية.

(٢٠) البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز:

- المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، مجلدان، ط (١)، ١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية. بيروت. نشر جزء منه باسم المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب. مكتبة المثنى. بغداد. وجزء باسم جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق عبدالرحمن حجي، ط (١)، ١٣٨٧هـ، دار الإرشاد. بيروت.

(٢١) ابن البيطار، ضياء الدين عبدالله بن أحمد الأندلسي:

- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مجلدان، ط (١)، ١٤١٢هـ، دار الكتب العلمية. بيروت.

(٢٢) التنبكتي، أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر:

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبدالحميد الهرامة، ط (١)، ١٣٩٨هـ، كلية الدعوة الإسلامية. طرابلس.

(٢٣) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبدالحليم:

- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق إبراهيم رمضان، ط (١)، ١٩٩٢م، دار الفكر اللبناني، بيروت.

(٢٤) ابن جبير، محمد بن أحمد الكتاني:

- رحلة ابن جبير، إشراف لجنة تحقيق التراث، ط الثانية، ١٩٨٦م، دار مكتبة الهلال. بيروت.

(٢٥) ابن حزم، أبو الحسن علي بن أحمد الأندلسي:

- جمهرة أنساب العرب، مراجعة لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية. بيروت.
- رسائل ابن حزم، جزآن، تحقيق إحسان عباس، ط (١)، ١٩٨٠م، ط (٢) ١٩٨١م، المؤسسة العربية. بيروت.

(٢٦) ابن حزم وابن سعيد والشقندي:

- فضائل الأندلس وأهلها، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد.

(٢٧) الحميدي، أبو عبدالله محمد بن فتوح الأزدي:

- المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق محمد تاويت، ١٣٧٢هـ، مكتبة الخانجي. القاهرة.

(٢٨) الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم:

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق ليفي بروفنسال، ط (٢) ١٤٠٨هـ، دار الجيل. بيروت.

(٢٩) ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي:

- صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي. القاهرة.

(٣٠) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف:

- المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق عبدالرحمن حجي، طبعة ١٩٨٣م، دار الثقافة. بيروت. والجزء الخامس نشر بدور شالميتا بالتعاون مع كورنيطي وم. صبح وغيرهما، ١٩٧٩م، المعهد الأسباني العربي للثقافة، كلية الآداب. مدريد، وجزء آخر تحقيق محمود مكي، ١٣٩٠هـ، لجنة إحياء التراث الإسلامي. القاهرة.

(٣١) ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد الإشبيلي:
- قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة. تونس.
(٣٢) الخشني، محمد بن حارث:
- أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق ماريا لويسا ولويس، ١٩٩٢م، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية. مدريد.
(٣٣) ابن الخطيب، محمد بن عبدالله:
- ديوان لسان الدين، تحقيق محمد مفتاح، مجلدان، ط (١)، ١٤٠٩هـ، دار الثقافة. الدار البيضاء.
- ديوان الصيّب والجهام والماضي والكهام، تحقيق محمد الشريف، ط (١)، ١٩٧٣م، الشركة الوطنية. الجزائر.
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، دراسة وترجمة محمد كمال شبانة، ١٣٩٧هـ، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي. المغرب.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (تاريخ أسبانيا الإسلامية)، تحقيق ليفي بروفنسال، ط (٢)، ١٩٥٦م، دار المكشوف. بيروت.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، مج (٤)، ط (١)، ١٣٩٤هـ، ١٣٩٥هـ، ١٣٩٧هـ، ط (٢)، ١٣٩٣هـ، مكتبة الخانجي. القاهرة.
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ٣ أجزاء، تحقيق السعدية فاغية، ط (١)، ١٤٠٩هـ، مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء.
- الوصول لحفظ الصحة في الفصول، نشر محمد الخطابي، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، ١٤٠٥هـ.
- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، نشر عبدالمجيد تركي في كتابه قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، ١٤٠٩هـ، دار الغرب الإسلامي. بيروت.

- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عنان، مجلدان، ط (١)، ١٤٠١هـ، مكتبة الخانجي. القاهرة.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين، ١٣٤٧هـ، المطبعة السلفية. القاهرة.

(٣٤) ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد:

- تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ٧ مجلدات، ط (١) ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية. بيروت، وطبعة دار الفكر. تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار.

(٣٥) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد:

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، مج (٣، ٤)، دار الثقافة. بيروت.

(٣٦) الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف:

- مفاتيح العلوم، تحقيق نهى النجار، ط (١)، ١٩٩٣م، دار الفكر اللبناني، بيروت.

(٣٧) أبو الخير الإشبيلي:

- عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، ق (٢)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

(٣٨) الدمشقي، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي:

- تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، جـ (٣)، ١٩٧٧م، دمشق.

(٣٩) الدمشقي: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي:

- رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط (١٩)، ١٤١١هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت.

(٤٠) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان:

- سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد ومحيي هلال، جـ (٢١، ٢٢، ٢٣)، ط الأولى، مؤسسة الرسالة. بيروت.
- دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل ومحمود الأرناؤوط، جـ (٢)، ط (١)، ١٩٩٢م، دار صادر. بيروت.

(٤١) ابن رزين التجيبي:

- فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، ط (٢) ١٩٨٤م، دار الغرب الإسلامي. بيروت.

(٤٢) الرشاطي، أبو محمد وابن الخراط الإشبيلي:

- الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق إيميليو مولينا وخاثينوبوسك، ١٩٩٠م، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية. مدريد.

(٤٣) ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم:

- صلة الصلة، تحقيق عبدالسلام الهراس وسعيد أعراب، ق (٣)، ١٤١٣هـ، ق (٤) ١٤١٤هـ، ق (٥) ١٤١٦هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

(٤٤) ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي:

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق محمد الهاشمي، جـ (٢)، ١٣٥٥هـ، المطبعة الوطنية. الرباط.

(٤٥) الزهري: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر:

- الجغرافيا، تحقيق محمد حاج، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.

(٤٦) الزياني، أبو القاسم:

- الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق عبدالكريم الفيلالي، ١٣٨٧هـ.

(٤٧) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن:

- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ترجمة صالح العلي، ط (١) ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ (١، ٦، ٩، ١٠)، ١٣٥٣هـ، ١٣٥٤هـ، ١٣٥٥هـ، مكتبة المقدسي. القاهرة.

(٤٨) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى:

- الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط (١)، ١٩٧٠م، المكتب التجاري. بيروت. ونشر تحت عنوان بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط، ١٩٥٨م، معهد مولاي الحسن. تطوان.

- المغرب في حلى المغرب، جزآن، تحقيق شوقي ضيف، ط (٣)، دار المعارف. القاهرة.

(٤٩) السقطي، أبو عبدالله محمد بن أبي محمد:

- في آداب الحسبة، تحقيق حسن الزين، مؤسسة دار الفكر. بيروت.

(٥٠) ابن السماك، أبو القاسم محمد بن أبي العلاء:

- الزهرات المنثور في نكت الأخبار المأثورة، تحقيق محمود مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مج (٢٠)، ١٩٧٩م-١٩٨٠م.

(٥١) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى:

- فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجفان، ط (٤)، ١٤٢١هـ، مكتبة العبيكان. الرياض.

(٥٢) ابن الشباط، محمد بن علي المصري:

- وصف الأندلس وصقلية من كتاب (صلة السمط وسمة المرط)، نشر أحمد العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج (١٤)، ١٩٦٧م.

(٥٣) ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبدالملك بن محمد الباجي:

- المن بالإمامة (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين)، تحقيق عبدالهادي التازي، ط (٣)، ١٩٨٧م، دار الغرب الإسلامي. بيروت.

(٥٤) الصريحي، محمد بن يوسف:

- ديوان ابن زمرك الغرناطي، تحقيق محمد توفيق، ط (١)، ١٩٩٧م، دار الغرب الإسلامي. بيروت.

(٥٥) الصفدي، صلاح الدين خليل:
- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرين، تقديم مازن عبدالقادر، جـ (٢)، ط الأولى، ١٤١٨هـ، دار الفكر المعاصر. بيروت.
(٥٦) الضبي، أحمد بن يحيى:
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق روحية السويفي، ط (١)، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية. بيروت.
(٥٧) طافور: (بيرو):
- رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر، ترجمه حسن حبشي، دار المعارف. مصر.
(٥٨) ابن عاصم الغرناطي، أبو يحيى محمد:
- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، ٣ أجزاء، تحقيق صلاح جرار، ١٤١٠هـ، دار البشير. عمان.
(٥٩) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد:
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (٤) أجزاء، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، ط (٣)، ١٩٨٣م، الدار العربية للكتاب وقسم الموحدين، تحقيق محمد الكتاني وغيره، ط (١)، ١٤٠٦هـ، دار الثقافة. الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي. بيروت.
(٦٠) ابن عسكر وابن خميس، أبو عبدالله محمد بن علي الغساني، وأبو بكر محمد بن محمد:
- أعلام مالقة (مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار)، تحقيق عبدالله الترغي، ط (١)، ١٤٢٠هـ، دار الغرب الإسلامي. بيروت.
(٦١) ابن عمر، يحيى الأندلسي:
- أحكام السوق، نشر محمود مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مج٤، ١٩٥٦م. مدريد.

(٦٢) ابن غالب، الحافظ محمد بن أيوب:

- قطعة من كتاب فرحة الأنفس، نشر لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج (١)، جـ (٢)، ١٣٧٥هـ.

(٦٣) ابن غالب، أبو عبدالله محمد البلنسي:

- ديوان الرصافي البلنسي، تحقيق إحسان عباس، ط (٢)، ١٤٠٣هـ، دار الشروق. بيروت.

(٦٤) الغنبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد:

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار وعادل نويهض، الشركة الوطنية. الجزائر، ولجنة التأليف. بيروت.

(٦٥) الفاسي، حسن الوزان:

- وصف أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط (٢)، دار الغرب الإسلامي. بيروت.

(٦٦) ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد الأزدي:

- تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية السويفي، ط (١)، ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية. بيروت.

(٦٧) ابن فركون، أبو الحسين بن أحمد:

- ديوان ابن فركون، تحقيق ابن شريفة، ط (١)، ١٤٠٧هـ، أكاديمية المملكة المغربية.

(٦٨) الفيروز آبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب:

- القاموس المحيط، جزآن، تقديم محمد عبدالرحمن، ط (١)، ١٤١٧هـ، دار إحياء التراث الإسلامي. بيروت.

(٦٩) القاضي عياض:

- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، ط (١)، ١٩٩٠م، دار الغرب الإسلامي. بيروت.

(٧٠) القاضي محمد أبو عبدالله:
- التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب.
(٧١) ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي الكتامي:
- نظم الجمان، تحقيق محمود مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، تطوان، ١٩٦٥م.
(٧٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد:
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ (٥، ١١)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة.
(٧٣) ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر:
- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبدالله الطباع، ط (١)، ١٤١٥هـ، مؤسسة المعارف. بيروت.
(٧٤) القيسي، عبدالكريم بن محمد:
- ديوان عبدالكريم القيسي، تحقيق جمعة شيخة ومحمد الهادي، ١٩٨٨م، نشر بيت الحكمة. تونس.
(٧٥) ابن الكردبوس، أبو مروان عبدالملك التوزري:
- تاريخ الأندلس، نشر أحمد العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج (١٣)، ١٩٦٥- ١٩٦٦م.
(٧٦) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد:
- الأحكام السلطانية، ط (١)، ١٩٦٠م، مطبعة الحلبي. القاهرة.
(٧٧) المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك:
- الذيل والتكملة، س. ف (١، ٢)، تحقيق محمد بن شريفة، ١٩٨٤م، طباعة أكاديمية المملكة لمغربية.
- السفر الرابع والسفر الخامس ق (١، ٢)، والسفر السادس، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة. بيروت.
- السفر الأول، ق (١، ٢)، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة. بيروت.

(٧٨) المراكشي، عبدالواحد بن علي:
- وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، ط (١)، ١٩٩٧م، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران، ط (١)، ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية. بيروت.
(٧٩) المقدسي، أبو عبدالله محمد الشامي:
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط. بيروت.
(٨٠) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني:
- أزهار الرياض في أخبار عياض، (١، ٣)، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، صندوق إحياء التراث المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مج (٨)، ١٩٩٧م، دار صادر. بيروت.
(٨١) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي:
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى، جـ (٢)، ق (٣)، ط الأولى، ١٩٥٨م، لجنة التأليف والترجمة. القاهرة.
(٨٢) المكناسي، أحمد بن القاضي:
- جذوة الاقتباس فيمن رحل من أعلام مدينة فاس، ق (٢)، ١٩٧٤م، دار المنصور. الرباط.
(٨٣) مؤلف مجهول:
- قصيدة رائعة في رثاء الأندلس، نشر عبدالرحمن حجي، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط. المغرب، عَ (٢٨)، س (١٠)، ١٤٠٤هـ.
- الطبيخ في المغرب والأندلس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج (٩، ١٠)، ١٩٦١ - ١٩٦٢م.

- آخر أيام غرناطة (نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر)، تحقيق محمد رضوان، ط (١)، ١٤٠٤هـ، دار حسان: دمشق.
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، ط (١)، ١٣٩٩هـ، دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء.
- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة.
- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، نشر محمود مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج (٧، ٨)، ١٩٥٩- ١٩٦٠م.

(٨٤) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد:
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ (٢، ٣)، دار الكتاب. الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

(٨٥) النباهي، أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد الجذامي المالقي:
- تاريخ قضاة الأندلس الكتاب المسمى (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق مريم قاسم، ط (١)، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية. بيروت.

(٨٦) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب:
- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق أحمد كمال، مراجعة محمد مصطفى، ١٩٨٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٨٧) الهندي، علاء الدين علي بن حسام:
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط الشيخ بكري والشيخ صفوت السقا، ١٨ جزء، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت.

(٨٨) الوادي آشي، أبو جعفر أحمد البلوي:
- ثبت أبي جعفر الوادي آشي، تحقيق عبدالله العمراني، ط (١)، ١٤٠٣هـ، دار الغرب الإسلامي. بيروت.

(٨٩) ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر:
- تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في أخبار البشر)، تحقيق أحمد البدراوي، جـ (٢)، ط (١)، ١٣٨٩هـ، دار المعرفة. بيروت.
(٩٠) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى:
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠١هـ، الأجزاء (٢، ٣، ٥، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١٢).
(٩١) ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله الرومي:
- معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، جـ (٣، ٥)، دار الكتب العلمية. بيروت.
(٩٢) يوسف الثالث:
- ديوان ملك غرناطة، تحقيق عبدالله كنون، ط (٢)، ١٩٦٥م، مكتبة الإنجلو المصرية. القاهرة.

المراجع

(٩٣) أحمد تيمور باشا:

- المهندسون في العصر الإسلامي، دار نهضة مصر. القاهرة.

(٩٤) أحمد الطوخي:

- مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، ١٩٩٧م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.

(٩٥) أحمد هيكل:

- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط (١٠)، ١٩٨٦م، نشر دار المعارف. القاهرة.

(٩٦) إميليو غرسيه:

- الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة حسين مؤنس، ط (٣)، ١٩٦٩م، مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

(٩٧) أمين معلوف:

- معجم الحيوان، ط (٣)، ١٤٠٥هـ، دار الرائد العربي. بيروت.

(٩٨) آنخل جنثالث:

- تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الأسبانية حسين مؤنس، ١٩٥٥م، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.

(٩٩) الأوسي:

- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الخانجي. القاهرة.

(١٠٠) أوليفيا ريمي:

- التجارة والتجار في الأندلس، تعريب فيصل عبدالله، ١٤٢٣هـ، مكتبة العبيكان. الرياض.

(١٠١) ابن باز، عبدالعزيز بن عبدالله.
- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، جمع وترتيب محمد الشويعر، ط (١)، ١٤٢١هـ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض.
(١٠٢) البتنوني:
- رحلة الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.
(١٠٣) توريس بالباس:
- المدن الأسبانية الإسلامية، ترجمة إليو دورودي لابنيا، ط (١)، ١٤٢٣هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض.
- الفن المرابطي والموحدي، ترجمة سيد غازي، ١٩٧١م، در المعارف. مصر.
- الأبنية الأسبانية الإسلامية، تعريب عليه العناني، مجلة المعهد المصري للدراسات، عَ (١)، س (١٠)، ١٣٧٢هـ.
(١٠٤) جان وجيروم طاروا:
- أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين، ترجمة أحمد بلا فريج ومحمد الفاسي، ١٩٤٩م، المطبعة الوطنية.
(١٠٥) حسن إبراهيم:
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط (١٤)، ١٤١٦هـ، دار الجيل. بيروت.
(١٠٦) حسن أحمد محمود:
- قيام دولة المرابطين، ١٩٦٥م، الفكر العربي. القاهرة.
(١٠٧) حسن علي حسن:
- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ط (١)، ١٩٨٠م، مكتبة الخانجي. القاهرة.
(١٠٨) حسين مؤنس:
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط (٢)، ١٤٠٦هـ، مكتبة مدبولي.

- أطلس تاريخ الإسلام، ط (١)، ١٤٠٧هـ، الزهراء للإعلام العربي.
- موسوعة تاريخ الأندلس، جزآن، ط (١)، ١٤١٦هـ، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.
- رحلة الأندلسيين (الفردوس الموعود)، ط (٣)، ١٤٠٨هـ، الدار السعودية.
- تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط (٢)، ١٤١٣هـ، الدار المصرية اللبنانية. القاهرة.
- فجر الأندلس، الدار السعودية، جدة، ط (٢)، ١٤٠٥هـ.
- عالم الإسلام، دار المعارف. مصر.

(١٠٩) الخطابي:

- تنقيح الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ط (١)، ١٩٩٠م، دار الغرب الإسلامي. بيروت.
- الطب والأطباء في الأندلس، جزآن، ط (١) (١٩٨٨م)، در الغرب الإسلامي. بيروت.

(١١٠) خوان فيرنيث:

- فضل الأندلس على ثقافة الغرب، نقله عن الأسبانية نهاد رضا، قدم له فاضل السباعي. دار إشبيلية، دمشق.

(١١١) ديماند:

- الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد عيسى، تقديم أحمد فكري، ط (٣)، ١٩٨٢م، دار المعارف. القاهرة.

(١١٢) رجب محمد:

- دولة بني حمود في مالقة بالأندلس، رسالة ماجستير، إشراف أحمد السيد دراج، ١٩٧٦م، القاهرة.

(١١٣) زكي محمد حسن:

- فنون الإسلام، دار الفكر العربي.

(١١٤) سحر عبدالعزيز:
- بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، جزآن، ١٩٩٧م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
(١١٥) سعد البشري:
- الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، رسالة ماجستير، إشراف أحمد دراج، جامعة أم القرى، ١٤٠١هـ-١٤٠٢هـ.
- الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ط (١)، ١٤١٤هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض.
(١١٦) ابن شريفة:
- تراجم مغربية من مصادر مشرقية، ط (١)، ١٤١٧هـ، مطبعة النجاح. الدار البيضاء.
- البسطي آخر شعراء الأندلس، ط (١)، ١٩٨٥م. دار الغرب الإسلامي. بيروت.
(١١٧) شكيب أرسلان:
- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، (٣) أجزاء، دار مكتبة الحياة. بيروت.
- خلاصة تاريخ الأندلس، ١٤٠٣هـ، دار مكتبة الحياة. بيروت.
(١١٨) ضياء باشا:
- الأندلس الذاهبة، تحقيق صلاح ارشيدات وتعريب عبدالرحمن ارشيدات، ٣ أجزاء، ١٩٨٩م، عمان.
(١١٩) العبادي:
- صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، ط (١)، ٢٠٠٠م، مطبعة سامي، منشأة المعارف. الإسكندرية.
- في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة. بيروت.

- مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، ١٩٨٣م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.

(١٢٠) العبادي وعبد العزيز سالم:

- تاريخ البحرية الإسلامية، ١٩٦٩م، دار النهضة العربية. بيروت.

(١٢١) عبدالعزيز سالم:

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، ١٩٩٧م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ١٩٨٥م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
- تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ١٩٨٤م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
- العمارة المدنية والحربية في الأندلس، دائرة معارف الشعب (٦١، ٦٤)، ط (١٩٥٩م).

(١٢٢) عبدالعزيز المسند:

- الأندلس تاريخ وعبرة.

(١٢٣) عبدالقادر زمامة:

- أبو الوليد بن الأحمر، ١٣٩٩هـ، مطبوعات دار المغرب. الدار البيضاء.

(١٢٤) عبدالله التركي وفتحي محمد:

- بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، كلية الآداب. جامعة الإسكندرية، ١٤١٤هـ، دار المعرفة الجامعية.

(١٢٥) عبدالله الزيدان وآخرون:

- السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ق (٣)، الحضارة والعمارة والفنون، مطبوعات مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٧هـ، الرياض.

(١٢٦) عبدالنبي محمد:
- مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقيا والأندلس، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبدالعزيز. جدة، إشراف عبدالرحمن فهمي.
(١٢٧) عبده محمد عواجي:
- الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس، رسالة ماجستير، إشراف سعد البشري، ١٤١٠هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود. الرياض.
(١٢٨) عز الدين موسى:
- النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط (١)، ١٤٠٣هـ، دار الشروق. بيروت.
- الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ط (١)، ١٤١١هـ، دار الغرب الإسلامي. بيروت.
(١٢٩) عصمت دندش:
- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ط (١)، ١٤٠٨هـ، دار الغرب الإسلامي. بيروت.
(١٣٠) علي أحمد:
- الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط (١)، ١٩٨٩م، دار طلاس للدراسات. دمشق.
(١٣١) عمر رضا كحالة:
- العلوم البحتة في العصور الإسلامية، ١٣٩٢هـ، مطبعة الترقي. دمشق.
(١٣٢) فون شاك:
- الفن العربي في أسبانيا وصقلية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف. مصر.

(١٣٣) القاسمي:
- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ٢٠٠٠م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
(١٣٤) كمال السيد:
- مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف (القرن الخامس الهجري) دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، ١٩٩٣م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
- تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب، مكتبة ومطبعة الإشعاع.
- الأحباس في الأندلس فيما بين القرن الرابع والتاسع للهجرة (بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي)، ١٩٩٣م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
(١٣٥) لويس سيكودي لوثينا:
- الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة عدنان آل طعمة، ط (١)، ١٩٩٢م، دار سعد الدين. دمشق.
(١٣٦) ليفي بروفنسال:
- حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة. بيروت.
- الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة محمود عبدالعزيز ومحمد حلمي، راجعه لطفي عبدالبديع، ١٩٩٠م، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.
- سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة عبدالهادي شعيرة، مراجعة عبدالحميد العبادي، ١٩٥١م، المطبعة الأميرية. القاهرة.
- تاريخ أسبانيا الإسلامية، ٣ أجزاء، ١٩٧٦م. باريس (بحث مترجم).
(١٣٧) مانويل جوميث:
- الفن الإسلامي في أسبانيا، ترجمة لطفي عبدالبديع وعبدالعزيز سالم، مراجعة جمال محرز، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.

(١٣٨) محمد عبدالعزيز مرزوق:
- الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة. بيروت.
(١٣٩) محمد العمروسي:
- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ١٩٨٢م، دار الغرب الإسلامي. بيروت.
(١٤٠) محمد عنان:
- دولة الإسلام في الأندلس والآثار الباقية في أسبانيا والبرتغال، ع (٤)، ط (٢، ٤)، ١٤١١هـ، ١٤١٧هـ، مكتبة الخانجي. القاهرة.
(١٤١) محمد كمال شبانة:
- يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة، ط (١)، ١٩٦٩م، لجنة البيان العربي.
(١٤٢) محمد ماهر:
- المكتبات في الإسلام، ط (٧)، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة. بيروت.
(١٤٣) محمود مقديش:
- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، مجلدان، دار الغرب الإسلامي. بيروت.
(١٤٤) منى حسن محمود:
- العلاقات بين دولة الفرنجة والمسلمين في الأندلس، رسالة ماجستير، إشراف محمد جمال الدين، ١٤٠٠هـ، جامعة القاهرة.
(١٤٥) المهدي الوزاني:
الجامع المقرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب، ٨ أجزاء، ١٤١٨هـ، مطبعة فضالة، المغرب.
(١٤٦) ميلودة الحسناوي:
- صفحات غامضة من تاريخ غرناطة النصرية في القرن التاسع الهجري، التراث المغربي والأندلسي التوثيق والقراءة، ١٩٩١م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. تطوان.

(١٤٧) النبراوي:
- النقود الإسلامية منذ القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مكتبة زهراء الشرق. القاهرة.
(١٤٨) نسيبة ووالدها محمد الحريري:
- المقاييس والمقادير عند العرب، ٢٠٠٢م، دار الفضيلة. القاهرة.
(١٤٩) يوسف أشباخ:
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عنان، ط (٢)، مطبعة لجنة التأليف، مؤسسة الخانجي. القاهرة.
(١٥٠) يوسف فرحات:
- غرناطة في ظل بني الأحمر، ط (١)، ١٤١٣هـ، دار الجيل. بيروت.
(١٥١) Guillen Robles: Malaga Musulmana, Tomo 2,1880 Oliver Navarro.

الدوريات والحوليات

(١٥٢) أحمد السايح:
- المسلمون والتجارة، مجلة الخفجي، عَ (٣)، س (٩)، ١٩٧٩م، إصدار شركة الزيت العربية. الكويت.
- المسلمون والزراعة، مجلة الخفجي، عَ (١)، ١٩٧٨م، س (٨)، إصدار شركة الزيت العربية المحددة. الكويت.

(١٥٣) حسين مؤنس:
- غارات النورمانيين على الأندلس، المجلة التاريخية المصرية، إصدار الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، المغرب، مج (٢)، عَ (١)، (١٩٤٩م).

(١٥٤) حمدية السباعي:
- منافع الحشرات، مجلة العلوم والتقنية، الرياض، س (١٥)، عَ (٥٧)، ١٤٢٢هـ.

(١٥٥) ربحي عليان:
- صناعة الورق وحركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة المغاربة، ٢٠٠١م، جامعة منوبة. تونس، جـ (١١).

(١٥٦) رمضان محمد وجمال علي:
- نحل العسل ثروة قومية، مجلة العلوم والتقنية، س (١٥)، عَ (٥٧)، ١٤٢٢هـ.

(١٥٧) سعد زغلول:
- الحياة الدينية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، ١٩٨٠م، مج (١١)، عَ (١). الكويت.

(١٥٨) سعيد عبدالفتاح:
- الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، ١٩٨٠م، ع (١١)، عَ (١). الكويت.

(١٥٩) طه الحاجري:
- الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج (١٢)، ١٩٦٥م.
(١٦٠) عادل محمد:
- علم النبات في الأندلس، مجلة المورد، مج (١٧)، عَ (٢)، ١٩٨٨م، إصدار وزارة الثقافة والإعلام. بغداد.
(١٦١) العبادي:
- الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج (١٥)، ١٩٧٠م.
- الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، ١٩٨٠م، مج (١١)، عَ (١١). الكويت.
(١٦٢) عبدالعزيز الأهواني:
- ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج (٣)، جـ (١)، ١٣٧٦هـ.
(١٦٣) عبدالغني الشال:
- الفخار الشعبي في مصر، مجلة عالم الفكر، مج (٦)، عَ (٤)، ١٩٧٦م.
(١٦٤) الفاسي:
- الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البينة، ١٩٦٢م.
- الألفاظ المغربية العامية، مجلة المناهل، إصدار وزارة الدولة، الرباط، عَ (١٦)، س (٦)، ١٤٠٠هـ.
(١٦٥) فاضل السباعي:
- مسابقة شعرية في الأندلس (القرن السادس الهجري)، مجلة التراث العربي، س (١٠)، ١٤١٠هـ-١٤١١هـ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عَ (٣٩، ٤٠).

(١٦٦) الكحلاوي:
- مراكز صناعة الحرير في الأندلس، مجلة كلية الآثار، ع (٤)، ١٩٩٠م، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي.
(١٦٧) محمد الخطابي:
- معجم أندلسي من القرن السادس الهجري، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، عَ (٥)، ١٤٠٩هـ.
(١٦٨) محمد عبدالستار:
- المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، ١٩٨٠م، مج (١١)، عَ (١). الكويت.
(١٦٩) محمد عبدالعزيز:
- البحرية العربية في الأندلس، مجلة المورد، مج (١٢)، عَ (٤)، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٣م.
(١٧٠) محمد عنان:
- رواية مصرية عن المغرب والأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج (١٥)، ١٩٧٠م.
- وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، وزارة المعارف، مصر، مج (٢)، عَ (١، ٢).
(١٧١) محمد كمال شبانه:
- الحالة الاقتصادية بالأندلس خلال القرن الثامن الهجري، مجلة البحث العلمي، الرباط، عَ (٨)، ١٩٩٦م.
(١٧٢) محمود عبدالعزيز:
- التخطيط ومظاهر العمران في العصور الإسلامية الوسطى، المجلة لأجل الثقافة الرفيعة، ١٩٥٧م، عَ (٩).

(١٧٣) المغراوي:

- تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة لابن الخطيب، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة (١٤٠) الحولية العشرون، ١٤٢٠هـ-١٤٢١هـ، الكويت.

(١٧٤) هشام فوزي:

- يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، مجلة دراسات أندلسية، ١٤١٦هـ/١٩٩٧م، مطبعة المغاربية، ع (١٥).

مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية